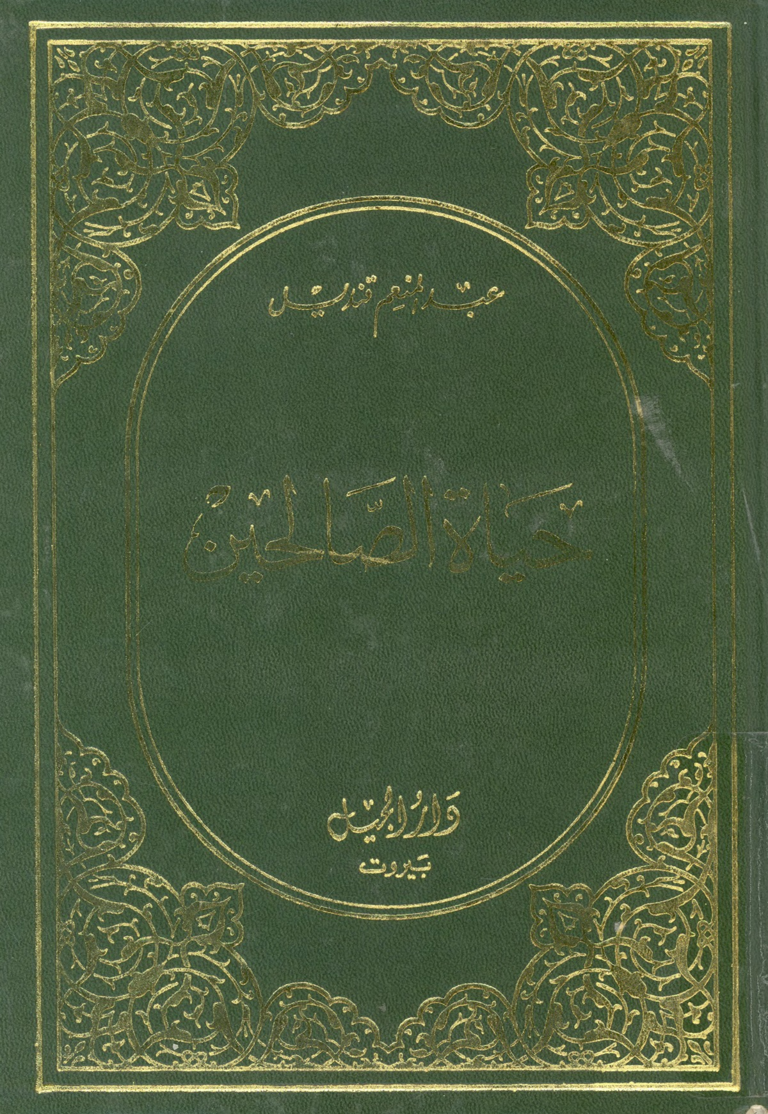
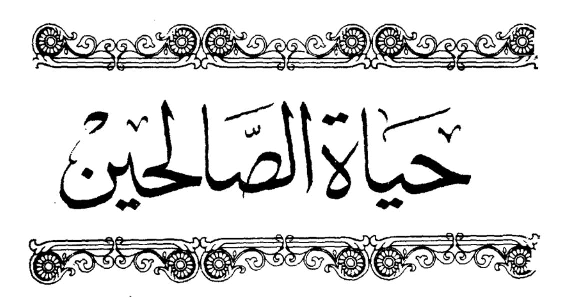

عبد المنعم قنديل
حياة الصالحين
دار الجيل
بيروت





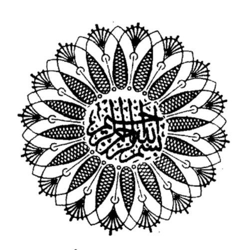
حياة الصالحين

عبد المنعم قنديل



حياة الصالحين





ليس هذا كتاب تاريخ ، بقدر ما هو أضواء ناصعة على التاريخ .. فهو يقدم المواقف الجليلة الباهرة فى حياة طائفة من الشخصيات الإسلامية .. بعضها أخذ حظه من الإعلام ، والبعض مر عليه المؤرخون مرورا عابراً .. بالرغم من أن له دورا مهما وخطيرا ، سواء فى بناء الدولة ، أو فى السلوك الرفيع للمؤمن العابد .. ومن ثم وجدت إنصافا لتاريخ كثير من الشخصيات التى أثرت حياتنا الإسلامية عبر العصور ، سواء بالجهاد فى ميدان القتال ، أو بالكلمة فى ميدان الدعوة ، أو بالسلوك فى محراب العبادة .. أن أؤدى واجب الوفاء نحوهم .. مزجيا أهم خصائصهم ومزاياهم .. فكتابة التاريخ أمانة فى عنق الكاتب.. ومن منطلق العقيدة أقدمت على حمل هذه الأمانة .. مراقبا الله فى كل كلمة أخطها .. بل فى كل حرف أكتبه .

ولكى أكون أمينا مع القارىء .. وصادقا مع تاريخ الشخصية التى أكتب عنها .. فقد عايشت معظم المراجع التاريخية المعتمدة .. معايشة فحص وتمعن .. أنقب عن خبر هنا وحكاية هناك .. حتى أستوفى كل ما وعته هذه المراجع .. ثم أبلور أخبارها وحكاياتها فى مقال مركز تركيزا دقيقا أمينا .. ليس فيه بسطة تمل القارىء .. ولا ضيق يخل بالتاريخ .. وإنما أضع سيرة حياة الشخصية فى إطار من الأمانة التاريخية .. يعطيها حقها من الإنصاف .. ويحفها بهالة من الصدق .. وبهذا أقدم للقارىء نماذج مضيئة من أسلافنا .. وما كانوا عليه من عظمة وجلال .. وكيف كانوا

يستمدون أفعالهم من قيم الإسلام .. ويرتكزون فى تصرفاتهم على مبادىء الدين الحنيف .. وبهذا سادوا الدنيا .. وفتحوا البلدان ..

وسوف يرى القارىء فى هذا الكتاب كيف كان المسلمون الأوائل يقيمون حياتهم على الحب والأخوة والإيثار والرحمة .. فهم ملائكة فى محراب العبادة .. وفرسان فى ساحات القتال .. يجاهدون النفس بالصيام والصلاة .. ويجاهدون العدو بالسلاح والعزيمة .. جمعوا بين مقاومة شهواتهم . ومقاومة أعدائهم فى الوقت نفسه .. سيان الشيوخ منهم والشباب ..

ففى الكتاب نماذج من الشباب المسلم الذى أحب الله ورسوله أشد من حبه لنفسه وأهله .. وقدم روحه ودمه تحت راية الله .. مؤثرا الآخرة على الدنيا . . ورضوان الله على زينة الحياة ومتاعها . . وفى الكتاب كذلك شيوخ بلغوا من الكبر عتيا . . ومع ذلك لم تمنعهم شيخوختهم من أن يصوموا النهار ويقوموا الليل . ويلبوا نداء الجهاد . .

ولذلك فإن هذا الكتاب ينصف تاريخ الشباب .. كما ينصف تاريخ الشيوخ .. وهو ليس مقصورا على عهد الرسول . وعهد خلفائه الراشدين المهديين .. وإنما هو ممتد فى أعماق التاريخ .. يبحث عن حامل السلاح والراية فى الميدان .. كما يبحث عن حامل المصحف فى المحراب .. ويستقصى سيرة حياة كل منهما فى صدق وأمانة وإنصاف .. فإذا وجدت هذه الشخصيات .. وهى فى البرزخ الآن .. وتطل علينا من شرفات الخلود والأبدية .. أننى لم أقدرها حق قدرها . أو أنصفها غاية الإنصاف .. فإننى أعتذر إليها .. بأننى لم أقصر تجاهها .. ولم أكتف بالنظرة العجلى لتاريخها . . وإنما بذلت أقصى ما يبذله مسلم مجتهد .. يضع تاريخ أمته فى سماء عقيدته وإيمانه .. فإن أخطأ فله أجر .. وإن أصاب فله أجران ..

ولعلى بهذا الجزء الأول من هذه السلسلة .. أكون قد أزجيت لتاريخنا عملا متواضعا فى حدود جهدى وطاقتى ووسعى .. فقد ألفيت من خلال

عكوفى على مراجع التاريخ ، واختلاف الروايات عند المؤلف الواحد ، أن هذا التاريخ بحاجة إلى تنقيته من الشوائب .. وإخراجه فى صورة جديدة تزيل ما علق به من الهنات الهينات التى وقع فيها المؤرخون ..

ولا يسعنى إلا أن أخفض قلمى تحية لكل شخصية قدمتها فى هذا الكتاب .. فقد أتيحت لى فرصة غالية أن أواكب التاريخ الإسلامى مع أبطاله وعظمائه .. وأن أتملى سلوكهم المثالى الرشيد ، وهم يستضيئون بالقرآن ، ويستنيرون بالسنة ، ويستهدون بالقيم والمثل والأخلاق التى نادى بها الإسلام .. وما أحوجنا إلى أن نترسم خطاهم .. ونتلمس طريقهم .. ونسير على هداهم .. فقد حملوا أمانة هذا الدين ، وأدوها أفضل أداء ..

المؤلف

كوكبين دريين .. لا يكاد يمر يوم دون أن يعرب النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه عن حبه لحفيديه .. وكان الإمام الحسن أكثر شبها برسول الله فى ملامحه .. حدث ذات يوم أن كان أبو بكر وعلى خارجين من المسجد بعد الصلاة .. وإذا بهما يريان الحسن يلعب .. فحمله أبو بكر وداعبه .. ثم قال له : بأبى شبيه بالنبى .. وليس شبيها بعلى .. والإمام على يضحك ..

وعن حب النبى صلى الله عليه وسلم للإمامين الحسن والحسين .. يقول أبو هريرة رضى الله عنه : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ومعه حفيداه الحسن والحسين .. هذا على عاتقه .. وهذا على عاتقه .. وهو يلثم هذا مرة .. وهذا مرة .. حتى انتهى إلينا .. فقال : من أحبهما فقد أحبنى .. ومن أبغضهما فقد أبغضنى .. والأحاديث الواردة فى حب الإمامين الحسن والحسين تفيض بها السيرة النبوية الشريفة ..

وبالنسبة للإمام الحسن .. فقد أنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بأنه سيصلح بين فئتين من المسلمين .. ثم تحققت هذه النبوءة بعد ذلك بسنوات .. أى بعد انتقال المعصوم صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى .. وكان ذلك بالتحديد بعد استشهاد الإمام على كرم الله وجهه .. إذ أقبل أهل العراق على مبايعة الإمام الحسن . . مؤمنين بأنه أحق بالخلافة . . وفى الوقت نفسه أقبل أهل الشام على مبايعة معاوية . . وكان لا مناص من قيام حرب جديدة بين العراق والشام .. وهنا برزت فطنة الإمام الحسن .. فقد فكر وقدر .. واستعرض فى مخيلته ما حدث فى معركة صفين .. وتخايلت أمام عينيه صور القتلى والدماء والأشلاء .. ومشاهد اليتم والترمل .. وما تجره الحرب من مآس وويلات .. وخشى الإمام الحسن من تجدد المعارك وإراقة دماء المسلمين ..

وبينا هو يفكر فى مخرج من هذا المأزق .. إذا برسالة من معاوية

تصل إليه . وفيها يعرض عليه داهية بنى أمية الصلح .. بشرط أن ينزل له الإمام الحسن عن الخلافة .. وتؤول إليه بعد موت معاوية .. إذا كان حيا ..

ولما قرأ الإمام الحسن الرسالة .. بعث إلى أخيه الحسين فى المدينة يقنعه بالصلح .. كما جمع رءوس أهل العراق فى قصر المدائن بالعراق .. وقال لهم : إنكم قد بايعتمونى على أن تسالموا من سالمت .. وتحاربوا من حاربت .. إنى قد بايعت معاوية فاسمعوا له .

تقبل أهل العراق هذا الوضع على مضض .. كما تقبله الإمام الحسين على مضض أيضا .. لأن الجميع كانوا يريدون أن تظل الخلافة فى بيت النبوة .. وألا تؤول إلى بنى أمية .. ولكن وجهة نظر الإمام الحسن كانت تتركز فى منع نزيف الدم بين المسلمين .. وكفى ما حدث فى معركة صفين ..

بيد أن معاوية لم يكن يريد الوفاء بوعده .. لأنه ما كاد يستتب له الأمر حتى راح يمهد لأخذ البيعة لابنه يزيد .. ولأنه داهية بعيد الغور .. فلم يفصح فى البداية عن رغبته . وإنما أخذ يكون رأيا عاما بالتدريج .. وكان كل من يسمع من أصحاب رسول الله بهذا الاتجاه .. يغلى الغضب فى عروقه .. لأن الخلافة ستتحول إلى ملك عضوض، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وعلى الرغم من أن الإمام الحسن حافظ على دماء المسلمين .. ورفض تجديد المعارك .. ونزل عن البيعة لمعاوية .. فإن المؤامرات كانت تحاك للقضاء عليه .. والتخلص منه .. فقد سقى السم مرارا .. ولكنه كان يعالج

من أثر السم .. إلا أن المتآمرين لم يكفوا عن محاولاتهم .. فقد دس له سم زعاف فى الطعام .. مالبث بعده أن أحس بما يشبه وخز السكاكين فى بطنه .. وفى غمرة آلامه يسأله أخوه الإمام الحسين عمن دس له السم .. فيرفض أن يجيب .. ثم صعدت روحه الطاهرة إلى أعلى عليين ..

وفى مشهد اشترك فيه أهل المدينة المنورة جميعا سنة خمسين هجرية – على أرجح الأقوال – .. تم دفن جثمانه الطاهر بالبقيع .. وكانت تفوح منه رائحة كرائحة المسك .. كأنما طيبته الملائكة بعبير الجنة .

رحم الله الإمامين الحسن والحسين .. فقد قال عنهما الرسول الكريم : إنهما سيدا شباب أهل الجنة ..

* * *

الإمام الحسين

سيد شباب أهل الجنة

منذ اللحظة الأولى لمولده رضوان الله عليه ، والسماء حفية به ، والدنيا من حوله تتألق بالطهر . . وتفيض بالرحمة . . وتتضوع بعبير الملائكة . . فجده المصطفى صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن ابنته فاطمة الزهراء رزقها الله بمولود . . سارع إلى بيتها الطاهر . . ووجهه يتلألأ كالبدر . . وكانت هذه عادته حين يتلقى نبأ ساراً . . ثم انحنى على الطفل الوضيء . . وأذن فى أذنه .. كما يؤذن للصلاة وكانت هذه أول كلمات يسمعها الإمام الحسين بعد مجيئه إلى الدنيا بلحظات فى يوم الخامس من شعبان للسنة الرابعة من الهجرة .. وقبل أن يبرح الرسول بيت الزهراء أطلق على المولود اسم « الحسين » . . ولم يكن اسما معروفاً عند العرب . .

ترعرع الحسين فى بيت أبيه بالمدينة المنورة .. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبه هو وشقيقه حبا جما .. يصف هذا الحب النبوى العظيم أسامة بن زيد فى واقعة رآها بعينيه .. يقول أسامة :

طرقت باب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة .. فخرج عليه الصلاة والسلام .. وهو مشتمل على شيء لا أدرى ما هو ..

فلما أفضيت للرسول بالأمر الذى أريده .. سألته : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه . فكشفه .. فإذا الحسن والحسين على وركيه .. وقال : « هذان ابناى وابنا ابنتى .. اللهم إنى أحبهما .. فأحبهما وأحب من يحبهما » ..

وكان الحسن والحسين إذا أقبلا على جدهما العظيم صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه .. يحتضنهما بحنان ويقبل كلا منهما .. ثم يجلسهما على فخذيه .. ويقول لمن حوله من أصحابه رضوان الله عليهم .. إنهما سيدا شباب أهل الجنة .. ومن الكلمات النيرة التى قالها الرسول فى الحسين . وهى تشع حبا وحنانا .. « حسين منى .. وأنا من حسين .. أحب الله من أحب حسينا .. حسين سبط من الأسباط .. » .

نما الحسين رضوان الله عليه فى أطهر وأكرم وأنقى بيئة عرفتها الإنسانية .. فجده المصطفى صلى الله عليه وسلم .. سيد الخلق على الإطلاق .. وأبوه على بن أبى طالب .. كرم الله وجهه .. قمة سامقة فى البذل والتضحية والفروسية والولاء لله ورسوله .. وأمه فاطمة الزهراء أفضل نساء عصرها .. وكفاها أنها بنت الرسول .. وزوجة إمام المجاهدين .. وأم سيدى شباب أهل الجنة ..

فى هذه البيئة المضمخة بعطر النبوة .. والمشعشعة بنور الوحى .. والزاخرة بأحاديث الجهاد .. أمضى الحسين طفولته الأولى .. ما بين بيت أبيه كرم الله وجهه .. وبين بيت جده المصطفى صلى الله عليه وسلم .. حتى إذا بلغ من العمر ست سنوات .. وسبعة أشهر .. وسبعة أيام .. انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .. وشهد الحسين رضوان الله عليه .. كيف ماجت المدينة المنورة بالحزن .. وكيف أصيب المسلمون بأسى شديد أفقد بعضهم صوابه .. حتى إن رجلا ألمعيا رصينا كابن الخطاب تغشاه غاشية من الذهول .. فيصيح فى الناس : من يقل إن محمدا مات قتلته بسيفى هذا ..

شهد الحسين هذا كله .. ثم سمع أباه والمسلمين وهم يتحدثون عن معارك الردة .. وظل يعايش الأحداث بوجدانه الغض النضير .. وعندما

بلغ مرحلة الشباب .. انضم لصفوف المجاهدين .. واشترك مع أبيه فى موقعتى الجمل وصفين وقتال الخوارج .. وكان والده كرم الله وجهه شفاف البصيرة يلهمه الله أمورا لاتزال فى ضمير الغيب .. فعندما خرج من المدينة إلى الكوفة ووصل إلى كربلاء .. ألقى على أرضها نظرة آسية حزينة .. وقال : هنا محط رحالهم .. وهنا مهراق دمائهم ..

ولكن لم يفهم أحد ممن حوله مغزى هذه العبارة المجهشة الباكية .. ومرت سنوات .. وقعت فيها على خريطة العالم الإسلامى أحداث دامية .. وصراعات على السلطة .. وتحولت الخلافة إلى ملك عضوض .. كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذ أخذ معاوية البيعة عنوة لابنه يزيد .. ولولا حصافة الحسين وحكمته لسالت دماء المسلمين أنهارا .. فقد كان موقفه مانعا لنشوب حرب بين مؤيدى البيعة ومعارضيها .. ولكن الثورة ظلت كامنة فى النفوس لم تظهر إلا بعد موت معاوية . . فقد بعث أشراف الكوفة إلى الحسين برسائل يطلبون إليه فيها الحضور لمبايعته .. وأخذ الحسين الأمر بحذر . فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل .. ولكن مالبث عبيد الله بن زياد والى البصرة أن دبر لاغتيال مسلم ، وكان ذلك فى اليوم التاسع من ذى الحجة سنة ٦٠ هجرية ..

وقع حادث اغتيال مسلم قبل خروج الحسين من مكة إلى الكوفة بيوم واحد .. ولذلك فإن الحسين لم يعلم بمقتل ابن عمه إلا عند وصوله إلى القادسية ، فآثر الرجوع إلى مكة ، ولكن إخوة مسلم أصروا على المضى ليأخذوا بثأر أخيهم .. وكان الحسين فى تسعين من أهله وأنصاره ما بين رجل وامرأة وطفل ..

ومرت الأحداث سراعا .. إذ قتل الرجلان اللذان بعث بهما الحسين ، إلى أهل الكوفة يذكرانهم برسائلهم إليه ودعوتهم له لمبايعته . . قتل الرجلان على يد عبيد الله بن زياد . . ثم تفاقمت الأمور حتى انتهت إلى مذبحة كربلاء التى جذت فيها رؤوس أهل البيت . وحملت على

الرماح إلى عبيد الله بن زياد ، ثم إلى يزيد فى دمشق .. وكان مقتل الحسين على يد اللعين شمر بن ذى الجوشن الذى باء بغضب من الله وملائكته والمسلمين أجمعين ..

ظل الرأس الشريف ينقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى عسقلان .. وهناك دفنه أميرها .. ولما استولى عليها الإفرنج فى الحروب الصليبية .. دفع صالح طلائع بن رزيك ثلاثين ألف درهم لقاء نقله إلى القاهرة .. حيث دفن بمشهده الحالى فى حى الحسين ..

وعن وجود الرأس الشريف فى هذا المشهد يقول المؤرخون : إنه حين أراد عبد الرحمن كتخدا توسيع مسجد الحسين كشف المشهد بحضور جمع من الناس .. ونزل العالمان الجليلان : الشيخ الجوهرى الشافعى ، والشيخ الملوى المالكى .. وشاهدا ما بداخل الضريح .. فوجدا الرأس الشريف فى كيس من الحرير الأخضر موضوعا فى طست من الذهب .. على كرسى من الأبنوس .. كما أن هناك أدلة كثيرة على وجود الرأس فى هذا الضريح ..

وشاءت العدالة الإلهية أن تقتص لحفيد الرسول .. فمات يزيد بن معاوية ميتة وضيعة بعد ثلاث سنوات .. إذ سقط عن فرسه .. وهو يسابق قردا .. فدق عنقه .. وكسرت حوافر الفرس جمجمته .. أما شمر بن ذى الجوشن الذى قتل الحسين ، فقد قتله المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين وألقى بأشلائه طعاما للكلاب ، كما قتل عبيد الله بن زياد وأحرقه .. ولقى الباقون مصارعهم على أيدى التوابين ..

ولقد شرف الله القاهرة بأن دفن فيها الرأس الشريف .. كما دفن فيها بعض آل البيت .. رضى الله عنهم جميعا .. وأنزلهم نزلا كريما فى أعلى درجات الجنان ..

* * *

محمد بن الحنفيّة

داعية السلام والمحبة والإخاء

حسبه

مكانة بين عظماء الإســلام أنه ابن الإمام على كرم الله وجهه ، وأن الدور التاريخى الذى قام به لحقن دماء المسلمين ما زال كالأنشودة العذبة فى قيثارة التاريخ . . ومع ذلك لم ينصفه المؤرخون ، ولم يسلكوه فى عداد الذين حركوا مسيرة الحياة . . وفرضوا اسمهم وسيرتهم على التاريخ . . فمن هو هذا البطل الذى – لو شاء – لجعل الخلافة حيثما يركز رمحه . . ولكنه أبى أن يؤدى الصراع على الخلافة إلى إراقة دماء المسلمين . وتشغلهم دنياهم عن آخرتهم . . وتبهرهم المناصب والمجد والجاه والنفوذ والسلطان . . فيركضون وراءها لاهثين . . وفى غمرة سعيهم إليها . . ولهفتهم عليها .. تخفت نور المبادىء والقيم الإسلامية فى قلوبهم وعقولهم . .

ولهذا كان محمد بن الإمام على كرم الله وجهه .. والمعروف بمحمد ابن الحنفية .. لأن أمه لم تكن فاطمة الزهراء رضى الله عنها .. وإنما كانت خولة بنت جعفر بن قيس من قبيلة بنى حنيفة .. كان حريصا على أن يعيش المسلمون فى وفاق تام . وألا يشهر مسلم سلاحه فى وجه مسلم آخر .. لأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك ، وقال : إذا التقى المسلمان بسيفيهما .. فالقاتل والمقتول فى النار .. فقيل : يارسول الله ..

إذا كان القاتل فى النار ، فما ذنب المقتول ؟ .. قال : لأنه كان حريصا على قتل صاحبه ..

ومحمد بن الإمام على .. وأخو الحسن والحسين من أبيهما .. ولد فى الفترة الأخيرة من خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .. لأن الإمام عليا لم يتزوج على السيدة فاطمة فى حياتها .. وإنما تزوج بعد وفاتها .. وكانت قد توفيت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بستة أشهر .. ولما أنجب ابنه محمداً من زوجته الثانية كناه أبا القاسم تبركا بالرسول .. ويقال إنه كان قد استأذن الرسول فى هذه الكنية .. فأذن له .. حيث قال له وهما جالسان يوما : يارسول الله .. أرأيت إن ولد لى ولد من بعدك .. أفأسميه باسمك .. وأكنيه بكنيتك ؟ فوافق الرسول صلى الله عليه وسلم ..

نما محمد بن الحنفية وترعرع فى ظل أبيه .. وبدت عليه مخايل الشجاعة منذ الصبا .. حتى توسم فيه والده أن يكون من الأبطال المبرزين فى ساحات الجهاد .. وصدق ظن والده أو تقديره .. فقد أبدى فى معركة صفين التى كان يحمل فيها الراية قدرة خارقة على القتال .. ولكنه كان يخفى فى نفسه نزعة إنسانية إلى السلام .. كان يرى دماء المسلمين تراق هنا وهناك .. فيتنفس الصعداء أسفا وحسرة .. وينبعث صوت من داخله يقول : إذا كان بعضنا يقتل بعضا .. فبمن نقاتل أعداء الله ؟ ! .. ولكن قعقعة السلاح لم تتوقف إلا عند التحكيم ..

وتمضى الأيام .. وتتوالى الأحداث على الساحة الإسلامية .. حيث يشق الخوارج عصا الطاعة .. ويقتل الإمام على غيلة .. وهنا تتجلى نزعة السلام التى تكمن فى نفس محمد بن الحنفية فلم يتردد فى مبايعة معاوية .. تهدئة للموقف .. وحقنا لدماء المسلمين ..

وكانت دماثة أخلاقه تنسحب على كل تصرفاته .. حتى إنه حين اختلف مع أخيه الحسن .. وأعرض كل منهما عن الآخر .. تذكر محمد ابن الحنفية قول الرسول فى المتخاصمين : « وخيرهما الذى يبدأ بالسلام » .. فلم يشأ أن يكون خيرا من أخيه الحسن .. بل آثره على نفسه .. وبعث إليه خطابا يذكر له فيه أسباب أفضليته عنه .. قال له فى هذا الخطاب :

إن الله فضلك على .. فأمك فاطمة بنت محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. أما أمى فإنها امرأة من بنى حنيفة .. وجدك النبى سيد الخلق .. أما جدى فهو جعفر بن قيس .. فتعال إلى وصالحنى .. حتى يكون لك الفضل فى كل شىء ..

عندما قرأ الإمام الحسن هذا الخطاب دمعت عيناه من التأثر .. وذهب على الفور إلى أخيه محمد .. وتصالحا .. وزال ما بينهما من خلاف ..

ثم تتجلى نزعة السلام مرة أخرى فى نفس محمد بن الحنفية حين يتنازع الخلافة عبد الله بن الزبير فى الحجاز .. وعبد الملك بن مروان فى الشام .. ويبذل كل منهما جهده لضم محمد بن الحنفية إلى صفه .. ولكن تقع أشياء لم تكن فى حسبان محمد .. فقد ضيق عليه عبد الله بن الزبير الخناق .. وكان هناك من المسلمين من يقتنع بوجهة نظر ابن الحنفية . فعرضوا عليه أن يهاجروا معه إلى الشام بعيدا عن مضايقات ابن الزبير .. إلا أنه حين ذهب إلى الشام والتف الناس حوله .. انزعج عبد الملك ابن مروان من شعبية ابن الحنفية . فطلب إليه أن يرحل هو ورجاله .. وهكذا أصبح رجل السلام لايجد السلام فى أى أرض ..

بيد أن الأمور تغيرت تغيرا سريعا . فقد استطاع الحجاج الثقفى أن يتخلص من منافسهم عبد الله بن الزبير فى معركة ما زال قلم التاريخ مخضبا بدمائها .. ووجد ابن الحنفية الفرصة سانحة للاستقرار والسلام .. فبعث

إلى عبد الملك بن مروان يبايعه .. وهدأت العواصف التى كانت ثائرة على الساحة الإسلامية ..

بعد ذلك أمضى محمد بن الحنفية بقية أيامه فى وداعة تامة وهدوء نفسى .. يتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار . وكان يقول لمن يسأله .. كيف يتصرف فى محنة أو أزمة ألمت به : عليك بالصلاة وقراءة القرآن . . فإن فيها شفاء لما فى الصدور .. وتفريجا للهموم ..

وحين وافته المنية ، وهو على فراش الموت . أخذ يتمتم بسورة الإخلاص .. ووجهه يضىء كأنه القمر .. ثم فارق الدنيا .. وهو يرى مكانه بين الأبرار والصديقين فى أعلى عليين ..

* * *

علي زين العابدين

العابد الأواب الذى آمن بحرية الإنسان

في إجلال وخشوع تقف أمام تاريخه العظيم . . متأملا . . متمعناً فيما يفيض به هذا التاريخ من عظمة وجلال وشموخ . . متهيباً أن تدخل محراب تاريخه . . لفرط ما ازدحمت فيه المشاهد الإنسانية الرائعة . . ولكثرة ما تتنسم فيه عبير آل البيت بكل ما يحفهم من طهارة ونقاء وشفافية . . إن عليا زين العابدين بن الإمام الحسين رضى الله عنه . . حمل أكثر من لقب . . كما يحمل الفارس المجلى أكثر من وسام . .

فقد لقب بزين العابدين . . لأنه كان يصوم النهار ويقوم الليل . . أى يتعبد آناء الليل وأطراف النهار . . ولقب بشيخ الساجدين . . لأنه كان يطيل السجود لله جل وعلا . . ولقب بشيخ البكائين . . لأنه كان يبكى حتى تخضل لحيته بالدموع . . متأثراً مما حدث فى كربلاء . . ولقب بشيخ المتصدقين . . لأنه كان يحمل الدقيق فى جنح الليل على ظهره إلى بيوت الفقراء والمساكين . . ونتج عن ذلك أن أثر الحبل فى ظهره وترك به علامة سوداء . .

أى أخلاق وأى شمائل ترفع الإنسان إلى الذروة العليا من التقوى والزهد

والعبادة والبر مثل هذه الأخلاق والشمائل . . ؟ وإذا كانت تثير العجب والإعجاب فى النفوس . فإنه يزول عنا العجب والإعجاب حين نعلم أى بيئة ترعرع فيها هذا الرجل الذى ترك دوياً فى مسمع التاريخ . . لقد ولد على زين العابدين بالمدينة المنورة . ..فى بيت جدته السيدة فاطمة الزهراء . . بنت سيدنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم . . فى يوم الخميس السابع من شعبان فى السنة السابعة والثلاثين من الهجرة . .

وقد علمه والده الإمام الحسين علوم الدين منذ الطفولة . . فنما والدين يملأ عقله وقلبه . . وشاء قدره أن يسافر مع والده رضى الله عنه . . ويشهد مأساة كربلاء . . كان يومها صبياً . . ورأى المذبحة الدامية التى نصبها ابن زياد لآل البيت . . رأى أخاه الأكبر علياً حين قتل ووضع جثمانه أمام الخيمة التى يجلس فيها النساء . . ورأى أخاه الأصغر حين أصابه سهم ، وهو فى حجر والده ، فذبحه . . ثم رأى الهول الأكبر حين جثم شمر بن ذى الجوشن على صدر أبيه الحسين ، وفصل رأسه عن جسده . . ثم رأى وسمع الأمر بقتله ، وهو نائم على فراش المرض فى الخيمة . . لولا أن بعض الناس قالوا : لا تقتلوا هذا الصبى . . فهو مريض . .

كل هذا رآه فى سنه المبكرة . . فالتحم بوجدانه . . ولم يفارق مخيلته أبداً . . وقد أنضجته حرارة المأساة . . فشب وليس فى قلبه ذرة واحدة من حب الدنيا . . أو الميل لها . . بل استغرقه حب الله وطاعته وعبادته . . فكان لخشيته من الله إذا قام للصلاة . . تأخذه رعدة . فترتعش أوصاله ، ويتغير لونه . . ولما سألوه عن حاله هذا . . قال لهم : أما تعرفون من أقف بين يديه وأناجيه ؟ . . وكان حين يناجى الله يستغرق فى مناجاته حتى ينسى كل شىء حوله . . وحدث أن ذهب إليه أحد أصدقائه عند الكعبة . . فوجده متعلقاً بأستارها يدعو الله ويبكي . ولما فرغ من دعائه .. قال له :

هون عليك يا ابن الحسين . . فإن الله منحك ثلاثة أشياء تفتح لك أبواب رحمته . . الأولى أنك ابن حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والثانية أن جدك هو صاحب الشفاعة العظمى . . والثالثة أنكم آل البيت قريبون من رحمة الله ؛ ؛

ولما فرغ الرجل من مقالته نظر إليه على زين العابدين وقال له : إن انتسابى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم النعم علينا . . ولكن الحق تبارك وتعالى يقول عن يوم القيامة : « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ». وأما جدى صاحب الشفاعة العظمى فإن الله سبحانه وتعالى يقول: «ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » . . وأما رحمة الله فإنها قريب من المحسنين . .

وقد اشتغل على زين العابدين بالتجارة . . ففاضت عليه بالرزق الوفير . . ولكونه معطاء تمتد يده بالخير دائماً إلى الناس . . فإنه خصص جانباً من أرباح هذه التجارة لتحرير الموالى . . كان يشتريهم ويؤدبهم بأدب الإسلام.. ثم يعتقهم . . وله فى تحرير الأرقاء قصص مشهورة . . حتى قيل إنه كان يعتق فى ليلة عيد الفطر من كل عام ألف رقيق . . كما أنه خصص جانباً آخر من أرباح تجارته للبر بالفقراء والمساكين . . كان ينفق على مائة بيت فى المدينة . . يقوم فى منتصف الليل والناس نيام بنقل الدقيق إلى هذه البيوت.. حتى لا يراه أحد . . وظل هذا ديدنه حتى نهاية عمره الذى بلغ سبعاً وخمسين سنة ؛ ؛

وقد ذكر الإمام الشعرانى فى طبقاته أن عليا زين العابدين نقل جثمانه الشريف إلى مدينة القاهرة سنة ٥٢٩ هـ . لأن الرواية التى تقول إنه جاء إلى القاهرة فى صحبة السيدة زينب لا يوجد لها سند تاريخى .

وحين يدخل الزائر إلى مقامه يجد عمامتين على المقام . . الأولى تشير إلى على زين العابدين . . والثانية إلى زيد ابنه الذى قتل فى الكوفة ونقل رأسه إلى القاهـــرة .

رحم الله عليا زين العابدين . فقد كان إلى جانب أنه عابد أواب .. يؤمن بحرية الإنسان . ولذلك فإنه أنفق الكثير من أمواله فى سبيل عتق الأرقـــاء .

* * *

عبد المطلب بن هاشم

أول من حمل النبي وطاف به حول الكعبة

كفاه

شرفاً ومجداً وعزاً وجاهاً ، أنه جد الرسول . . وأن حياته كلها كانت إرهاصات بمولد النبي المنتظر . . وأنه أول من تلقى البشارة بمولده صلى الله عليه وسلم . . فسارع إلى بيت آمنة بنت وهب . . والغبطة والحبور يملآن جوانحه . . ثم حمل بيديه الطفل الوليد ، فوجده يتلألأ نوراً كالكوكب الدرى . . بل وجد فيه عطر الملائكة . . وعبير السماء . . وما لبث أن ذهب بالطفل إلى الكعبة وطاف حولها شكراً لله . . ثم عاد إلى بيت آمنة . . وسمع منها حديثاً عجباً عن الآيات التى صحبت مولده . . وعن الهاتف الذى جاءها فى المنام وقال لها : سميه أحمد . . فقال لها زعيم مكة ورأس قريش : سنسميه محمداً حتى يكون محموداً فى الأرض وفى السماء . . وسنسميه أحمد كذلك . .

وتاريخ عبد المطلب حافل بالوقائع المثيرة منذ مولده . . فاسمه الحقيقى شيبة الحمد ، لأنه ولد وفى شعره خصلة بيضاء . . وقد ولد بيثرب . . لأن أمه سلمى الخزرجية اشترطت على أبيه هاشم أن تكون العصمة بيدها ، وأن تلد فى بيت أهلها ، ووافق الزوج على هذا الشرط . . ولم يقدر له أن يرى

ابنه شيبة الحمد . . لأنه توفى فى ربيع شبابه . . وعاش الطفل يتيما مع أمه فى المدينة . .

كانت سلمى ذات شمم وكبرياء . . وكانت لا تفتأ تقول لابنها : إن والده أحد عظماء مكة . . فنشأ الطفل معتزاً بأبيه . . فخوراً بأسرته . . يقول للصبية الذين يلعب معهم : أنا ابن هاشم . . أنا ابن سيد البطحاء . .

وذات يوم سمع المطلب أن أخاه هاشماً له ولد فى المدينة . . فسافر إلى يثرب . . واستأذن من سلمى الخزرجية أن يصحب ابنها معه إلى مكة ليعيش بين أهله وعشيرته . . ووافقت الأم . .

ولما عاد عبد المطلب إلى مكة ورآه أهلها . . سألوه عن الطفل . . فلم يقل لهم : إنه ابن أخى هاشم . . وإنما قال : إنه عبد لى . . فلم يعرف أحد بمكة أن اسمه شيبة الحمد .. ولذلك كانوا يطلقون عليه عبد المطلب .

وقد ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد المطلب فى الثانية والسبعين من عمره . . كان الشيخ الوقور حزينا على ابنه عبد الله الذى مات فى ريعان شبابه ، وترك زوجه آمنة بنت وهب حاملا بالنبى . ولذلك فإن عبد المطلب أضفى على حفيده من صنوف الرعاية والحب . . ما جعله لا يشعر بمرارة اليتم ، ولا يحس بفقدان الوالدين . .

ومما زاد من تعلق عبد المطلب بحفيده . . أنه رأى فيه من نبل الصفات . وعظمة الأخلاق ما لم يره فى طفل بمكة . . فلم يكن يوجد فى أتراب النبى من يماثله فى خلقه وسلوكه . . أو فى صفاته وسماته . . أو فى جلاله وكماله . .

كما أن هناك إرهاصات سبقت مولده . . وعاشت بكل صورها فى وجدان عبد المطلب :

— حفر بئر زمزم . . والهاتف الذى حدد له مكان البئر . . إرهاص بأمر يخفيه الغيب فى سجله الأزلى . .

- هلاك أبرهة الحبشى هو وجنده بغارة جوية من الطير الأبابيل . . ونجاة الكعبة من شرور أصحاب الفيل : . إرهاص بشيء يضمره الزمن بين جوانحـــه . .

- فداء ابنه عبد الله بمائة من الإبل . . وزواجه بأفضل فتاة فى قريش . . وموته بعد الزواج بشهرين . . إرهاص بأمر كبير . .

هذه الإرهاصات كانت تتخايل فى ذهن عبد المطلب . . وتزدحم فى وجدانه . . فيربط بينها وبين حديث الكهان عن مولد النبى المنتظر وصفاته التى ورد ذكرها فى التوراة والإنجيل . . وما يلمحه من مطابقة تامة بينها وبين صفات حفيده محمد . . وكم كان عبد المطلب يتمنى أن يعيش حتى يرى حفيده اليتيم نبياً . . ولكن الموت انتزعه من هذه الحياة . . وبعـد اثنتين وثلاثين سنة من وفاته . . فتحت السماء أبوابها للنبى . . وبدأ الوحى يهبط منها على رسول الله صلى الله عليه وسلم تباعاً . . فراح يخرج البشرية من الظلمات إلى النـــور .

* * *

العباس بن عبد المطلب

جاهد سرًا وعلانية فى سبيل الله

مواقفه

الشامخة الصامدة الشريفة مع النبي صلى الله عليه وسلم ينفد مداد التاريخ دون أن يفيها حقها من الثناء والإطراء . . إنها مواقف إنسان مبهور بعظمة الرسول . . يحس أن الجزيرة العربية كلها مقبلة على تغيير كبير فى عقائد أهلها وطباعهم وأخلاقهم . . وأن خطوات هذا التغيير تمضى سريعة حثيثة . . ويحس أن ابن أخيه سيكون له شأن وأى شأن . . فيمد قلبه ومشاعره مبايعاً للرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يمد يده ويعلن إسلامه . .

هكذا كان شأن العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام مع ابن أخيه محمد . . وتمثل إجلال العباس للرسول فى مواقف وعاها التاريخ فى الناصع الباهر من صفحاته . . وما أروع وأعظم هذه المواقف . . وما أثقلها فى ميزان البطولات والتضحيات ! !

كان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك بالمشعل الإلهى . . ويبدد بأشعته الهادية الصافية ظلمات الوثنية . . وقتامة الشرك . . وكان الإسلام قد بدأ يجتذب إلى مائدته الربانية من أولتهم السماء شرف السبق إلى الدين الجديد . . وهم وإن كانوا قلة على الساحة . . إلا أنهم فى خريطة الغيب نواة أمة قوية مهيبة تملأ ما بين المشرق والمغرب . .

ويتهادى التاريخ فى زهو نحو بطلنا العباس ممسكاً بأشرف أقلامه ليدون أول مواقفه مع ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم . . كان المكان عند العقبة . . وكان هناك ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ينتظرون النبي صلى الله عليه وسلم ليبايعوه على الإسلام . . لقد جاءوا من مدينة يثرب . . تحدوهم رغبة مباركة فى اعتناق الدين الجديد . حتى إذا بقى موهن من الليل خفقت قلوبهم غبطة وسروراً . . إذ شاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مقبلا عليهم وبصحبته عمه العباس . .

حانت اللحظة التى تجشموا من أجلها مشقة السفر ووعثاءه من المدينة إلى مكة . . ثم إلى هذا الشعب . . وما إن جلسوا حول النبي صلى الله عليه وسلم لمبايعته حتى بدأ العباس هذه الجلسة المباركة بكلمات تنم عن حرصه على الرسول ، وحبه إياه ، وتقديره لمكانته . قال العباس :

يامعشر الخزرج . . إن محمداً منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده . وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . . فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم ، فمن الآن فدعــوه . .

بعد أن فرغ العباس من كلمته كان وفد الأنصار فى لهفة إلى الاستماع للرسول . فقالوا للعباس : سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . .

وهنا تلا النبي صلى الله عليه وسلم بعض آيات القرآن الكريم . . ثم وجه حديثه إليهم قائلا : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . .

وعلى الفور أعلن الجميع موافقتهم على البيعة .. ومد البراء بن معرور – وهو زعيم قومه – وكان قد أسلم بعد العقبة الأولى . . مد يده إلى النبي وبايعه.. وتلاه أعضاء الوفد واحداً واحداً .. ثم انفض المجلس، وعاد النبي إلى مكة وبصحبته عمه العباس . .

حدث كل هذا وقريش تغط فى نوم عميق. أى تمت بيعة العقبة الثانية دون أن يعلم بها أحد . .

ثم توالت مواقف العباس مع الرسول صلى الله عليه وسلم . ولم يكن الدافع إليها آصرة القربى ووشيجة الدم – كما توهم بعض المؤرخين – وإنما كان الدافع هو الحرص على أن يظهر دين محمد ويملأ بقاع الجزيرة . . وتتلاشى الجاهلية بكل مثالبها ومخازيها فى زوايا النسيان . .

ومن مواقفه البارزة أيضاً حضوره اجتماع قريش فى دار الندوة واستعدادها لأخذ الثأر لقتلاها فى غزوة بدر . . عرف العباس بتفاصيل خطة قريش . . ثم دونها فى خطاب وبعث به مع رجل غفارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم . . وكان هذا الخطاب بمثابة ضوء كشاف على التدابير العسكرية التى اتخذتها قريش . . مما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخذ من الحيطة والأعمال العسكرية ما أحبط خطة الهجوم المفاجىء على مدينة يثرب . .

وبهذا نستطيع أن نضع العباس فى مصاف المجاهدين الأبرار ، فقد أسدى يداً إلى الإسلام بهذا الصنيع . . ثم كان على صلة مستمرة برسول الله صلى الله عليه وسلم يوافيه بأخبار قريش أولا بأولا . . حتى إنه عندما أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم بفتح مكة خرج العباس مع أهله والتقى بالرسول عند الجحفة . . ثم صحب أبا سفيان بعد ذلك ليطلعه على جند الرسول ، وكيف أصبح الإسلام ذا بأس وسلطان . . ليدخل الرهبة فى قلبه ، وينزع من نفسه أى أثر للمقاومة .

ويمر أسبوعان على فتح مكة . . وتشعل هوزان وثقيف نار حرب جديدة.. ويقف العباس – وكان قد أعلن إسلامه قبل ذلك بفترة – موقفاً تنحنى أمامه التضحيات، وتخشع حياله البطولات . . فبينما المسلمون يفرون مدبرين اتقاء السهام والنبال التى فاجأهم بها العدو من قمم حنين . . إذا بالعباس ونفر من أهل الرسول وصحبه لم يتزحزحوا من مواقعهم . . ووقفوا يواجهون المفاجأة بكل ما تحمل من أهوال . . ويطلب النبي إلى العباس أن ينادى فى الناس بالعودة إلى القتال ، ويلقنه كلمات يطلقها العباس مجلجلة فى سماء المعركة . . كان ينادى : يامعشر الأنصار الذين آووا ونصروا . . يامعشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . إن محمداً حي فهلموا . . وإذ كان العباس جهورى الصوت ، فقد سمعه الأنصار والمهاجرون . . وسرعان ما عادوا إلى أرض القتال ، ودحروا عدوهم . . وانقلبت الهزيمة إلى نصر مبين .

وهكذا عاش العباس بن عبد المطلب يحمل لواء الدعوة فى غفلة من قريش . . ثم يسفر عن حقيقة إسلامه بعد حين ويجاهد علانية كما جاهد سراً . وامتد به الأجل حتى جاوز الثمانين من عمره . . ثم لقى الله وهو أطهر ما يكون صحيفة . وانضم إلى قافلة القديسين والأبـــرار .

* * *

أبى بن كعب

أول من كتب الوحى للرسول بالمدينة

آيـــة	**هذا الصحابى الجليل أن اسمه ذكر فى الملأ الأعلى . . وتردد بين الملائكة . . . ونزل جبريل من السماء حاملا اسمه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليعرض عليه سورة البينة حين نزولها ..**

فقد روى فى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا أبى ابن كعب وقال له : إن جبريل عليه السلام أمرنى أن أقرئك هذه السورة . قال أبى . . . الله سمانى لك يارسول الله . فقال النبى : نعم . . فأخذ أبى ابن كعب يبكى حتى اخضلت لحيته بالدموع . . .

فمن هو هذا الصحابى الجليل الذى اختصه الله بهذا الشرف . . ورفعه إلى هذه القمة السامقة التى تشخص إليها أبصار التاريخ ؟

إنه خزرجى من أنصار الرسول وأحبائه . . الذين نصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه . . أسلم فى بيعة العقبة الثانية مع السبعين أنصارياً . . وأشرب قلبه حب الإسلام . . وملأ كيانه نور العقيدة حتى أصبح من عباد الله المخلصين . . وكان لا يفوته مجلس واحد من مجالس الرسول . . بعد هجرته إلى المدينة . . بل كان يلازم الرسول فى روحاته وغدواته . . ويكتب الوحى فور نزول جبريل عليه السلام به . . وإذا تصادف أن كان فى بعض شأنه ،

ونزل الوحى . . فإن زيد بن ثابت كان يقوم بالكتابة بدلا عنه . : وكان أبى كعب يختم القرآن كل ثمانى ليال . . ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عنه : أقرأ أمتى أبى بن كعب .

وإلى جانب هذه الدرجة الرفيعة التى بلغها فى الزهد والعبادة والاستغراق فى الله . . والعزوف عن الدنيا . . والإقبال على الآخرة : : فإنه كان يملك شجاعة القلب . . ورباطة الجأش . . وصلابة العزيمة . . لم يتخلف عن معركة واحدة من معارك المسلمين . . فقد شهد بدراً وجميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأبلى بلاء حسناً فى كل منها : :

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه بأروع صفاتهم . . فقال : أرحم أمتى بأمتى : أبو بكر . وأقواهم فى دين الله : عمر . وأصدقهم حياء : عثمان . وأقضاهم : على بن أبى طالب . وأقرؤهم : أبى بن كعب . وأفرضهم : زيد بن ثابت . وأعلمهم بالحلال والحرام : معاذ ابن جبل . وما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر . ولكل أمة أمين . وأمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح : .

هكذا حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة أبى بن كعب بأنه أقرأ الأمة . . كما أثنى الرسول على عمق فهمه للقرآن الكريم . . فقد سأله المعصوم صلى الله عليه وسلم : يا أبا المنذر . . أى آية معك فى كتاب الله عز وجل أعظم . . فقال : الله لا إله إلا هو الحى القيوم . فضرب الرسول بيده صدر ابن كعب . . وقال له : « ليهنك العلم يا أبا المنذر » . . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحبه لفرط صدقه وأمانته . . فقد كان يقرأ الوحى على الرسول قبل كتابته .. وبعد كتابته .. ليتأكد أنه لم يخطىء فى أى لفظ نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ومن هنا كان اسمه معروفاً جداً عند جبريل عليه

سلام . . وقد أكسبه القرآن شفافية جعلته دائم الصمت . . يتدبر آيات الله في سكون . . ويتذوق المعاني الإلهية التي وضع الله فيها منهجه لهداية البشر . .

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . . وانقطاع الوحي . . كان الصحابة يتحاكمون إلى أبي ابن كعب . . وكان يفتيهم في أمور الدين . مستنبطاً أحكامه من الكتاب والسنة . . فقد كان يحفظهما عن ظهر قلب . . وكان الصحابة يجلونه ويكبرونه . . لأنهم يعلمون منزلته عند الرسول . . وأنه أحد كتاب الوحي وأحد الذين يفهمون القرآن الكريم فهماً دقيقاً عميقاً . . ويعرفون أصول الدين الحنيف . . معرفة لا خطل فيها ولا شائبة . . كما كان المسلمون يأتونه من كل حدب وصوب ليسألوه في شئون الدين . . فيفتيهم بعد روية وأناة . . ولا يبدي رأياً إلا بعد أن يستوثق من أسانيده .

وكان عمر بن الخطاب يسميه « سيد المسلمين » ويجهر بهذا الرأي في أي جمع من الناس . فبينما كان عمر في مجلسه ذات يوم . . . إذا بأعرابي يدخل عليه في حاجة له . . وكان بجوار عمر رجل أبيض الشعر والثياب . . سمعه الأعرابي يقول : « إن الدنيا فيها بلاغنا وزادنا إلى الآخرة . . وفيها أعمالنا التي نجازى بها . . فالويل لمن سافر بغير زاد . . أو عمل سوءاً يجزى به » فقال الأعرابي لعمر متسائلا : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ . . فقال عمر : هذا سيد المسلمين أبي بن كعب . .

لقد حمل التاريخ شهادتين بعظمة هذا الرجل : الأولى شهادة الرسول بأنه أقرأ هذه الأمة . . . .

والثانية : شهادة عمر بأنه سيد المسلمين .

وقد عاش أبي بن كعب حتى السنة الثانية والعشرين بعد الهجرة . . وكان يوم وفاته يوماً مشهود . . فقد خرجت مدينة الرسول عن بكرة أبيها تشيعه . . وعلى لسان كل رجل وامرأة وشاب وطفل عبارة واحدة : مات سيد المسلمين . . .

عبدالله بن عبد الأسد

أول مهاجر من مكة إلى المدينة

اعتنق

الإسلام قبل أن يدخل النبي صلى الله عليه وسلم دار أرقم ابن الأرقم..أي كان من الصفوة الذين اختارتهم السماء لعبقها وسناها . . حين بسط الدين الجديد أولى أشعته على الكون . . فأيقظ العقل من غيبوبة طال عليها الأمد . . ووضع عنه إصر الجاهلية . . وأغلال الوثنية . . هؤلاء الصفوة وقف التاريخ خاشعاً فى محراب حياتهم . . يتأمل ملياً جلال تضحياتهم . . وعظمة فدائيتهم . . وصلابة عزائمهم التى فاقت صلابة الجبــال . .

كان عبد الله بن عبد الأسد المخزومى . وكنيته أبو سلمة، شاباً يتأجج حباً فى الله ورسوله . . آثر أن يعيش غريباً عن بلده مكة . . مهماً يتجرع مرارة الشدائد فى الغربة . . على أن يعيش وثنياً فى مكة يسجد للات والعزى ، ويلتمس الخير من حجر لا يضر ولا ينفع . . ولهذا هاجر أبو سلمة إلى الحبشة فراراً بدينه وعقيدته . . مفضلا شظف العيش فى ظل الإسلام . . على الرفاهية فى ظل الشرك والوثنية . .

وعبد الله بن عبد الأسد كان ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم . . ولم تكن وشيحة القربى هى التى

دفعته إلى اعتناق الإسلام . . فبعض أقرباء الرسول قاوموا دعوته . . ولكن عبد الله كان ذا وجدان نقى . . وقلب شفيف . . فلم تجد دعوة الرسول صعوبة فى النفاذ إلى كيانه وبسط أضوائها فيه .

وشاء الله أن يسم حياة عبد الله بسمات فريدة . . فكما كان من أوائل من دخلوا الإسلام . . وتذوقوا حلاوة الإيمان فى سن مبكرة . . كذلك كان أول المهاجرين من مكة إلى المدينة . . وقد وصل إليها فى اليوم العاشر من المحرم . . بينما وصل النبي صلى الله عليه وسلم فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول . . فكانت المدة بين أول من قدم المدينة من المهاجرين وبين آخرهم شهرين . .

وبطلنا هذا من فرسان العرب المبرزين . . فقد شهد بدراً . . وجابه أعداء الله بعزيمة مؤمنة، وهمة صابرة، وإصرار موصول . . وظلت ذكريات بدر تترعرع فى وجدانه . . وتثير فى نفسه الحماسة إلى خوض معركة أخرى . . يبذل فيها العرق والدم . . ويسمع فيها حفيف الملائكة، وهى تشارك المجاهدين فى التنكيل بالمشركين . .

وجاءت غزوة أحد لتحقق لعبد الله بن عبد الأسد المخزومى أمنيته ومبتغاه . . فقد سارع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمجاهدين إلى لقاء أهل الشرك . . واندفع فى معمعان المعركة كالأسد الغاضب . . وبينما هو يقتحم صفوف المشركين . . إذا بسهم من يد المشرك الأثيم أبى أسامة الجشمى يصيبه فى عضده . . وينزف الدم بغزارة من العضد المقاتل فى سبيل الله . . مما اضطر أبا سلمة إلى الخروج من المعركة لتضميد الجرح . .

ظل أبو سلمة يعالج هذا الجرح شهراً كاملا حتى ظن أنه شفى تماماً . . ولكن الجرح كان قد تلوث واندمل على غير نظافة . . وكان أبو سلمة يتردد على مجلس الرسول ، وأعلم النبي بأنه شفى من جرحه ، وأن بوسعه أن يستأنف حمل السلاح من جديد . .

عندئذ أرسله النبي أميراً على سرية إلى بنى أسد . . وكان ذلك فى المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهراً من الهجرة . . أمضى أبو سلمة بضع ليال . . ثم عاد إلى المدينة . . وبعدها أحس بالجرح تحزه آلامه وخزاً عنيفاً . . ونمى إلى الرسول نبأ مرض أبى سلمة . . إذ انقطع عن مجلسه صلى الله عليه وسلم . . فأخذ يعوده فى بيته . .

اشتدت الآلام بأبى سلمة فى جمادى الآخرة . . لأن سموم الجرح كانت قد تسللت إلى جسده كله . . وذهب النبي إليه ليعوده . . فوجده يعانى سكرات الموت . . كما وجد هناك نسوة وراء ستر فى البيت يبكين . . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النسوة : لا تدعون على أنفسكن إلا بخير .. فإن الملائكة تحضر الميت .. ويؤمنون على دعاء أهله .. وإن الروح إذا خرجت تبعها البصر . . أما رأيتم إلى شخوص عينيه !

ولما فاضت روح أبى سلمة إلى بارئها بسط النبي صلى الله عليه وسلم كفيه على عينيه فأغمضهما . ثم دعا الله قائــلا :

(اللهم افسح له قبره ، وأضىء له فيه . . وعظم نوره . . واغفر ذنبه . . اللهم ارفع درجته فى المهديين . . واخلفه فى تركته فى الغابرين . . واغفر لنا وله يارب العالمــين) .

بهذه الدعوة المباركة شيع رسول الله صلى الله عليه وسلم روح عبد الله ابن عبد الأسد إلى رحلة أبدية . . الرجل الذى كان له فضل السبق فى اعتناق الإسلام . . وفضل السبق فى الشهادة . . وفضل حضور رسول الله صلى الله عليه وسلم اللحظة النورانية التى تلقت فيها الملائكة روحه وهى صاعدة إلى السماء لتتبوأ مقعد صدق عند مليك مقتدر .

* * *

زيد بن حارثه

أول تلميذ لرسول الله

كـــان

أقرب الناس إلى قلب النبي وأدناهم إلى نفسه . . تلقى مبادىء الإسلام بعد نزول الوحي على الرسول قبل أن يعلم الناس أن هناك ديناً جديداً نزل على محمد بن عبد الله من السماء . . وكان ثانى من أسلم ، وقيل رابع من أسلم ، وأول تلميذ لرسول الله . . وقد بلغ من وفائه للنبي صلى الله عليه وسلم أن فضله على أبيه وعمه ، وآثر أن يعيش عبداً رقيقاً فى بيت النبي . . على أن يعيش حراً فى بيت أسرته . .

هذا هو زيد بن حارثة الذى شاء له قدره أن تختطفه عصابة وتبيعه فى سوق عكاظ ، ويشتّريه حكيم بن حزام ، ويقدمه هدية لعمته خديجة بنت خويلد .. وفى بيت النبي يبدأ زيد حياة جديدة .. حياة كلها نقاء وسمو وطهارة ووفاء ..

كان النبي لم يبعث بعد ، لكنه بخلقه العظيم. وشمائله الحميدة، وتواضعه الجم، وأدبه السامى. جعل زيد بن حارثة يرى فيه إنسانا مختلفا عن سائر البشر .. وقد تمثل حبه للنبي يوم أن علم أبوه حارثة بأن ابنه يعيش فى بيت محمد بن عبد الله .. وكان حارثة قد أضناه السعى فى مناكب الأرض بحثا عن ابنه زيد .. فحضر إلى مكة: وسأل عن محمد بن عبد الله حتّى التقى به عند البيت الحرام ..

وبينما النبي صلى الله عليه وسلم جالس عند الكعبة يتعبد على دين الخليل إبراهيم عليه السلام ، إذا برجلين يدنوان منه ويسأله أحدهما عن ابنه زيد . . وفى كلمات ينبعث منها عبير الصدق والمودة ، يخبر النبي الرجل بأن زيدا عنده . وبعث إلى بيته من يحضره ..

جاء زيد فوجد أباه وعمه، فسأله النبي عما إذا كان يعرفهما، فقال زيد : هذا أبي .. وهذا عمي .. فسأله النبي عما إذا كان يفضل العودة معهما ، أم يؤثر الحياة عنده .. فلم يتردد زيد فى إعلان تفضيله الحياة فى بيت النبي على العودة إلى أسرته .. وهنا يسجل التاريخ مشهدا من أعظم المشاهد الإنسانية .. إذ قال حارثة لابنه زيد : أتفضل العبودية على الحرية ؟ .. وعلى الفور يؤكد زيد أنه اختار الحياة مع الرسول . وأنه يفضله على الناس كافة ..

كان لكلمات زيد أثر طيب وعميق فى نفس النبي ،فأخذ بيده، وذهب ناحية قريش، وهى مجتمعة فى فناء الكعبة، وقال : اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه .. ..

مرت بضع سنوات على هذه الواقعة .. ثم نزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وآمن زيد بالدين الجديد ، وبدأ يسمع القرآن أولا بأولا من فم الرسول ، وأضاء الإسلام قلبه ووجدانه .. ولما اشتدت شوكة الإسلام ، وبدأ الرسول يبعث بالسرايا لمناهضة المشركين الذين يحاولون القضاء على الدين الجديد ، بعث بزيد بن حارثة أميرا على عدد من السرايا ، وأثبت زيد كفاءته فى مقاومة أعداء الله ..

وإعزازا من الرسول صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة،زوجه بنت عمه زينب بنت جحش، ولكن هذه الزيجة لم يكتب لها أن تستمر طويلا.. فانفصل الزوجان ، وتزوج الرسول بنت عمته هذه . . وفى ذلك يقول القرآن الكريم « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » ..

وقد اكتسب زيد بن حارثة كفاءة قتالية من خلال السرايا التى أمره النبي عليها ، والتى واجه بها كثيرا من المشركين .. مما جعل النبي يثق بقدرته ويعينه أحد أمراء الجيش الذى بعث به إلى حدود الشام ليرهب الروم . ويقضى على أطماعهم فى غزو الجزيرة العربية ..

كان أمراء هذا الجيش ثلاثة هم حسب الترتيب الذى وضعه النبي صلى الله عليه وسلم : زيد بن حارثة — وجعفر بن أبى طالب — وعبد الله ابن رواحة .. وكانت الغزوة التى خرجوا فيها هى غزوة مؤتة .. وقد استشهد أمراء الجيش الثلاثة واحدا بعد الآخر . وأطلع الله نبيه على هذا الأمر فأخبر به الصحابة .. بينما الجيش الذى كان تحت إمرتهم عاد إلى المدينة بعد شهر .. وفوجىء بأن أهل المدينة يعرفون ما حدث..كأنما رأوه رأى العين ::

كان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة .. وكان زيد ورفيقاه فى الجهاد حديث المدينة المنورة .. وقد أشادت السيدة عائشة رضى الله عنها بزيد ابن حارثة إذ قالت : « ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد ابن حارثة فى جيش قط إلا أمره عليهم .. ولو بقى حيا بعد الرسول لاستخلفه » ::

• • •

بلال بن رباح
أول مؤذن فى الإسلام

كان

صاحب صوت عذب شجى . . لم يستخدمه فى الغناء والترويح عن أهل مكة . . وإنما أطلقه مجلجلا فى الفضاء . . يهز به أسماع المدينة المنورة وأسماع البلد الحرام .. كان يصحو قبل الفجر ليؤذن للصلاة ، وكان المسلمون يألفون صوته ويسارعون إلى المسجد ليصلوا خلف الرسول صلى الله عليه وسلم . . وهكذا فى كل صلاة كان صوت بلال يملأ الفضاء بنور الشهادتين . .

فمن هو بلال بن رباح ؟ .. من هو إمام المؤذنين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أطول الناس أعناقا يوم القيامة المؤذنون » ..

إنه ذلك العبد الحبشى الذى كان يخدم فى بيت أمية بن خلف .. أحد أئمة الكفر .. وكان بلال قد سمع عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن الدين الجديد الذى يبشر به ، والذى يدعو إلى نبذ عبادة الأصنام ، ويأمر بعبادة خالق السماوات والأرض ..

وبالرغم من أنه كان يعلم كراهية سيده أمية للنبى ودينه .. فإنه ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واعتنق الإسلام .. وامتلأ قلبه بنور الدين الحنيف ، ورسخت العقيدة الإسلامية فى صدره ، وأحس

وهو العبد أنه أقوى من سيده ، وأعز شأنا .. لقد أكسبته العقيدة عزة وقدرة على مواجهة الأخطار ..

وتجلى ذلك حين علم أمية بإسلام بلال .. فراح يهدده بأشد العذاب إن لم يرجع عن دينه .. ولكنه وجد إصرارا من بلال على عدم عبادة اللات والعزى .. بل إن بلالا واجه سيده بهذه العبارة « أحد أحد » مما جعل أمية يصاب بما يشبه الذهول .. كيف يجرؤ عبده على عصيانه . بل كيف يجرؤ على اعتناق دين هو يكرهه ويقاومه ؟ .. وقرر أمية أن ينكل ببلال حتى يكون عبرة لغيره ..

أمر مجموعة من الغلمان أن تضع حبلا فى عنق بلال وتطوف به فى شوارع مكة ، وهى تصيح صيحات السخرية والاستهزاء .. ثم تذهب به إلى مكان خارج مكة وتلقى به عريان على الصخور فى وقدة الظهيرة حتى تشوى حرارتها جلده وحتى يرجع عن الإسلام .

ونفذ الغلمان أمر أمية بن خلف .. طافوا ببلال فى أنحاء مكة وهم يوجهون إليه عبارات السخرية . ولكن بلالا كان فى شغل شاغل عنهم . كان يذكر الله .. ولم يأبه بما يفعله الغلمان ، ولم يحفل بسيده أمية .. وإنما كان يعتبر التضحية فى سبيل دينه قربى من الله يجزيه عليها يوم القيامة ..

وبعد أن انتهى الغلمان من طوافهم ببلال ذهبوا به إلى خارج مكة .. وطرحوه على الحجارة الملتهبة والمتوهجة وهو عارى الجسد .. وانتظروا أن يقول لأمية .. لقد رجعت عن الإسلام وعدت إلى اللات والعزى .. ولكنهم فوجئوا به يقول « أحد أحد » ، مما جعل أمية يتميز من الغيظ والحنق .. فأمر الغلمان بأن يلقوا عليه الحجارة المتسعرة حتى إذا ما أحس بحرارتها تحرق جلده رجع عن دينه الجديد ..

بيد أنهم فوجئوا من جديد بأن العذاب لايزيد بلالا إلا إصراراً وعزما .. ووجدوا شفتيه لاتكفان عن قول : « أحد أحد » .. ويئس

أمية .. وأدرك أن أعصابه تكاد تحترق .. ولكن كبر عليه أن يخرج عبده على طاعته .. وأن يرفض عبادة آلهته .. فأمر الغلمان بأن يكرروا هذا العذاب أياما متتالية .. لعل بلالا يفتن عن دينه ..

ولكن العقيدة التي أضاءت وجدان بلال جعلته يستعذب الألم ، ويستمرئ العذاب .. فكان يزداد كل يوم إيمانا ، ويعتقد أن الفرج قادم لا محالة .. وفعلا أتاه الفرج .. فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يمر ذات يوم بالمكان الذى يعذب فيه بلال .. ووقف ينظر إلى بلال المؤمن وهو لا يتخلى عن دينه وعقيدته .. وإلى أمية الكافر وهو يتميز غيظا وكمدا .. ثم قال لأمية « هل تبيعنى هذا العبد » فوافقه أمية على الفور .. فاشتراه أبو بكر وأعتقه .. ومنذ تلك اللحظة أصبح بلال من طليعة المسلمين ..

ومرت الأيام . وقويت شوكة المسلمين فى المدينة .. ثم جاءت غزوة بدر . وكان بلال فى مقدمة صفوف المسلمين .. وما إن تلاحم الجمعان حتى رأى بلال أمية بن خلف محتميا بعبد الرحمن بن عوف يريد أن ينجو من سيوف المسلمين .. وهنا صاح بلال : « رأس الكفر أمية ابن خلف .. لانجوت إن نجا » .. وحاول أن ينقض عليه بسيفه .. ولكن عبد الرحمن بن عوف منعه من ذلك .. وبينما الموقف كذلك إذا ببعض المسلمين يحيطون بأمية ويمزقونه بسيوفهم ..

وظل بلال يؤذن للصلاة فى عهد الرسول .. حتى انتقل النبى إلى الرفيق الأعلى .. فقرر بلال أن يغادر المدينة إلى الشام .. ولكن أبا بكر الصديق استبقاه فى المدينة .. وبعد وفاة أبى بكر ذهب بلال إلى الشام ومكث بها حتى وافته المنية .

* * *

عبد الله بن عمرو الأنصاري

أول شهيد أظلته الملائكة يوم أحد

خضب

دمه الزكي المضمخ بعبير الإيمان والمشعشع بنور العقيدة أرض المعركة . . قبل أن يغادر الرماة الخمسون مكانهم يوم أحد . . ويبتلى المسلمون بهزيمة قاسية مفاجئة . كانت المعركة ساعتها تدور لصالح المسلمين . . وكان المشركون بقيادة أبي سفيان يتقهقرون فزعاً ورعباً من صولات المسلمين . . ولم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوقع أن المسلمين سيدخلون امتحاناً جهماً عسيراً بعد ساعة من نهار ! ! . . ولكن الله جل شأنه علم المسلمين أن مخالفة رسوله تؤدى إلى التهلكة . . فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم الرماة الذين صفهم فى فجوة بالجبل من أن يتركوا مكانهم مهما يكن من أمر . . ولكن بريق المغانم خطف أبصارهم . . فما كادوا يرون المشركين يتراجعون . . ويتركون أسلحتهم وأمتعتهم . . حتى نسوا أمر الرسول ونزلوا إلى أرض المعركة . . وهنا حاقت بهم الهزيمة . . وسقط منهم عشرات الشهداء . .

وقد شرف الله عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى بالشهادة فى أول جولة بأرض المعركة .. فكان أول شهيد تجرى دماؤه فواحة برائحة ذكية كرائحة المسك .. وراحت تنتاشه سيوف المشركين فى حنق وغيظ وموجدة .. إذ مثلوا بجثته أبشع تمثيل ، وقطعوا أجزاء من جسده الطاهر ،

ليرووا ظمأ أحقادهم .. ويشفوا غليل نفوسهم .. وينفسوا عن جوانحهم المتأججة بالحفيظة .. وصدورهم الملتهبة بالغيظ ..

وجيء بعبد الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ووضع بين يديه جثة مسجاة .. حتى لا يراها أهله على هذه الصورة الشائهة .. وحاول ابنه جابر أن يكشف عن وجهه فنهاه بعض الواقفين بجوار الرسول .. وصاحت فاطمة ابنة عبد الله : واأبتاه ! فنظر إليها الرسول صلى الله عليه وسلم وقال لها : لا تبكى .. فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها ..

ويحكى جابر قصة استشهاد أبيه فيقول : قتل أبى يوم أحد .. وجدع أنفه .. وقطعت أذناه .. فقمت إليه .. فحيل بينى وبينه .. ثم أتى به إلى قبره .. فدفن هو وعمرو بن الجموح فى قبر واحد .. وبعد ستة أشهر حفرت له قبرا ونقلته إليه .. فما أنكرت منه شيئا إلا شعرات من لحيته كانت قد مستها الأرض ..

هذا الشهيد العظيم كان أحد النقباء الاثنى عشر الذين قدموا من المدينة والتقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم عند العقبة .. أى كان من الذين أنار الله قلوبهم بالإسلام فى طلائعه الأولى .. فذاق حلاوة الإيمان .. واطمأن قلبه بذكر الله .. واستشرف عقله أسرار التأمل فى عظمة هذا الدين ... وسمو مبادئه ، ورفعة تعاليمه ..

ثم إنه كان بدريا ..أى من الذين شهدوا غزوة بدر .. وقال فيهم الرسول الكريم : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : افعلوا ما شئتم ، فإنى قد غفرت لكم » ..

كان عبد الله بن عمرو من الذين باكرتهم السماء بضيائها فتفتحت قلوبهم للدين الحنيف ، وهو يرسل أضواءه الأولى على الجزيرة العربية فيقشع عنها الظلمات ، ويطهرها من دنس الجاهلية ، ويفجر فيها ينبوعا

من الهداية يغسل به صدأ العقول . وما ران على القلوب من أوزار الوثنية والشرك ! .

ويأتى يوم يكشف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سر من الأسرار الإلهية لجابر بن عبد الله .. فقد التقى المصطفى صلى الله عليه وسلم بجابر فوجده مكتئبا كاسف البال ، تظلل وجهه غاشية من الحزن .. فقال له : يا جابر .. مالى أراك منكسرا مغتما ؟ فقال جابر : يارسول الله استشهد أبى .. وترك عيالا . وعليه دين .. فقال له النبى : أفلا أبشرك بما لقى الله به أباك ؟ قال جابر : بلى يا رسول الله .. قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

إن الله أحيا أباك وكلمه كفاحا (أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول). . وما كلم أحدا قط إلا من وراء حجاب، فقال : يا عبدى .. تمن أعطك .. قال : يارب .. تردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية .. فقال الرب تعالى ذكره : إنه سبق منى أنهم إليها لايرجعون .. قال : يارب فأبلغ من ورائى .. فأنزل الله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . بل أحياء عند ربهم يرزقون » .. ولما سمع جابر من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أحيا أباه وكلمه ، دون أن يكون بينهما حجاب ، وطلب إليه أن يتمنى أى شىء .. فاذا بأمنية أبيه أن يعود إلى الدنيا ويقتل مرة أخرى فى سبيل الله .. هنا هبت نفحات عاطرة من السكينة على نفس جابر ، وعرف أن مكانة أبيه عند الله لا تعادلها إلا مكانة الصديقين والأبرار الذين أعد الله لهم من الثواب ما لا عين رأت ، وما لا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ..

وعندئذ تذكر جابر قول الرسول .. حين رأى فاطمة تبكى أباها عبد الله : لا تبكى .. فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها .. فقد كانت لحظة استشهاده لحظة رائعة حفته فيها الملائكة .. وغمرته الرحمة .. واستقبلته الجنان كأروع ما يكون استقبال الشهداء .

* * *

أسعد بن زرارة

أول من أسلم من أهل المدينة

إنـــه

وإن لم يكن خاض معركة واحدة من معارك المسلمين إلا أنه يتبوأ مكاناً علياً بين الأبرار والقديسين والشهداء والصديقين . . فحسبه منزلة رفيعة فى تاريخ الإسلام ، أنه أول بل ثانى اثنين حملا رسالة النور إلى المدينة . . ولهجا باسم الإسلام بين الأوس والخزرج . . وفتحا العيون الوسنى على فجر الدين الجديد . . فما لبثت القلوب أن شخصت إلى مكة . . وما لبث الذين أنار الله أبصارهم وبصائرهم أن شدوا الرحال إلى البلد الحرام . . ليلتقوا بالنور المجسد فيها . . الذى أرسله الله هداية للعالمين . .

كان أسعد بن زرارة – وكنيته أبو أمامة –قد ذهب إلى مكة،وبرفقته ذكوان بن قيس .. وكانت وجهتهما عتبة بن ربيعة .. إلا أنهما سمعا بمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .. وبالدين الجديد الذى جاء به .. وبالوحى الإلهى الذى ينزل عليه من السماء .. سمع الرجلان حديثا عجبا عن الرسول .. فذهبا اليه .. وكلهما لهفة إلى لقائه والاستماع إليه .. وما كادا يجلسان إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم ويسمعان بعض آيات من القرآن الكريم تهادى من شفتى النبى الطاهرتين شفافة مضيئة .. حتى بسطا أيديهما وبايعا الرسول .. وأمرهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يغتسلا ويتطهرا ويصلى كل منهما ركعتين لله ..

ثم عادا إلى المدينة يبشران بالدين الجديد .. وفى العام الثانى ذهب إلى مكة اثنا عشر رجلا من الأنصار على رأسهم أسعد بن زرارة .. وبايعوا لنبى صلى الله عليه وسلم عند العقبة .. البيعة الأولى .. ثم قفلوا إلى مكة يبين .. وقلوبهم مشرقة بنور الله .. ووجدانهم ممتلىء بحب الله ورسوله ..

كان أسعد يصلى إماما يوم الجمعة بهذه الفئة المسلمة .. كما يصلى بهم الصلوات الخمس .. ولهذا فإنه أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة قبل أن يذهب إليها مصعب بن عمير .. وكان داعية يخلب لب سامعيه بحديثه الشهى ، وأدائه الطلى .. حتى استطاع أن يستميل إلى الإسلام عددا كبيرا من أهل المدينة .. ممن لم يروا الرسول ، وحبب إليهم الإسلام .. ومبايعة نبيه .. فكان أن ذهب معه اثنان وسبعون رجلا وامرأتان إلى مكة فى موسم الحج .. وتواعدوا سرا على لقاء الرسول عند العقبة .. وهناك تمت البيعة الثانية .. وأمر رسول الله مصعب بن عمير بأن يذهب إلى المدينة ليفقه المسلمين فى أمور الدين ..

نزل مصعب فى ضيافة أسعد بن زرارة .. وكانا يذهبان معا إلى بيوت الأنصار .. ويدعوان إلى الإسلام .. وذات يوم قال أسعد لمصعب : سنذهب اليوم إلى دار بنى عبد الأشهل ، ودار بنى ظفر .. وهناك نجتمع بمن أسلم .. ونزيدهم علما ومعرفة بالدين الحنيف ..

كانت هذه الجلسة بداية طيبة لدخول الإسلام فى كثير من بيوت الأنصار .. فقد أسلم أسيد بن حضير وسعد بن معاذ بعد أن استمعا إلى القرآن الكريم من أسعد بن زرارة ومصعب بن عمير .. وما لبث قومهما من بنى عبد الأشهل أن أسلموا تباعا .. وبدأت الصلاة تقام فى بيوت الأنصار .. وتهيأ المناخ لأن تصبح المدينة عاصمة الدين الجديد ..

ماذا فعل أسعد بن زرارة .. والإسلام يشتد عوده يوما بعد يوم .. واليهود يتربصون بالمسلمين .. ويحاولون أن يبلبلوا أفكارهم .. قام أسعد بتكسير أصنام بني مالك بن النجار .. لكى يؤكد لهم أن هذه الأصنام العاجزة عن حماية نفسها لا تملك حماية غيرها من الناس .. كان بنو مالك حين يصبحون يجدون أصنامهم جذاذات متناثرة .. وكانوا لا يعرفون من الذى فعل بها هذا .. وإزاء الحيرة التى تملكتهم حيال عجز هذه الأصنام.. بدأوا يفكرون فى الدين الجديد .. وهذا ما استهدفه أسعد بن زرارة .. ونجح فى تحقيقه ..

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون إلى المدينة .. لم يكن أحد يؤم المسلمين فى الصلاة غير النبي صلى الله عليه وسلم .. وكان أسعد يؤم الأنصار قبل ذلك .. وكان قد رزق بثلاث بنات فأوصى بهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. وكان هؤلاء البنات : حبيبة وكبشة والفريعة .. يدرن مع أولاد النبي فى بيوت نسائه صلى الله عليه وسلم ..

بيد أن المنية كانت تقترب رويدا رويدا من أبى أمامة .. فما إن حل شهر شوال من السنة الأولى للهجرة .. أى بعد انقضاء تسعة أشهر على إقامة المسلمين بالمدينة .. حتى تسلل المرض إلى أسعد بن زرارة وأنشبت فيه « الذبحة » أظفارها .. وهنا شمت اليهود وقالوا : لماذا لم يدفع محمد عنه المرض .. ولما سمع الرسول بمقالة اليهود .. قال : قاتل الله يهود .. يقولون لولا دفع عنه .. ولا أملك له ولا لنفسى شيئا .. لا يلوموننى فى أبى أمامة ..

وأمر الرسول بأن يكوى أبو أمامة فى مكان المرض .. ولكن العلة اشتدت به ومات فى شهر شوال .. ودفن فى البقيع ..

ولما ووری التراب .. ذهب بنو النجار إلى الرسول وقالوا له : مات نقيبنا .. فنقب علينا .. فقال لهم : أنا نقيبكم ..

وتذكر بعض روايات التاريخ أن أبا أمامة كان أول من دخل بالإسلام المدينة .. وأول من أم الناس فى صلاة الجمعة بها .. وأول من بسط يده وبايع النبي عند العقبة .. وأول من دفن بالبقيع .. إنها أربع إشارات ضوئية فى طريق التاريخ الإسلامى .. يحنى لها التاريخ هامته إجلالا وإعظاما ..

* * *

مصعب بن عمير

أول داعية أرسله النبى

شرفـه

الرسول صلى الله عليه وسلم باختياره أول داعية إلى الله . . وكان جديراً باختيار الرسول له . . للقيام بأعظم وأروع مهمة فى الإسلام . . فقد ضحى من أجل الله ورسوله تضحيات تفوق كل وصف . . إذ ترك — وهو شاب يعيش فى ظلال الرغد والترف والرفاهية — كل ما يحظى به من نعيم الدنيا وطيباتها . . لينعم بحياة النور والطهر والشفافية . . ويحظى بقرب الله ورضوانه . . فحين أشرق قلبه بمحبة الله ورسوله . . صارت الدنيا . . بكل ما فيها من زخرف ومتاع . . لا تساوى عنده جناح بعوضة . .

كان مصعب بن عمير من الكوكبة الأولى التى اعتنقت الإسلام .. واستنارت بصيرتها بعقيدة التوحيد .. قادته قدماه ذات يوم إلى دار أرقم بن الأرقم على الصفا .. ليستمع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم إذ كانت مكة كلها تتحدث بدين جديد يبشر به محمد بن عبد الله .. وحين جلس مصعب أمام الرسول ، واستمع إلى بعض آيات من القرآن الكريم يتلوها النبى صلى الله عليه وسلم .. أحس بأن النور يمسح غشاوة الجاهلية عن قلبه ، فبسط يده إلى النبى وبايعه على الفور .. وكانت

لحظة مباركة شهدتها الملائكة التي تظلل دار الأرقم وتحف بها .. خرج بعدها مصعب ليواجه مسئوليته العظيمة ، ويحمل الأمانة الكبرى التي شرفه الله ورسوله بحملها .

بيد أنه كان يفكر فى أمر واحد .. ماذا يفعل إذا علمت أمه بأنه ترك دين آبائه وأجداده .. واتبع الدين الجديد ؟ .. إن أمه خناس بنت مالك امرأة ذات سطوة .. وذات جبروت .. ويخشاها مصعب أكثر مما يخشى أى إنسان .. فقرر أن يخفى إسلامه عنها فترة من الزمن .. ولكن أحد الذين يقتفون أثر الرسول من مشركى قريش وعبدة الأوثان علم بإسلام مصعب . فسارع إلى أمه وأخبرها الخبر .

انتفضت خناس غاضبة ثائرة محنقة مغيظة .. وأحست كأن جبال مكة سقطت على رأسها ودكتها دكا..فظلت ترغى وتزبد حتى دخل عليها ابنها مصعب .. فاستقبلته بوجه جهم .. ولسان يهدد بالثبور وعظائم الأمور .. وبالرغم من أن موقف مصعب كان قاسيا وعنيفا .. فإنه لم يتزعزع إيمانه . ولم تضعف عقيدته .. وإنما واجه ثورة أمه العاتية الضارية بعزيمة المؤمن الشجاع .. فقال لها : يا أماه .. إنى آمنت بالله ربا .. وبمحمد نبيا .. وبالإسلام دينا .. ولن أحيد عن هذا الدين .. فى تلك اللحظة نسيت خناس أمومتها ، ودفعت بابنها مصعب إلى غرفة مظلمة ومنعت عنه الطعام والشراب .

ولكن هذا الشاب المؤمن زاده الجوع والعطش إيمانا على إيمانه .. فصبر فى إصرار وتصميم .. ولما يئست الأم من عدم رجوع مصعب عن إسلامه .. بدأت تقدم له الطعام والشراب .. وظل محبوسا فى غرفته حتى واتته فرصة الهرب .. فانطلق مهاجرا إلى الحبشة .. وهناك فى مطارح الغربة تجرع مرارة الفاقة والإملاق .. ولكنه كان صابرا .. نعم العبد ..

ومرت الأيام بطاء ثقالا على مصعب .. ثم عاد إلى مكة .. وكان أول عمل كلفه به الرسول صلى الله عليه وسلم أن أرسله بعد بيعة العقبة إلى المدينة ليفقه الناس فى أمور دينهم .. ووجد أول داعية فى الإسلام نفسه يقوم بأروع وأعظم مهمة فى يثرب ، وكان من فضل الله على مصعب أن أقبل الأوس والخزرج على دين الله ، وبدأ الإسلام ينشر نوره فى المدينة .

ثم أذن الله لرسوله وللمسلمين بالهجرة من مكة .. وبدأت مرحلة الجهاد المسلح دفاعا عن دين الله .. وجاءت غزوة بدر . وخاضها مصعب مع القلة المؤمنة التى أيدها الله ونصرها نصرا عزيزا .. ثم جاءت غزوة أحد بعد عام واحد .. وكان مصعب حامل لواء الرسول فى هذه الغزوة .. وهنا وقف التاريخ ليتأمل أروع موقف وقفه مسلم مقاتل قبل أن يستشهد بلحظات .

كان اللواء مرفوعا فى يد مصعب .. والمعركة حامية الوطيس .. وبينما هو يتقدم الصفوف .. إذا بعدو من أعداء الله اسمه ابن قمئة .. ينقض عليه ويضربه على يده اليمنى فيقطعها .. ومصعب يقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .. ثم يأخذ اللواء بيده اليسرى ويحنو عليه .. فاذا بابن قمئة يضربه على يده اليسرى فيقطعها .. ورغم أن مصعب بن عمير أصبح بدون يدين .. فإنه ضم اللواء بعضديه إلى صدره ، وهو يقول : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .. وبعد ذلك أصبح فريسة لأعداء الله ، فانقضوا عليه وقتلوه .. وسقط البطل الشهيد مضرجا بدمائه الطاهرة .

ثم يكتمل المشهد الذى بهر التاريخ .. حين أراد المسلمون أن يكفنوه .. فلم يجدوا إلا بردة صغيرة .. إذا وضعت على رأسه تعرت رجلاه .. وإذا وضعت على رجليه برز رأسه .. فيقول لهم الرسول وعيناه تذرفان الدموع .. اجعلوها مما يلى رأسه .. واجعلوا على رجليه من نبات الأذخر ..

ثم نظر إليه الرسول وقال : لقد رأيتك بمكة .. وما بها أرق لمة ، ولا أحسن لمة منك .. ثم هأنتذا شعث الرأس فى بردة .

وهكذا لقى الشهادة أول داعية فى الإسلام .. وكانت وفاته صورة رائعة من حياته .. فقد لفظ أنفاسه وهو يحتضن لواء الرسول .. وروائح الجنة تفوح من حوله .. والملائكة تبشره برضوان الله ورحمته .

* * *

عبيدة بن الحارث

أول من عقدت له راية الإسلام

كـــان **من أقرب الرجال إلى قلب الرسول . . ومن أشدهم حباً له . . وبالرغم من أنه كان يكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر سنوات . . فإنه كان يجلس بين يدى الرسول فى أدب وحياء . . إجلالا لمقام المصطفى . . وتبجيلا لمكانته . . وإعظاماً لشأنه . . كان من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .. فغضوا أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وفتحوا عقولهم وقلوبهم لتلقى نور السماء . . وسنا الوحى . . وتعاليم الدين الحنيف . .**

أما اسمه بالكامل فهو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف . . أى تربطه بالرسول صلى الله عليه وسلم وشيجة الدم .. إلى جانب وشيجة الدين .. ومن ثم كانت له منزلة رفيعة عند الرسول .. ومكانة فريدة فى نفسه .. وكان عبيدة يتسم بالرجولة الحقة .. عقله حصيف يزن الأمور فى روية وأناة .. وقلبه شجاع يقتحم المخاطر فى ثبات وإقدام .. وعزيمته ماضية لايعتريها كلل ولا فتور ..

وقد أسلم عبيدة بن الحارث مع الآحاد الأوائل الذين لم يترددوا فى اتباع الرسول .. واعتناق دينه .. والأخذ بما أنزل عليه من السماء .. أى كان إسلامه قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم

ابن الأرقم .. الشاب الذى جعل من داره على الصفا مدرسة يعلم فيها الرسول مبادىء الدين وقيمه لكل من يدخل دين الإسلام ..

وبالرغم من أن عبيدة بن الحارث كان يرى بنظرات الغيظ والحنق من مشركى مكة .. فإنه كان لشموخه وقوة دينه وبدنه .. لا يأبه لطواغيت الشرك .. ولا يحفل بعبدة الأصنام . وظل على صلابته ومضائه .. حتى هاجر مع أخويه الطفيل والحصين إلى المدينة .. وصحبهما فى رحلة الهجرة مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب .. وقد استضاف الأربعة عبد الله ابن سلمة الأنصارى .. الذى استشهد بعد ذلك فى غزوة أحد ..

مرت على عبيدة بن الحارث ثمانية أشهر فى المدينة .. تزود خلالها من العلم والمعرفة فى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم .. كما ملأ عقله وقلبه ووجدانه نورا ويقينا ووثوقا بالله ورسوله ودين الإسلام ..

ثم دخل شهر شوال .. واختار الرسول صلى الله عليه وسلم عبيدة ابن الحارث أميرا لأول سرية فى الإسلام تضم ستين رجلا من المهاجرين .. وليس فيهم من الأنصار أحد .. وعقد الرسول صلى الله عليه وسلم بيديه الشريفتين الطاهرتين أول راية فى الإسلام .. وحملها مسطح بن أثاثة ..

انطلقت السرية إلى بطن رابغ .. حتى بلغت ماء الحجاز بأسفل ثنية المرة .. وهناك لقيت جمعا عظيما من قريش .. كان على رأسهم عكرمة ابن أبى جهل .. وقف الفريقان موقف المتحاربين .. ولكن لم يدر بينهما قتال .. غير أن سعد بن مالك رمى بسهم يومئذ .. فكان أول سهم رمى به فى الإسلام .. ثم انصرف الفريقان .. كل منهم إلى وجهته وغايته ..

وحين جاءت معركة بدر .. كان عقبة بن الحارث أسن المسلمين يومئذ .. فقد كان فى الثالثة والستين من عمره .. ومع ذلك كانت له عزيمة الشباب .. فما لبث أن اندفع فى وسط المعمعة .. يصول ويجول ويكبر ..

وإذ هو يميل على المشركين بسيفه يمنة ويسرة . . إذا بعقبة بن ربيعة يفاجئه بطعنة نجلاء تقطع رجله .. ويسقط البطل على أرض المعركة .. ولكن المجاهدين حملوه بعيدا عن حومة القتال .. فعاش ساعات قلائل .. ثم لقى الله ووجهه يضىء كالبدر ..

وبينما الرسول صلى الله عليه وسلم يمر ذات يوم بجوار قبر عبيدة .. وكان معه نفر من صحابته الأبرار .. إذا برائحة كرائحة المسك تملأ أنوفهم .. ويتطلعون ذات اليمين وذات اليسار .. فلا يعرفون مصدر هذه الرائحة .. فيقولون للرسول : إنا نجد ريح المسك . . فيقول لهم : وما يمنعكم وها هنا قبر عبيدة ابن الحارث ..

رحم الله عبيدة .. فإن قبره فى الصحراء ما زال ينضح عبيراً يدل على منزلته فى الجنة مع الشهداء والأبرار ..

* * *

نوفل بن الحارث

أول قاض فى الإسلام

كان

ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فأبوه هو الحارث ابن عبد المطلب . . إلا أنه كان أكبر من الرسول سناً . . بل أكبر من عميه : حمزة والعباس . . وهو وإن لم يدخل الإسلام مع طلائعه الأولى . . إلا أنه حين دخله . . وتذوق حلاوته . . أحس بنور الله يقشع غاشية الجاهلية من باطنه . ويرتفع بإنسانيته فوق مشارف الإنسان . . فيقبل على الله إقبال المشوق المتيم . . كل قطرة فى دمائه تتطلع إلى الأفق الأسنى . . وكل خاطرة فى ذهنه تتأمل وتنظر فى ملكوت السموات والأرض . . وهكذا يفعل الإسلام بمن يخلص فى عقيدته . . ويتخذ منها مشعلا هادياً فى الطريق إلى الله . .

وكان نوفل بن الحارث شاعرا مجيدا .. وكانت بعض ملامحه تشبه ملامح النبي .. ولم يعرف عنه فى الجاهلية أنه آذى الرسول بكلمة واحدة .. بل كان يكن لابن عمه كل إجلال وتوقير .. وكل مودة وحب .. رغم أنه لم يكن على دين محمد صلى الله عليه وسلم .. وأبلغ دليل على ذلك أنه حين أخرج المشركون من بمكة من بنى هاشم إلى « بدر » كرها .. نظم نوفل بن الحارث شعرا يصف فيه مشاعره حيال الرسول .. قال :

حرام على حرب أحمد . . إننى أرى أحمداً منى قريب أواصره
وإن تك « فهر » البت وتجمعت عليه فإن الله لاشك ناصره

ويشاء الحق تبارك وتعالى أن يقع نوفل بن الحارث أسيراً فى غزوة بدر . . وكان هذا الأمر نقطة تحول فى حياته . . من الظلمات إلى النور . . ومن الضلالة إلى الهدى . . ومن الوثنية إلى وحدانية الله . .

فحين رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال له : يانوفل أفد نفسك . . فقال له نوفل: بماذا أفدى نفسي يارسول الله ؟.. فقال له: أفد نفسك برماحك التى فى جدة . . وكان له هناك ألف رمح . . وكان الرسول يريد أن يزود بها المجاهدين . . استعداداً للدفاع عن دين الله . . فماذا فعل نوفل بن الحارث.. أعلن إسلامه أولا . . حيث قال : أشهد أن لا إله إلا الله . . وأن محمداً رسول الله . . ثم قال للرسول : إن كل ما أملك من رماح وهبتها لله ورسوله .

عاد نوفل بن الحارث بعد إسلامه إلى مكة ليصفى تجارته فيها . . وكان شريكاً لعمه العباس فى هذه التجارة . . يتقاسمان الجهد والربح . . وكان العباس قد أسلم سراً . . وأخفى إسلامه . . وما إن علم بإسلام نوفل . . حتى سارع معه بتصفية التجارة ليلحقا برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وبعد أن فرغا من مهمتهما هاجرا إلى المدينة . . وكانت الأحزاب تقوم بحصارها فى ذلك الوقت . . وما لبثا أن شهدا آية الله تتمثل فى صورة إعصار رهيب مدمر . . يجعل من الأحزاب أثراً بعد عين . .

انضم نوفل إلى قافلة المجاهدين . . وشهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، وغزوة حنين . . وكان يومئذ عن يمين الرسول . . لم يتزحزح من مكانه قيد شعرة . . كما أنه قدم للرسول يوم حنين ثلاثة آلاف رمح . فقال له المعصوم صلى الله عليه وسلم : كأنى أنظر إلى رماحك يا أبا الحارث تقصف فى أصلاب المشركين . .

وفى أثناء الفترة التى أمضاها نوفل بن الحارث فى المدينة .. قبل أن ينتقل سيد الخلق إلى الرفيق الأعلى . . كان نوفل يصلى الفرائض كلها خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ويحضر مجلسه .. ويستمع إليه .. ويحفظ الكتاب والحديث . . حتى استوعب الشريعة حفظاً وفهماً ودراية . . مما أهله لتولى منصب القضاء . . وكان أول قاض فى الإسلام . .

وقد روى المؤرخون أكثر من رواية عن الفترة التى تولى فيها القضاء بالمدينة . . وأياً كان الأمر فإنه أول من ولى هذا المنصب العظيم . . إلا أنه كان يرتجف من هيبة الله . . ويرتعد من خشيته . . خيفة أن يخطىء فى حكم . . مع أنه يعلم أن المجتهد إذا أصاب فله أجران . . وإذا أخطأ فله أجر واحد . . وكان يتمثل دائماً قول الرسول : من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين . . وقوله صلى الله عليه وسلم : إذا ابتلى أحدكم بالقضاء . . فليسو بين الخصوم فى المجلس والإشارة والنظر . . فلا يرتفع صوته على أحد الخصمين أكثر من الآخـــر . .

إذن القضاء ابتلاء من الحق تبارك وتعالى لعبده المؤمن . . فعليه أن يتحسس كل كلمة يقولها . . حتى لا يخرج عن حكم الله . . وقد حذا نوفل حذو معاذ بن جبل فى أخذه بوصية الرسول له حين بعثه إلى اليمن . . قال له : يامعاذ . كيف تقضى ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله تعالى . . قال : فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ؟ قال أقضى بسنة رسول الله . . قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد برأيى . . قال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله . لما يرضى رسول الله . .

وضع نوفل بن الحارث كل هذا نصب عينيه ، وهو يعقد مجلس القضاء فى المسجد . . وظل يقضى بأحكام الشريعة كما فهمها عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم . . حتى شاءت رحمة الله أن تصعد به إلى منازل الأبرار والصديقين . . ففاضت روحه الشفافة الوضيئة إلى بارئها عز وجل . . بعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة بسنة وثلاثة أشهر . وكان دفنه يوماً مشهوداً . تقدم عمر بن الخطاب الجنازة حتى دفن جثمان نوفل فى تراب البقيع . . وهبطت الملائكة تظلل بأجنحتها قبراً يضوع منه الرضوان . . وتعبق الرحمة.. وتتنزل عليه نفحات السماء . .

* *

عبدالله بن الزبير

أول مولود للمسلمين بعد الهجرة

كبر

النبي صلى الله عليه وسلم . . وكبر معه المسلمون فى المسجد . . حين بلغه نبأ مولد طفل للزبير بن العوام . . وانطلقت الفرحة تعم أرجاء المدينة المنورة . . حتى دخلت كل بيت من بيوت الأنصار . . ذلك لأن مولد هذا الطفل فى السنة الأولى من الهجرة قضى على أسطورة أطلقها اليهود بأنهم سحروا المسلمين وأصابوهم بالعقم . . وحملت أسماء بنت أبى بكر وليدها عبد الله وذهبت به إلى النبى صلى الله عليه وسلم ووضعته فى حجره . . فدعا بتمرة فمضغها . . ثم تفل فى فمه . . فكان أول شىء دخل جوفه هو ريق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم دعا له الرسول بالبركة . .

وفى بيت أبوين ورعين تقيين نشأ عبد الله نشأة طاهرة . . وما إن بلغ مرحلة الوعى وإدراك ما حوله من الأشياء حتى طلب إليه والده أن يبايع النبى على السمع والطاعة . . شأن المؤمنين . . فذهب الطفل إلى الرسول وبايعه . . ودعا له الرسول بالخير . . وكان الزبير يصحب ابنه إلى المسجد ليؤدى الصلاة . . كما كان يدربه على المبارزة وفنون القتال فى سن مبكرة . . وهكذا بث الزبير فى وجدان عبد الله الشجاعة والبسالة والبطولة . . حتى درج نحو الصبا لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا . .

وهناك حادثة صغيرة تدل على مدى ما كان يتمتع به عبد الله منذ صباه من شمم وعزة نفس . . ذلك أنه كان يلعب فى أحد شوارع المدينة مع صبية من أترابه . . وإذا بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يمر من الشارع نفسه . . فتفرق الصبية من هيبة عمر ، . إلا عبد الله فإنه ظل واقفاً لم يبرح مكانه . . وهنا تعجب عمر وسأله : لماذا لم تدع الطريق مثل باقى الصبية ؟ فقال له عبد الله : ياأمير المؤمنين . . لست ظالماً فأخافك . . وليس الطريق ضيقاً فأوسعه لك . . فربت عمر كتف الصبى وقبله . . وقال للزبير : إن ابنك هذا سيكون له شأن عظيم . .

وتمضى الأيام . . ويزحف المسلمون شرقاً وغرباً لفتح الأمصار . . ويذهب الزبير بن العوام إلى الشام ليشترك فى معركة اليرموك . . وأراد أن يلقن ابنه درساً فى فنون القتال ، فاصطحبه معه . . وشهد عبد الله المسلمين وهم يخوضون معركة ضارية . . بعزيمة لا تفل . . وبسالة لا تخبو . . ثم يدحرون الروم رغم كثرة عددهم وعتادهم . . ويحققون نصر عزيزاً . .

كانت مطامح عبد الله لا تقف عند حد . . فقد تمنى بعد معركة اليرموك أن يتولى قيادة أحد الجيوش . . ويقاتل فى سبيل الله . . وصارح والده بهذه الأمنية . . فابتسم وقال له : إن عمر بن الخطاب تنبأ لك بمستقبل عظيم . . وستصدق نبوءة عمر إن شاء الله . . فإننى أرى فيك فتى جلداً . .

وشاء الله أن يكشف عن موهبة عبد الله العسكرية . . وعن فكره الصائب فى العمليات الحربية . . فقد أرسله أمير المؤمنين عثمان بن عفان أميراً على سرية إلى أفريقيا (ليبيا والمغرب والجزائر الآن) لمعاونة الجيش الذى يقوم بمحاربة البربر فيها . . وعندما وصل عبد الله بفرقته إلى ميدان القتال علم أن الحرب تبدأ كل يوم من طلوع الشمس . . إلى منتصف النهار . .

ثم يعود كل جيش إلى مقره اتقاء حر الظهيرة . . وهنا تفتق ذهن عبد الله عن حيلة بارعة ماكرة . . فقد طلب إلى قائد الجيش أن يحارب بنصف الجنود فقط فى أول النهار . . ثم يحارب بالنصف الثانى حين يحاول العدو العودة عند الظهر . .

وكانت خطة محكمة ولا شك تدل على عبقرية فريدة فى إدارة المعارك . . فقد التحم الجيشان كعادتهما كل يوم عند طلوع الشمس . . ولما حان وقت الظهيرة استدار جيش العدو عائداً . . فانقض عليه المسلمون . . وأعملوا فيه السيوف . . ومزقوه شر ممزق . . وتمكن عبد الله بن الزبير من اقتحام صفوف البربر . . وهجم على ملكهم جرجير . . وطعنه طعنة نجلاء أودت بحياته . . وكان مصرع هذا الملك نهاية المعارك التى خاضها المسلمون فترة طويلة دون أن يحققوا النصر المنشود . .

كان عبد الله بن الزبير منذ فجر شبابه يعد نفسه لأن يكون قائداً وزعيما . . وكان حلم الخلافة يراود ذهنه . . ولبث ينتظر تحقيق هذا الحلم حتى واتته الفرصة بعد موت معاوية ويزيد من بعده . وخلا له الميدان باستشهاد الحسين . . فقام يدعو لنفسه . واستجاب له أهل الحجاز فى البداية . . ولكن عبد الملك بن مروان . بعث إليه بجيش على رأسه الحجاج الثقفى . . وكانت مأساة يندى لها جبين التاريخ . . فقد حاصر الحجاج مكة . . ولما لاذ عبد الله بن الزبير بالكعبة رماها الحجاج بالمنجنيق . . فاستشهد عبد الله بجوارها . . وسال دمه الزكى على أديم بيت الله المحرم . .

ولما علم جيش الحجاج بمصرع عبد الله بن الزبير ضج بالتكبير فقال عبد الله بن عمر : إن المكبرين يوم ولد . . خير من المكبرين يوم قتـــل . .

لقد شاء الله أن يستقبل حياته بالتكبير .. ويودع حياته بالتكبير . . ولكن شتان بين تكبير الفرح . . وتكبير الشماتة . . لقد كان استشهاده يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ثلاث وسبعين هجرية ، وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .. كانت كلها ورعاً وتقوى وجهاداً فى سبيل الحق . .

* * *

خبيب بن عدى

أول من صلى ركعتين قبل قتله

ستظل

صورته تهز وجدان التاريخ . . كما هزت وجدان القبائل جميعاً فى عصره وبعد عصره . . إن الهيئة التى استشهد عليها كانت غريبة على العرب . . ومع ذلك لقى الموت . . وهو باسم . . ونفسه راضية مرضية . . حاولوا أن يثنوه عن الإسلام لقاء العفو عنه . . وإخلاء سبيله . . فآثر الموت شهيداً . . على الحياة فى ظل الوثنية والكفر . . وساقه الجلادون إلى المقصلة . . والسيوف مشرعة من حوله . . فلم تظهر عليه علامات الوجل وإنما كان يتلو بعض آيات القرآن الكريم فى هدوء وأنـاة . .

هذا هو خبيب بن عدى الذى ذهب فى سرية عاصم بن ثابت لاستطلاع حال قريش . . والوقوف على أسرارهم . . ولكن السرية ما كادت تمر بحى بنى حيان — وهو أحد أحياء هذيل — حتى خرج أبناء الحى يطاردونهم فى وحشية . . ليستولوا على إبلهم ومتاعهم . . ودرات معركة بين أفراد السرية وبين قطاع الطريق من هذيل .. أسفرت عن استشهاد سبعة من أفراد السرية . . ثم استشهد بعد ذلك الرجل الثامن . . وأصبح خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وحدهما أمام هذا الجمع الحاشد من القتلة والسفاكين أعداء الله ورسوله .

وانتهى الأمر بأخذهما أسيرين . . وعرضهما للبيع فى سوق النخاسة بمكة. فسارع بنو الحارث بن نوفل بشراء خبيب . ودفعوا فيه ثمناً باهظاً . . لأنهم كانوا يمقتونه أشد المقت ويكرهونه أعمق الكراهية . . فهو الذى قتل أباهم فى معركة بدر . . ولم يستطيعوا الأخذ بالثأر منه . . لأن المسلمين كانوا يزدادون كل يوم قوة وسلطاناً .. فى حين تزداد قريش ضعفاً وهواناً . ووجد بنو الحارث أن الفرصة قد واتتهم للأخذ بالثأر من قاتل أبيهم . . حبسوا خبيباً فى غرفة مظلمة . . ومنعوا عنه الطعام والشراب . . ولكن الله أطعمه وسقاه . . والرواية هنا لابنة الحارث التى حبس خبيب مقيداً فى بيتها . . فقد قالت – كما ورد فى جميع كتب التاريخ – أنها رأت خبيباً يمسك بقطف من العنب مثل رأس الرجل يأكل منه .. فى الوقت الذى لا يوجد بمكة كلها عنب .

وحين انقضت الأشهر الحرم . . وحل اليوم الذى حددوه لقتل خبيب . جىء به إلى مكان اسمه التنعيم . . ودعى أهل مكة لشهود قتل خبيب . . وقبل أن يصلبوه على جذع نخلة – وهذه أول مرة يقتل فيها إنسان فى الجزيرة العربية بعد أن يصلب – سألوه عما إذا كان يريد شيئاً . . فقال لهم : أصلى ركعتين لله . . .

ووقف خبيب يصلى ركعتين لله . . ويقول لولا أننى خفت أن يقال إنه جزع من الموت . . لأطلت فى الصلاة . . لأننى أجد حلاوة فى مناجاة ربى .. لاتعادلها حلاوة . . وبعد أن فرغ من الصلاة سألوه عما إذا كان يريد أن يرجع عن دينه .. مقابل العفو عنه .. فأنشد قصيدة نورد منها هذه الأبيات :

لقد جمع الأحزاب حوالى وألبوا
قبائلهم . . واستجمعوا كل مجمع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم
وقربت من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى
وما جمع الأحزاب لى عند مصرعى

وقد عرضـوا بالكفـر . . والموت دونه
وقد ذرفت عيناى من غير مدمـع
ولست أبالى حـين أقتـل مسـلماً
على أى جنب كان فى الله مضجعـى

ثم نظر إلى السماء وقال : « اللهم قد بلغنا رسالة رسولك . . فبلغ رسولك الغداة ما يصنع بنا . . اللهم أحصهم عدداً . . واقتلهم بدداً . . ولا تغادر منهم أحداً . . » ثم لقى الشهادة بعد ذلك . .

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث للسرية بعث ببعض رجال الأوس الذين منهم خبيب فدفنوه هناك . . ولكن سيرته العاطرة . . ما فتئت فواحة بالعبق . وما زال استشهاده نموذجاً فريداً للشهداء الأبرار . .

* * *

المثنى بن حارثه

أول قائد عربى مسلم واجه الفرس

كـــان فى مقتبل الشباب عندما قدم مع وفد بنى شيبان على النبى صلى الله عليه وسلم فى عام الوفود وأعلن إسلامه . . وكان يتطلع إلى فتح مملكة فارس التى تجاور بلادهم ، أى تقع قراهم على حدودها . .

ولكن لم تتحقق له هذه الأمنية فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . . وعقب انتقال النبى إلى الرفيق الأعلى كان المثنى قد عقد العزم على تحقيق الحلم الذى رواه طويلا . . فحضر إلى المدينة المنورة ، والتقى بأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وعرض عليه فكرة فتح مملكة فارس .

وكانت أول مرة يزحف فيها جيش مسلم إلى أرض العراق حيث يسيطر الفرس ، وحيث يمثلون إحدى القوتين الكبيرتين فى العالم ، فقد كانت القوة الثانية هى الروم . .

وفوجىء الفرس بهذا البدوى يقود جيشاً ويقتحم بلادهم ، ويرفع راية الإسلام فيها . ودرات معارك طاحنة بين المسلمين والفرس ، استخدم فيها الفرس الفيلة لكى يرهبوا خيل المسلمين . . ولكن المسلمين كانوا أشد بأساً وأقوى عزيمة ، فهزموا الفرس فى عدد من المعارك . . بيد أنهم عندما توغلوا داخل بلاد الفرس ، وكان عددهم قليلا ، وجدوا أنهم أصبحوا فى حاجة لمساعدة عسكرية . .

بعث المثنى برسالة إلى أبى بكر الصديق يصف له موقف الجيش وطلب مدداً عسكرياً لكى يسير الفتح فى طريقه المرسوم . . وعلى الفور بعث الصديق جيشاً بقيادة خالد بن الوليد ، واهتزت مملكة فارس فزعاً حين علمت بقدوم خالد ، لأن بطولته كان يسير بذكرها الركبان ، وتحقق ما توقعوه . .

فقد سار الجيش الإسلامى بقيادة خالد والمثنى من نصر إلى نصر ولم يستطع الفرس الصمود فى معركة واحدة . . وقد تمكن المسلمون من فتح الحيرة ورفع لواء الإسلام عليها . . إلا أنه كانت هناك مفاجأة تنتظر خالد ابن الوليد . . فقد كان موقف المسلمين قد تأزم فى الشام ، وأصبح يتطلب نجدة سريعة . .

صدرت التعليمات من أبى بكر الصديق إلى خالد بن الوليد فى العراق أن يذهب بنصف الجيش إلى الشام للانضمام إلى جيش المسلمين ومحاربة الروم . . وهنا ظهرت عبقرية المثنى العسكرية . . فقد كانت مهمته أن يحافظ على المكاسب التى حصل عليها ، وأن يحافظ بالتالى على جيشه : فماذا يفعل ؟

لم يخرج من مدينة الحيرة واكتفى بأن يقوم بمناوشات ضد الفرس ، بحيث يظل على هيبته ومكانته ، ويظل الفرس على ضعفهم وخوفهم واستخذائهم . .

وشاء الله سبحانه وتعالى أن يحفظ للمثنى المكاسب العسكرية التى ظفر بها . وأن يقف صامداً ضد الفرس بعزم لا يلين . . وفى الوقت نفسه انتصرت جيوش المسلمين على الروم ، مما أدخل الرعب فى قلوب الفرس ، وانتظروا نفس المصير الذى لقيه الروم .

وحفظ التاريخ للمثنى أنه أول قائد عربى مسلم واجه الفرس ومهد للفتح الإسلامى فى تلك المملكة الشاسعة ، واستبدل أهلها بعبادة النار عبادة الله ، وأصبحت بغداد ذلك إحدى العواصم الإسلامية التى يؤمها الفقهاء والعلماء وينشرون منها العلم على العالم كله .

محمد بن طلحة

العابد الذى استشهد مع أبيه فى يوم واحد

فى

بيت من أكرم بيوت المجاهدين فى عهد الرسول . . صلى الله عليه وسلم . . ولد محمد بن طلحة بن عبيد الله . . ونما وترعرع فى ظل الجهاد . . وعلى عينى والد شجاع مؤمن .. قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض . . فلينظر إلى طلحة ابن عبيد الله . . وكان أول شىء رآه الطفل بعد قدومه إلى الدنيا هو وجه النبى صلى الله عليه وسلم . . فقد جىء به إلى الرسول عقب مولده . . فقال لهم : ماذا سميتموه ؟ : فقالوا : محمد . . فقال : هذا سمى . . وكنيته أبو القاسم . . ودعا له بالخير والبركة . .

وما كاد محمد بن طلحة يشب عن الطوق . . حتى اتجه إلى العبادة . . والاستغراق فى السجود . . وقد حفظ القرآن على يدى والده . . الذى كان من السابقين الأولين فى الإسلام . . وكان من العشرة المبشرين بالجنة . . ومن الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى . . كما أنه أبلى يوم أحد بلاء حسناً . . ووقى الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه . . واتقى عنه النبل بيده حتى شلت إصبعه . . وحمل الرسول على ظهره حتى استقر على صخرة بعيداً عن مرمى النبال . . فقال الرسول ساعتها : أوجب طلحة . . أى عمل عملا أوجب له الجنـــة . .

ربى طلحة ابنه محمداً تربية سامية نقية جعلته ربانياً . . لا يشغله شيء من متاع الدنيا وزينتها عن ذكر الله وتلاوة القرآن.. وكان إذا دخل فى الصلاة تستغرقه مناجاة الله حتى ينسى كل شيء حوله . . حتى إنه كان لا يعلم كم مضى من الوقت . . ولذلك لقبه الصحابة بالسجاد . . أى كثير السجود لله عز وجل . . وكان لا يكتفى بما يسمع من والده طلحة عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وإنما كان يذهب إلى خالته زينب بنت جحش . . ويجلس إليها . . ويستمع منها إلى ما كان يقوله الرسول . . وكيف كان يتعبد فى بيته . . وكيف كان يعامل أهله وخدمه . . وكيف كان يتلقى الوحى . . وكان هذا يعطيه شحنة إيمانية تزيده حباً فى الله ورسوله . . وإقبالا على العبادة صلاة وصياماً . . وبعداً عن ملذات الدنيا . . وشهوات النفس . . والتزاماً بالصراط المستقيم فى كل قول أو عمل . .

وكما حفظ محمد بن طلحة كتاب الله .. وكان يتدبر آياته فى أثناء تلاوته . فقد حفظ كذلك الكثير من أحاديث الرسول . . واتخذ منها منهاجاً . . ولذلك ارتفع بذاتيته عن دنيا الناس . . فكان يكتفى بالقليل من الزاد . . والبسيط من الثياب . . والمتواضع من المسكن . . رغم أن الله منحه من متاع الدنيا ما يجعله فى عداد الموسرين . . ولو شاء لأترف . . وارتوى من نبع الرفاهية . .

وكما كان محمد بن طلحة مترفعاً بسلوكه الربانى عن مباهج الحياة ولذائذها .. فقد كان كذلك مترفعاً عن الخوض فيما تغشى حياة المسلمين من فتن بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى . . فعندما قتل أمير المؤمنين عثمان ابن عفان فى بيته . . وهو يقرأ القرآن . . والمصحف فى حجره . . كان محمد بن طلحة يتساءل . . والدموع منهلة من عينيه . . ولحيته مخضلة بها . . عمن قتل أمير المؤمنين . . وهل كان محمد بن أبى بكر مع القتلة . . أم تلك شائعة أراد بها الآثمون أن يصرفوا الأنظار عن الجانى الحقيقى . . ولما تبين أن ابن الصديق لم يكن بينهم . . قرت بلابله . . وسكنت لواعجه . . لأنه كان يستبعد أن يشترك ابن الصديق فى قتل أمير المؤمنين . .

وكان استشهاد عثمان بداية فتنة شعواء ما لبثت أن مزقت صفوف المسلمين : . فقد بايع المسلمين الإمام علياً بالخلافة . . ولم يشذ عن هذه البيعة إلا معاوية وأهل الشام . . وجرت الأحداث سراعاً . . وكانت موقعة الجمل التى اشتركت فيها أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها . . وطلحة ابن عبيد الله وابنه محمد . . والزبير بن العوام . . ضد الإمام على . . وكان بنو أمية يعتقدون أن طلحة ممن أعانوا على قتل عثمان بن عفان . . ولذلك فإنه بالرغم من انحيازه إليهم فى هذه المعركة . . إلا أنهم وجدوا الفرصة سانحة للأخذ بالثأر منه . . فقد سدد مروان بن الحكم سهماً إلى طلحة وهو يصيح : لا أطلب بثأرى بعد اليوم . . وأصيب طلحة فى مقتل . . وسقط شهيداً . .

أما محمد بن طلحة . . فقد كان هواه مع الإمام على . . إلا أنه اشترك فى القتال ضده . . طاعة لأبيه . . ولكنه لم يحاول أن يقتل إنساناً . . وكان إذا حمل عليه رجل يقول له : نشدتك بحاميم . . فيتنحى عنه . . حتى جاءه رجل فظ غليظ القلب اسمه عصام بن مقشعر النصرى – على أرجح الأقوال – ولم يأبه بقوله له : نشدتك بحاميم . . إذ حمل عليه هذا الرجل . . وطعنه طعنه قاتلة . . ما لبث أن سقط بعدها مضرجاً بدمه الذكى . . ووقف القاتل ينشد أبياتاً من الشعر . . منها :

وأشعث قوام بآيات ربه
قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
دلفت له بالرمح من تحت نحره
فخر صريعاً لليدين وللفم
يذكرنى حاميم لما طعنته
فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وهكذا شهد قاتله . . بأنه قتل عابداً يقوم بآيات الله . . وأنه ناشده بحاميم فلم يستمع إليه ولم يستجب له . .

وبعد أن انتهت المعركة . . وبينما الإمام على . . وابنه الحسن . . ومحمد ابن أبى بكر . . وعمار بن ياسر . . يطوفون فى القتلى . . إذ أبصر الحسن قتيلا مكبوباً على وجهه . . فأكبه على قفاه . . ثم تنهد وقال : إنا لله . . وإنا إليه راجعون . . هذا فرع قريش والله . . فقال له أبوه : ومن هو يابنى ؟ . . فقال : محمد بن طلحة . . فقال الإمام على : إنا لله . . وإنا إليه راجعون . . هذا السجاد ورب الكعبة . . لقد كان شاباً صالحاً . . ثم قعد كئيباً حزيناً . . فقال له الحسن : ياأبت . . كنت أنهاك عن هذا المسير . . فغلبك على رأيك فلان وفلان . . قال : قد كان ذلك يابنى . . فلوددت لو أنى مت قبل هذا بعشرين سنة . .

ويشاء الله أن يدفن طلحة وابنه فى بقعة واحدة . . شهيدين تفتح لهما السماء أبواب الرحمة والرضـــوان . .

* * *

عبدالله بن مسعود

أول من جهر بالقرآن أمام قريش

كــان من السابقين الأولين فى الإسلام . بل كان سادس ستة اعتنقوا الدين الحنيف ولما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . . رأى إحدى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم فانبهر وأسلم دون أن يتردد ، وظل ملازماً للرسول طوال حياته حتى انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى ، وكان عبد الله بن مسعود قد أصبح حجة فى حفظ القرآن ، لأنه سمعه من فم النبي ، وحفظه كما سمعه . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل ، فليقرأ قراءة ابن أم عبد » .

أما كيف أسلم فإنه رأى شيئاً عجباً يرويه هو بنفسه فيقول :

« كنت غلاماً يافعاً أرعى غنما لعقبة بن معيط ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وقد فرا من المشركين ، فقال : يا غلام . هل عندك من لبن تسقينا ؟ . فقلت : إنى مؤتمن ولست ساقيكما . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل ؟ قلت : نعم . فأتيته بها ، فاعتقلها النبي صلى الله عليه وسلم ، ومسح الضرح ودعا ، فحفل الضرع ، ثم أتاه أبو بكر بصخرة متقعرة . فاحتلب فيها فشرب ، ثم شرب أبو بكر ، ثم شربت ، ثم قال النبي للضرع أقلص فقلص ، فأتيته بعد ذلك فقلت : علمنى هذا القول . قال : إنك غلام معلم ، فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعنى فيها أحد » .

ومنذ اللحظة الأولى للقائه بالرسول ومشاهدته هذه المعجزة أصبح عبد الله ابن مسعود على درجة عالية من الإيمان ، وامتلأ كيانه بنور الحق ، ولازم النبي .. حتى إنه كان يحفظ الوحى أولا بأول ويتلو القرآن كما سمعه منه ، وكان أول من جهر بالقرآن أمام قريش دون أن يخشى غضبهم وثورتهم عليه.. كان شاباً نحيل الجسم هزيلا لا يملك من متاع الدنيا شيئاً . . ومع ذلك كان يحس بقوة من ربه تجعله شجاعاً يواجه أخطر المواقف . . فقد كان أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يتمنون أن تسمع قريش القرآن . . ولكن من الذى تواتيه الجرأة على قراءته أمامهم . . إنه موقف يحتاج إلى شجاعة وتضحية . . فقريش تتميز غيظاً من الدين الجديد ، ولاشك أن من يجاهر بالقرآن الذى يدعو إليه هذا الدين سيتعرض لأذى قريش . . ولكن سرعان ما تحققت أمنية الصحابة ،وأعلن عبد الله بن مسعود أنه سيقرأ القرآن جهراً عند الكعبة . . ويروى يحيى بن أمية هذا الموقف فيقول :

« كان عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم . . فقد اجتمع يوماً أصحاب النبى وقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط .. فمن رجل يسمعهم إياه ؟ فقال عبد الله بن مسعود أنا . قالوا : إنا نخشاهم عليك . إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دعونى . فإن الله سيمنعنى . وغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها . فقام عند المقام ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم (رافعاً بها صوته): «الرحمن علم القرآن» . ثم استقبلهم يقرأها . فتأملوه قائلين : ماذا يقول ابن أم عبد . إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . . فقاموا إليه وجعلوا يضربون وجهه ، وهو ماض فى قراءته ، حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . . ثم عاد إلى أصحابه مصاباً فى وجهه وجسده . فقالوا له : هذا الذى خشيناه عليك . فقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن . ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا . . قالوا له : حسبك . فقد أسمعتهم ما يكرهون » .

هذا الموقف العظيم يبين مدى إقبال عبد الله بن مسعود على التضحية من أجل الله ورسوله . . لقد واجه هذا الشاب الفقير المعدم الذى لا عشيرة له . . قريشاً بكل مالها من جبروت وسلطان ، واحتمل الأذى راضياً فى سبيل أن يسمعهم ما يكرهون . .

وعندما أذن النبي لبعض أصحابه بالهجرة هاجر عبد الله بن مسعود الهجرتين . . وكان قد بلغ مبلغ الرجال . . ثم عاد إلى مكة بعد أن ازداد عدد المسلمين ، وأخذ الإسلام يكتسب قوة وعزة ومنعة . . ولما أذن الرسول بالهجرة إلى المدينة.. هاجر عبد الله بن مسعود ونزل على معاذ بن جبل .. وهناك آخى النبي بين المسلمين . . فآخى بين عبد الله بن مسعود والزبير بن العوام من المهاجرين ، وبينه وبين معاذ بن جبل من الأنصار . وكان حظه موفوراً من القرب من النبي ، فقد بنى بيته بجوار مسجد الرسول . .

هذه النعمة التى أنعم الله بها على ابن مسعود جعلت الصحابة يتمنون لو كان لهم شيء منها . . فقد كانوا يقولون : إنه ليدخل إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا . . ويعنون بذلك إنه كان يحظى أكثر منهم بالقرب من الرسول . .

ومما يدل على شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود أنه كان يطلب إليه أن يقرأ عليه بعض آيات من القرآن الكريم . . وذات يوم قال له الرسول : اقرأ على ياعبد الله . . فقال بن مسعود : اقرأ عليك . . وعليك أنزل يارسول الله . . فقال له النبي : إنى أحب أن أسمعه من غيري .

* * *

الزبير بن العوام

أحد العشرة المبشرين بالجنة

لم ترفعه قرابته للرسول صلى الله عليه وسلم إلى مرتبة البررة الأطهار . . وإن كان الانتماء للرسول شرفاً ما بعده شرف . . وإنما رفعه جهاده وولاؤه لله ورسوله والدين الحنيف إلى أعلى قمة بين المؤمنين الصادقين . . فقد هيأه الله منذ نعومه أظفاره لأن ينعم بنور السماء . . والإسلام يرسل أول أشعته الهادية الصافية على الجزيرة العربية . . فيقشع ظلماتها شيئاً فشيئاً . .

اعتنق الزبير بن العوام الإسلام . . وهو شاب غض الاهاب لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره . . وكانت حماسته للدين الجديد تفوق كل وصف . وكان حبه للرسول صلى الله عليه وسلم يملأ وجدانه . . ويفيض على كل مشاعره وأحاسيسه . وبالرغم من أن عمه كان يبطش به .. ويسومه سوء العذاب . . ليرجع عن الإسلام . . فإن العقيدة كانت قد تمكنت من نفسه فرفض أن يستجيب لعمه . . واحتمل من العذاب ما لا طاقه لأحد بمثله . . كان عمه يخزه بالرمح حتى يدمى جسده . . وكان يلقيه على الرمال الساخنة فى وهج الظهيرة . . وكان يمنع عنه الطعام والشراب . . وكان يحبسه فى غرفة مظلمة . . ومع ذلك كان الزبير بن العوام . . صابراً جلداً .

يقول لعمه . افعل ما شئت . . فو الله . . لن أرجع إلى الكفر أبداً . .

ويحكى أحد الصحابة عن علامات التعذيب التى رآها فى جسد الزبير ابن العوام . . فيقول : صحبت الزبير بن العوام فى بعض أسفاره . . ورأيت جسده . . فإذا هو مجذع بالسيوف . . وإن فى صدره لأمثال العيون الغائرة من الطعن والرمى . . ولما سألته . . قال لى : « والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله . . وفى سبيل الله » . . كان بعض هذه الجراح من التعذيب . . وبعضها من أثر المعارك . .

ولفرط ما عانى الزبير بن العوام من الاضطهاد والتعذيب . . فإنه هاجر الهجرتين إلى الحبشة . . ثم عاد وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها . . لم يتخلف عن غزوة واحدة . . وكان له فى يوم أحد موقف رائع فى تاريخ البطولات . .

فبعد أن هزم المسلمون لمخالفة الرماة أمر النبى صلى الله عليه وسلم . . قرر الرسول أن يقوم بعمل عسكرى محدود . . لينزل الرعب فى قلوب قريش . . حتى لا تعود لغزو المدينة من جديد . . كلف أبا بكر والزبير أن يقتفيا أثر قريش فى سبعين رجلا من المسلمين .. ومتى رأت قريش هذه القوة تقتفى أثرها فإنها ستتصور على الفور أن النبى صلى الله عليه وسلم أعد جيشاً لدخول معركة جديدة . . فتؤثر السلامة . . وتعود إلى مكة . . وفعلا نجحت هذه الخطة . . ورجعت قريش . .

وكما أن هذا كان عملا فدائياً من الدرجة الأولى . . فإن هناك عملا فدائياً آخر اشترك فيه الزبير بن العوام مع الإمام على كرم الله وجهه . . كان ذلك فى أثناء حصار المسلمين لبنى قريظة بعد أن نقضوا عهدهم مع الرسول. فقد استمر الحصار بضع عشرة ليلة . . وكان لابد من مغامرة لفتح الحصن . . فلم يتردد الإمام على والزبير بن العوام فى القيام بها . . ونجحت المغامرة . . وفتح الحصن . . ودخل منه المسلمـــون . .

ولذلك فلا عجب أن ينزل الزبير بن العوام من نفس الرسول منزلة كريمة .. لا لأنه ابن عمته .. ولا لأنه زوج أسماء بنت أبي بكر .. ولكن لأنه المؤمن المجاهد الفدائي .. الذى كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .. وكان لا يخرج من معركة إلا وفى جسده جراح جديدة .. ومع ذلك كان حبه للجهاد .. لا يفتر ولا يخبو .. بل كان يزداد قوة وحرارة .. وبلغ من شدة حبه للجهاد والاستشهاد أن سمى كل أولاده بأسماء الشهداء الذين باعوا أموالهم وأنفسهم لله . وجادوا بأرواحهم فى ميدان القتال .. وآثروا الآخرة على الدنيا ..

وكما كان الزبير بن العوام متفوقا فى بطولته .. فقد كان متفوقا كذلك فى تجارته .. كان يجنى منها الأرباح الطائلة .. ولكنه ينفقها فى وجوه البر .. ويجود بها على الفقراء والمساكين .. ويشترى السلاح لمن لا يملك السلاح من المسلمين .. حتى إنه لم ينفق أرباح تجارته فحسب .. وإنما أنفق رأس المال أيضا .. ومات مدينا .. لم يكن يهمه أن يكون صاحب قصور فى الدنيا . . وإنما كان كل همه أن ينال مرضاة الله . . ويكون صاحب قصور فى الجنة ..

ظلت شعلة الحماسة متقدة فى نفس الزبير بن العوام حتى بعد أن جاوز مرحلة الشباب .. وقد من الله عليه بالشهادة فى موقعة الجمل .. فبينما كان قائما يصلى إذا برجل اسمه عمرو بن جرموز يطعنه طعنة نجلاء تودى بحياته .. وحين يبلغ النبأ على بن أبى طالب تنهمر عيناه بالدموع .. ويقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « طلحة بن عبيد الله .. والزبير بن العوام جاراى فى الجنة » ..

.. رحم الله الزبير بن العوام .. فإنه ينعم الآن بجوار الرسول فى الجنة .. وما أعظمه من جوار ..

* * *

سَعيد بن زيد

أحد العشرة المبشرين بالجنَّة

شهد

فى طفولته أمراً عجباً لم يشهده عند أحد من أهل مكة جميعاً .. فقد كان والده زيد بن عمرو يصحبه معه إلى الكعبة ويصلى عندها صلاة تختلف عن عبادة سكان البلد الحرام . . وكان يسمع من والده أنه يتعبد دون أهل مكة على دين الخليل . . ولهذا نشأ سعيداً عازفاً عن عبادة الأصنام . . معرضاً عن أفعال الجاهلية . . ينتظر النبى الذى آمن به والده دون أن يراه . . ولذلك فإنه ما كاد يسمع أن محمد بن عبد الله يأتيه خبر السماء حتّى بادر إليه هو وزوجته فاطمة بنت الخطاب وبايعاه على الإسـلام . .

كان إسلام سعيد بن زيد وزوجته فى بداية مبعث النبى صلى الله عليه وسلم .. أى قبل دخوله عليه الصلاة والسلام دار أرقم بن الأرقم .. وقد عهد النبى إلى خباب بن الأرت – وكان من السابقين الأولين فى الإسلام – أن يقوم بتحفيظ سعيد وزوجته القرآن الكريم أولا فأولا .. وكانت دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لاتزال سرا .. حيث كان المسلمون يصلون خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار أرقم بعيدا عن أعين قريش ..

وذات يوم خرج عمر بن الخطاب من بيته .. متقلدا سيفه .. قاصدا إلى دار أرقم .. ليقتل النبي .. ويقضى على الدين الجديد فى مهده .. حتى تهدأ ثائرة قريش .. ويعود لآلهتها سلطانها .. وفى الطريق التقى به نعيم بن عبد الله .. وسأل عمر عن غايته .. فعلم منه أنه ذاهب لقتل رسول الله .. فقال له : إذا قتلته فكيف تنجو من بنى هاشم وبنى زهرة ؟ أفلا أدلك يا عمر على أمر عجيب ؟ .. إن أختك وزوجها دخلا فى دين محمد ..

ما كاد عمر يسمع أن أخته وزوجها قد أسلما .. حتى أظلمت الدنيا فى عينيه .. وأحس كأن الأرض تهتز من تحته .. ولكنه تمالك نفسه .. واستعاد رباطة جأشه .. وبدلا من أن يذهب إلى بيت أرقم بن الأرقم .. عاد أدراجه إلى بيت صهره سعيد . . وطرق الباب بعنف . . وكان سعيد وزوجته فى تلك اللحظة يقرآن الآيات الأولى من سورة طه على خباب بن الأرت .. ولما علم خباب بأن عمر بن الخطاب هو الداخل عليهم .. اختبأ فى حجرة من البيت خوفا من عمر .. أما سعيد وزوجته فاطمة فقد وقفا ليواجها موقفا عصيبا ..

ابتدرهما عمر قائلا : إننى سمعت هينمة .. وما أظنكما إلا دخلتما دين محمد . . فردت عليه أخته وزوجها . . هذا صحيح .. وهنا حاول عمر أن يبطش بسعيد ويصرعه .. ولكن أخته أسرعت بالدفاع عن زوجها .. فلطمها عمر لطمة شديدة أسالت الدماء من وجهها .. وكان عمر رغم شدته وعنفه رءوفا بأهله .. فلما رأى الدماء تسيل من وجه أخته أدركته الرحمة فسألها : أين الصحيفة التى تقرآن منها .. فأعطياها له .. فأخذ يقرأ فيها قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .. إلى قوله تعالى : « إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » .. وهنا هدأت ثورة عمر .. وسكنت رياح غضبه .. وخرج مسرعا إلى بيت أرقم ليبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

كانت هذه اللحظات القصار فى بيت سعيد بن زيد من أروع اللحظات فى تاريخ الإسلام .. فقد رفض عمر أن يصلى المسلمون سرا .. وخرج إلى الكعبة يتهدد ويتوعد كل من يحاول أن يقف فى طريق الإسلام .. وهكذا بدأ المسلمون يصلون علانية عند الكعبة .. بعد أن كانوا يصلون خفية فى بيت أرقم ..

أما سعيد فقد شهد جميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ما عدا بدرا .. لأن الرسول كان قد أرسله ليتعرف على أخبار قريش .. فلم يعد إلا بعد انتهاء القتال .. وكان من العشرة المبشرين بالجنة .. حيث ورد فى الحديث الشريف : « عشرة من قريش فى الجنة .: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح » ..

كما كان مستجاب الدعوة .. فقد حدث أن ادعت عليه امرأة اسمها أروى بنت أويس أنه بنى بناية فى أرضها .. وكان زيد جارا لها .. وقالت المرأة لمروان بن الحكم .. إنه ظلمنى .. وإن لم يترك أرضى لأصيحن به فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولما بلغ سعيد ما قالته أروى قال : كيف أظلمها .. وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من ظلم من الأرض شبرا .. طوقه الله يوم القيامة من سبع أرضين .. اللهم إن كانت كاذبة فلا تمتها حتى تعمى بصرها .. وتجعل قبرها فى بئر ..

وقد استجاب الله دعاء سعيد .. فلم تلبث هذه المرأة أن عميت .. وذات ليلة قامت لتوقظ العمال الذين يزرعون أرضها .. فسقطت فى البئر وماتت ..

وعاش سعيد بن زيد ورعا تقيا زاهدا .. لا يغفل لحظة عن ذكر الله .. ولا تمتد يداه إلا بالبر والمعروف .. ولا يسعى إلا فى مرضاة الله .. ثم وافته المنية .. وسنه سبعون سنة .. فى يوم جمعة سنة إحدى وخمسين من الهجرة .. وهو أشد ما يكون شوقا إلى لقاء الله .. وعندما علم عبد الله ابن عمر بنبأ موته سارع إلى منزل سعيد وحنطه بالمسك .. ثم أمر بأن يحمل إلى المدينة ليدفن بها . .

* * *

عبد الرحمن بن عوف

أحد العشرة المبشرين بالجنة

كـــان

أغنى مسلم فى الجزيرة العربية : ولكن الدنيا كانت فى يده ولم تدخل قلبه . . كان يربح الكثير من تجارته ، وينفق كل ما يربح فى سبيل الله . . لم يغره المال باكتنازه ، ولم يبهره بريق الذهب والفضة . . كان إشراق قلبه وسمو روحه يجعلانه فى عالم مضىء بالسكينة والشفافية والارتفاع عن مغريات الحياة . .

هكذا كان عبد الرحمن بن عوف .. ثامن ثمانية دخلوا الإسلام .. سارع إلى اعتناق الدين الحنيف ، واطمأن قلبه بالإيمان ، وقرر من أول لحظة أشرق فيها وجدانه بنور الله أن يهب نفسه وماله وحياته فى سبيل إعلاء كلمة الله .. وعندما أذن الله للرسول بالهجرة كان فى طليعة المهاجرين.. ترك ماله ومتاعه وتجارته وذهب إلى المدينة ليسهم مع المهاجرين والأنصار فى بناء أول دولة تقوم على وحدانية الله ، وعلى نشر العدالة بين بنى البشر ، وعلى احترام إنسانية الإنسان ..

وعندما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار كانت مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع .. وكعادة الأنصار عرض سعد على عبد الرحمن أن يقاسمه ماله وبيته ، فرفض عبد الرحمن

أن يأخذ درهما واحدا من مال سعد ، وقال له دلنى على السوق لأبيع وأشترى .. وكانت يد عبد الرحمن بن عوف تفيض بركة ويمنا ، حتى إنه كان يقول : « لقد رأيتنى لو رفعت حجرا لوجدت تحته فضة وذهبا » . .

وبالفعل لم يكد يمضى وقت قصير حتى استعاد عبد الرحمن ابن عوف نشاطه فى التجارة ، وتدفقت عليه الأرباح بعشرات الآلاف ، وأصبح الرجل الذى غادر مكة صفر اليدين وكان أغنى أغنيائها .. أصبح أيضا أغنى أغنياء المدينة المنورة .. فماذا فعل بالذهب والفضة اللذين سالا بين يديه أنهارا ؟ .. هل قال فى نفسه :

سأدخر المال لأبنائى عساه ينفعهم إن نزلت بهم ضائقة .. أو قال : أنفق منه جزءا فى سبيل الله ، وأحتفظ بالباقى لمواجهة أزمات الحياة ..؟

لم يطف بخلده شىء من هذا القبيل .. لأن سلوكه كان يعبر عن نفس خيرة تنظر إلى الدنيا على أنها معبر إلى الآخرة ، وأنه مسافر إليها عما قليل ، وأن خير زاد يحمله معه هو التقوى والورع والعمل الصالح .. فأراد أن تكون مدخراته كلها عند الله وفى صحفه المطهرة .. ولذلك فإنه جعل أهل المدينة شركاء له فى ماله .. كان يقرض ثلثهم ، ويؤدى دين ثلثهم ، ويعطى ويمنح الثلث الأخير ..

كان مصرفا إسلاميا متنقلا للمعوزين والمحتاجين .. لا ينتظر أن يأتى إليه معوز أو محتاج ، وإنما يبعث لهم بما يقيهم غائلة الجوع ويكفيهم من الزاد الطيب الحلال .. وحدث أن جاءت له بضائع على سبعمائة راحلة ، وكان أهل المدينة فى أزمة طاحنة ، فأبى أن يبيعهم هذه البضائع ، وإنما وزعها عليهم ، وآثر أن يأخذ ثمنها من الله يوم القيامة ..

وهكذا كان عبد الرحمن بن عوف نهرا متدفقا بالجود والعطاء .. باع ذات يوم قطعة أرض بأربعين ألف دينار ، وقبض الثمن ولم يدخل به بيته ، وإنما طاف ببيوت الفقراء والمساكين يعطى كلا منهم ما يسد

حاجته .. ولما أنفق هذا المال ، ذهب إلى المسجد ، وراح يصلى ويسأل الله أن يقبل ما أنفقه فى سبيله ..

وبالرغم من أن عبد الرحمن بن عوف كان الذهب والفضة يأتيانه بآلاف الآلاف .. فإنه كان يعيش زاهدا متقشفا يأكل مما يأكل منه خدمه ، ويلبس مما يلبسون .. حتى كان يصعب التميز بينه وبينهم ، وكان يضع نصب عينيه دائما قول النبى صلى الله عليه وسلم له : يا ابن عوف .. إنك من الأغنياء . وإنك ستدخل الجنة حبوا .. فأقرض الله يطلق لك قدميك ..

كان يريد أن يدخل الجنة مسرعا لا حبوا .. وكان لايكاد يرى فرصة سانحة للتقرب إلى الله من ناحية الإنفاق حتى يبادر باغتنامها .. ولذلك فإنه كان يسهم فى تجهيز الجيوش بتقديم الخيول والزاد للمجاهدين ..

وكان يبكى إذا وضعت أمامه أطايب الطعام ، ويقول لمن يسأله : لم تبك يا أبا محمد ؟ « لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع هو وبيته من خبز الشعير .. ما أرانا أخرنا لما هو خير لنا » .

رحم الله عبد الرحمن بن عوف الغنى الزاهد الذى أوصى يوم وفاته بتوزيع خمسين ألف دينار فى سبيل الله .

• • •

طلحة بن عبيد الله

أحد العشرة المبشرين بالجنة

قال

عنه النبي صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض . . فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله » . فمن هو هذا البطل المسلم الذى أطلق عليه النبي لقب « شهيد » وهو على قيد الحياة ؟ وما هى مكانته فى الإسلام . . ولماذا كان أحد العشرة المبشرين بالجنة ؟

إنه سمع بظهور نبى فى مكة قبل أن يلقاه ، كان فى بصرى من أرض الشام .. وقابل راهبا هناك .. وسمع الراهب يسأل : هل جاء أحد من أهل الحرم ؟ فقال له طلحة : نعم .. أنا من أهل الحرم .. فسأله الراهب : هل ظهر أحمد ؟ .. فتعجب طلحة وقال له : من أحمد ؟

فنظر الراهب إليه وقال : إنه ابن عبد الله بن عبد المطلب . هذا شهره الذى يخرج فيه . وهو آخر الأنبياء . ومخرجه من الحرم . ومهاجره إلى يثرب .

قال طلحة : فوقع فى قلبى كلامه موقعا حسنا ، فعدت إلى مكة على الفور .. وسألت : ماذا حدث ؟ فقالوا لى : محمد بن عبد الله تنبأ

وقد تبعه ابن أبى قحافة .. فذهبت إلى أبى بكر وقلت له : هل اتبعت هذا الرجل ؟ فقال : نعم .. فانطلق وادخل عليه واتبعه فإنه يدعو إلى الحق ..

ذهبت إلى النبى وأخبرته بما قال الراهب وأبو بكر بجوارى يسمع .. فتهلل وجهه الكريم .. وكنت ثامن إنسان يدخل الإسلام . .

هكذا كان إسلام طلحة بن عبيد الله .. ومن يوم أن أسلم وهو لا يفارق النبى ولا أبا بكر .. وقد اغتاظ نوفل بن خويلد العدوى لإسلامهما فأمسك بهما ذات يوم وشدهما فى حبل واحد ، ومن يومها وأبو بكر وطلحة يسميان بالقرينين ..

حاولت قريش أن تثنى طلحة عن إسلامه فلم تفلح .. فحرضت عليه أمه « الصعبة بنت الحضرمى » فكانت لاتتوقف عن سبه وشتمه ، وهو ينظر إليها فى صبر وصمت ..

وظل يحتمل أذى قريش ، ويحتمل غضب أمه ، دون أن يمس عقيدته شىء .. وعندما أذن الله للمسلمين بالهجرة إلى المدينة ، كان طلحة فى مقدمة المهاجرين ، واستضافه أسعد بن زرارة ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين طلحة وبين كعب بن مالك ..

وفى المدينة أخذ يمارس التجارة ، وكان من التجار النابهين . فقيل إنه كان يربح فى اليوم ألفا ، ولكنه كان يوزع كل أرباحه على فقراء المسلمين .. حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم أطلق عليه عدة ألقاب ، فسماه : طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ..

ولم يتمكن طلحة من المشاركة فى غزوة بدر .. لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد أرسله للتجسس على أخبار قافلة من قوافل قريش .. ولما عاد بعد الغزوة حزن حزنا شديدا ، لأنه كان يريد أن يكون بجوار

النبي فى هذه المعركة .. وقد وعده النبي بأنه سيكون له سهم مثل سهام المجاهدين الذين اشتركوا فى القتال .

ظلت نفس طلحة تتطلع إلى الجهاد حتى جاء يوم أحد ، فاستل سيفه وخرج مع الجيش لملاقاة العدو .. وقد امتحن المسلمون فى هذا اليوم امتحانا قاسيا ، حيث خالفوا أمر الرسول بأن ترك الرماة مكانهم ، فأصيبوا بالهزيمة بعد أن كانوا منتصرين .. وكانت مخالفة الرسول هى سبب الهزيمة التى حلت بهم .

ماذا فعل طلحة فى هذا اليوم .. ظل يدافع عن النبي بعد الهزيمة حتى أصيب فى جسده بأكثر من اثنين وسبعين جرحا .. وبترت إحدى أصابعه .. ولكنه لم يفارق الرسول لحظة واحدة . وكان يتلقى عنه الطعنات .

ويحكى عبد الله بن الزبير بعض ما وقع للرسول يوم أحد فيقول : كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم درعان ، فذهب لينهض على صخرة فلم يستطع ، فبرك طلحة تحته وصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على ظهره ، حتى صعد على الصخرة ..

وكان كلما ذكر يوم أحد يقول أبو بكر رضى الله عنه .. هذا يوم طلحة ..

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن طلحة لما جرح يوم أحد مسح النبي بيده الكريمة على جسده وهو يقول : اللهم اشفه وقوه ..

ومما يذكر عن مكانة طلحة عند الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أبشر يا أبا محمد . إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . وقد أثبت اسمك فى ديوان المقربين ..

وقال له أيضا : يا طلحة .. أنت سلفى فى الدنيا . وسلفى فى الآخرة .

وظل طلحة هو الفارس الذى لايتخلف عن أى معركة ، لا فى عهد الرسول ، ولا بعد أن انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى .. حتى لقى الشهادة فى موقعة الجمل . . رحمه الله مع الأبرار والصديقين . وحسن أولئك رفيقا .

* * *

سعد بن أبى وقاص

بطل القادسية وأحد العشرة المبشرين بالجنة

اعتنق

الإسلام وعمره حوالى سبعة عشر عاماً . وشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم جميع الغزوات . وكان من العشرة المبشرين بالجنة . كما كان مستجاب الدعاء .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة » . رواه الطبرانى .

وفى قصة إسلامه كان له موقف حاسم مع أمه التى حاولت أن ترده عن دينه . فقد حلفت ألا تكلمه أبداً ولا تأكل ولا تشرب حتى يرجع عن الإسلام . . مذكرة إياه بأنه يزعم أن الله وصاه بوالديه قائله له : أنا أمك وآمرك بهذا . وقد أمسكت عن الطعام والشراب ثلاثة أيام حتى سقطت مغشيا عليها وكادت تموت لولا أن أنقذها ابنها عمارة وسقاها . وسعد لا يأبه لها . فقد ثبت الله قلبه على الإيمان . ونزل فى ذلك قوله تعالى :

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

وكان سعد شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد خاف عليه من غدر المشركين حين عاد إلى المدينة متعبا من السفر .

فانتضى سيفه وقام ليله حارسا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما علم الرسول بذلك دعا له بالخير . وكان من عادة رسول الله إذا دعا لإنسان أن يقول له «فداك أبى» كعادة العرب . ولكنه دعا لسعد : «فداك أبى وأمى» فكان أول من فاز بالجمع بين الأبوين فى الدعاء .

وفى يوم أحد .. كان بجوار النبى صلى الله عليه وسلم فرأى مشركا يحاول أن يقتل أكبر عدد من المسلمين ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يرمى هذا المشرك بسهم ، فرماه . فخر صريعا ، وكانت العبارة التى قالها النبى صلى الله عليه وسلم لسعد : (ارم فداك أبى وأمى) .

وكان سعد أول من أراق دم مشرك فى الإسلام . فقد كان مع بعض الصحابة يصلون مستخفين من المشركين فى شعاب مكة ، فظهر نفر من المشركين وأخذوا يستهزئون بهم حتى تقاتلوا ، فما كان من سعد إلا أن ضرب رجلا من المشركين بفك جمل فشجه ، أى جرحه ، وسال الدم منه . فكان هذا أول دم أهرقه مسلم من الكفار .

وقد كان من بين الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب، وهو يجود بنفسه بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى، للتشاور فى أمر الخلافة . وقال عمر فى هؤلاء الستة : « إنهم الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض » .

وكان عمر قد رشح سعد بن أبى وقاص فى أثناء خلافته لعمل بطولى ضخم فقام به خير قيام . ذلك أن الفرس كانوا قد أزمعوا أن يوحدوا صفوفهم ليطردوا المسلمين من المناطق التى احتلوها . ونمى الخبر إلى عمر فاستنفر الناس لقتالهم . عازما أن يتولى القيادة بنفسه . ولكن الصحابة أشاروا عليه بالبقاء لتصريف شئون المسلمين . واختيار قائد صالح لهذه المهمة الصعبة . وبعد تفكير وبحث عن هذا القائد وقع الاختيار على سعد بن أبى وقاص .

كان سعد وقتها يقوم بجميع صدقات هوازن . فاستقدمه عمر وولاه قيادة الجيش وقال له : « إنى وليتك حرب العراق .. فاحفظ وصيتى فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يخلص منه إلا الحق . فعود نفسك ومن معك الخير ، واستفتح به . واعلم أن لكل أمر عتادا ، وعتاد الخير الصبر » .

وقد وفق الله سعد بن أبى وقاص وهزم الفرس هزيمة منكرة، وارتفعت أعلام الإسلام ظافرة منتصرة ، واقترن اسم القادسية ببطولته ..

وظل سعد المؤمن المجاهد الصابر يؤدى واجبه نحو الإسلام والمسلمين حتى توفى فى سنة خمس وخمسين هجرية عن سبعين عاما . ونور الإيمان يضىء جوانحه ، وحب الله ورسوله يملأ قلبه ووجدانه .

* * *

عامر بن فهيرة

الشهيد .. الذى دفنته الملائكة

قد **يبدو غريباً أن تقوم الملائكة بدفن إنسان . . ولكن تزول الغرابة وتنقشع حين نعلم أن هذا الإنسان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومن الطلائع الأولى فى الإسلام ... ومن الذين عذبوا حتّى امتلأ جسده بالجراح والحروق . . ومع ذلك لم يفتن عن دينه . . ولم يلن لمعذبيه . . ولم يزدد على النكال والتعذيب والبطش والقهر إلا إيماناً . . ورسوخاً فى العقيدة . . حتّى إنه بلغ درجة من الشفافية والطهر جعلته فى مستوى الملائكة صفاء ونقاء وروحانية .**

كان عامر بن فهيرة مولى للطفيل ابن الحارث .. والطفيل أخ للسيدة عائشة من أمها : أم رومان . ولما سمع عامر بأن محمد بن عبد الله يأتيه خبر السماء .. وأن الكتب المقدسة الموجودة عند الأحبار والرهبان بشرت به .. سارع عامر إلى الرسول وأسلم على يديه .. وكان إسلامه مبعث حنق وغيظ لقريش .. لأنهم كانوا يخافون انتشار الدين الجديد .. فحاولوا أن يفتنوه عن دينه .. تارة بالوعد بعتقه .. وطورا بالوعيد .. ولكنه أصم أذنيه عن وعدهم ووعيدهم .. ومضى فى طريق الإسلام لا يخشى إلا الله ..

وعز على قريش ألا يكون لها سلطان على الموالى الذين يتركون عبادة الأصنام .. ويتبعون الدين .. فراحوا يلقونهم على الرمال الساخنة بعد أن يجردوهم من ثيابهم .. ثم يكوون أجسادهم بالحديد المحمى بالنار .. ومع ذلك فإنهم لم يفلحوا فى إعادة واحد منهم إلى عبادة الأصنام .. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يرى هؤلاء المستضعفين وهم يعذبون . فلا يملك إلا أن يدعو الله لهم .

وعلم أبو بكر الصديق – رضى الله عنه – بأن عامر بن فهيرة أسلم .. ويعانى كل يوم من التعذيب مالا طاقة لبشر باحتماله .. فذهب إلى الطفيل واشتراه منهم وأعتقه .. وهكذا كان دأب سيدنا أبى بكر .. يشترى الموالى ويعتقهم .. ليزيد الإسلام قوة وانتشارا ..

وتمضى الأيام بعامر بن فهيرة ، ويهاجر مع المهاجرين إلى المدينة ، وينزل ضيفا على سعد بن خيثمة .. وكان سعد أحد النقباء الاثنى عشر فى بيعة العقبة الثانية .. ولما آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار .. آخى بين عامر بن فهيرة والحارث بن أوس بن معاذ ..

وفى المدينة المنورة اشتغل عامر بالتجـــارة . . وكان يصلى الفرائض كلها خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كما كان نزر الكلام .. طويل الصمت .. يؤثر ذكر الله على كل شيء .. ولم يكن يملك من الدنيا إلا قوت يومه وسلاحه وثوبه .. ولهذا كان عابدا أوابا زاهدا فى زخرف ومتاع الحياة ..

وحين جاءت غزوة بدر .. كان عامر بن فهيرة من المجاهدين الذين اشتركوا فى القتال ، ولكنه كان فى صفوف المشاة .. لأنه لم يكن يملك شيئا من الخيل أو الإبل .. وقد أبلى فى هذه الغزوة بلاء حسنا .. كما أبلى أيضا فى غزوة أحد ووعى الدرس الإلهى الذى لقنه الله للمسلمين جزاء

مخالفتهم للرسول .. حيث ترك الرماة أماكنهم .. وهجم المشركون على المسلمين من ثغرة فى الجبل ..

ومضت الأيام ودخل شهر صفر من العام الرابع للهجرة .. وقدم من نجد على الرسول صلى الله عليه وسلم رجل لهُ شأنه .. اسمه عامر بن مالك .. وكنيته أبو براء .. فعرض الرسول عليه الإسلام فلم يسلم،ولم يبعد عن الإسلام .. وقال للرسول يا محمد .. لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد دفعوهم إلى أمرك .. رجوت أن يستجيبوا لك .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أخشى عليهم أهل نجد .. فقال أبو براء: أنا لهم جار .. فابعثهم .. فليدعوا الناس إلى أمرك .

بعث النبي صلى الله عليه وسلم أربعين رجلا من خيار الصحابة .. وجعل أميرهم المنذر بن عمرو أحد النقباء الاثنى عشر .. وكان من بينهم عامر بن فهيرة .. انطلقت السرية حتى بلغت مكانا اسمه بئر معونة .. ثم ضربت خيامها . وأرسلت حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل شيخ المنطقة .. فلم يقرأ الكتاب وإنما جرد سيفه وقتل الرجل .. ثم استصرخ على السرية بنى عامر .. فأبوا أن يطيعوه .. وقالوا : لن ننقض عهد أبى براء . فاستصرخ عليها قبائل من بنى سليم .. فخرجوا وأحاطوا بالسرية وقاتلوها .. حتى قتلوا أفرادها .. إلا ثلاثة ..

كان عامر بن فهيرة ممن نالوا الشهادة فوق أرض بئر معونة .. طعنه جبار بن سلمى الكبلى بالرمح بين كتفيه فخرج سنان الرمح من صدره .. فقال عامر حين طعن فزت والله .. فسأل جبار : بماذا فاز وقد قتل ؟ قالوا له : فاز بالشهادة .. فقال جبار : لقد رأيته يرفع علوا فى السماء .. حتى ما أراه .. ثم أعلن إسلامه بعد ذلك ..

ومصداقا لهذا أن عامر بن الطفيل قال : من رجل منهم لما قتل رأيته رفع بين السماء والأرض حتى رأيت السماء من دونه ؟ فقالوا : هو عامر ابن فهيرة ..

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث .. حزن حزنا شديدا .. وقال : هذا عمل أبي براء .. قد كنت لهذا كارها متخوفا .. ولما قالوا له : إن عامر بن فهيرة لم يجدوا جسده بعد استشهاده قال : إن الملائكة وارت جثته وأنزل أعلى عليين ..

* * *

عكرمة بن أبي جهـل

نهايـة مباركـة بالإيـمان والجهـاد

أمضى

شبابه عدواً لله ورسوله ودين الإسلام . . فمواقفه الحاقدة المضطغنة على النبي والمسلمين يتوارى منها التاريخ خجلا .. إذ لم يكن يجاهر بعداوته للنبي فحسب..وإنما كان سباقاً إلى خوض معارك الشرك ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وضد أصحابه البررة . فهو أحد الذين وقفوا بدار الندوة يطالبون بأن تباع العير . . ويجهز بأرباحها جيش لحرب الرسول فى بدر . . وهو الذى كان يوم أحد على مسيرة الجيش المشرك .. فى حين كان خالد بن الوليد على الميمنة.. وهو الذى حاول المرة بعد المرة أن يقتحم بفرسه الخندق . . أيام غزوة الأحزاب . . ليجتازه ويشتبك فى قتال مع المسلمين . . وهو الذى خرج وبصحبته خالد بن الوايد على رأس جيش يبلغ عدد فرسانه وحدهم مائتين .. غير الرجالة .. لمنع الرسول من دخول مكة قبل صلح الحديبية ..

وهكذا كان عكرمة بن أبي جهل لاتهدأ ضغينته على الرسول .. ولا تخبو موجدته على الإسلام والمسلمين .. وكان من أبطال قريش المبرزين .. إذ كانوا يعقدون له اللواء .. ويتقدم الصفوف مع خالد ابن الوليد .. وظل عكرمة غارقا فى لجنة الكفر .. حتى جاء يوم انتفض

فيه فزعا ورعبا .. وأحس الأرض تميد تحت قدميه .. والضباب يملأ مآقيه .. ذلك بأنه سمع أن صديقه ورفيق نضاله ضد المسلمين .. خالد ابن الوليد .. قد أسلم وترك ما تعبد قريش من أصنام ..

كان ذلك فى عام عمرة القضاء .. أى بعد صلح الحديبية بعام .. ذهب عكرمة إلى خالد .. والحزن يسيطر على مشاعره .. والألم يعتصر جوانحه .. ودار بينهما هذا الحوار :

– عكرمة : هل صحيح أنك صبؤت يا خالد ؟

– خالد : لم أصبؤ .. ولكنى أسلمت .. اسمع يا عكرمة .. لقد استبان الحق لكل ذى عقل . إن محمدا ليس بساحر ولا شاعر .. وإن كلامه من كلام رب العالمين .. فحق على كل ذى لب أن يتبعه ..

– عكرمة : أتقول هذا الكلام . ومحمد قد وضع شرف أبيك حين جرح .. وقتل عمك وابن عمك ببدر ؟ ! فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد ! أما رأيت قريشا يريدون قتاله ؟ !

– خالد : هذا أمر الجاهلية وحميتها .. لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق !

عندئذ تبين لعكرمة أن خالد بن الوليد قد اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لا يمكن عودته إلى قريش مرة أخرى . . وأحس أن الإسلام زاد بخالد قوة وسلطانا .. ومع ذلك ظل على جاهليته .. حتى جاء يوم الفتح .. واستسلمت مكة كلها .. ما عدا طائفة يتزعمها عكرمة بن أبى جهل .. وصفوان بن أمية . وسهيل بن عمر.. هذه الطائفة كانت تقيم بأسفل مكة .. ففرقها خالد بن الوليد .. دون قتال كبير .. وفر عكرمة إلى اليمن ..

بيد أن زوجه أم حكيم بنت الحارث أسلمت .. وطلبت من الرسول لزوجها الأمان فأمنه النبي .. فخرجت ولحقت بزوجها فى اليمن .. وعلم الرسول بأن عكرمة سيدخل الإسلام فقال لأصحابه : إذا رأيتم عكرمة فلا تسبوا أباه .. فإن سب الميت يؤذى الحى ..

ولما قدم عكرمة من اليمن .. ورآه النبي صلى الله عليه وسلم .. قال : مرحبا بالراكب المهاجر .. وعلى الفور بسط عكرمة يده وبايع النبي .. ثم قال له : يارسول الله .. علمنى خير شيء تعلمه .. حتى أقوله .. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له .. وأن محمدا عبده ورسوله .. فقال عكرمة : أنا أشهد بهذا .. وأشهد بذلك من حضرنى .. وأسألك يارسول الله أن تستغفر لى .. فاستغفر له الرسول صلى الله عليه وسلم . فقال عكرمة : يارسول الله .. والله لا أنزل مقاما قمته لأصد به عن سبيل الله .. إلا قمت مثله فى سبيل الله تعالى .. ولا أترك نفقة أنفقها .. لأصد عن سبيل الله .. إلا أنفقت مثلها فى سبيل الله عز وجل ..

انصرف عكرمة .. وقد انقشعت عن قلبه ظلمات الجاهلية .. وسطع فيه نور الحق .. وكان بعد ذلك موضع تكريم الرسول .. كما كان موضع ثقة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما .. إذ وجهه أبو بكر إلى عمان ليحارب المرتدين .. وبالفعل هزمهم وظهر عليهم .. ثم حارب الروم فى معركة اليرموك .. ويومها ترجل وقاتل قتالا شديدا .. حتى وجدت به بضع وسبعون طعنة ورمية ..

وحدث قبل استشهاده أن كان بجواره الحارث بن هشام وسهيل ابن عمر .. يعانيان مثله من الجراح .. وجيء لهم بماء .. فكان كلما دفع إلى أحدهم .. يقول له اسق فلانا .. لأنه يراه ينظر إلى الماء .. إلا أن الساق حين رجع إلى أولهم وجده قد مات .. وكذلك الثانى .. والثالث .. وهكذا كان كل منهم يؤثر أخاه على نفسه ..

رحم الله عكرمة .. ورحم شهداءنا الأبرار فى جنة الخلد ..

عبدالله بن حنظلة

استشهد وهو صائم والراية في يده

كانوا

يسمونه ابن غسيل الملائكة . . لأن والده استشهد يوم أحد .. وسمع النبي صلى الله عليه وسلم امرأة تبكي زوجها . . فقال لها اخفضي صوتك . . فإن الملائكة تغسل حنظلة . . ونشأ عبد الله يتيماً . . يملأ نور الإسلام قلبه ووجدانه . . ويحس بأن الدنيا دار سفر إلى الآخرة . . وأنه لابد أن يتزود منها بالتقوى . . حتى يلقى الله وصحفه مطهرة . . وأعماله مضمخة بعطر الحب الإلهي . . وهكذا استغرق في العبادة منذ شبابه . . يؤدي المكتوبة في وقتها . . ويصوم الدهر . . ويتنفل بالليل ما شاء الله له أن يتنفل . . وكان يرعى غنماته نهاراً . . ثم يأوي إلى المسجد عند غروب الشمس . . ويكتفي بتناول شربة من الشعير..وماملأ بطنه من أي طعام قط.

كان يتمثل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .. ويتأسى بها قدر ما أوتي من عقيدة وإيمان .. وكان لايرفع رأسه إلى السماء إخباتا لله .. وحياء منه .. وعرفته مدينة الرسول عابدا أوابا .. يملأ كل دقيقة من حياته بالعبادة الخالصة لله عز وجل .. وكانت أمه جميلة بنت عبد الله ابن أبي بن سلول .. على النقيض من والدها زعيم المنافقين .. امرأة نقية أوابة .. وقد ربته على مبادىء الإسلام منذ الصغر .. فنشأ نشأة صافية نقية ..

وشهد وهو ابن سبع سنوات يوما باكيا حزينا فى المدينة .. إذ انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى .. وتم اختيار أبى بكر أول خليفة للمسلمين ..

وعى عبد الله بن حنظلة الصورة التى يتم بها اختيار الخليفة .. وعرف أن الإسلام لايسمح بأن يأتى الحاكم إلا عن طريق الانتخاب .. ولذلك فإن عبد الله بن حنظلة — وكان فى ريعان الشباب — حين سمع أن معاوية ابن أبى سفيان يأخذ البيعة عنوة لابنه يزيد .. قرر ألا يبايع ولو دفع حياته ثمنا لذلك .. وكان أهل المدينة جميعا على هذا الرأى ..

بيد أن رفض أهل المدينة لبيعة يزيد ظل حبيسا فى صدورهم .. حتى مات معاوية .. وبدأوا يجهرون بما تكن نفوسهم .. واتخذ الرفض صورة العلانية .. ثم انتقل إلى مرحلة المقاومة المسلحة بعد مأساة كربلاء ..

كانت جريمة واحدة من التى ارتكبها يزيد كفيلة بخلعه .. فقد دبر لمقتل الإمام الحسين .. وبطش بآل البيت .. وفرق كلمة المسلمين .. وأكثر من هذا أنه جاء عن غير الطريق الشرعى الذى رسمه الإسلام .

اتجهت أنظار أهل المدينة إلى عبد الله بن حنظلة .. فهو الرجل الذى لم يعرف عنه أنه ارتكب نقيصة قط .. بل تتمثل فيه كل صفات المؤمن الكامل .. الذى لا يحيد عن الكتاب والسنة .. ولا تتطلع عيناه إلى زخرف ومتاع الحياة ..

قام أهل المدينة بإجلاء بنى أمية عنها .. ثم اجتمعوا فى المسجد وبايعوا عبد الله بن حنظلة .. وكان هذا عملا ثوريا فى سبيل الله ورسوله .. ولكن يزيد ما كاد يعلم به حتى حشد جيشا كثيفا من أهل الشام على رأسه مروان بن الحكم .. وبعث به لقتال أهل المدينة ..

وما هى إلا أيام حتى وصل جيش يزيد إلى مشارف المدينة .. وكان من الكثرة بحيث يزيد على أهلها أضعافا مضاعفة .. ولما نمى هذا الخبر إلى عبد الله بن حنظلة . . صعد المنبر . . وحمد الله وأثنى عليه . . ثم قال :

أيها الناس .. إنما خرجتم غضبا لدينكم .. فأبلوا لله بلاء حسنا .. ليوجب لكم به مغفرته .. ويحل عليكم به رضوانه ..

ثم رفع يديه إلى السماء .. واستقبل القبلة .. وقال : اللهم إنا بك واثقون .. بك آمنا .. وعليك توكلنا .. وفى سبيلك خرجنا .. وإليك ألجأنا ظهورنا ..

وبعد أن نزل من المنبر .. ليس درعين .. وجعل يحض الناس على الجهاد والاستشهاد .. فخاض أهل المدينة المعركة .. وهم يعلمون أنهم على الحق .. ولكنهم كانوا أقل عددا وعتادا من أهل الشام .. فسقط منهم شهداء كثيرون .. ورغم ذلك لم يتقهقروا .. وإنما ظلوا يقاتلون فى بسالة .. وعبد الله بن حنظلة يقودهم .. وقلبه يتطلع إلى الشهادة .. والراية مرفوعة فى يده .

ولما حانت صلاة الظهر . . وكان صائماً كعادته . . قال لرجل من أصحابه : احم ظهرى حتى أصلى . . ولما فرغ من الصلاة قال له الرجل : يا أبا عبد الرحمن . . لم يبق حولك إلا خمسة رجال . . فعلام نقيم ؟ فقال له : ويحك ! . . إنما خرجنا على أن نموت . . ثم اندفع فى وسط المعمعمة .. وقاتل حتى استشهد . .

وبعد أيام من استشهاده رآه رجل من الصحابة فى المنام . . فى أحسن صورة . . ومعه رايته . . . . فقال له : يا أبا عبد الرحمن . . أما قتلت ؟

قال : بلى . . ولقيت ربى فأدخلنى الجنة . . فأنا أسرح فى ثمارها حيث شئت . . فقال له : وأصحابك . . ما صنع الله بهم ؟ . . فقال : هم معى حول رايتى فى الجنة . .

صحا الرجل من النوم وهو يردد : كان عبد الله بن حنظلة على الحق . . وقد أسكنه الله فى جنة عرضها السماوات والأرض . . .

* * *

المغيرة بن الحارث

بطل حنين .. وأخو الرسول فى الرضاع

على الرغم من أنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم — وأخوه فى الرضاع . حيث كانت مرضعة كل منهما حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية . . وعلى الرغم أيضاً من أن جدهما عبد المطلب بن هاشم ، وأنهما — ولا شك — أكلا على مائدة واحدة فى طفولتهما المبكرة . . على الرغم من كل ذلك فإن المغيرة بن الحارث تخلف عن اعتناق الإسلام اثنتين وعشرين سنة . . كان خلالها لساناً حاداً على الإسلام .. وكان يحز فى نفس الرسول أن يكون ابن عمه أبو سفيان — وهذه كنيته— هاجياً له .. غارقاً فى الجاهلية إلى أذنيه .. شيطاناً من شياطين قريش . .

ثم شاء الله لأبي سفيان بن الحارث أن يهتدى لنور الله ، ويدخل دينه الحق .. وينسلخ من ظلمات الجاهلية . . وكان ذلك قبل فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة بأيام . . خرج الحارث من مكة وبرفقته عبد الله ابن أبي أمية والتقيا بالرسول بين السقيا والعرج . . وكان بجوار الرسول زوجه أم سلمة وعلى بن أبي طالب . . وما كاد الرسول يراهما حتى أعرض عنهما . . فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وأخو ابن عمتك أشقى الناس بك . . والتفت على بن أبي طالب إلى المغيرة وقال له : إيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم من قبل وجهه .. وقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف عليه السلام :
« تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين » . . فإنه لا يرضى أن يكون
أحد أحسن قولا منه . .

وعلى الفور جاء المغيرة من قبل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا
الآية الكريمة التى لقنه إياها على بن أبى طالب . . فقال له الرسول :
« لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين » . .
وبهذا أعلن الرسول أنه قبل دخولهما الإسلام . . فبسطا أيديهما وبايعا
الرسول . . ثم وقف المغيرة ينشد أبياتا من الشعر يعتذر فيها للرسول .. ويأسف
على ما بدر منه فى الأعوام السالفة . .

دخل المغيرة دين الله وكله حماسة للجهاد .. وصمم على أن يحمل قلمه
وسيفه فى سبيل الله . . وأن ينفق أيامه ولياليه فى مرضاة الله عز وجل . .
وواتته الفرصة حين جاءت غزوة حنين . . وأعجب المسلمون بكثرتهم ،
فلقنهم الله درساً قاسياً أليماً ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وولوا
مدبرين . . ولكن هناك نفراً ثبتوا حول الرسول ، وهزتهم كلماته الشريفة
وهو يقول : أنا النبي لا كذب . . أنا ابن عبد المطلب . . وكان المغيرة
من بين هؤلاء النفر الذين أنزل الله سكينته عليهم . . لم تفارق يده لجام
بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حتى عاد المسلمون إليه . .

ظل الرسول يقدر للمغيرة هذا الموقف . . وكان يقول له : أرجو أن
تكون خلفاً من حمزة . . وجهاد حمزة ومواقفه معروفة فى الإسلام . .
فهو بطل بدر ، وسيد شهداء أحد . . وكان يحارب بين يدى الرسول
بسيفين . . كما كان الرسول يقول عن المغيرة : إنه خير أهلى . . وإنه
من شباب أهل الجنة . .

وقد أوتى المغيرة أعلى درجة فى الإيمان والتقوى والورع . . وكان لا
يرفع رأسه إلى رسول الله حياء منه . . كما أنه لم يرتكب خطيئة قط منذ

أن دخل الإسلام . . وعندما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى تفجر الحزن فى نفس المغيرة وفاض شعراً على قلمه . . فقال من قصيدة طويلة يرثى بها الرسـول :

لقد عظمت مصيبتنا وجلـت
عشية قيل قد قبض الرسـول
فقدنا الوحى والتنزيـل فينـا
يروح بـه ويغـدو جبرئيـل
نبى كان يجلـو الشـك عنـا
بما يوحى إليـه ومـا يقـول
ويهدينـا فـلا نخشى ضـلالا
علينا . . . والرسـول لنـا دليـل

وفى سنة عشرين هجرية ذهب لأداء فريضة الحج . . وعندما حلق له الحلاق رأسه قطع ثؤلولا فى رأسه (الثؤلول حبة تظهر فى الجلدكالحمصة) . . فتلوث الجرح دون أن يدرى . . ولما عاد إلى المدينة اشتد عليه المرض.. وأخذ أهله يبكون من حوله . . فقال لهم : « لا تبكوا على . . فإننى لم أتنطف (أتلطخ) بخطيئة منذ أسلمت » .. ثم فاضت روحه إلى بارئها .. وصلى عليه عمر بن الخطاب ، ودفن فى دار عقيل . . ولحق بقافلة الأبرار والصديقين ، وحسن أولئك رفيقاً . .

* * *

ثمامة بن أثال الحنفى

كان أخطر على قريش من المحارك

بينما

كان ذاهباً إلى مكة ليعتمر . . إذا به يفاجأ بخيل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند نجد تحاصره .. وبعدد من الفرسان المسلمين يأخذونه أسيراً ، ويعودون به إلى المدينة . . ووجد ثمامة بن أثال الحنفي نفسه وجهاً لوجه أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقال له الرسول : ما عندك ياثمامة ؟ .. فرد عليه : إن تسأل مالا تعطه . وإن تقتل . . تقتل ذا دم .. وإن تنعم . . تنعم على شاكر . .

فمضى عنه الرسول وهو يقول : «والله إن أكلة من لحم جزور أحب من دم ثمامة » . . بيد أن الرسول أراد أن يستطلع رأى ثمامة للمرة الثانية . . فسأله السؤال نفسه . . فأجاب ثمامة الإجابة نفسها . . فقال النبي لأصحابه : أطلقوا سراحه . . ففعلوا ما أمر به النبي . . لأنه لا إكراه فى الدين . . ولا إجبار على العقيدة . .

ولما وجد ثمامة نفسه حراً طليقاً دون أن يدفع مالا . . ودون أن يرغم بالسيف على اعتناق الإسلام . . شعر بعظمة الإسلام وسمو مبادئه . . وقرر يدخل هذا الدين عن اقتناع . . ورجع إلى النبي وصارحه بأنه يريد أن يسلم .. فطلب منه النبي أن يغتسل ويطهر ثيابه . . وسرعان ما فعل ثمامة ما طلبه منه النبي . . ثم بسط يده وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ثم قال للنبي :

يارسول الله . . لقد قدمت عليك . . وما على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك . . ولا دين أبغض إلى من دينك . . ولا بلد أبغض إلى من بلدك . . أما الآن فما أصبح على وجه الأرض وجه أحب إلى من وجهك . . ولا دين أحب إلى من دينك . . ولا بلد أحب إلى من بلدك . .

وسكت ثمامة قليلا . . ثم قال للرسول : لقد جئت من اليمامة لأعتمر ، فحاصرتنى خيلك وجاءت بى إلى المدينة . . والآن أريد أن أعتمر وأنا مسلم . . فابعث معى من يدلنى على الطريق . .

وعلى الفور بعث معه الرسول صلى الله عليه وسلم من يسافر معه إلى مكة . . ولما بلغ ثمامة البلد الحرام وبرفقته نفر من صحب الرسول . . فزع المشركون فزعاً شديداً وقالوا : صبأ ثمامة . . ولم يلبث أن تقدم بعضهم إليه وقالوا : ياثمامة . . صبأت وتركت دين آبائك . . فنظر إليهم نظرة ملؤها الغضب والاشمئزاز . . وقال لهم : ماذا تقولون ؟ ! . . أقسم لكم برب هذه الكعبة . . لن يصل إليكم من اليمامة شىء مما تنتفعون به حتى تتبعوا محمداً عن آخركم . .

وهنا أصيب المشركون بالوجوم ! . . إن معظم السلع التى يعتمدون عليها فى معيشتهم تأتى لهم من اليمامة . . فماذا يفعلون إذا منعها عنهم وحرمهم منها . . إنه سيد أهل اليمامة وفى إمكانه أن ينفذ وعيده . . وحينئذ سيكون ثمامة أخطر عليهم من المعارك . .

ولما وصل ثمامة إلى اليمامة أمر بألا تخرج أى سلعة إلى مكة حتى يعلن جميع أهلها الإسلام . . وتأزم الموقف . . وبدأت المجاعة تنشب أظفارها فى قريش . . فلم تجد بدأً من الاستعانة بالرسول . . فبعثت إليه خطاباً تقول له فيه : « إننا عهدناك تصل الرحم وتحض عليه . . وها هو ذا ثمامة قد قطع عنا الميرة وأضر بنا . . فإن رأيت أن تكتب إليه أن يخلى بيننا وبين ميرتنا فافعل » . .

وهنا تجلت إنسانية الرسول فى أعلى قممها وأرفع ذراها . . لم ينتهز هذه الفرصة ويتخذ من تجويع قريش عنصراً ضاغطاً عليهم لدخول الإسلام.. وإنما بعث خطاباً إلى ثمامة يقول له فيه : خل بين قومى وبين ميرتهم . . وما هى إلا أيام حتى عادت الميرة إلى مكة تنفيذاً لأمر الوسول . .

وتمضى الأيام وينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى . ويظهر مسيلمة الكذاب فى اليمامة مدعياً النبوة . . ويتبعه بعض الناس . . ولكن ثمامة يصيح فى قومه بنى حنيفة : إياكم وأمراً مظلماً لا نور فيه ! وإنه لشقاء كتبه الله عز وجل على من أخذه منكم . . وبلاء على من لم يأخذ به منكم يابنى حنيفة . ولم يهدأ لحظة واحدة عن مقاومة هذا الكذاب الأثيم ! ! . .

ثم علم أن العلاء الحضرمى سيمر ومن تبعه بجانب اليمامة فانضم إليه ثمامة هو وقومه . . وتعاون القائدان على قمع هذه الفتنة . . وكان لهما دور فعال فى القضاء على الردة والمرتدين . .

رحم الله ثمامة . . وأنزله منزلة الأبرار والصديقين . .

* * *

نعيم بن مسعود

رجل المخابرات البارع فى غزوة الخندق

أى

إيماضة ربانية عانقت بالإيمان قلبه ، فى أحلك ساعات طغيانه وعناده فكشفت عنه ظلمات الجاهلية والشرك والوثنية . . جاء مع قبيلته غطفان فى قافلة من الأوهام والوساوس والظنون يحدوه أمل شيطانى فى أن تستأصل الأحزاب شأفة الدين الجديد ، وتقضى عليه قضاء نهائياً فى مدينة يثرب . . كان قلبه يتأجج حقداً وغيظاً على الإسلام والمسلمين . . فإذا بالسماء تمسح بنورها على قلبه فيأتلق ويشرق ، ويحس بعاطفة نورانية تجذبه إلى الإسلام ، وتدفعه إلى مبايعة النبى صلى الله عليه وسلم . .

وفى خيمته الساطعة بنور النبوة يستقبل المصطفى صلى الله عليه وسلم نعيم بن مسعود . ويسبغ عليه من إشراقه الهادى وضوئه المنتشر . فيشعر نعيم بأنه انتقل نقلة عجيبة من رجل طاغية متجبر إلى إنسان يشف وجدانه وتصفو سريرته . . وكأنما كانت هذه الساعة جسراً مباركاً بين الكفر والإيمان . . بين الجبروت والمثالية . . بين اللاانسان والإنسان الكامل . .

وفى صوت خافت خاشع من عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهيبته يقول نعيم للنبى : يارسول الله إن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت . . فقال له النبى : « أنت رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت .. فإن الحرب خدعة » . .

كان الموقف قد ازداد حرجاً واضطراباً بعد انضمام يهود بنى قريظة للأحزاب . . ونقضهم للعهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وقد وصف الله هذا الموقف فى كتابه الكريم :

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر . وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً » . . (صدق الله العظيم)

أخذ نعيم يفكر ويقلب الأمر فى ذهنه حتى انبعثت منه فكرة ارتضاها وأسرع بتنفيذها . . كانت الفكرة تقوم على أساس تمزيق الاتفاق الذى عقده يهود بنى قريظة مع الأحزاب ، ولكى يطمئن المسلمون إلى أن يهود بنى قريظة لن يهاجموهم من الخلف . . وكما تروى كتب السيرة ذهب نعيم بن مسعود إلى يهود بنى قريظة وكان نديماً لهم فى الجاهلية . وقال لهم : يابنى قريظة قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم . قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم . . فقال لهم : إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم . البلد بلدكم . . فيه أموالكم وأبناؤكم . . ونساؤكم . . لا تقدرون أن تتركوه إلى غيره . . وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه . فإن رأوا نهزة (فرصة) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهائن من أشرافهم . يكونون بأيديكم ثقة لكم ، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه . . فقالوا له : لقد أشرت بالرأى . .

بهذه الفكرة بات اليهود فى بلبلة وهواجس . . وقرروا أن ينفذوا فكرة نعيم .. وإذ هم فى حيرتهم وبلبلتهم.. كان نعيم قد ذهب إلى أبى سفيان وأخبره بأن بنى قريظة ندموا على نقض العهد مع محمد ، واتفقوا معه على أن يأتوا له برجال من قريش وغطفان ليضرب أعناقهم ، ثم يقفوا إلى جواره فى الحرب ضدكم . . فإن طلب بنو قريظة رهائن منكم فلا ترسلوا إليهم أحداً . .

وبعد ذلك ذهب نعيم إلى قبيلته غطفان وحذرهم مما حذر منه قريشاً . .

ولكن أبا سفيان أراد أن يختبر نوايا بنى قريظة فأرسل إليهم يطلب بدء القتال مع محمد . فتعللوا بأن اليوم يوم سبت لا يعملون فيه . ولما كرر أبو سفيان عليهم الطلب قالوا : أعطنا رهائن من رجالكم ، فلما علمت قريش وغطفان برد بنى قريظة . . قالوا : والله إن الذى حدثنا به نعيم لحق . . وبهذا انهار الاتفاق بين بنى قريظة والأحزاب . . ثم سلط الله ريحاً عاتية على الأحزاب مزقتهم شر ممزق . .

عاد المسلمون إلى ديارهم فرحين بنصر الله ، وكان نعيم بن مسعود يحس فى جوانحه بالحبور العظيم ، لأنه أدى دوراً عظيما محا به كل ما اقترفه ضد الإسلام من آثام . وقد عاش يجاهد فى سبيل الله حتى استشهد فى معركة صفين .. وهو يحارب فى صفوف الإمام على بن أبى طالب . . رحم الله نعيم ابن مسعود . فقد كان من أبرع رجال المخابرات فى الاسلام .

* * *

سعد بن الربيع

سارعت

القافلة التى تضم اثنى عشر رجلا من المدينة إلى مكة لتلتقى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتتلقى على يديه مبادىء الإسلام الذى جاء يبشر به ، ويدعو الناس إليه ، ويمحو به تقاليد الوثنية وطقوسها . . وكانت فى مسيرتها المباركة تحدوها الأشواق إلى لقاء هذا النبى الأمى الذى يتنزل عليه الوحى من ربه آيات بينات تنظم علاقة الإنسان بربه .. وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان . . وما إن وصلت هذه القافلة إلى مشارف مكة حتى كانت على موعد مع المصطفى صلى الله عليه وسلم عند العقبة . . وفى مناخ يعبق بالإيمان ذهب سعد ابن الربيع ورفاقه الأحد عشر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه . . وكانت لحظة مفعمة بالنور ، حافلة بالرضوان ، عابقة بعبير السماء وطيبها . .

وعادت القافلة إلى المدينة دون أن يعلم بها أحد من قريش . . عاد الاثنا عشر نقيباً ليؤدوا الصلاة فى بيوتهم ، ولينشروا فيمن حولهم مبادىء الدين الجديد ، وكانت قلوب الأوس والخزرج قد مسحت عليهم يد السماء ، فدخلها الإسلام بإشعاعاته الإلهية ، وملأها هدى ونوراً وسكينة . .

كان سعد بن الربيع أحد العرب القلائل الذين تعلموا الكتابة ، وكان مميزاً بين أقرانه لقيامه بتدوين ما يطلب منه . . وقد استطاع أن يدون بعض

تعاليم الإسلام . . ويبعث بها إلى من يعرفون القراءة من أهل المدينة حتى يكونوا على بينة من حقيقة الدين الجديد .. وهكذا قام بأمر الداعية المتفانى فى الله ورسوله حباً وإخلاصاً ، وأثمر دوره هذا فى إقبال طائفة كبيرة من أهل المدينة على اعتناق الإسلام قبل أن يروا الرسول ويبايعوه . .

ومرت الأيام . . وهاجر المسلمون إلى المدينة . . وكانت قد أصبحت مهيأة لاستقبال الدين الجديد بكل ما تحمل جوانح أهلها من لهفة عليه، واشتياق إليه ، وتطلع إلى آفاقه الوضاءة . . ولما آخى الرسول صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار . . كان حظ سعد بن الربيع أن آخى المصطفى عليه الصلاة والسلام بينه وبين عبد الرحمن بن عوف . . وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . .

انطلق سعد بأخيه فى الله عبد الرحمن بن عوف إلى منزله ، ودعا بطعام فأكلا . . ثم قال له : إن لى امرأتين ، وأنت أخى فى الله ، ولا امرأة لك .. فسأنزل عن إحداهما لتتزوجها . . فرفض عبد الرحمن وقال : لا والله.. فقال له سعد : هلم معى إلى حديقتى لأعطيك نصفها ، وآخذ النصف الآخر .. فرفض عبد الرحمن للمرة الثانية ، وقال له : بارك الله لك فى أهلك ومالك . . كل ما أطلبه منك أن تدلنى على السوق . .

بهذا الموقف العظيم ضرب سعد بن الربيع أروع مثل فى الأخوة فى الله، والعلاقة فى الدين . . لقد نزل عن إحدى زوجتيه ، ونزل عن نصف حديقته . . ولكن عبد الرحمن بن عوف الذى أشرب مثل الإسلام وقيمه ومبادئه . . رفض أن تقوم حياته على هبة من أخيه فى الله . . لأنه يعلم أن الإسلام دين عمل كما هو دين عبادة . فكان أن طلب الطريق إلى السوق ليبيع ويشترى . . وكان تاجراً مبارك اليد . . إذا مس بها التراب تحول إلى ذهب ، كما يقول الرواة . . أى كانت تجارته رابحة لا تبور . .

وكما كان سعد بن الربيع جواداً سخياً يقرى الضيف ويكرم النزيل . . فقد كان شجاعاً لا تفل عزيمته ولا يخبو مضاؤه . . شهد غزوة بدر ، وكان من أبطالها المبرزين . . ثم جاءت غزوة أحد بعد عام من هزيمة قريش هزيمة ماحقة فى بدر . . وحدثت غلطة الرماة الذين تخلوا عن أماكنهم رغم تحذير النبي صلى الله عليه وسلم لهم . . فوجد سعد نفسه وسط مجموعة من الحاقدين الموتورين من قريش .. وما لبث كل منهم أن طعنه طعنة نافذة . . حتى بلغ عدد هذه الطعنات القاتلة اثنتى عشرة طعنة . . فى هذه اللحظة التى كان فيها سعد بن الربيع يجود بأنفاسه الأخيرة . . سأل عنه الرسول صلى الله عليه وسلم . . وطلب من يأتيه بخبر عنه . . وعلى الفور قام أحد الصحابة بالبحث بين الشهداء عن سعد بن الربيع فوجده فى الرمق الأخير . . ولما رآه سعد قال له : أخبر قومك أنهم لا عذر لهم عند الله إن قتل رسول الله وواحد منهم حى . .

لم يكن سعد بن الربيع ،وهو يموت ،يفكر فى نفسه وفى بنتيه،وإنما كان يفكر فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهكذا كان حب الصحابة لرسول الله ، وهكذا كانوا يفضلون الله ورسوله على كل ما عداهما . .

دفن سعد بن الربيع مع خارجة بن زيد فى قبر واحد . . وبعد مضى أيام من المعركة جاءت امرأة سعد بابنتيها إلى الرسول وقالت له :

هاتان ابنتا سعد . . مات أبوهما شهيداً يوم أحد ، وعمهما أخذ مالهما ، ولم يدع لهما شيئاً . . والله لا تنحكان إلا ولهما مال :

فقال لها الرسول : يقضى الله فى ذلك . ولما أنزل الله على نبيه آية الميراث بعد ذلك . . دعا النبي عمهما وقال له : أعط ابنتى سعد الثلثين ، وأعط أمهما الثمن ، ولك ما بقى . .

* * *

زيد بن سهل

صوته فى الجيش خير من ألف رجل

كما **آتاه الله بسطة فى الجسم ، ورجحاناً فى العقل ، وصلابة فى العزيمة ، وشجاعة فى القلب ، فقد آتاه أيضاً قوة فى حنجرته تجعل صوته عالياً مدوياً فى الآفاق يصل إلى مسافات شاسعة . . حتى إنه حين كان ينادى فى الجيش لا يخطئ صوته أحد . . ولذلك قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لصوت أبى طلحة (وهذه كنيته) فى الجيش خير من ألف رجل » . . فقد كان يرعب الأعداء بصوته وهو يكبر ، كما يرهبهم بسيفه وهو يخوض غمرات القتال . .**

وحين نتأمل فى مرآة التاريخ سيرة حياة هذا البطل ، نجد أنفسنا أمام شموخ يتطاول حتى عنان السماء . . وأمام صفاء نفسى وروحى يشف عن قدرة خارقة .. وأمام حياة تجمعت فيها فضائل الإنسان حيث تكون الفضائل فى أعلى قممها وأكرم ذراها . .

فبطلنا هذا من الأنصار الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية . . حيث وضع يمينه فى يمين الرسول صلى الله عليه وسلم وبايعه مع من بايعوه فى تلك الليلة المباركة ، وبذلك نال حظوة عند الله . وألقت عليه السماء برداء من نور ، وعاد مع رفاقه الأبرار إلى المدينة، ليكونوا حملة المشاعل الإلهية على طريق الدين الجديد . . وعندما هاجر الرسول صلى الله

عليه وسلم إلى المدينة ، وآخى بين المهاجرين والأنصار . . كان حظ أبى طلحة من المؤاخاة أرقم بن أبى الأرقم . . ذلك الشاب الذى جعل بيته على الصفا مثابة لاجتماع النبى خفية مع السابقين الأولين فى الإسلام . . البيت الذى كان آخر من اعتنق الإسلام فيه عمر بن الخطاب . . وبعدها جاهر المسلمون بدينهم وعقيدتهم . . وأخذت الدعوة طريقها إلى قلوب وعقول من اختصهم الله بفضله ورحمته وهداه .

وقد شهد أبو طلحة المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . لم يتخلف عن مشهد واحد . . وكان يوم أحد – كما يروى أنس بن مالك – يرمى بين يدى الرسول ، لأنه كان من أمهر الرماة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم خلفه يتترس به . . وكان أبو طلحة يسدد السهام إلى المشركين فيصيب بها من يشاء الله . . ويلتفت إلى الرسول ويقول له : بأبى أنت وأمى يارسول الله لن يصيبك سهم . . فنحرى دون نحرك .

هكذا كان أبو طلحة الفارس الشجاع الذى لا يهاب المنايا ، ولا يكف عن تسديد السهام إلى صفوف المشركين ، يقوم بأروع المواقف ، وهو يتخذ من جسده ترساً لحماية الرسول صلى الله عليه وسلم من سهام الأعداء . .

وعندما هاجم الرسول يهود خيبر بعد أن تآمروا عليه ، وشد الرحال إلى حصنهم الذى يتحصنون به ، أضفى على أبى طلحة لوناً عالياً من التكريم فأركبه راحلته ، وكان أبو طلحة وهو يذكر نعم الله وأياديه عليه ، يقول : كنت ردف الرسول صلى الله عليه وسلم يوم خيبر . .

ويأتى يوم يبتلى فيه المسلمون ابتلاء شديداً.. حيث تآمرت هوازن وثقيف على الرسول ، وحشدوا حشودهم فى قمم حنين ، وفوجىء المسلمون بالسهام والنبل تنهمر عليهم كالمطر . . فولوا الأدبار . . إلا من شاء الله أن يقفوا بجوار الرسول . . وكان منهم أبو طلحة . . فقد وقف يبطش بالمشركين حتى قتل منهم فى ذلك اليوم عشرين رجلا ، وأذن له الرسول بأن يأخذ أسلابهم . .

وفى حجة الوداع كان الصحابة يتنافسون فى الحصول على شعرة من شعرات الرسول وهو يحلق رأسه . . ويحكى أن النبى صلى الله عليه وسلم حلق فى تلك الحجة ، فكان أول من قام فأخذ شعره أبو طلحة . . ثم قام الناس فأخذوا ، فمنهم من أخذ شعرة ، ومنهم من أخذ شعرتين . .

أما عن ورع أبى طلحة وتقواه وعبادته ، فإنه صام أربعين عاماً لم يفطر إلا فى يومى عيد الفطر وعيد الأضحى وأيام المرض . . حتى أيام الجهاد ، كان يصومها . . فما دخل معركة قط إلا وهو صائم . .

وإذا كانت حياته على هذه الصورة الرائعة ، فإن مماته كان على صورة أروع . . فنى العام الرابع والثلاثين من الهجرة ، ومعارك الإسلام قائمة ، وأبو طلحة فى السبعين من عمره ، وكان يقرأ القرآن حتى وصل إلى قوله تعالى : « انفروا خفافاً وثقالا » . . فقال أرى ربى يستنفرنا . . شيوخنا وشبابنا . . جهزونى . . أى بنى جهزونى . .

فقال بنوه..وقد أشفقوا عليه أن يخرج للقتال فى هذه السن : ياأبانا .. لقد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغزوت مع أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . ونحن الآن نغزو عنك . .

فقال لهم : جهزونى . . فلن أموت على فراشى . .

ولم يجد أبناؤه بداً من تجهيزه ، وذهبوا به إلى البحر ، وركبوا معه السفن إحدى الذاهبة إلى الحزب . . ولكن المنية عاجلته قبل أن يصل فمات ، ودفن بعد موته بسبعة أيام فى إحدى الجزر ، وجثمانه كما هو لم يتغير .

• • •

هشــام بـن العـاص

الفدائى الذى قدم نموذجاً فريداً للتضحية

لـــو

أردنا أن نصف الفدائية فى أروع صورها ، والبطولة فى أكرم ذراها ، والشجاعة فى أنصع معانيها ، والتضحية فى أغلى مواقفها ، لقلنا إنها تتمثل فى هشام بن العاص الأخ الأصغر لعمرو بن العاص . . كانت حياته نموذجاً رفيعاً للمؤمن الأواب ، ومماته أو استشهاده صورة نادرة فريدة للبطل الذى يبحث عن الشهادة ، وتهتف خفقات قلبه بأسمى أناشيد التضحية والفداء . . حتى لكأنه يرى الجنة ، بجمالها الخالد ، مزدهرة فواحة تحت ظلال السيوف . . ويرى الملائكة وهى تحمل بأيمانها له ثياب الرضوان . . فهو يحارب والقرآن مضىء فى قلبه وعلى شفتيه ، ووجهه تحت غبار المعركة يتلألأ بشراً وحبوراً بلقاء الله . .

باع هشام بن العاص نفسه لله منذ الصبا . . فقد أسلم وهو شاب يتأجج قوة ، ويتخايل نضارة .. ولما علم أن أباه سيضيق عليه الخناق ، ويحاول أن يفتنه عن دينه، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية .. ومكث بها وكله لهفة وحنين واشتياق إلى العودة لمجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ليصقل قلبه ووجدانه بتعاليم المصطفى ، وكلماته المشرقة المضوأة بنور السماء . .

وجاء يوم بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر إلى المدينة ، وأن صحابته الأبرار هاجروا أيضاً ، فلم يلبث أن شد الرحال وعاد إلى مكة ، استعداداً للحاق بالنبي وصحبه فى المدينة . . ولكن والده العاص لم يمكنه من الهجرة .. فحبسه فى مكة بضع سنوات ، ووضع رقابة صارمة عليه.. عساه أن يرتد إلى عبادة اللات والعزى وأصنام قريش . . ولكن الشاب المؤمن صبر على وحشة السجن واغترابه وسط قوم لا يدينون بالإسلام ، وظل يتحين الفرصة حتى واتته ، فخرج من مكة خائفاً يترقب . . وواصل السفر أياماً وليالى حتى بلغ المدينة . . وهناك انضم إلى كوكبة المهاجرين .

كان المسلمون قد خاضوا عدداً من الغزوات آخرها غزوة الخندق . . وكانت أنباء هذه الغزوات تروى بتفاصيلها فى كل مكان بمكة ،وسمع ما جرى بين المسلمين وبين المشركين ، فتاقت نفسه إلى الجهاد ، وتمنى أن يحمل سيفه فى سبيل الله .. وبخاصة أنه يملك كل مقومات الفدائية والبطولة ، ومن ثم شارك فى باقى الغزوات والمشاهد، وأبلى فيها بلاء حسناً،وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول عنه وعن أخيه عمرو بن العاص :«ابنا العاص مؤمنان» وكانا يحظيان من المصطفى صلى الله عليه وسلم بكل إعزاز وتكريم . . كما أنهما كانا حديث الناس وموضع المقارنة منهم . . فقد كانوا يودون أن يعرفوا أيهما أفضل من أخيه . . يقول عبد الله بن عبيد الله بن عمير : بينما حلقة من قريش جلوس فى هذا المكان من المسجد فى الكعبة، إذ مر عمرو ابن العاص يطوف . . فقال القوم : هشام بن العاص أفضل فى أنفسكم أم أخوه عمرو . . فلما قضى عمرو طوافه جاء إلى الحلقة فقام عليهم وقال :

– ماذا قلتم حين رأيتمونى ، فقد علمت أنكم قلتم شيئاً .. فقال القوم: ذكرناك وأخاك هشاماً فقلنا : هشام أفضل أو عمرو ؟ فقال : على الخبير سقطتم . . سأحدثكم عن ذلك . .

إنى شهدت أنا وهشاماً أجنادين، فباتوبت ندعو الله أن يرزقنا الشهادة .. فلما أصبحنا رزقها وحرمتها . . فهل فى ذلك ما يبين فضله على ؟

ثم التفت عمرو بن العاص فرأى أولاداً صغاراً يجلسون بعيداً عن الحلقة . ، فقال لهم : مالى أراكم نحيتم هؤلاء الصغار عن مجلسكم ؟ . . لا تفعلوا . . أوسعوا لهم وأدنوهم وحدثوهم وأفهموهم الحديث . . فإنهم اليوم صغار قوم ويوشكون أن يكونوا كبار قوم . . وإنا كنا صغار قوم وأصبحنا اليوم كبار قوم . .

أما قصة استشهاد هشام بن العاص يوم أجنادين فإنها تجعل التاريخ خاشعاً وهو يرسم صورة عنها . . لقد ضحى كما لم تعرف التضحية ، وشاهد أشباح الموت تحلق فى سماء المعركة ، ورأى بعض المسلمين ينكصون عن عدوهم ، فألقى بالمغفر عن وجهه ، واقتحم صفوف العدو ، وهو يصيح بصوت جهورى يدوى فى ساحة القتال :

يامعشر المسلمين « إلى . . إلى . . أنا هشام بن العاص . . أمن الجنة تفرون .. ؟» وظل يقاتل الروم حتى انكشفوا عن مواقعهم ، وانتهوا إلى أخدود فى الأرض ووقفوا دونه يقاتلون المسلمين . . وتوهم الروم أن المسلمين لن يعبروا هذا الأخدود . . ولشد ما تملكهم الذهول وهم يرون هشام بن العاص يحاول عبوره فى اقتحام جرىء . . إلا أن الموت كان يترصد له فى تلك اللحظة . . فسقط فى الأخدود ، مما جعله فى متناول سيوف الروم . .

وعندما انتهى إليه المسلمون وقفوا مدهوشين من هول المنظر ،إذ رأوا هشام بن العاص البطل الذى يتقدم الصفوف ممدداً فى الأخدود ، وهابوا

أن يوطئوه الخيل فصاح عمرو أخوه : إن الله قد استشهده ورفع روحه ، وإنما هو جثة فأوطئوه الخيل . . ثم أوطأه وتبعه الناس حتى قطعوه إربا . . واختلط لحمه وعظمه بالأرض . .

ولما حلت الهزيمة بالروم ، ورجع المسلمون إلى معسكرهم ، انحنى عمرو على أشلاء الجثمان الممزق . . وأخذ يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه ، ثم وضعها فى قطعة من الجلد وواراها التراب . .

وهكذا كانت نهاية بطل قدم نموذجاً للتضحية سيظل ساطعاً مهيباً فى تاريخ التضحيات . .

* * *

عبد الله بن أم مكتوم

الكفيف الذى حمل راية الجهاد ونزل إلى المعركة

إنـه شخصية فريدة مميزة فى تاريخ الإسلام علماً وسلوكاً . . أعاضه الله عن فقد بصره .. نوراً فى البصيرة. . وضياء فى القلب . . حتى إنه كان – وهو الكفيف – يرى بعينى قلبه ما لا يراه المبصرون ..كان قلبه أشبه بمرصد يستقبل أسرار الله، وأنوار السماء..وبلغ من تقدير النبى له أن كان يستخلفه على المدينة حين يخرج للغزوات . . فيؤم المصلين فى محراب الرسول صلى الله عليه وسلم..ويقف عن يسار المنبر خاشعاً مخبتاً ..تخرج الكلمات من فمه باكية متهدجة من خشية الله . .

كان ابن أم مكتوم شعاعة وامضة من تاريخ الإسلام فى مكة..فقد هدته فطرته الصافية النقية أن ينضم إلى قافلة السابقين الأولين فى الإسلام ، وقد تذوق قلبه حلاوة الإيمان وهو شاب غض الاهاب..وأحس وهو فى عنفوان الرجولة أن الإسلام يملأ كيانه صفاء ونقاء وشفافية وروحانية..فلم يجد فى فقد البصر إلا نعمة من الله بها عليه ، إذ أعاضه عنها بقلب يرى الحق ساطعاً ، وهنا أدرك المعنى الذى أورده الله فى كتابه الكريم عن العمى الحقيقى « إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ثم تيقن ابن أم مكتوم بأن الله ميزه ، وميز المكفوفين أمثاله، على غيرهم من الناس ، بأن جعل جزاءهم الجنة ، وذلك حين سمع هذا الحديث الشريف :

قال أنس بن مالك رضى الله عنه : « إن جبرئيل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده ابن أم مكتوم ، فقال : متى ذهب بصرك ؟ . قال : وأنا غلام فقال : قال الله تبارك وتعالى إذا ما أخذت كريمة عبدى لم أجد له بها جزاء إلا الجنة » . .

وكان ابن أم مكتوم ذا حس دقيق بمعرفة الوقت . . كان إذا أقبل الفجر بنسماته الندية وومضاته الصافية ، يخرج من بيته متوكئاً على عصاه.. أو مستنداً إلى ذراع أحد المسلمين ليؤذن للصلاة فى مسجد الرسول . . وكان يتناوب الأذان مع بلال بن رباح . . إذا أذن أحدهما يقيم الآخر . . ولكن بلالا كان يؤذن بليل ليوقظ الناس . . أما ابن أم مكتوم فكان يتوخى الفجر فلا يخطئه . . ولذلك فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول: كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم .

وقد كرم الله سبحانه وتعالى ابن أم مكتوم ، وعاتب نبيه عليه الصلاة والسلام من أجله .. فبينما النبى صلى الله عليه وسلم جالس مع رجال من قريش .. فيهم عقبة بن ربيعة وناس من وجوه قريش. . وهو يقول لهم : أليس حسنا أن جئت بكذا وكذا ؟ فيقولون بلى والدماء . . وإذا بابن أم مكتوم يقبل ويسأل النبى عن شىء .. فأعرض عنه .. لأنه كان مشغولا بالحديث مع الجالسين معه .. فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله الكريم :

« عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى » .. يعنى ابن أم مكتوم .. « أما من استغنى » .. يعنى عقبة وأصحابه .. « فأنت له تصدى . وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » .. يعنى ابن أم مكتوم .

حين نزلت هذه الآيات دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم وأكرمه واستخلفه على المدينة فى أول غزة خرج فيها .

وقد حظى ابن أم مكتوم بمنزلة رفيعة بين أهل المدينة .. كان أكثرهم حفظا للقرآن الكريم .. كما كان يحفظ الكثير من أحاديث الرسول

صلى الله عليه وسلم .. وكان يتمنى أن يشارك فى الجهاد لولا أنه مكفوف البصر .. وقد أفضى بهذه الرغبة لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فكانوا يبدون اغتباطهم به لحظوته عند الله ورسوله .. فقد نزل بشأنه وحى من الله ..

ثم جاء يوم حزن فيه ابن أم مكتوم غاية الحزن . وتألم أشد الألم .. ذلك أن الوحى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية الكريمة : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فقال ابن أم مكتوم : « يارب ابتليتنى فكيف أصنع » ! فنزل قوله تعالى « غير أولى الضرر » .

أى تكريم أعظم من هذا التكريم .. مرتان ينزل بهما الوحى بشأن ابن أم مكتوم .. أما الأولى فكانت عتابا للنبى .. وأما الثانية فكانت تقرير قاعدة إسلامية بشأن من لا يستطيعون القتال .. ومنهم ابن أم مكتوم ..

ولكن ابن أم مكتوم كانت تراوده الرغبة فى الانضمام إلى صفوف المجاهدين ، ويعرب عن هذه الرغبة بإلحاح . ويقول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادفعوا إلى اللواء فإنى أعمى لا أستطيع أن أفر .. وأقيمونى بين الصفين ..

ولم يمت هذا الصحابى الجليل قبل أن يحقق الله له هذه الرغبة .. فقد شوهد يوم القادسية وهو يحمل راية سوداء ، وعليه درع سابغة .. وكان أول مكفوف يشارك فى معركة من معارك الإسلام ..

إن التاريخ ليقف خاشعا أمام سيرة حياة هذا الرجل العظيم .. وما أقل وأندر من يقف خاشعا أمام سيرة حياتهم التاريخ !!

* * *

ثابت بن قيس

البطل الذى حفر قبره ولبس كفنه ونزل إلى المعركة

تفتح

قلبه للإسلام وهو فى ميعة الصبا . . فتى يتألق نضارة . . ويرتدى أجمل الثياب . . وتكسوه الحياة رواء وبهاء . . وتلوح عليه مخايل النجابة ، ودلائل التفوق المبكر . . وحين سطعت العقيدة فى قلبه أضاءت كيانه من الداخل . . وطردت حب الدنيا من قلبه ، ليحل محله حب الله ورسوله . . ولكنه ظل يتمتع بالطيبات من الرزق ، وبزينة الله التى أخرج لعباده من الأرض . .

وكما منح الله سبحانه وتعالى ثابت بن قيس طلاقة فى لسانه .. وبلاغة فى بيانه .. ونصاعة فى حجته .. فقد منحه كذلك قسطا من الشجاعة والثبات والإقدام جعله طليعة المجاهدين .. وهكذا اجتمعت له ميزتان بارزتان : التفوق فى ميدان البيان ، والتفوق فى ميدان القتال ..

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكبر هاتين الميزتين .. ويدعوه إلى الخطابة إذا جاءه عباقرة الفصاحة من القبائل .. فلا يملك الخطباء إلا النزول لثابت بن قيس عن عرش البيان ..

وقد بلغ من خشيته لله وإجلاله للرسول أنه حين نزلت الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » ..

حين نزلت هذه الآية تغيب ثابت بن قيس عن مجلس الرسول ، وبعث النبي بمن يتفقد أحواله ، فإذا به جالس فى منزله لا يبرحه ، خيفة أن يعلو صوته فى حضرة المصطفى ، فيحبط عمله دون أن يشعر ..

ولما حضر ثابت .. وعلم النبي منه سبب تغيبه .. قال له عليه الصلاة والسلام كلمات كشف له فيها عما يكنه له المستقبل ، وما ينتظره عند الله من مغفرة ورضوان ..

– إنك لست منهم « أى الذين يحبط عملهم » .. بل تعيش حميدا ، وتقتل شهيدا ، ويدخلك الله الجنة ..

وقعت كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم على قلب ثابت بردا وسلاما .. فقد أصبح مبشرا بالجنة . بل من قافلة الشهداء الذين وصفهم الله عز وجل فى كتابه العزيز : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله » ..

ظل ثابت بن قيس يترقب لحظة استشهاده .. ويتمناها كلما دخل معركة جديدة .. ولكن مضت الأيام ، وانتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى دون أن تتحقق الشهادة لثابت .. وطال انتظاره ليوم ميقاتها .. حتى نشبت حروب الردة .. وحروب مدعى النبوة .. وكانت معركة « اليمامة » أشد هذه الحروب شراسة وضراوة وأهوالا..

خرج ثابت إلى هذه المعركة بعد أن لبس كفنه وتطيب .. ووقف قبالة الحديقة التى يدير من خلالها مسيلمة الكذاب المعركة .. فرأى المسلمين وقد تراجعوا إلى الخلف حين فاجأهم جيش مسيلمة بما لا يتوقعونه من العدد والعتاد .

ماذا فعل البطل فى هذه اللحظة الحاسمة .. حفر قبرا له فى الرمال ، ووقف فيه لا يتلحلح ولا يتزحزح قيد أنملة .. وراح يصيح بأعلى صوته .

وكن جهورى الصوت .. يطلب إلى المسلمين الثبات فى القتال ، والعودة إلى التلاحم ، ومناجزة العدو .. حتى النصر أو الشهادة .

ومر الوقت بطيئا ثقيلا وثابت يستقبل بسيفه كل من يحاول الاقتراب منه .. حتى أدرك جنود مسيلمة خطورة هذا الرجل الذى يلبس كفنا ويقف فى حفرة تشبه القبر ، فتكاثروا عليه من كل جانب ، ومزقوا جسده بالسيوف .. وكانت قطرات دمائه تتناثر على الأرض . ولها بريق يخطف الأبصار ..

وهنا تحققت نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم .. فقد قال له : تعيش حميدا .. وتقتل شهيدا .. وتدخل الجنة ..

ولكن نداءه ظل يدوى فى مسامع المسلمين .. فأقبلوا على القتال فى نهم واشتياق إلى اللحاق بمن سبقهم إلى الجنة .. وظلوا يقاتلون جيش مسيلمة حتى لقى الكذاب مصرعه .. وولى جنوده الأدبار ..

أما الفدائية التى واجه بها زيد بن ثابت جيش مسيلمة .. فسوف تظل قلادة خالدة فى جيد التاريخ .. فقد حفر قبره ولبس كفنه ولم يكلف أحدا مشقة دفنه .. وكتب بدمائه أروع ختام لأمجد شهيد .

* * *

سهيل بن عمرو

خطيب وفارس فى الجاهلية والإسلام

كـــان **من أفصح الناس لساناً ، وأبلغهم مقالا فى الجاهلية . . إذا قام خطيباً سحر وبهر . . وهز القلوب والعقول . . تتضوع كلماته حكمة . . وتبلغ أرفع قمة فى البيان العربى . . ولم يكن من السابقين الأولين فى الإسلام ، وإنما آثر أن يظل أحد الزعماء المرموقين فى مكة ، يقاوم الدين الجديد بطلاقة لسانه، وسحر بيانه .. وكان ممن لهم الصدارة فى دار الندوة ، وفى أسواق العرب . . وقد انطبق عليه فيما بعد : « خيركم فى الجاهلية خيركم فى الإسلام » . .**

ولأنه من عباقرة البيان الأفذاذ فى مكة ، وممن تتفتق عقولهم عن الفكرة تلو الفكرة إذا اتخذ موقف المفاوض ، أو أنيطت به مهمة رسمية من قبل قومه . فقد أجمعت قريش على إرسال سهيل بن عمرو إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية لإجراء حوار معه حول عقد معاهدة بينه وبين قريش ، سميت فيما بعد بصلح الحديبية ..

جاء سهيل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم محتشدا بكل ما يملك من فصاحة القول .. ونصاعة العقل . . وبلاغة الحوار .. ولكنه ما كاد يجلس بين يدى الرسول حتى بهرته شمائله .. وأسره منطقه .. وأخذته الكلمات الحكيمة الصادقة التى تتهادى فى ضوئها وجلالها من شفتيه

الطاهرتين .. أحس سهيل ذلك الخطيب المفوه .. بضآلته أمام القيم العظمى والشمائل الرفيعة التى شاهدها فى الرسول صلى الله عليه وسلم .. ولولا أنه جاء ليعبر عن رأى قريش ، ويمثل زعماءها ، لما تردد فى إعلان إسلامه ..

جرت المفاوضات بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين سهيل سمحة كريمة وادعة من جانب الرسول .. وكان كلما أفاض النبى من سماحته وفطنته وحكمته .. تخشع أفكار سهيل .. ويحس الخجل يملك عليه أقطار نفسه .. ويسأل نفسه فى أدب وحياء ، لماذا تمنع قريش هذا الرجل العظيم من دخول مكة ، مع أن كل شىء فيه ينطق بالصدق والأمانة ، ودماثة الخلق ، ورقة الطبع ، ولين الشمائل .. ؟

ولكن غريزة الزعامة فى سهيل لم يهدأ إعصارها بين جوانحه ، فيستمر فى الحوار مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو بين أمرين : عظمة الرسول .. وجسامة المهمة التى أناطتها به قريش .. وتنتهى المفاوضات إلى عدة نقاط ، أو عدة بنود ، ويعود سهيل إلى مكة بصلح الحديبية ، ويتلقاه زعماؤها بالإشادة والاستبشار ، لأنه نجح فى أن يحقق رغبتهم فى منع المسلمين من دخول مكة هذا العام ..

قرت بلابل زعماء مكة وناموا ملء أعينهم فى تلك الليلة .. أما سهيل فقد بات وفى نفسه ما يشبه الشحنة الكهربائية .. كان يستعرض تلك الجلسة الوضيئة التى جلسها مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتواكب أمام ذهنه سمو الرسول وسماحته ونبله وعظمته النفسية .. ويعود بفكره قليلا إلى الوراء ليتذكر صفح الرسول صلى الله عليه وسلم عنه يوم أن وقع أسيرا فى غزوة بدر .. وأراد عمر بن الخطاب أن يخلع ثنيته حتى يعجز عن الخطابة ضد المسلمين .. ولكن الرسول الكريم السمح الذى يعفو عند المقدرة ينظر إلى ابن الخطاب ويقول له : « كلا يا عمر .. لعل سهيلا يقف غدا موقفا يسرك » .

وبينما قريش في نشوة عارمة مما حصلت عليه فى صلح الحديبية ، كان سهيل بن عمرو لا يحس غبطة تسرى فى جوانحه ، ولا حبورا يتسلل إلى مشاعره ، ولا سكينة تومض فى نفسه .. كان يفكر فيما عسى أن يفعله فى غده .. أينزل عن مهابته فى قومه ، وزعامته فى قريش ، ومكانته فى مكة ، وينضم إلى المسلمين فى عقيدتهم ودينهم .. ويصبح تحت لواء هذا الدين إنسانا لا يميزه إلا عمله ولا يرفعه إلا تقواه .. وإذا فعل ذلك فكيف يكون وقع النبأ فى مكة ، وماذا تقول عنه قريش وهى التى بوأته مكان الصدارة ، وأحلته مكانا عزيزا لبلاغته وشجاعته .. كل هذه الخواطر ألحت على ذهنه بصورة هائجة مضطربة ، فأسلمته إلى القلق والبلبلة ..

ومر عامان على صلح الحديبية ، ودخل العام الثامن للهجرة ، ونكثت قريش عهدها مع الرسول ، إذ أعانت بنى بكر على التنكيل بخزاعة ، القبيلة التى حالفت النبي .. وكان وفاء الرسول صلى الله عليه وسلم لحلفائه يفرض عليه إنقاذهم .. ويرد إليهم اعتبارهم ..

دعا الرسول إلى الجهاد . . فلبى المسلمون مسرعين . . ولم يجدوا صعوبة فى فتح مكة .. وكان فتحها آخر فصل فى رواية الوثنية .. إذ تم تطهير الكعبة مما حولها من الأصنام . . ورفعت راية الإسلام على هذا البلد الأمين ..

ماذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم..وقد مكنه الله من خصومه وألد أعدائه .. سألهم يا معشر قريش.. ماذا تظنون أنى فاعل بكم .. وساد الصمت لحظات .. ثم قالوا :

نظن خيرا .. أخ كريم وابن أخ كريم ..

فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

وفى يوم الفتح العظيم أسلم سهيل بن عمرو . . وتذكر عمر بن الخطاب قول الرسول له : لعل سهيلا يقف غدا موقفا يسرك .

* * *

صهيب بن سنان

فضل تجارة الآخرة - ويترك ماله ليلحق برسول الله

كـأنما

امتحنته السماء فى حريته.. وهو طفل تضحك من حوله الدنيا.. وتشرق الحياة . . كان يملأ قصر والده مرحاً وبشاشة ، وينعم بالعيش الرغيد بين الحشم والخدم . . وذات ليلة حالكة هجمت عصابات الروم على قصر أمير « الأبلة » بالعراق واختطفت ابنه الصغير « صهيب » .. وانتقل الطفل من الرفاهية والنعيم إلى حياة كلها قسوة وشقاء . . ثم زادت شقوته وهو يرى نفسه يباع فى سوق الرقيق .. مثلما تباع السائمة ، وسيق إلى منزل سيده عبد الله بن جدعان فى أطراف مكـة . .

وأصبح ربيب القصر والنعمة عبدا يخدم فى منزل واحد من تجار العرب وسراتهم .. واحتمل صهيب ظروف الحياة الجديدة . وراح يقوم على خدمة أهل المنزل بعد أن كان يقوم بخدمته كثير من الإماء والعبيد .. ولكنه كان صبيا طموحا ، فتناسى أنه ابن أمير .. وينتمى إلى أسرة تحكم إحدى مدن العراق .. وتفانى فى عمله .. وبذل كل ما فى وسعه لخدمة أسرة عبد الله بن جدعان ..

وأحس عبدالله أن فى هذا الصبى شمائل طيبة ، وأدرك بلماحيته أنه يختلف عن أقرانه وعيا وفهما وذكاء ، وأنه من الخطأ أن يسلك فى عداد

العبيد ، فقرر أن يعطيه حريته ، وأن يترك له حق اختيار قدره ومصيره .. ولما أعلن عبد الله على صهيب هذا القرار ، قابل فضله بفضل مثله ، فقال له : ائذن لى أن أعاونك فى تجارتك ، وأكفيك مشقة السفر ، وأضع عنك إصر الأسواق ومتاعب التجارة ..

وإذ عادت الحرية إلى صهيب من جديد ، وكان شبابه قد تفتح ، وإدراكه قد نضج ، وعقله فى طريق الاكتمال ، راح يرد الجميل لعبد الله ابن جدعان ، فأخلص فى التجارة معه حتى نمت ثرواتهما فى وقت قياسى ، وأصبح صهيب الشاب الغريب عن قبائل مكة وأهلها من خيرة التجار الأثرياء فى مكة ..

وبينما الشاب صهيب بن سنان يمارس التجارة بنشاط لا يكد ، وعزيمة لا تخبو .. إذا به يسمع همسا عن الدين الجديد الذى يبشر به محمد ابن عبد الله .. ويسمع أن دار الأرقم بن الأرقم هى المكان الذى يمارس فيه النبي نشر دعوته سرا .. ويحس صهيب بشوق ملح يضطرم فى قلبه ووجدانه للقاء النبي .. وتسرع به خطاه نحو دار الأرقم .. وعندما يهم بدخولها يجد عمار بن ياسر يحاول الدخول أيضا . ويدور حوار بين صهيب وعمار ، يكشف كل منهما لصاحبه عن السبب الذى جاء من أجله ، وهو اعتناق الدين الجديد الذى يبشر به محمد صلى الله عليه وسلم .

دخل الاثنان على الرسول ، وسمعا من فمه الطاهر الوضىء بعض آيات القرآن الكريم .. وتفتح قلباهما لنور الله ، فأسلما على الفور . ولم يخرجا من دار الأرقم إلا عندما جن الليل حتى لا يراهما أحد من المشركين .

كان ذلك اليوم بدء مرحلة جديدة فى حياة صهيب .. راح ينظر إلى الدنيا على أنها متاع زائل ، وأن تجارة الآخرة لن تبور ، فقسم وقته بين ممارسة التجارة فى الأسواق .. وبين مجالسة الرسول صلى الله عليه وسلم.. بيد أنه جعل الجانب الأكبر من وقته لمجالسة الرسول .. ثم اشتد حب

الله ورسوله بقلبه ، فأعطى جل وقته لملازمة النبي صلى الله عليه وسلم .. وكان لا يفارق النبي إلا عندما يأوى عليه الصلاة والسلام إلى فراشه .. حتى إنه كان يعلم بالساعة التى سيهاجر فيها الرسول من مكة إلى المدينة ، وكان قد قرر أن يلازمه من أول خطوة فى هذه الهجرة المباركة .. بيد أن المشركين كانوا يراقبونه ، فلم يتمكن من الخروج مع الرسول وأبى بكر الصديق ..

ولكن أشواقه المتأججة وحبه الصادق لرسول الله جعلته يقوم بمغامرة مثيرة ، ويغادر مكة بعيدا عن أعين الرقباء ليلحق بحبيبه صلى الله عليه وسلم .. إلا أن المشركين كانوا قد وضعوا عيونهم على مشارف مكة وخارجها .. فجاءهم من ينبئهم بأن صهيب بن سنان خرج مستخفيا ليكون فى صحبة النبي عليه الصلاة والسلام .. واستشاط المشركون غيظا ، وأطلقوا عددا من فرسانهم لرد صهيب ، وطلبوا إليه أن يرجع .. فرفض فى عزة وإباء وشمم .. وقال لهم : لن أعود إلى مكة .. وإذا شئتم أن تأخذوا كل ثروتى فخذوها .

عاد المشركون مسرعين للاستيلاء على أموال صهيب .. أما صهيب فقد واصل رحلته حتى انتهى إلى المكان الذى كان يجلس فيه الرسول مع بعض الأنصار والمهاجرين . . وعندما رآه الرسول صلى الله عليه وسلم قال : ربح صهيب .. ربح صهيب ..

* * *

عبد الله بن رواحه
سيف وقلم فى سبيل الله

لـــو أردنا أن نتكلم عنه بلغة العصر..لقلنا إنه كان من رجال الإعلام المبرزين فى عهد الرسول . . فقد جاهد بسيفه وقلمه معاً .. خاض مع النبي معظم غزواته .. ودافع عن الإسلام بقلمه.. حيث كان ينظم الشعر الحماسى للمعارك، والشعر الدينى الذى يردده المسلمون هتافاً إيمانياً يصعد إلى أجواز الفضاء ويهز طبقات الأثـــير . .

هذا هو عبد الله بن رواحة الأنصارى الذى كان أحد النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا الرسول بيعة العقبة الأولى .. وكان أيضا واحدا من الثلاثة والسبعين أنصاريا الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية ..

كان يملك شجاعة القلب والعقل معا .. يقتحم صفوف الأعداء غير هياب ولا وجل ، ويقاتل فى سبيل الله بكل ما يملك من عزيمة ومضاء وكفاءة فى القتال .. وبنفس الشجاعة ينظم الشعر ليرد على أعداء الإسلام ويخرس أقلامهم وألسنتهم .. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعذب شعره ويستنشده هذا الشعر ، وكان يدعو له بالخير كلما سمع شيئاً من شعره .

وفى عمرة القضاء بينما كان النبى صلى الله عليه وسلم يطوف بالكعبة ، إذا بعبد الله بن رواحة يترنم بهذه الأبيات على مسمع منه صلى الله عليه وسلم ، وإذا بالمسلمين الذين يؤدون العمرة يرددون نفس الأبيات . . فى نبرات تتألق شفافية وروحانية وإيمانا .. هذه الأبيات تقول :

يارب لولا أنت ما اهتـــدينا
ولا تصــــــــدقنا ولا صلينا
فأنزلن ســكينة علينــــــا
وثبت الأقـــــدام إن لاقينــا
إن الذين قد بغــوا علينــا
إذا أرادوا فتنـــة أبينـــا

نعم .. كان صاحب عبقرية فى القتال .. كما كان صاحب عبقرية فى الشعر .. وكما كانت خطواته كلها فى سبيل الله ، كان شعره كله فى سبيل الله أيضا .. كان شعره نابعا من وجدان مؤمن ، وكان الشعر من أبرز أسلحة الإعلام فى الجزيرة العربية .. ولذلك فإن عبد الله ابن رواحة كان من الأبطال المبرزين الذين يهاب المشركون سيوفهم وأقلامهم .. وكان ذائع الصيت فى القبائل العربية كلها ..

وعندما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث بجيش إلى حدود الشام ، لبث الرعب فى قلوب الروم حتى لا يفكروا فى غزو الجزيرة العربية .. كان عبد الله بن رواحة أحد القواد الثلاثة الذين اختارهم لهذه المهمة العظيمة .. فقد اختار صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبى طالب ، وعبد الله بن رواحة لقيادة هذه المعركة .. التى سميت بغزوة مؤتة ..

انطلق الجيش إلى غايته .. حتى بلغ حدود الشام .. وما كاد الروم يلمحون أعلام الإسلام ترفرف على معسكر المسلمين ، حتى خرجوا إلى

قتالهم فى مائتى ألف رجل .. وبدا الموقف قاسياً عصيبا أمام المسلمين .. إن عددهم لا يجاوز بضعة آلاف .. فكيف يواجهون هذا العدد الكثيف.. ولكنهم وقد تربوا فى المدرسة المحمدية ، واستوعبوا الدروس التى علمتهم إياها السماء . . ومن أوائل هذه الدروس أن النصر لا يأتى بكثرة الجنود ، ولا بكثافة العتاد .. وإنما يأتى من عند الله .. وأن المسلمين انتصروا فى بدر وهم قلة ، وانهزموا فى حنين وهم كثرة .. لأنهم خرجوا يوم حنين عن منهج الله ، وظنوا أنهم منتصرون بالكثرة وحدها ، فحاقت بهم الهزيمة ..

تبادل المسلمون وجهات النظر ، وأدلى كل منهم برأيه واقتراحه .. وإذ هم يتناقشون ويتشاورون .. قام عبد الله بن رواحة ليقول لهم فى نبرات كلها إيمان ويقين :

« يا قوم .. إننا والله ما نقاتل أعداءنا بالعدد ولا بالقوة ولا بالكثرة .. وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به .. فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة » ..

كانت هذه الكلمات هى الشرارة التى انطلقت فى سماء المعركة .. فقد صاح المسلمون : «صدقت والله يا ابن رواحة» .. وما هى إلا ساعات حتى اتخذ الجيش أهبته ، وجرد أسلحته . . ولم يداخل المسلمين خوف أو حذر من عدوهم . . وإنما كان الإيمان الذى يتأجج فى صدورهم يدفعهم إلى أتون المعركةالشرسة دون خوف .

أبلى المسلمون فى هذا اليوم بلاء حسنا .. وقاتلوا فى استماتة واستبسال .. ولكن الروم لكثرة عددهم استطاعوا أن ينالوا من المسلمين ..

وكشف الله لرسوله صلى الله عليه وسلم عما دار فى المعركة لحظة بلحظة . . فإذا به فى كلمات نورانية ، ولكنها مخضلة بالدمع ، يخبر أصحابه خبر الشهداء فى مؤتة .. وكيف استشهد القواد الثلاثة واحدا .. وراء الآخر .. بعد أن قاتلوا حتى آخر رمق من حياتهم .. وتجىء الأنباء بعد شهر مصدقة قول الرسول .. وتحتسب المدينة المنورة شهداء المسلمين عند الله .. ويصمت عبد الله ابن رواحة .. القيثارة الإسلامية التى كانت تهز وجدان الجزيرة العربية .. ولكن التاريخ يقف منشدا سيرة حياة هذا البطل العظيم ..

* * *

المقداد بن عمرو

فارس الإسلام فى يوم بدر

كلمـــا

ذكرت معارك الإسلام ، وذكرت بطولات المجاهدين فيها ، تبرز إلى قمة هذه البطولات مواقف المقداد بن عمرو .. كان شجاعاً لا يرهب المخاطر.. مؤمناً يتطلع إلى الشهادة . . جسوراً ترهب وثباته الأعداء . . له صفحة ناصعة فى يوم بدر . . ستظل مضيئة فى سماء التاريخ . . فقد وقف بشخصيته المهيبة ، وهو يتحفز للقاء المشركين ، ويقول للرسول صلى الله عليه وسلم كلمات تهز وجدان المسلمين عن مدى عزيمة هذا البطل وتحمسه وإيمانه :

يارسول الله . . امض لما أراك الله . فنحن معك .. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون .. ولكنا نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .. فنقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك .. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ..

هذه الكلمات الصادقة المنبعثة من قلب المقداد بن عمرو كانت أعذب من أى نشيد عسكرى يردده الجنود قبل القتال .. ثم بدأت المعركة .. وكان المقداد من بين الفوارس الذين يركبون الجياد.. وصال وجال وأبلى

بلاء حسنا ، وكتب الله للنبي وأصحابه النصر فى أول مجابهة عسكرية بين المسلمين والمشركين ..

لم يكن المقداد هو الذى تكلم وحده فى ذلك اليوم .. وإنما تكلم قبله أبو بكر وعمر وكبار الصحابة . ولعل من الكلمات الرائعة فى ذلك اليوم أيضا ماقاله سعد بن معاذ سيد الأنصار .. فعندما قال النبي صلى الله عليه وسلم : أشيروا على أيها الناس .. قال سعد بن معاذ : لكأنك تريدنا يارسول الله؟ . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : أجل . فقال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك . وشهدنا بأن ماجئت به هو الحق .. وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا .. فامض بنا يا رسول الله لما أمرت .. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك .. ما تخلف منا رجل واحد .. وما نكره أن تلقى بنا عدونا .. وإنا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء .. ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك .. فسر على بركة الله » .

وظل المقداد بن عمرو يحارب مع الرسول فى كل غزوة يخرج إليها .. وكان أشجع الفوارس عزما وإقداما وصبرا واقتحاما للمخاطر .. فعندما انهزم المسلمون يوم أحد وفر من فر ، ظل المقداد ثابتا فى مكانه لايتقهقر ولا ينسحب من مكان المعركة .. وكذلك يوم حنين حين لقن الله المسلمين درسا بأن النصر من عنده ، وليس بكثرة العدد ووفرة السلاح ، فولوا مدبرين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .. ولكن هناك قلة قليلة وقفت بجوار الرسول لم تتزحزح من مكانها .. من بينهم المقداد ابن عمرو .

كان حب الجهاد فى سبيل الله يجرى فى دمه .. فحتى بعد وفاة الرسول وظهور فتنة الردة حمل المقداد سيفه وخاض معارك المرتدين حتى قضى الله عليها ..

بعد هذه اللمحة الخاطفة عن جهاد هذا البطل المؤمن يجدر بنا أن نعطى لمحة أخرى عن حياته قبل الإسلام وكيف أسلم . .

ولد المقداد فى بهراء إحدى القبائل اليمنية .. وكان والده من الشيوخ المبرزين فى هذه القبيلة ..

وكان المقداد مفتول العضلات قوى البدن يصرع من يتصدى للشجار معه .. حتى إنه قتل أحد أفراد قبيلته .. وهرب على أثر ذلك إلى قبيلة « كندة » مخافة أن يأخذ أهل القتيل بثأرهم منه .. وكانت هذه القبيلة تقيم بين حضرموت واليمن . . وذات يوم وقع شجار بين عمرو وأحد أبناء كندة فوكزه عمرو فقضى عليه .. وولى الأدبار إلى مكة ولجأ إلى الأسود بن عبد يغوث .. لائذاً به ..

وبعد فترة من الزمن وجد « الأسود » أن « عمرو » يتصف بالشجاعة والأمانة والإخلاص فنسبه إليه ، وسمى عمرو بن الأسود ، وما إن بدأ النبي يدعو إلى الإسلام حتى ذهب إليه المقداد وأسلم .. وكان من السابقين الأولين فى الإسلام ..

وقد هاجر عمرو مع من هاجروا إلى الحبشة .. وعاد إلى مكة بعد إسلام عمر بن الخطاب .. وظل فى البلد الحرام حتى بعد أن هاجر النبي وأصحابه إلى المدينة .. ثم لحق بهم ليعيش مع إخوته فى الدين والعقيدة ..
ثم عاش المقداد إلى عهد عثمان بن عفان . . ولما رأى الفتنة قد نشبت وبعض المسلمين منشقين على الخليفة .. اعتزل هذا الصراع ، وأقام بمكان اسمه الجرف بالقرب من المدينة .. وظل به حتى وافته المنية وقد بلغ من العمر سبعين عاما .. رضى الله عنه وأرضاه .

عقبة بن نافع

فاتح أفريقيا وبانى القيروان

كلمـــا

ذكر عقبة بن نافع البطل المسلم الذى فتح أفريقيا وأدخل نور الله فى بلاد كان يسيطر عليها الجهل والوثنية والظلم . . كلما ذكر هذا البطل يبرز معنى الكفاءة القتالية وعبقرية المحارب الذى يتحرك إلى هدفه بخطة محكمة . . ويقدر لكل خطوة حسابها . .

وكان فتح مصر فرصة سانحة لإظهار عبقرية عقبة العسكرية .. فقد أبلى بلاء حسنا ، مما جعل عمرو بن العاص يسلكه فى عداد القادة ، ويفتح أمامه باب الجهاد على مصراعيه .. حيث يكون فى مقدمة الجيش .. وفى طليعة المجاهدين ..

وبعد أن استقر الفتح الإسلامى فى مصر فكر عمرو فى نشر الدين الحنيف بالبلدان المجاورة . فأرسل عقبة إلى حدود مصر الغربية ، ولما بلغ مدينة زويلة وعرض على أهلها الإسلام دخل بعضهم فى دين الله . وبقى آخرون على وثنيتهم ، على أن يؤدوا الجزية ..

كانت هذه أولى خطوات عقبة على طريق الجهاد بالنسبة لكفاءته فى التخطيط والتنفيذ .. ولما علم عمرو بن العاص بنجاح عقبة فى مهمته بعث برسالة إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يبلغه فيها بهذا النصر ويشيد بعبقرية عقبة ..

ثم جاءت الخطوة الثانية حيث قرر عمرو بن العاص إرسال جيش إلى بلاد النوبة بقيادة عقبة .. وهناك دارت معركة عنيفة أدخلت الرعب فى قلوب أهل النوبة ، مما جعلهم لا يفكرون فى قتال المسلمين .. وبهاتين الخطوتين تم تأمين حدود مصر ، وتفرغ عمرو بن العاص للإصلاحات الداخلية ، وإزالة آثار ظلم الرومان ..

ولكن عمرو بن العاص كانت تراوده بعض المخاوف من أن يفكر الرومان فى القيام بحرب جديدة ضد المسلمين ، فأرسل عقبة إلى برقة ، ليكون لهم بالمرصاد إذا حاولوا القيام بأى عمل عسكرى .. وفى تلك الفترة استطاع عقبة أن ينشر مبادىء الدين الحنيف ، وأن يكون له جيشا من أهل برقة يدعم جيشه الذى قدم به من مصر ، واستطاع أن يقمع الفتن التى كان يحاول البربر – وكانوا يسكنون فى تلك المنطقة – إثارتها ضد المسلمين ..

وبعد أن استطلع عقبة أحوال المنطقة ، طلب إلى عمرو أن يقوم بعمل عسكرى كبير يطهر به هذه البلاد من الوثنية والشرك .. ووافق عمرو على طلب عقبة .. وكان هذا بداية الفتح العظيم لأفريقيا ..

تحرك عقبة بالجيش المتعطش إلى الجهاد ، وأخذ يفتح المدن والقرى .. ففتح « لواتة » و « غدامس » و « وردان » و « مغداش » و « سرت » و « قران » .. وأصبحت معظم الأراضى الليبية تحت سيطرة المسلمين .

كان قد مر على عقبة فى فتح هذه البلدان تسع سنوات كاملة لقى خلالها الكثير من صنوف المتاعب .. ثم فكر فى إنشاء مدينة يقيم فيها الجيش . ومنها تتحرك ألوية الجهاد.. وتكون أول مدينة إسلامية .. فى تلك المنطقة .

وقع اختيار عقبة على قطعة أرض بعيدة عن البحر المتوسط بحوالى خمسين كيلو مترا ، حتى لا تكون مهددة بأسطول الرومان .. وعلى هذه الأرض تم إنشاء مدينة القيروان ..

وظل عقبة يواصل الجهاد حتى استشهد وهو يؤدى واجبه .

* * *

الأحنف بن قيس
بطـــل خراســـان

كـــان **شاباً فى الثامنة عشرة من عمره حين عقد له بنو تميم لواء الزعامة بينما القبيلة الكبيرة تزخر بالشيوخ ذوى الرأى والخبرة والتجربة ولكن الأحنف عرف منذ طفولته برجاحة العقل وسداد الرأى وبعد النظر . . أى ظهرت عليه مخايل النجابة فى سن مبكرة . . فنال حظوة ومكانة عند القبيلة لم ينلهما أحد من الكبار . . ولذلك فإنه عندما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم أحد صحابته ليدعو بنى تميم إلى الإسلام ، قالوا له : أمهلنا حتى يأتى الأحنف بن قيس ، ويتبين حقيقة ما جئتنا من أجله.**

لم يكن الصحابى يعلم من هو الأحنف هذا . . وإنما تخيله شيخاً مسناً من شيوخ القبيلة عرك الدهر وصهرته الأحداث فى بوتقتها . . وإذا به يفاجأ بشاب فى ريعان الشباب يتألق نضارة ويتفجر فتوة وعزيمة . . سأله الأحنف عن مهمته فقال له جئت أدعوكم إلى الإسلام . . فقال له الأحنف : وما الإسلام ؟ قال له الصحابى : دين أنزله الله على محمد بن عبد الله يحث على عبادة الله وحـــده ، وينهى عن عبادة الأصنام ويحض على مكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها . . ثم راح الصحابى يتلو بعض آيات من القرآن الكريم ، والأحنف يستمع بشغف ولهفة . . ولما فرغ الصحابى من التلاوة أعلن الأحنف إسلامه ونطق بالشهادتين . . ثم نادى . .

« يابنى تميم .. هلموا إلى الإسلام .. إنه الدين الجديد الذى تنزل من السماء . . وسرعان ما دخل أفراد القبيلة فى دين الله أفواجاً . . وكانوا يعدون بعشرات الألوف . . وعندما رجع الصحابى وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بما فعله الأحنف دعا الله قائلا « اللهم اغفر للأحنف » .

لقد أسلم الأحنف وقومه دون أن يروا النبى . . وكان من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه إذا دخلت قبيلة من القبائل فى الإسلام . . يبعث إليها من يفقهها فى شئون دينها ويعلمها مبادىء وقيم الحنيفة السمحة . . وسرعان ما أرسل النبى إلى بنى تميم من يحفظهم القرآن الكريم ، ويدرس لهم العبادات والمعاملات . .

كان الأحنف مشغوفاً بالقرآن الكريم . . هجر الشعر الذى كان يجيده ، وأقبل على كتاب الله يتذوق بلاغته فى أناة . . ولم يتح له أن يخوض المعارك مع الرسول ضد الكفار . . لأنه أسلم فى الفترة الأخيرة من حياة الرسول . . وإنما ادخر له القدر برنامجاً ضخماً فى الجهاد .. فحين أطلت فتنة الردة برأسها وظهر فى اليمامة مسيلمة الكذاب يدعى النبوة . . صحب الأحنف عمه المتشمس بن معاوية وذهبا إلى اليمامة . . وهناك جلسا إلى مسيلمة يستمعان إليه . ولكن لم تطل هذه الجلسة ، فقد انصرف الأحنف مغيظاً محنقاً ، وقال لعمه : هذا أكذب من حملت الأرض .. لا نبى بعد محمد .. ولا دين غير الإسلام . .

ولما عاد الأحنف إلى قومه طلب إليهم أن يحملوا السلاح ويشتركوا فى قمع المرتدين .. وقد كان لبنى تميم دور بارز فى هذا المجال . .

ثم جاء يوم تلقى فيه عمر بن الخطاب رسالة من العلاء الحضرمى الذى كان يقود جيش المسلمين فى العراق ، تتضمن أن الجيش محاصر فى الأهواز.. فكتب عمر إلى عتبة بن غزوان يطلب إليه أن يبادر بإرسال جيش إلى العراق لفك الحصار . . وعلى الفور جهز عتبة جيشاً معظمه من بنى تميم وجعل فى طليعته الأحنف . . ولم تمض أيام حتى انتهى الحصار . . رغم أن العرب

كانوا يركبون الصافنات الجياد . . والفرس كانوا يمتطون الفيلة . . وفى خراطيمها جلاجل تثير الرهبة فى قلوب الخيل . .

ومع أن الفرس أصيبوا بهزيمة ساحقة فإن عمر كان يخشى من توغل المسلمين فى الأراضى الفارسية . . حتى لا تتوزع قواتهم . . ويسهل على العدو محاصرتهم . . وبعث إلى القيادة العسكرية فى العراق يخبرها بهذا الرأى . . ولكن الأحنف كانت له وجهة نظر مختلفة ، فسافر إلى المدينة وناقش عمر حتى أقنعه . . وقام الخليفة وعقد له لواء خراسان . . وهنا ظهرت العبقرية العسكرية للأحنف ، فقاد الجيش بكفاءة واقتدار حتى استولى على خراسان بعد أن أنزل بالفرس هزائم عديدة . وعندما بعث إلى عمر بن الخطاب يخبره بهذا الإنجاز العظيم . . قال عمر فى تهلل وسرور : « هو سيد أهل المشرق . . المسمى بغير اسمه » . .

بيد أن عمر أرسل إلى الأحنف يحذره من مواصلة الزحف . . وطلب إليه أن يعسكر بجيشه دون النهر . . وكان عمر بعيد النظر . . فقد توجس أن يستعين الفرس بجيرانهم ويقوموا بحركة التفاف حول المسلمين . . وصدق حدس عمر . . فقد استعان الفرس بالترك ، وجاءت جيوش الترك كثيفة جرارة . . ولكنها عسكرت فى الجانب المقابل من النهر . .

ماذا فعل الأحنف . . والموقف بالغ الخطورة . . قام بعملية عسكرية فردية . . فيها جرأة القائد وحكمته وحصافته . . فقد خرج ليلا حتى اقترب من معسكر العدو . . وهنا تصدى له أحد الجنود الأتراك ، فصرعه الأحنف فى أقل من هنيهة . . فبرز له جندى آخر ، ففعل به الأحنف مثلما فعل بالأول . . فتقدم منه ثالث فكان مصيره مثل مصير الجنديين السابقين . .

حدث هذا على مرأى من الجنود الأتراك ، فجمعوا خيامهم وأسلحتهم

وهربوا بليل . . وكان هروبهم نهاية لسلطان المجوسية ، وإيذاناً بضم هذه المملكة الشاسعة إلى أرض الإسلام . .

أما الأحنف فقد عاش حتى بلغ السبعين من عمره . . وحين وافاه الأجل المحتوم شيعته العراق كلها وقالوا : اليوم ذهب الحزم والرأى .

• • •

سعد بن عبادة

أحد النقباء ليلة العقبة وسيد الخزرج

شاء

الله أن يمتحنه فى إيمانه بعد انتهاء بيعة العقبة ، فقد كان النقباء الذين بسطوا أيديهم . . وبايعوا الرسول . . وربط الله على قلوبهم .. قدصمموا على أن يكونوا أول نواة للدين الجديد بالمدينة . . ولكن سعد بن عبادة – وهو سيد الخزرج – وقع فى أيدى المشركين .. وكانوا يتميزون من الغيظ . إذ علموا بالبيعة التى تمت سراً بين الرسول وبين طائفة من أهل المدينة . . فأخذوا يصلونه ألواناً من العذاب . . وهو فى دهشة وعجب مما يحدث له . . إذ كيف يعتدى عليه . . وهو من هو شأناً وسلطاناً فى المدينة . . لو أومأ بإصبعه غضبا . . لتحركت سيوف الخزرج . . وسالت الدماء أنهاراً . .

وتوسم فيه رجل ممن أوثقوه واشتركوا فى التنكيل به أنه ليس رجلا من عامة العرب . . إذ أن هيئته وملامحه تدل على أنه من أهل السيادة فى قومه . . فسأله : أما بينك وبين أحد من قريش جوار ؟

فقال سعد : بلى . كنت أجير تجار جبير بن مطعم ، وأجير الحارث ابن أمية . . فطلب إليه الرجل أن ينادى باسم جبير والحارث ففعل . . وعلى الفور سارع الرجل إليهما . . وأعلمهما أن رجلا بالأبطح اسمه سعد بن عبادة . . يطلب جواركما ، وأنه هناك يعذب ويبطش به . . وما كاد

جبير والحارث يعلمان بذلك حتى انطلقا إلى الأبطح . . وفكا وثاق سعد . . وأطلقا سراحه . . كانت هذه الواقعة بمثابة شحنة إيمانية أشعلت جذوة الحماسة فى نفس سعد بن عبادة . . فقرر أن يذود عن هذا الدين . . وأن يجابه خصومه .. وتجلى ذلك فى شهوده جميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حاملا راية الأنصار . . إذ لم يتخلف عن مشهد واحد . . وكانت راية الأنصار . . وهى فى يده . . ترفرف فى سماء جميع المعارك التى خاضها الرسول . .

وكان موقفه قبل معركة بدر يدل على مدى إقباله على التضحية فى سبيل الله . . فحين بلغ الرسول أن قريشاً حشدت حشودها فى بدر استعداداً لقتاله.. شاور أصحابه . . فتكلم أبو بكر رضى الله عنه ، فأعرض عنه الرسول . . ثم تكلم عمر رضى الله عنه . . فأعرض عنه الرسول أيضاً . . فقال سعد ابن عبادة . . إيانا يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والذى نفسى بيده لو أمرتنا أن نخوض البحار لخضناها . . ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا . . وبرك الغماد هو موضع وراء مكة بخمس ليال ..

ثم دارت المعركة . . وكان سعد بن عبادة . . يقتحم صفوف المشركين وفى يده راية الأنصار . . حتى انجلى غبار المعركة عن نصر النبى وأصحابه . . نصراً مبيناً . .

وكما كان سعد بن عبادة مقاتلا شجاعاً . . فقد كان جواداً سخياً . . ورث الجود والكرم والندى عن آبائه وأجداده . . إذ كان لهم أطم ينادى عليه كل يوم . . من أحب الشحم واللحم فليأت أطم دليم بن حارثة . . كانت الموائد تقام كل يوم فى الأطم لمن يريد الطعام . . وكان سعد يصحب معه كل ليلة ثمانين رجلا من أهل الصفة ليقدم لهم العشاء . . كما كان يبعث للرسول كل يوم بجفنة مملوءة باللحم والثريد . . .

وروى أنس بن مالك أن سعد بن عبادة دعا النبى صلى الله عليه وسلم . .

وقدم له تمراً فأكل . . ثم أتاه بقدح من اللبن فشرب . . فقال الرسول : « أكل طعامكم الأبرار . . وأفطر عندكم الصائمون . . وصلت عليكم الملائكة . . اللهم اجعل صلواتك على آل سعد بن عبادة » . .

وكان الرسول يحتفي بسعد بن عبادة كلما أقبل عليه . . فقد صحب سعد ابنه قيساً . . وذهبا لزيارة الرسول . . وما كاد النبي يراهما حتى طلب إلى سعد أن يجلس إلى يمينه . . وإلى قيس أن يجلس إلى يساره . . ثم راح يتلو عليهما بعض آيات من القرآن الكريم . . ويدعو لهما بالرحمة والمغفرة . .

وبالرغم من حب النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادة . . فإنه حين علم بما قاله يوم فتح مكة . . اليوم يوم الملحمة .. اليوم تستحل الحرمة. اليوم أذل الله قريشاً .. قال النبي : اليوم يوم المرحمة .. اليوم أعز الله فيه قريشاً . . ثم أرسل النبي إلى سعد فعزله وجعل اللواء إلى ابنه قيس . . فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمارة من النبي صلى الله عليه وسلم . . فأرسل النبي إليه بعمامته . . فعرفها سعد فدفع اللواء إلى ابنه قيس . . ونفسه راضية . . لأنه كان ينفذ أوامر الرسول بمحبة . .

وبلغ من فرط حبه للرسول أنه كان لا يخفي عليه شيئاً . . فقد حدث أن الرسول صلى الله عليه وسلم وزع الغنائم يوم حنين . . ولم يصب منها الأنصار شيئاً . . وتهامسوا فيما بينهم بهذا الأمر . . فذهب سعد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره بما يتهامس به الأنصار . . فقال له الرسول : اجمعهم لي . . فلما حضروا قام الرسول فيهم خطيباً . . فحمد الله . . وأثنى عليه بما هو أهله . . ثم قال . . : « يامعشر الأنصار . . ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ . قالوا : بلى . . فقال لهم الرسول : أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفسي بيده لو أن الناس سلكوا شعباً ، وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار . . ولولا

الهجرة لكنت امرأ من الأنصار . . اللهم ارحم الأنصار . وأبناء الأنصار . . وأبناء أبناء الأنصار » . .

فبكى القوم حتى اخضلت لحاهم .. وقالوا رضينا بالله رباً .. وبرسوله قسماً . . ثم انصرفوا . .

وبهذا أزال سعد ما كان يمكن أن يرسب فى صدور الأنصار . . إذ جعلهم يبيتون وهم أشد حباً لرسول الله . .

ثم تمر فترة قصيرة من الزمن ينتقل بعدها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . . ويجد سعد بن عبادة فى نفسه ميلا إلى أن يكون خليفة رسول الله . . وينمى الأنصار فيه هذا الميل : . ويجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة لمبايعته . . ولكن أبا بكر وعمر يذهبان إلى السقيفة ، ويشرح ابن الخطاب أحقية الصديق فى الخلافة . . ثم يبسط يده ويبايعه : . ويتلوه المهاجرون والأنصار مبايعين . .

وتمضى الأيام . . ويلحق أبو بكر برسول الله صلى الله عليه وسلم . فيرحل سعد بن عبادة — وكان قد بلغ من الكبر عيناً — إلى بلاد الشام . . . وهناك يلقى الله راضياً مرضياً . . ودفن فى أرض حوران . . مطيباً بعبير التقوى والجهاد والكرم . .

* * *

النعمان بن مقرن

بطـــل نهـــاوند

تسامى

فى درج البطولات والتضحيات حتى انتهى إلى قمة عالية يشخص إليها التاريخ فى هيبة وانبهار . . اعتنق الإسلام هو وإخوته التسعة ، وكانوا شباباً يتفجرون قوة وفتوة وحماسة ، وباعوا أنفسهم وأموالهم لله ، وصمموا على الوقوف بجوار الرسول — سلماً وحرباً — حتى تنتصر كلمة الله ، ويتوارى الباطل فى كهوفه وظلماته . .

كانت أول غزوة يشترك فيها النعمان هى غزوة الخندق . . علم أن هناك حلفاً بين اليهود وقريش وبعض القبائل الأخرى لمهاجمة النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين فى المدينة ، وأن هذه الأحزاب تألفت من أجل غاية واحدة هى القضاء على الدين الجديد الذى ذهب بمكانة قريش فى مكة ، وبسلطان اليهود فى المدينة . . فصحب النعمان إخوته جميعاً وأربعمائة من قبيلته مزينة التى تقيم بين مكة والطائف ، وانطلقت هذه القافلة المؤمنة إلى حيث يعسكر المسلمون على مشارف المدينة ، واتخذوا مواقعهم فى الأماكن التى حددها لهم الرسول بين صفوف المجاهدين . .

وما هى إلا أيام حتى أطلق الله العواصف عاتية جبارة على مواقع اليهود والمشركين فاقتلعت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وملأت أعينهم

وحلوقهم بالحصى ، وتناثروا فى فزع ورعب على الرمال المنهارة ، وشهد النعمان وإخوته وأبناء قبيلته كيف مزق الله الأحزاب شر ممزق ، فزاد إيمانهم ورسخت عقيدتهم ، وأيقنوا أن هذا الدين لن تعوق مسيرته أى قوة فى الأرض ، وأن الله بالغ أمره . .

كان لهذا النصر الإلهى جماله وجلاله فى نفوس المسلمين جميعاً ، وكان أكثر روعة وجمالا فى نفس النعمان . . فهى أول مرة يحمل فيها سيف الجهــاد ، وأول مرة ينضــوى تحت لواء الرسول ويقف مع المجاهدين ، ويشاهد جيوش الشرك مقهورة مدحورة . . وقد أحس بشوق عارم يتدفق بين جوانحه إلى الجهاد ومنازلة المشركين . . ولذلك فإنه كان سباقاً إلى حضور جميع المشاهد والغزوات مع الرسول صلى الله عليه وسلم .. لم يفته مشهد أو غزوة . . وكان سباقاً إلى مجابهة المرتدين والوقوف بجانب أبى بكر لقمع هذه الفتنة . . حتى إنه عندما علم أبو بكر رضى الله عنه أن المرتدين عسكروا بالقرب من المدينة انتظاراً للهجوم عليها ، أعد خطته على الأساس التالى :

أن يكون النعمان بن مقرن على الميمنة ، وأخوه عبد الله على الميسرة ، وأخوهما سويد على المؤخرة . . أى أن قادة الجيش الثلاثة كلهم إخوة . . وسهر أبو بكر مع الجيش حتى أوشك الفجر أن ينبلج . . ثم أمر بالزحف خارج المدينة لملاقاة المرتدين . . وهناك دارت معركة رهيبة أبلى فيها النعمان وأخواه والمسلمون بلاء حسناً .. وأظهر النعمان من الكفاءة القتالية ماجعل أبا بكر يرشحه للقيادة فى أشد المعارك شراسة وضراوة . .

ثم جاءت معركة القادسية ، وكانت الخلافة قد آلت إلى عمر بن الخطاب. فقام النعمان بدور بطولى فيها حيث صال وجال وأنزل الرعب بقلوب الفرس ، وأكبر سعد بن أبى وقاص هذه البطولة ، وبعث بخطاب إلى عمر بن الخطاب يشيد فيه بجرأة النعمان فى القتال . وشجاعته فى الحرب ، مما جعل ابن الخطاب لا يتردد فى تعيين النعمان قائداً للجيش الذى أرسله لتحرير الدولة الفارسية من عبدة النار وممن بقايا المجوسية . .

كان الأعاجم بعد هزائمهم المتكررة قد تحصنوا بمدينة نهاوند استعداداً لمعركة فاصلة بينهم وبين المسلمين . . وكان النعمان يريد أن يقضى على القوات الفارسية المحتشدة داخل المدينة ، ولكن دون أن يدخلها .. فاحتال لذلك وأمر بعض قواته بأن تهاجم الحصون . . حتى إذا ما خرجت إليها بعض قوات الفرس تراجعت أمامها . . لكى تستدرجها إلى الخارج . .

تم تنفيذ هذه الخطة بنجاح .. وخرجت قوات الفرس تطارد قوات المسلمين . . وهنا انقض النعمان وقواته على الأعاجم وحاصروهم وأعملوا فيهم السيف حتى تركوهم أشلاء ودماء . . ودخل المسلمون مدينة نهاوند ظافرين منتصرين . .

وبينما المسلمون يهنىء بعضهم بعضاً بهذا النصر المؤزر ، إذا بهم يفتقدون قائدهم النعمان . . وسرى بينهم نبأ حزين بأن فرسه زلت فى دماء الأعداء فسقطت بفارسها البطل . ولقى الشهادة فى اللحظة التى تحقق فيها النصر . .

لم يقدر للبطل الشهيد أن يرى ثمرة جهاده ، وأن يشاهد المدينة التى كانت معقلا للأعاجم ، وقد أصبحت مدينة مسلمة يؤذن فيها المؤذنون وتقام فيها الصلاة . ويعبد فيها الله . وتنطفىء منها نار المجوس إلى الأبد . .

وبقدر ما كان سرور عمر بن الخطاب بفتح نهاوند الذى أطلق عليه « فتح الفتوح » بقدر ما تأجج الحزن والأسى فى قلب الخليفة العظيم ، فقد ذهب رجل كانت كفاءته القتالية مثار إعجاب المسلمين . . ولذلك فإن عمر لم يملك عينيه من الدمع . ولا نفسه من البكاء . .

رحم الله النعمان بن مقرن . . فقد ترك ذكرى يعبق من طيبها التاريخ . .

* * *

عبد الله بن العباس

ترجمان القرآن وفقيه الأمة

كان

منذ طفولته الطاهرة النقية لا يتخلف عن مجلس الرسول . . ولا عن الصلاة خلفه . . وكان الرسول يرى فى ابن عمه عبد الله بن العباس غلاماً نجيباً . . عقله أكبر من سنه . . ومداركه أوسع من طفولته . . فهو لا يكاد يسمع آية من القرآن حتى يحفظها عن ظهر قلب . . ولا يكاد يسمع حديثاً نبوياً حتى يعيه ويستوعبه . . وكان يجالس الكبار ويستمع إليهم عن أيام العرب . .

ولذلك فإنه كان يزداد كل يوم علماً وحكمة وفطنة .. وينمو وعياً وإحساساً وإدراكا حتى بلغ مرتبة الفتيا . . وهو فى سن الثامنة عشرة . وتبوأ فى شبابه درجة من العلم جعلت الناس يؤمون بيته أفواجاً . . ليسألوه عن تأويل آية . . أو معنى حديث شريف . . أو مسألة فى الفقه أو اللغة أو تاريخ العرب . . لأنه يعد فى نظرهم موسوعة علمية متكاملة . . بما أفاض الله عليه من علم . . وما منحه من معرفة . . وما رزقه من مواهب .. وما أنعم عليه من فهم عميق . .

وكان عبد الله بن العباس من فرط حبه للرسول .. يحاكيه فى كل شيء .. حتى إن الرسول جلس ذات يوم تحت ظل شجرة فى أحد أسفاره . . فكان عبد الله إذا وصل إلى هذه الشجرة جلس تحت ظلها . .

ويروى عبد الله قصة تدل على مدى حبه للرسول ومحاكاته له .. يقول : كنت عند رسول الله ﷺ .. فقام الرسول إلى سقاء وتوضأ وشرب قائماً .. فقلت : والله لأفعلن كما فعل النبي ﷺ . . فقمت وتوضأت وشربت قائماً . . ثم وقفت فى الصف خلفه .. فأشار إلى أن أقوم عن يمينه .. فأبيت . فلما قضى صلاته قال : « ما منعك ألا تكون وازيت بى ؟ » . . قلت : يارسول الله . . أنت أجل فى عينى وأعز من أن أوازى بك . . فضمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقال : « اللهم آته الحكمة .. اللهم بارك فيه » .

ويحكى عبد الله بن العباس أنه ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . . وكان جبريل عنده . . فقال جبريل للنبي : « إنه حبر هذه الأمة . . فاستوص به خيراً » . . ويقول عبد الله : « إن النبي كان يربت كتفى . . ويقول لى : نعم ترجمان القرآن أنت » . . وكان يدعو لى : « اللهم علمه التأويل » . .

وقد انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . . وعبد الله ابن العباس دون الخامسة عشرة من عمره . . ولكنه كان فتى فقيهاً يؤول القرآن تأويلا لم يسبقه أحد إليه . . وكان رغم حداثته موضع تقدير وإجلال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . فقد كان عمر يسمح لعبد الله بالجلوس مع شيوخ بدر . . ولفت ذلك نظر بعضهم فسأل عمر : لم تدخل هذا الفتى معنا . ولنا أبناء مثله ؟ فقال لهم : إنه ممن قد علمتم . . ثم دعانى ذات يوم ودعاهم أيضاً . . وما رأيته دعانى يومئذ إلا ليريهم منى . . وكان الحديث يدور حول ليلة القدر . . فتكلم منهم من سمع فيها بشىء مما سمع . . وتراجع بعض القوم عن الكلام . . فقال عمر :

ـ مالك يا ابن عباس صامتاً لا تتكلم ؟ ! . . تكلم ولا تمنعك الحداثة . . فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين . . إن الله تعالى وتر يحب الوتر . . فجعل أيام الدنيا تدور على سبع . . وخلق الإنسان من سبع . . وخلق أرزاقنا من سبع . . وخلق فوقنا سماوات سبعاً .. وخلق تحتنا أراضين سبعاً . . وأعطى من المثانى سبعاً .. ونهى فى كتابه عن زواج الأقربين عن سبع .. وقسم الميراث

فى كتابه على سبع .. ونقع فى السجود من أجسادنا على سبع .. وطاف رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة سبعاً . . وبين الصفا والمروة سبعاً ؟ ؟ ورمى الجمار بسبع . . فأرى ليلة القدر فى السبع الأواخر من شهر رمضان : ؟

فتعجب عمر وقال : ما وافقنى فيها أحد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا هذا الغلام الذى لم تستو شئون رأسه . . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : التمسوها فى العشر الأواخر . . ثم قال : يا هؤلاء ! من يؤدينى فى هذا كأداء ابن عباس . .

وكان عمر يقول عن ابن عباس : ذاكم فتى الكهول . . إن له لساناً سئولا . . وقلباً عقولا . . إنه يقوم على منبرنا هذا . . فيقرأ سورة البقرة . . وسورة آل عمران . . ثم يفسرهما آية آية . .

وإذ كان العباس يعلم أن ابنه عبد الله موضع تقدير أمير المؤمنين فقد أوصاه قائلا : أى بنى . . إنى أرى أمير المؤمنين يدعوك ويقربك . : ويستشيرك مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فاحفظ عنى ثلاث خصال : اتق الله . . لا يجربن عليك كذبة . . ولا تفشين له سراً . . ولا تغتب عنده أحداً . .

وعندما نشبت فتنة الخوارج ذهب إليهم عبد الله بن العباس وناقشهم فيما التبس عليهم فهمه . . وأسفرت المناقشة عن اقتناع عشرين ألفاً منهم . . فعادوا إلى صف الإمام على كرم الله وجهه . .

وقد عاش عبد الله بن العباس . . الفقيه العالم الزاهد الورع . . ينشر نور الدعوة . . ويشرح تعاليم السماء .. ويفتى فى دين الله . . حتى بلغ الحادية والسبعين من عمره . . فوافته المنية . . وانتقل إلى جوار ربه مع الأبرار والصديقين . . وتحت تراب الطائف دفن جثمانه المضىء بالإيمان والعقيدة . . والمعطر بعبير حب الله ورسوله . .

• • •

زيد بن عمرو بن نفيل

يبعث يوم القيامة أمة واحدة

لمـــاذا

بلغ هذه المنزلة العالية الرفيعة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . . مع أنه مات فى الجاهلية . . قبل أن يشرق الكون بنور الإسلام . . وتتعطر الدنيا بعبير الوحى . . وتتطهر الأرض من أرجاس الوثنية والكفر . . هذا السؤال تجيب عنه سيرة حياة هذا الرجل . . إجابة يخشع حيالها التاريخ . . ويضعها فى الذروة السامقة من آياته الباهرة النيرة . . فقد تأبى أن يعبد الأصنام واستنكر وأد البنات . . ورفض أن يأكل مما يذبح على الأنصاب . . وأكثر من هذا أجهد نفسه فى البحث عن دين الخليل إبراهيم . . ليعبد الله به . . ولا يشرك بالخالق الأعظم أحـــداً .

كانت حياة زيد بن عمرو بن نفيل رحلة مباركة إلى الله . . سفراً فكرياً وجسدياً إلى أشرف غاية . . وأنبل مقصد . . وأكرم هدف . . كان يبحث عن دين يعبد به الله . . لأن الجاهليين أصبحت عقولهم كأصنامهم جامدة . . لا تتحرك.. صلدة لا يدخلها الضوء .. ذهب زيد إلى الشام .. وهناك التقى بأكثر من راهب . . عرضوا عليه اليهودية والنصرانية . . فقال إننى أبحث عن دين الخليل إبراهيم . . فقال له أحدهم : إنك تبحث عن دين لا يوجد الآن على وجه الأرض . . ولكن سوف يبعث نبى رسول من ولد إسماعيل بدين جديد . . فيه ما تنشده . .

رجع زيد بن عمرو بن نفيل من الشام . . وقد انقشعت عنه الحيرة والبلبلة . . وكان يراقب الشمس حتى تغرب . . ثم يخرج إلى الكعبة . . ويصلى عندها ركعة واحدة وسجدتين . . ولما سأله صديقه جحير بن أبى إهاب . . عما يفعل . . قال له زيد : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل . . لا أعبد حجراً . . ولا أصلى إلا إلى هذا البيت حتى أموت . . وقد اعتزلت آلهة قريش . . وأزمعت ألا آكل من ذبائحهم . . ثم رفع يديه وقال : اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم . .

وقد رسخت عقيدة الحنيفة التى جاء بها إبراهيم الخليل عليه السلام فى قلب زيد بن عمرو . . وتمكنت من كل جارحة فيه . . وكان لا يفتأ يذكر ذلك لكل من يقابله ، حتى إنه التقى ذات يوم بعامر بن ربيعة . . وقال له : ياعامر . . إننى خالفت قومى . . واتبعت ملة إبراهيم . . وما كان يعبد إسماعيل من بعده . . فقد كانوا يصلون إلى هذه القبلة . . وأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل . . يبعث ولا أرانى أدركه . . وأنا أومن به وأصدقه . . وأشهد أنه نبى . . فإن طالت بك مدة فرأيته . . فأقرئه منى السـلام . .

وتمر الأيام . . ويبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويعتنق الإسلام عامر بن ربيعة . . ويحكى للرسول ما قاله زيد بن عمرو بن نفيل . . فيتلألأ وجه الرسول صلى الله عليه وسلم كالبدر . . وكانت هذه عادته حين يسمع نبأ ساراً . . ويقول لعامر بن ربيعة : رحم الله زيد بن عمرو . . فقد رأيته فى الجنة يسحب ذيولا . . وسوف يبعث يوم القيامة أمة وحده .

وكان زيد بن عمرو يشعر بالسمو والرفعة . . لأنه الوحيد بين العرب الذى يتعبد على دين الخليل . . شهدته أسماء بنت أبى بكر وهو قائم يسند ظهره إلى الكعبة . . ويقول : يامعشر قريش . . ما منكم اليوم أحد على دين إبراهيم غيرى . . وسمعه محمد بن عبد الله بن جحش وهو يقول : إن الشاة خلقها الله وأنزل من السماء ماء . . وأنبت لها الأرض . . ثم يذبحونها على غير اسم الله . . إننى لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه . .

وكان إذا رأى الرجل يريد أن يئد ابنته يقول له: « مهلا : لا تقتلها . . فأنا أكفيك مئونتها » . ثم يأخذها إلى أبيها ويقول له : « إن شئت دفعتها إليك . . وإن شئت كفيتك مئونتها . . » وهكذا أمضى زيد بن عمرو بن نفيل حياته خالصة لله وحده . . يتعبد على دين الخليل ولا يأكل مما ذبح على الأصنام . . وينفر من آلهة قريش . . وينتظر النبي الذى سيأتى من ولد إسماعيل . . وكان يحج ويقف بعرفة . . ويلبى قائلا « لبيك لا شريك لك . . ولا ند لك . . لبيك حقاً حقاً . . تعبداً ورقاً . . مهما تجشمنى فإنى جاشم . . عذت مما عاذ به إبراهيم » .

ولذلك كان جديراً بشهادة المعصوم صلى الله عليه وسلم : « يبعث يوم القيامة أمة وحده » . . وقد توفى . . . وقريش تبنى الكعبة . . قبل أن ينزل الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس سنوات . . وكان قد أنجب ابنه سعيداً . . الذى دخل الإسلام مع الطلائع الأولى . . وكان له فى الإسلام شأن وأى شأن . .

• • •

الحسن البصرى

لو أدركه الصحابة لاحتاجوا إلى رأيه

لـم يكن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وإنما كان على درجة من الفطنة والذكاء والفهم وشفافية البصيرة ولماحية العقل والورع والزهد والتقوى ما جعله فى رأى علماء عصره ومؤرخى المسلمين : جامعاً عالماً عالياً رفيعاً فقيهاً ثقة مأموناً عابداً ناسكاً كبير العلم فصيحاً جميلا رسيما . . ومما جعل أحد الصحابة يقول عنه : لو أن الحسن أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاحتاجوا إلى رأيــه . .

كانت أم الحسن مولاة لأم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكان مولده قبل نهاية خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بسنتين . . ويعلل المؤرخون فصاحته بأنه رضع من أم سلمة . . إذ كانت أمه حين تخرج إلى السوق وتغيب بعض الوقت . . ويشعر الطفل بالجوع ويبكى .. تعطيه أم سلمة ثديها لتعلله به . . إلى أن تجىء أمه .. وإذا برحمة الله تنزل بالثدى . . فيدر لبناً . . فيرضع الطفل حتى يرتوى . . ومن هنا حلت البركة . . فصاحة فى لسانه، ووضاءة فى عقله ، ونصاعة فى وجدانه ، وسكينة فى نفسه ، وطمأنينة فى قلبه . .

نشأ الحسن البصرى فى وادى القرى . . وكان يجالس أبا هريرة وأنس ابن مالك وعدداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ويتلقى عنهم الحديث . . ويحفظ القرآن الكريم . . وقد كان نبوغه مبكراً . . حتى إنه

لفت إليه الأنظار لحسن تأويله ودقه فهمه لكتاب الله عز وجل . . كماأنه نشأ عابداً ورعاً تقياً . . يصلى المكتوبة فى وقتها . . ويشفعها بالنوافل ، ويصوم متطوعاً ما شاء الله له أن يصوم . . وكان لا يحفى شاربه ، ويلبس عمامة سوداء . . أسوة بالرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم فتح مكة . .

وذاع صيته كشاب فقيه يفعل ما يقول . . فكان قدوة فى قوله وسلوكه ه . وكان يقرأ القرآن ويبكى . . حتى تخضل لحيته بالدموع . . وترتعد فرائصه فرقاً من الله . . وبلغ من علو شأنه فى العلم والتفقه فى الدين أنه حين قدم مكة ، أجلسوه على سرير ، واجتمع الناس إليه بكثرة كاثرة ، فأخذ يحدثهم فى شئون الدين حديثاً ملك عليهم ألبابهم . . حتى قال عنه علماء مكة وأخيارها بعد انصرافهم من مجلسه . . إننا لم نر مثله قط . . وإنه يشبه فى رأيه عمر بن الخطاب . .

ومما كان يوصى به فى مجالس العلم التى يعقدها قوله رضوان الله عليه : « ياابن آدم . . لا ترض أحداً بسخط الله . . ولا تطيعن أحداً فى معصية الله . . ولا تحمدن أحداً على فضل الله . . ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله . .

إن الله خلق الخلق والخلائق . . فمضوا على ما خلقهم عليه . . فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه فى رزقه . فليزدد بحرصه فى عمره . . أو لونه . : أو فى أركانه وبنانه . . » .

وكان إذا فرغ من حديثه . وأراد أن ينهض من مجلسه يقول : اللهم طهر قلوبنا من الكبر والنفاق والرياء والسمعة والريبة والشك فى دينك . يامقلب القلوب . . ثبت قلوبنا على دينك . . واجعل ديننا الإسلام القيم . .

وسئل مرة عن أخلاق الفقيه فقال : إن الفقيه من لا يأخذ أجراً على علمه . . ومن لا يهتم بمن هو فوقه . ومن لا يسخر بمن هو أسفل منه . .

وكان يخشى على المسلمين من الفتنة والفرقة وتمزيق أواصر المحبة بينهم . . حتى إنه عندما قام ابن الأشعث بثورة على الحجاج الثقفى فزع العلماء إلى

الحسن وقالوا له : ماذا نفعل . . وأنت ترى الحجاج يسفك دماء المسلمين ، دون رحمة أو شفقة ، ويقتل أعداءه دون قضاء أو محاكمة ، وينفق ثروات المسلمين فيما يغضب الله . . قال لهم : لا تقاتلوه إلا إذا أعلن الكفر بالله ، وأنكر أصلا من أصول الدين . . وإن تكن أفعاله الآن عقوبة من الله ، فما أنتم برادى عقوبة الله بأسيافكم . . وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله . . وهو خير الحاكمين . .

كان ينهى عن سفك الدماء والخروج على الحجاج ، حتى لا تحدث فتنة أكبر تراق فيها دماء المسلمين ، وكان يرى السلام بين أبناء الأمة أغلى نعمة من الله عليهم . . وعلى هذا النهج سار علماء عصره فى الدعوة إلى التسامح ، ولم شمل الأمة . . وتوثيق عرى المحبة بين المسلمين . .

وبلغ الحسن البصرى من إجلال الناس له درجة لم يبلغها أحد من الفقهاء أو العلماء فى عصره . . فقد كان عامر الشعبي يطرى أخلاق الحسن وشمائله إطراء يحسبه الناس مغالى فيه . . حتى إن ابنه سأله يوماً : يا أبت . . لم تصف هذا الشيخ بصفات لم تصفها لأحد قط . . فقال له : يابنى . . إننى أدركت سبعين من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . . فلم أر أحداً قط أشبه بهم منه . .

وهكذا عاش الفقيه الناسك الزاهد داعية الحب والسلام . . إمام عصره . . لا يتحرك لسانه إلا بذكر الله . . ولا يخفق قلبه إلا بحب الله . . ولا تمشى قدماه إلا فى مرضاة الله . . عاش لله وبالله . . حتى لقيه ، وهو أشد ما يكون شوقاً إليه . . وانضوى تحت لواء المحبين لله . . تحفه الرحمة وتحوطه المغفرة .

* * *

أبوموسى الأشعرى

أوتى حلاوة فى الصوت كمزامير آل داود

بينما **النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون فرحون بفتح خيبر ، إذا بفرحة أخرى تملأ وجدانهم حبوراً ، ذلك أن السفينتين اللتين بعث بهما النبى إلى الحبشة لتقلا جعفر بن أبى طالب والمهاجرين عادتا وعليهما هؤلاء الذين اختارتهم السماء فيمن اختارت ليقيموا دعائم هذه الدولة ،وليضيئوا مشعل الحضارة للعالم .**

كان ذلك فى العام السابع من الهجرة . . وكان عبد الله بن قيس « أبو موسى الأشعرى » ضمن هذه الطائفة المؤمنة التى كانت ترتجز وهى داخلة المدينة : غدا نلقى . الأحبة محمداً وحزبـــه .

وعندما التقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم قبلهم وقال لهم : « لكم الهجرة مرتين : هاجرتم إلى النجاشى ، وهاجرتم إلى » . وبدأ هؤلاء المهاجرون ينعمون بالصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستمعون إلى كلماته المشعشعة بالنور ، المضمخة بعبير السماء . فقد عاشوا فى الحبشة ينتظرون هذا اليوم الموعود ، وترفرف أشواقهم هائمة على المدينة وساكنيها . . وهاهم أولاء بعد طول انتظار يؤدون الصلاة خلف سيد البشرية . .ويسمعون حفيف الملائكة فى محراب الرسول . . ويحسون نفحات الرحمة تتنزل عليهم من السماء مباركة طيبة .

ويحكى أبو موسى الأشعرى عن ذلك فيقول : كنت أنا وأصحابى فى بقيع بطحان . . وكان الليل قد ذهب أكثره ، وإذا برسول الله يأتى لنا من المدينة ويصلى بنا .. ولما قضى صلاته قال لمن حضر: « على رسلكم .. أكلمكم وأبشروا . . إن من نعمة الله عليكم أنه ليس من الناس أحد يصلى فى هذه الساعة غيركم » فقال أبو موسى : فرجعنا فرحين بما سمعنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وكان أبو موسى يمتاز بحلاوة الصوت وهو يقرأ القرآن . . حتى إن كثيراً من المسلمين كانوا لا يغادرون المسجد، إذا كان أبو موسى يقرأ القرآن ، ويؤثرون الاستماع إليه على كل شىء يودون إنجازه من أعمالهم . .

وبينما أبو موسى يقرأ القرآن فى المسجد إذا بالنبى صلى الله عليه وسلم يدخل ويسمع هذا الصوت الحلو الطلى ، فقال : من هذا ؟ فقيل له: عبد الله ابن قيس . . فقال : لقد أوتى أخوكم من مزامير آل داود . .

وكانت حلاوة صوت أبى موسى الأشعرى تبهر عمر بن الخطاب . . حتى إنه كان عندما يراه يقول له: شوقنا إلى ربنا يا أبا موسى .. فيقرأ القرآن .

وكان أبو موسى إلى جانب هذه الميزة الفريدة من أشجع فرسان العرب وأقدرهم على خوض المعارك .. حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم قال عنه : « سيد الفوارس أبو موسى » ...

كما كان يخاف مقام ربه . وترتعد فرائصه حين يذكر الله ، ويتصبب عرقا من خشيته .. وكان شديد الحياء من الله .. وفى ذلك يقول: « إنى لأغتسل فى البيت المظلم فأحنى ظهرى حياء من ربى » . . وكان إذا نام لبس ثيابا طويلة مخافة أن تنكشف عورته . .

وخطب ذات يوم بالبصرة فقال : أيها الناس ابكوا . فإن لم تبكوا

فتباكوا فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع .. ثم يبكون الدماء حتى لو أجريت فيها السفن لسارت ...

وكان يغض بصره عن محارم الله ، ويتحاشى أن يشم عطر امرأة أجنبية .. ويقول : « لأن يمتلىء منخرى من ريح جيفة أحب إلى من أن يمتلىء من ريح امرأة » .. كما كان يوصى بألا يفتى الإنسان بما لا يعلم . يقول فى ذلك : « من علمه الله علما فليعلمه .. ولا يقولن ما ليس له به علم ، فيكون من المتكلفين ، ويمرق من الدين .. » ويوصى القاضى بألا يقضى حتى يتبين له الحق كما يتبين الليل من النهار .. ولما بلغ قوله هذا عمر ابن الخطاب قال : صدق أبو موسى .

وقد عاش أبو موسى الأشعرى حتى سنة اثنتين وخمسين من الهجرة . ولما حضرته الوفاة دعا أولاده وقال لهم : عندما أموت . فلا يتبعنى صوت ، وأعمقوا قبرى .. وظل ينطق بالشهادتين حتى فاضت روحه المباركة . . لتلتقى مع أرواح الأبرار فى جنة الخلد .

* * *

أنس بن مالك

خادم الرسول وأكثر رواة الحديث عنه

ما من قاعدة فقهية أو مبدأ إسلامى، سنده حديث شريف إلا وكان أنس بن مالك أحد رواته الثقات . . إن تاريخه الأسنى مطيب بعطر كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم، ومضوأ بالتوجيهات النبوية الشريفة . . سمعها من فم الرسول ، ووعاها فى عقله ووجدانه ، ورددها على مسامع الصحابة ، فتهادت فى ضوئها وأريجها حتى تسنمت الذؤابة العليا للتاريخ . . يجد فيها الفقيه حجته ، والعالم برهانه ، والمتعلم دليله ومرشده . .

كان أنس بن مالك فى العاشرة من عمره ، حين أتت به أمه « أم سليم » النبى صلى الله عليه وسلم . قالت له : هذا أنس غلام يخدمك .. وكان ذلك بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .. ومن تلك اللحظة بدأت السماء تضفى على أنس هداها ، وتسبغ عليه مراتب العظمة والجلال ..

إن مجرد وجوده فى بيت الرسول صلى الله عليه وسلم شرف لا يدانيه شرف .. فما بالك وقد أعدته الأقدار لخدمة الرسول يقدم له الطعام والشراب ، ويسمع من المصطفى صلى الله عليه وسلم ما يقول عندما يبدأ الأكل وعندما ينتهى منه .. كما يأتى له بماء الوضوء .. ويسمع أيضا ما يقوله صلى الله عليه وسلم وهو يتوضأ .. ويشاهد الرسول وهو يسبغ

الوضوء .. وتستوعب واعيته الباطنة كل نأمة وحركة للرسول عليه الصلاة والسلام ..

إذن كانت حياة النبي عليه الصلاة والسلام دروسا عملية لأنس ابن مالك .. بل إن هذا الصبي الذى هيأته الأقدار للقيام بخدمة الرسول تعرف بحكم ملازمته له كل ما كان يعتزم النبي عمله بالنسبة للسرايا والغزوات وبناء الدولة ..

موقع مهم وخطير تبوأه أنس ، ولم يكن نعمة وبركة عليه فحسب .

وإنما كان نعمة وبركة على المسلمين جميعا .. فما فتئت الأحاديث التى رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إحدى دعامات الفقه الإسلامى والمبادىء الإسلامية للتشريع ..

ويحكى أنس بن مالك جانبا من أخلاق الرسول وحسن معاملته لخدمه فيقول .. خدمت الرسول عشر سنين .. فما قال لى « أف » قط .. وما قال لى : لم فعلت هذا .. وهلا فعلت كذا .. ؟ وأذكر أنه أرسلنى ذات يوم لحاجة فوجدت صبية يلعبون ، فشاركتهم فى اللعب، ونسيت ما أرسلنى النبي من أجله .. وبينما أنا ألعب مع الصبية إذا بالنبي يضع يده على قفاى برفق ولين ويقول لى .. وهو يضحك : يا أنس .. اذهب إلى حيث أمرتك ؟ .. فقلت له : أنا ذاهب يارسول الله ..

كما يحكى أنس أيضا عن البركة التى فاضت عليه وأفعمت حياته خيرا بسبب دعاء الرسول له .. فقد دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه » .. أما بركة المال فقد كان لأنس بستان يحمل الفاكهة فى السنة مرتين .. وكان فيه ريحان تهب منه رائحة كرائحة المسك .. وأما بركة الولد فإن « أنس » عاش حتى رأى من أولاده وأحفاده مايزيد على المائة ..

وبلغ من حب النبي صلى الله عليه وسلم لأنس أن سمح له بالذهاب معه إلى غزوة بدر .. لا ليشارك فى القتال ، لأنه كان فى العاشرة ولم يبلغ

سن المقاتلين بعد ، وإنما ليشهد أولى معارك الإسلام ، ويشب على الفروسية وحب الجهاد والاستشهاد .. ولذلك لم يذكر اسم أنس فى البدريين لصغر سنه ..

وكان أنس يحتفظ بكل شعرة تتساقط من رأس النبى صلى الله عليه وسلم .. ويهديها لمن شاء من الصحابة .. وقد وضع شعرة من هذه الشعرات تحت لسانه ودفن وهى فى موضعها ..

كما كان أنس مستجاب الدعاء .. يقول جعفر بن سليمان : كنت مع أنس بن مالك فجاء قهرمانه ، وقال يا أبا حمزة .. عطشت أرضنا ، فقام وتوضأ ، وخرج إلى البرية وصلى ركعتين .. ثم دعا الله .. فإذا بالسحائب تلتئم .. ثم تمطر حتى تملأ كل شىء .. فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله .. فقال : انظر أين بلغت السماء ؟ فنظر فوجدها لم تعد أرضه إلا يسيرا .. وكان ذلك فى فصل الصيف ..

وكان أنس لطول ملازمته للرسول يصلى صلاة أشبه بصلاة النبى صلى الله عليه وسلم .. حتى إن أبا هريرة رضى الله عنه كان يقول : ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم سليم – يعنى أنس بن مالك ..

وقد عاش هذا الصحابى الجليل مائة وثلاث سنين ، ومات بالبصرة سنة ثلاث وتسعين هجرية .. ولما حضرته الوفاة طلب أن تدفن معه عصابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحتفظ بها عنده .. وبعد أن ووري جثمانه الطاهر فى التراب قال مورق العجلى : ذهب اليوم نصف العلم .. فقيل : وكيف ذاك يا أبا المغيرة ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفنا فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. قلنا له : تعال إلى من سمعه منه .. ونذهب به إلى أنس بن مالك .

خباب بن الأرت

الصابر المحتسب ومحفظ كتاب الله

كـــان **فى صلابة الجبال وهو يتلقى تعذيب قريش له دون أن يتوجع أو تند عنه آهة واحدة . . احتمل أسياخ الحديد الملتهبة وهى توضع فوق رأسه . . وصبر على آلام ترج جسده رجاً . . دون أن ينظر إلى معذبيه نظرة استرحام . . كان ينظر إلى السماء فقط . . راجياأن تضع حداً لعذابه وآلامه . . حتى يسير فى طريق الحق الذى اختاره مستضيئاً بنور الله ورسوله..**

وكان خباب بن الأرت يحفظ القرآن فور نزول الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم.. ويقوم بتحفيظه للذين أسلموا سرا فى بيوتهم.. وحدث أن كان يوما فى بيت سعيد بن زيد يقوم بتحفيظه القرآن هو وزوجه فاطمة بنت الخطاب .. إذا بطارق يطرق الباب بعنف .. ويفتح سعيد الباب .. ويفاجأ بأن عمر بن الخطاب جاء غاضبا يزمجر .. لأنه سمع أن أخته فاطمة وزوجها دخلا دين محمد ..

ويرن صوت عمر فى أذنى خباب فيختبىء فى إحدى حجرات المنزل..وتمر لحظات يسمع خلالها الحوار الذى دار بين عمر وأخته وزوجها.. ثم يسمع عمر وهو يتلو الآيات التى كان يقوم بتحفيظها لسعيد وزوجه .. ويحس خباب بأن صوت عمر هدأ شيئا فشيئا .. وسكت عنه الغضب .. بل إنه قال : أين محمد الآن ؟ .

وعلى الفور خرج إليه خباب بوجه يتهلل بشرا وسرورا، وقال له: يا عمر.والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم . فإنى سمعته أمس يقول : اللهم أيد الإسلام بأحب الرجلين إليك .. أبى الحكم بن هشام .. وعمر بن الخطاب .. وإذا كنت تريد الرسول فإنه الآن فى بيت الأرقم بن أبى الأرقم ..

ويسرع ابن الخطاب إلى بيت الأرقم .. وهناك يلتقى بالرسول صلى الله عليه وسلم ويعلن إسلامه ..

شهد خباب اللحظة المضيئة التى تحول فيها عمر بن الخطاب من الجاهلية إلى الإسلام ..

وفيما هو عائد إلى بيته..تلقاه بعض معذبيه..وكانت معهم أم أنمار السيدة التى كان خباب عبدا لها وأعتقته .. ووجد الشر يتقد فى عيونهم .. بل وجد معهم أدوات التعذيب التى يمارسون بها كى جسده ..

تقدم هؤلاء النفر من خباب وطرحوه أرضا، وأخذت أم أنمار تضع سيخا من الحديد محميا على رأسه . والآخرون يضعون الحجارة الساخنة على جسده .. وتمر اللحظة تلو اللحظة وخباب كقطعة الذهب التى تنصهر فى البوتقة،لا يزيده العذاب إلا شفافية وصفاء..وبرغم ما عانى من التنكيل والعذاب فإنهم لم يستطيعوا أن يفتنوه عن دينه..ولا أن يعودوا به إلى الوثنية مرة أخرى ..

ولكن عقاب السماء لم يمهل معذبيه..فقد مرضت أم أنمار مرضا جعلها تعوى كالكلاب،ولا يجد لها العرب علاجا إلا الكى بالنار فى رأسها .. وهكذا أصبحت المرأة التى كانت تعذب خبابا بأسياخ الحديد تذوق نفس العذاب فى الصباح والمساء ..!

وكان خباب يرتزق من صناعة السيوف .. يجلب قطع الحديد ويحولها إلى سيوف ويبيعها فى أسواق العرب .. ولكنه بعد الإسلام كان

يعرض بضاعته أولا على المسلمين .. ولم يكن يتقاضى منهم إلا هامش ربح بسيطا .. لأنه كان يعتبر هذا جانبا من الجهاد فى سبيل الله ..

كان خباب يمضى النهار فى تصنيع السيوف .. ويمضى الليل فى تحفيظ القرآن والتهجد .. وقد حضر جميع الغزوات مع الرسول وعاش فى أخريات عمره بالكوفة ينفق كل ما يعطى له من بيت المال على السائلين والمحرومين . . وكان كثير البكاء من خشية الله . . ويقول أخشى أن تمر بى ساعة أغفل فيها عن عمل شىء يقربنى منه . فيطول حسابى يوم القيامة ..

ولما حضرته الوفاة فى العام السابع والثلاثين من الهجرة نظر إلى كفنه وبكى . وقال .. أأوضع فى هذا الكفن وحمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لم يجدوا له كفنا يوم استشهاده فى غزوة أحد إلا بردة ملحاء إذا غطى بها رأسه انكشفت قدماه . . وإذا غطيت قدماه انكشف رأسه .. ؟؟

ثم تهلل وجهه وأومض إيماضا ساطعا . وبرقت عيناه نحو السماء.. كأنما ينظر إلى ركب من الملائكة جاء ليصحبه إلى جنات النعيم ..

سلمان الفارسى

عقل متأمل فى ملكوت السماء والأرض

عندما

تحلل عبقريته الإنسانية نقول : إنها طائفة من التأملات الأوابة فى ملكوت السماء والأرض . . ومجموعة من الأفكار المحدقة فى أزلية الكائنات بغية الوصول لمعرفة الله . .

وعندما تحلل عبقريته الدينية نقول : إنها مزاج صاف نقى من الورع والتقوى والتقشف والزهد . . والتضحية بكل متاع الدنيا من أجل رضوان الله .

وما من شك أن هناك تمازجا وتلاؤما بين العبقريتين .. لأن معرفة الله تؤدى إلى الإيمان به .. ثم إلى رضوانه ..

وهكذا تشكلت شخصية سلمان الفارسى من التأملات الواعية المدركة.. ومن الإقبال على الله والزهد فيما سواه ..

ولم يزهد فى الدنيا عن فقر أو حرمان، وإنما زهد فيها .. والذهب يسيل أنهارا بين يديه .. كان أبوه من دهاقنة الفرس .. وكان يمتلك ضيعة كبيرة تملأ خزائنه بالمال كل عام .. وأراد هذا الأب المجوسى أن ينشىء ابنه سلمان على حب عبادة النار، ولكن سلمان كان ذا عقل تأملى لايقتنع بظاهر الأشياء ، وإنما يحاول النفاذ إلى باطن كل شىء ..

ولذلك اشمأز من عبادة النار، وكره أن يكون معبوده تحت رحمة إنسان يوقده أو يطفئه .. وذهب يتجول هنا وهناك سعيا وراء معرفة

الله .. وتصادف أن عثر على كنيسة يمارس فيها النصارى طقوس عبادتهم ، فدخلها وسمع منهم ما شاء الله أن يسمع .. ولما فرغوا سألهم عن أصل دينهم فقالوا له : اذهب إلى الشام ..

ترك سلمان ضيعة أبيه وثراءه وقصره المنيف . ورحل إلى الشام عساه أن يهتدى إلى معرفة الله .. وهناك التقى براهب يتعبد فى صومعة ، سمع منه وتلقى عليه ، ولم يلبث هذا الراهب أن فارق الحياة ، ولكنه كان قد أوصى سلمان بأن يذهب إلى راهب بالموصل ، فذهب إليه ، وأقام معه حتى رحل عن هذه الدنيا ، وظل سلمان يتنقل من راهب إلى راهب حتى ختم طوافه بين الرهبان براهب فى عمورية من بلاد الروم ..

كان هذا الراهب هو مفتاح السر الذى يبحث عنه سلمان من مطلع صباه .. فقد قال له : قد أظلك زمان نبي يبعث بدين الخليل إبراهيم .. وسيهاجر هذا النبي إلى أرض ذات نخل بين حرتين . ومن علامات نبوته أنه لا يأكل الصدقة .. ويأكل الهدية .. وبين كتفيه خاتم النبوة ..

وبعد قليل فارق هذا الراهب الحياة ، وبدأ سلمان رحلة البحث عن هذا النبي ..

أخذ سلمان يقطع الفيافى والقفار حتى التقى ذات يوم بقافلة ذاهبة إلى يثرب .. المدينة التى ينطبق عليها وصف الراهب تماما .. شعر سلمان بأن القدر فتح له نافذة النور .. وأنه سيحقق مأموله الذى ظل ينشده سنوات وسنوات ..

عرض على القافلة أن تصحبه إلى هذه المدينة لقاء أن يعطيها كل ما معه من مال وأغنام .. وتظاهرت القافلة بالموافقة ، ولكنها ما كادت تصل إلى يثرب حتى باعته فى سوق الرقيق لأحد يهود بنى قريظة .

انتقل ابن القصور من حياة الحرية إلى حياة العبودية ، ولكنه ارتضى هذه الحياة على أمل أن يلتقى بالنبي المنتظر ، وذات يوم كان أحد اليهود يزور سيده ، وجرى بينهما حديث قال فيه الضيف : إن هناك رجلا نزل بقباء .. ويدعى أنه نبي .. والناس يتهافتون عليه ..

سمع سلمان هذه العبارة فأمضى يومه يعد الدقائق والثوانى .. حتى إذا جن الليل ذهب إلى قباء ومعه طعام .. وقال للنبى إنكم غرباء . وهذا الطعام صدقة . فرفض النبى أن يأكل منه .. فقال سلمان فى نفسه : هذه أول علامة . وفى اليوم التالى ذهب سلمان ومعه طعام وقدمه للنبى .. وقال : هذا الطعام هدية . فأكل منه النبى .. فقال سلمان فى نفسه : هذه هى العلامة الثانية .. ومكث سلمان يتتبع النبى حتى رآه ذات يوم يمشى فى جنازة ويرتدى شملتين : إحداهما تغطى ظهره ، فجاء بجوار النبى ونظر إلى أعلى ظهره ، وعرف النبى ما يريده سلمان ، فأنزل شملته قليلا فرأى سلمان خاتم النبوة بين كتفيه .. فقال فى نفسه : هذه هى العلامة الثالثة ..

وعلى الفور أعلن إسلامه وانتهت رحلة القلق التى أجهدته طويلا .. ولما عرف النبى قصة استرقاقه طلب إلى أصحابه أن يعاونوه فى دفع الثمن لسيده ليصبح حرا .. وفعلا قام أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بدفع الثمن لليهودى .. فأعتق سلمان وانضم إلى صفوف المجاهدين ..

كانت غزوة الأحزاب أول غزوة اشترك فيها سلمان الفارسى . وهو الذى أشار على الرسول بحفر الخندق ، وكان أول خط دفاع يعرفه العرب فى حروبهم ، وهزم الله الأحزاب بعد أيام عصيبة شهدها المسلمون ..

ونظرا لما كان يتمتع به سلمان من قوة الشخصية،ورجاحة العقل وإخلاصه لله ورسوله.. فقد كان موضع تنافس بين الأنصار والمهاجرين .. الأنصار يقولون إنه جاء إلى المدينة قبل الهجرة . والمهـــاجرون يقولون إنه هاجر مثلنا طلبا للحق .. وإزاء هذا التنافس يبوىء الرسول صلى الله عليه وسلم سلمان منزلة رفيعة إذ يقول : سلمان منا آل البيت ..

وقد اشترك سلمان فى جميع غزوات الرسول ما عدا غزوتى بدر وأحد .. وعاش زاهدا متقشفا يقتات من كسب يده حيث كان يعمل فى صناعة الخوص . رحمه الله وأنزله منازل الأبرار والصديقين .

زيد بن ثابت

أمانة جمع المصحف الشريف

ما أحرانا ونحن نرتل القرآن ، ونتدبر آياته ، ونستغرق فى فهم معانيه ، ونتنقل من نور إلى نور بين سوره الوضاءة ، ونستروح عبير السماء وطيبها من كلماته المحفوفة بالرضوان ، وتطوف قلوبنا ومشاعرنا حول البقعة المباركة ، والغار الأقدس الذى سمع نبرات جبريل ، وهو يطلب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقرأ أولى كلمات الوحى ، وتشهد رماله قداسة الحوار بين الملك والرسول . . ما أحرانا أن نقف وقفة وامضة بنور الحب والوفاء لهذا الرجل الذى جمع كتاب الله ، ودون المصحف الشريف بصدق الأبرار وأمانة القديسين ، وقام بعمل لا يوصف مدى جلالته وعظمته ، وكان إحساسه بخطورة هذا العمل ، وفرط خشيته من الله ، يجعله يقول لمن حوله : « والله لو كلفونى نقل جبل من مكانه ، لكان أهون على مما أمرونى به من جمع القرآن » . .

فمن هو هذا الأنصارى المهدى الراشد الذى طلب إليه أبو بكر الصديق أن يجمع القرآن ، بعد أن استشهد كثير من حفظة كتاب الله فى معركة اليمامة .. ولماذا اختاره الصديق بالذات ليقوم بأجل وأعظم عمل فى تاريخ المسلمين ؟ .

إن زيد بن ثابت كان لصدق إيمانه. ورسوخ يقينه، موضع ثقة وإجلال الرسول صلى الله عليه وسلم .. كان من كتبة الوحى ، ومن الشباب الطاهر التقى النقى الذى لا يغيب عن مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم .. وقد تشرب قلبه نور الإسلام وهو صبى غض فى الحادية عشرة من عمره ، حيث أسلم مع صبية وشباب وشيوخ الأنصار بعد هجرة الرسول من مكة إلى المدينة .. فلم يلوث بدنس الجاهلية ، ولم يعبد غير الله . ولم يعرف دينا غير الإسلام .. ولم يدخل قلبه سوى حب الله ورسوله .

نما زيد بن ثابت فى مدرسة التعاليم المحمدية .. متأسيا بالرسول فى سلوكه وأخلاقه .. وقد تعلم فى صغره القراءة والكتابة . وأحس فيه الرسول شابا ناضج العقل والفهم والإدراك ، فطلب إليه أن يلم بلغات الأمم الأخرى ما وسعه ذلك حتى يتسنى له مخاطبة ملوكها وحكامها .. وبالفعل تعلم زيد بعض اللغات الأجنبية .. وكانت ثقافته وعلمه موضع إعجاب الصحابة جميعا ..

وإلى جانب ما كان يتمتع به زيد بن ثابت من ثقافة وعلم ونضج فإنه كان من صفوة المجاهدين ، ومن خيرة الشباب المقاتل فى سبيل الله .. وقد بلغت به حماسته للجهاد أن ذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى كوكبة من الصبية المسلمين ، وطلبوا إليه أن ينتظموا فى صفوف المجاهدين فى غزوة بدر .. ولكنه عليه الصلاة والسلام أمرهم بالعودة حتى يبلغوا مبلغ الشباب .. وظلت شعلت الحماسة تتأجج فى صدور هؤلاء الصبية حتى جاءت غزوة أحد بعد عام واحد من غزوة بدر ، فذهبوا إلى الرسول للمرة الثانية حاملين سيوفهم ورماحهم . وأخبروا نبيهم الكريم بأنهم تدربوا على فنون القتال ، وبوسعهم أن يفعلوا شيئا فى المعركة .. ولكن بنفس التوجيه الرحيم ردهم الرسول صلى الله عليه وسلم، فرجعوا وهم أشد ما يكونون شوقا لقتال المشركين ..

كان زيد بن ثابت واحدا من هؤلاء الصبية ، وكان مشغوفا منذ الصغر بالعمل فى سبيل الله .. وقد أكسبته ملازمته للرسول فهما عميقا

للدين الحنيف .. فقد بلغ درجة من العلم جعلت صحابيا جليلا كابن عباس يمسك بزمام فرس زيد تبجيلا لمقامه ومنزلته العلمية .. ولما طلب منه زيد في تواضع وحياء أن يترك زمام الفرس قال له ابن عباس : لا .. فهكذا نصنع بعلمائنا ..

هذه لمحة من حياة الرجل الذى حمل أمانة جمع القرآن . وما أصعبها وأشقها من أمانة . وكان يحفظه كما سمعه من فم الرسول صلى الله عليه وسلم . . منذ كان يكتب الوحى بعد نزوله مباشرة من السماء .. وكان أحد الشباب الذى اصطنعه الرسول على عينه ، ورباه على القيم والمثل التى علمها الله له .

معـاذ بن جبـل

إمـام العـلماء يوم القيـامة

هـــذا الصحابى الجليل . . هذا العالم الفقيه . . معاذ بن جبل . . من صفوة شباب الإسلام . أسلم فى بيعة العقبة الثانية ، وكان شديد الذكاء .. متفتح العقل .. يعتبر من أوائل المجتهدين فى الإسلام . ولا أدل على ذلك من أن النبى صلى الله عليه وسلم حين وجهه إلى اليمن ليعلم الناس شئون دينهم قال له عليه الصلاة والسلام : « بم تقضى يامعاذ ؟ فقال بكتاب الله . فقال له الرسول : فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ فقال معاذ : أقضى بسنة رسوله . فقال النبى : فإن لم تجد فى سنة رسوله ؟ فقال معاذ : أجتهد رأيى ، فقال النبى : الحمد لله الذى وفق رسول الله لما يرضى رسول رسول الله » .

هذا الحديث الشريف يدلنا على مدى ثقة الرسول عليه الصلاة والسلام فى فهم معاذ لأمور الدين ، وثقته أيضا فى أن معاذ بن جبل يستطيع أن يستنبط الأحكام من الكتاب والسنة إذا واجهته مسألة ليس فيها نص صريح من كتاب الله وسنة رسوله .. وبهذا يعتبر من المجتهدين الأوائل فى الإسلام ..

وتتجلى ثقة الرسول أيضا فى عقل وفهم وإيمان معاذ أن معاذا كان

شابا فى ريعان الشباب . ولم يكن شيخا عاش يتفهم الإسلام سنوات طويلة ، حتى يتيح له فهمه وسنه وخبرته أن يستنبط الحكم الصحيح .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم لايخفى حبه لمعاذ .. هذا الشاب الفقيه المؤمن .. فذات يوم كان معاذ جالسا فى حضرة الرسول فقال له عليه الصلاة والسلام: « يامعاذ .. والله إنى لأحبك . فلا تنس أن تقول فى عقب كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ..

وقد بلغ من خشية معاذ لله أنه كان يتوقع لقاءه كل لحظة .. كان يرى الموت يصاحبه فى كل خطوة .. وكان يتمثل القيامة والحساب وأهل الجنة وأهل النار .. كان كل هذا فى وجدانه . استمع إلى ما يدور بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم تنكشف أمامك هذه الحقيقة واضحة جلية .

فقد قابله النبي عليه الصلاة والسلام ذات صباح وسأله : كيف أصبحت يامعاذ ؟ فقال : أصبحت مؤمنا حقا يارسول الله . فقال النبي : إن لكل حق حقيقة .. فما هى حقيقة إيمانك ؟ قال معاذ: ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى . ولا أمسيت مساء قط إلا ظننت أنى لا أصبح . ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها غيرها . وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها . وكأنى أرى أهل الجنة فى الجنة ينعمون ، وأهل النار فى النار يعذبون . قال له الرسول : عرفت فالزم .

هذه هى الصفة التى كان عليها معاذ بن جبل . شاب ينتظر الموت كل لحظة .. ويرى القيامة ماثلة أمامه بهولها وحسابها .. إذن كان على درجة عظيمة من خشية الله .. كان يخاف مقام ربه . ولا يتحرك حركة أو ينطق كلمة إلا إذا كانت فى مرضاته تبارك وتعالى ..

أما عن درجته العلمية والفقهية فقد حددها النبي صلى الله عليه وسلم .. إذ قال فى الحديث الشريف : « معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة » . وحسبه شهادة من رسول الله أنه إمام العلماء فى هذا اليوم العظيم ..

أما الذين كانوا يحضرون مجلس علمه فقد كانوا يجدون عنده فى كل معضلة فتوى .. إذ كان حاضر الذهن يحفظ القرآن الكريم جيدا . كما يحفظ أحاديث الرسول كلها . وكانت بديهته الحاضرة تساعده على الإتيان بالحكم الشرعى بسنده من القرآن أو من السنة أو من اجتهاده الشخصى ..

وقد وصفه أحد الذين كانوا يحضرون مجلس علمه بأن الكلمات كانت تخرج من فمه كأنها نور ولؤلؤ . كانت كلماته مشعشعة بالإيمان والتقوى واليقين .. وظل معاذ فى اليمن يعلم ويفقه المسلمين حتّى انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى .. عندئذ عاد إلى المدينة .. وظل يواصل فى المسجد تعليم المسلمين ..

كان حجة ثقة فى العلم والفقه ، وكان من لا يعرفه تبهره عظاته ويتساءل من هذا الشاب الفقيه الذى يفتى فى كل شىء .. يقول عائذ ابن عبد الله : دخلت المسجد يوما مع بعض الصحابة لنؤدى الصلاة .. وكان ذلك فى أول خلافة عمر .. فرأيت بضعة وثلاثين رجلا يذكرون حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وفى الحلقة شاب شديد الأدمة ، حلو المنطق . وضىء ، وهو أشب القوم سنا ، فإذا اشتبه عليهم من الحديث شىء ردوه إليه فأفتاهم ، ولا يحدثهم إلا حين يسألونه . ولما فض مجلسهم دنوت منه وسألته : من أنت يا عبد الله ، فقال فى تواضع جم . أنا معاذ ابن جبل .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا عنت له مشكلة يستفتى فيها معاذ بن جبل ، وحين يفتيه معاذ يقول عمر : « لولا معاذ لهلك عمر ».. إلى هذا الحد كان تقدير عمر لمعاذ .. حتى إنه عندما مات أمير الشام أبوعبيدة ابن الجراح لم يتردد عمر فى أن يستخلف معاذ بن جبل على الشام .. وأكثر منه أنه سئل ذات مرة : لو طلبت إلينا أن نبايعك على خليفة لك .. فمن تختار ؟ قال عمر : لو كان معاذ بن جبل حيا ووليته ، ثم قدمت على ربى عز وجل فسألنى : من وليت على أمة محمد لقلت : وليت عليهم

معذ بن جبل .. لأنى سمعت النبي يقول: معاذ بن جبل إمام العلماء يوم القيامة . وسمعته يقول : أعلم أمتى بالحلال والحرام ، معاذ بن جبل .

وكان معاذ يرى أن العلم وحده لاينفع صاحبه ، وإنما لابد أن يقترن العلم بالعمل .. وكان يرى عدم الإيغال فى العبادة ، وعدم الإعراض عن الدنيا .. فقد أوصى ذات مرة أحد جلسائه بقوله : صم وأفطر . وصل ونم . واكتسب ولا تأثم . ولا تموتن إلا مسلما . وإياك ودعوة المظلوم . .

وبالرغم من أن سمعته كعالم وفقيه طبقت الآفاق ، فإنه مات فى الثالثة والثلاثين من عمره بعد أن خلف سيرة عطرة وتاريخا مجيدا .

• • •

عبد الرحمن أبو هريرة

أكثر من روى الحديث عن رسول الله

إنـه

أحد أعلام الصحابة الرواة الذين أسهموا فى حفظ الشريعة ونشرها بين المسلمين . كان أكثر من روى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وروى عنه ثمانمائة مسلم بين صحابى وتابـع .

اسمه عبد الرحمن بن صخر من ولد ثعلبة بن سليم ابن فهم .. ينتهى نسبه إلى الأزد أعظم وأشهر قبائل العرب.. كان اسمه فى الجاهلية عبد شمس . . فلما اعتنق الإسلام سماه الرسول عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن . اشتهر بكنيته « أبو هريرة » حتى غلبت على اسمه فكاد ينسى .

سئل أبو هريرة : لماذا كنيت بذلك ، فقال كنيت أبا هريرة لأنى وجدت هرة فحملتها فى كمى . فقيل لى « أبو هريرة » .

ولد أبو هريرة فى اليمن ونشأ فيها يرعى الغنم لأهله ويخدمهم . وقد توفى والده وهو صغير ، فنشأ يتيما ، وقاسى شظف العيش .. حتى من الله عليه بالإسلام على يد الطفيل بن عمرو الدوسى .. فهاجر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه أربع سنوات فى حله وترحاله ..

كان يدخل بيت النبي ويحضر مجالسه .. وقد اتخذ الصفة مقاما له .. وجعله النبي عريف أهل الصفة . . إذا أراد أن يجمعهم لطعام يطلب من أبى هريرة أن يجمعهم لأنه أعرف بهم وبمنازلهم . .

وكان أبوهريرة يحب النبي حبا شديدا .. حدث أن رفع الرسول الدرة يوما ليضرب بها أبا هريرة . . فقال أبو هريرة . . لأن يضربنى بها أحب إلى من حمر النعم ..

وكان أبو هريرة يقتدى بالنبي فى كل أعماله .. ويحذر الناس من الانغماس فى ملاذ الدنيا وشهواتها .. لا يفرق فى ذلك بين غنى وفقير .. أو بين حاكم ومحكوم .. يرشد الناس إلى الحق والصواب ..

مر ذات يوم بقوم يتوضأون فقال لهم : أسبغوا الوضوء : فإنى سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول : « ويل للأعقاب من النار » ..

ومما يقوله أبو هريرة : « أن أهل الصفة هم ضيوف الرحمن .. لا أهل لهم ولا مال .. إذا أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة أرسلها إليهم .. ولم يصب منها شيئا .. وإذا جاءته هدية أصاب منها وأشركهم فيها ..

ويقول إمام التابعين سعيد بن المسيب : « رأيت أبا هريرة يطوف بالسوق .. ثم يأتى أهله فيقول : هل عندكم من شىء ؟ فإن قالوا : لا . قال : إنى صائم . كان زاهدا فى الدنيا .. ويكتفى من الطعام بما يسد رمقه . . فقد صبر على الفقر طويلا حتى رزقه الله مالا وفيرا .. وكان دائما يذكر أيام فقره . . ويدعو الناس إلى الصبر والشكر . .

ومر أبو هريرة ذات يوم بقوم يذبحون شاة .. فدعوه إلى تناول الطعام معهم فأبى وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا وما شبع من خبز الشعير قط ..

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث أبا هريرة مع العلاء الحضرمى إلى البحرين لينشرا الإسلام فيها ويفقها الناس فى أمور دينهم .. فأنجزا هذه المهمة خير إنجاز ..

ولما تولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة جعل أبا هريرة عاملا على البحرين .. وقد عينه معاوية بن أبى سفيان واليا على المدينة فترة من الزمن .. وكان يقول له: نعم الأمير أنت يا أبا هريرة .. فقد كان وهو أمير المدينة يمر فى السوق حاملا الحطب على ظهره حتى إن أحد المسلمين عرض عليه أن يحمل عنه الحطب فرفض .. وقال له : لست أفضل من أحد فيكم ، وكان أبو هريرة يحفظ مايقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ظهر قلب .. كما كان يدعو الناس إلى حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ..

وقد حفظ لنا التاريخ وثيقة علمية قيمة تضمنت ما أملاه أبو هريرة على تلميذه همام بن منبه أحد أعلام التابعين الثقات الذين التقوا حول الصحابى الجليل أبى هريرة رضى الله عنه..هذه الوثيقة أطلق عليها « الصحيفة الصحيحة » ..

وقد وصلتنا هذه الصحيفة كاملة كما رواها ودونها همام عن أبى هريرة رضى الله عنه..فقد عثر عليها الدكتور المحقق محمد حميد الله فى مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين.ووجدت لهذه الصحيفة نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ١٩٨١ حديث . وتزداد ثقتنا بصحيفة همام حينما نعلم أن الإمام أحمد نقلها بتمامها فى مسنده كما نقل الإمام البخارى عددا كبيرا من أحاديثها فى صحيحه ..

وقد قال أبو هريرة رضى الله عنه عن نفسه : « ما من أحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أحفظ لحديثه منى .. اللهم إلا عبد الله ابن عمر . فإنه كان يكتب .. أما أنا فأسمع وأحفظ ولا أكتب » .

• • •

أبولبابة بن عبد المنذر

التائب الذى أعلن جبريل قبول توبته

لـم يشفع له سبقه فى الإسلام . . وأنه أحد النقباء ليلة العقبة . . أن يتغاضى عن زلة ارتكبها بدون قصد . . أو سابق تدبير . . فندم على ما اقترف فى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وغامت الدنيا فى عينيه . . وقرر أن يتوب توبة لم يتبها أحد من قبل . . لم ينتظر أن توقع عليه عقوبة من السماء جزاء ما فعل . . وإنما سارع بتوقيع العقوبة على نفسه . . وعلى مرأى ومسمع من الرسول والصحابة وكل من فى المدينة المنورة . . ولم يسكت عنه الحزن إلا بعد أن جاءه خبر السماء يبشره بالعفو عنه . . والصفح الجميل من الله . .

أما الهفوة التى ارتكبها أبو لبابة .. فقد جاءت بعد هزيمة الأحزاب .. وعودتها فلولا تائهة مشردة فى الصحراء .. تمضغ الحسرة .. وتتجرع الألم .. وفى الوقت الذى كانت فيه هذه الفلول تتناوح حولها الأعاصير .. وتتقاذفها الرمال الثائرة .. كان الموكب النبوى المظفر فى طريقه إلى المدينة .. تهز تكبيراته أسماع الأثير .. وتتجاوب أصداؤها بين قوافل الغمام .. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجدا على راحلته شكرا لله . . وإذ هو مستغرق فى حمد الله .. والثناء عليه بما هو أهله .. إذا بجبريل عليه السلام يناديه : أو قد وضعت السلاح يارسول الله ؟ فيقول له المعصوم صلى الله عليه وسلم : نعم .. فيقول له جبريل : ما وضعت

الملائكة السلاح بعد .. وما رجعت الآن إلا من طلب القوم .. إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة .. فإنى عامد إليهم .. فزلزل بهم ..

وعلى الفور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنا يؤذن فى الناس : من كان سامعا مطيعا .. فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة .. ثم أعطى الرسول الراية لعلى بن أبى طالب .. واتجه بمن معه من الصحابة إلى بنى قريظة .. ونزل على بئر من آبارها ..

حاصر الرسول بنى قريظة خمسا وعشرين ليلة .. حتى قذف الله الرعب فى قلوبهم .. وأشاع الذعر فى صدورهم .. ووقعوا فريسة الخوف والفزع .. وتراءت لهم أشباح المنية .. لدرجة أن اقترح بعضهم قتل الأطفال والنساء .. والخروج من الحصن لقتال النبى .. ولكن البعض الآخر سفه هذا الرأى .. وقالوا : لن يطيب لنا العيش بعد قتل الأطفال والنساء .. وأخيرا استقر رأيهم على أن يبعثوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يطلبون إليه إرسال أبى لبابة بن عبد المنذر — وكان من الأوس حلفائهم — ليستشيروه فى أمرهم ..

وعلى بساط المناقشة وقع أبو لبابة فى خطأ جعل بنى قريظة يتوجسون خيفة من الرسول .. فحين سألوه عن النزول على حكم النبى .. أشار إلى عنقه محذرا إياهم من الذبح .. ولكنه بعد لحظة واحدة أدرك أنه أخطأ فى حق الله وفى حق الرسول .. وأنه خان الأمانة التى ائتمنه عليها النبى صلى الله عليه وسلم .. فأحس بإعصار من الندم يعتصر كيانه ويهزه هزا عنيفا .. وبدلا من أن يذهب إلى الرسول ويعتذر اليه .. ويطلب منه العفو والصفح .. ذهب إلى المسجد .. وربط نفسه فى أحد أعمدته بسلسلة ثقيلة ..
وقال : والله لن أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت ..

استبطأ الرسول صلى الله عليه وسلم أبا لبابة .. ولكن عندما بلغه النبأ .. قال : أما أنه لو جاءنى لاستغفرت له . فأما إذ قد فعل ما فعل .. فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ..

مكث أبو لبابة سبعة أيام حتى كاد يذهب بصره من كثرة البكاء والنحيب .. وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة .. وإذا أراد قضاء حاجته .. ولما يفرغ تعيده إلى الرباط .. وفى هذه الفترة نزلت الآية الكريمة : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول .. وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » :.

ثم شاء الله غافر الذنب وقابل التوب .. أن يقبل توبة أبى لبابة .. فأرسل جبريل عليه السلام إلى النبى صلى الله عليه وسلم يبشره بقبول توبة هذا الصحابى الجليل ..كان ذلك فى وقت السحر..أى قبل طلوع الفجر بقليل .. وكان النبى فى بيت أم سلمة رضى الله عنها .. ولما سمعت أم سلمة النبى يضحك .. قالت له :. مم تضحك يارسول الله .. أضحك الله سنك ؟ فقال لها : تيب على أبى لبابة .. قالت : أفلا أبشره يارسول الله ؟ قال : بلى .: إن شئت .. فقامت على باب حجرتها .. وكانت آيات الحجاب لم تنزل بعد .. وقالت : يا أبا لبابة .. أبشر .. فقد تاب الله عليك .. فالتف حوله الناس ليحلوا رباطه .. فقال : لا والله حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقنى بيده ..

ولما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم لصلاة الفجر أطلق أبا لبابة . . وهنأه بقبول توبته . . فقال أبو لبابة : من توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب . . وأنخلع من مالى كله صدقة لله ورسوله . . فقال له الرسول : يجزئك يا أبا لبابة الثلث . . ثم نزلت الآية الكريمة : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم . . خلطوا عملا صالحاً . . وآخر سيئاً . . عسى الله أن يتوب عليهم . . إن الله غفور رحيم » . .

عاد أبو لبابة إلى بيته تظله المغفرة . . وتحفه الرحمة . . وكان أول مسلم هبط جبريل من السماء حاملا قبول توبته . . بعد أن كاد يموت من شدة

الإعياء لوقوفه بجوار سارية المسجد . . وبعـد أن جف الدمع من عينيه لفرط ما بكى . . وبعد أن أصيب بالهزال والضعف لما عانى من جهد وإرهاق بدنى ونفسى . . وقد أحس بالرحة تملأ جوانحه . . لأن الله عفا عنه ومحا زلته . . وأصبحت صفحته نقية من الشوائب . . ليس فيها إلا حسناته فقط . .

* * *

أبو بكر الشبلى

رحلة مباركة إلى الله

كنت وأنا بالأعظمية فى العراق حريصاً على أن أزور جميع مشاهد الصالحين فيها . . وبخاصة أن هذه المنطقة المباركة تضم عدداً كبيراً من مشاهد أئمة الصلاح . . فى مقدمتهم أبو بكر الشبلى الذى اخترت شخصيته لأتحدث عنها . ذهبت إلى مشهده . . وكلى لهفة على زيارة هذا الرجل الصالح الذى أحب الله بكل ذرة فى كيانه . . حتى تحول دمه إلى قطرات متعبدة من الحب تجرى وامضة فى عروقه . . وتحولت خفقات قلبه إلى أشواق رفافة نحو الله عز وجل . . وتحولت أنفاسه الضارعة المبتهلة إلى مواجيد تحوم هائمة فى أجواء العشق الإلهى . .

•

ما إن وصلت إلى مشهد أبى بكر الشبلى حتى وجدتنى أقترب منه على استحياء . . إجلالا وهيبة له . . وجلست بجوار هذا المشهد أستروح شذى الروحانية المنبعث من رفات صاحبه .. وأستعرض التاريخ المضىء لهذا العابد الورع الذى انصهر فى بوتقة الحب الإلهى .. وشغله الله عما سواه ..وارتفع بذاتيته عن زخارف الحياة . . ليعيش فى مواجيده وأشواقه . . ويسمو على الدنيا بروحه وقلبه ومشاعره وأحاسيسه . .

إن شريط حياته يبدأ من مولده فى سامراء فى بيت يمد عليه الرغد أفياءه . . وتدنى إليه النعم قطوفها . . فوالده كان يشغل منصباً مرموقاً فى حكومة الموفق . . والدنيا جاثية عنده . . يأخذ منها ما يشاء . . ويدع ما يشاء . . ولذلك نشأ أبو بكر الشبلى . . والحياة تتضوع من حوله سحراً ومجادة وعزاً . . فعب من منهل العلم والثقافة حتى ارتوى . . كما عب من ترف الحياة حتى الثمالة . . وأمضى طفولته وشبابه ينعم بأطايب الطعام . . وفاخر الثياب . . ولأنه من بيت أرستقراطى عريق . . فقد ارتقى فى درج المناصب سريعاً حتى صار والياً لنهاوند . .

ثم جاءته إشارة السماء — كما يقول أهل الله — ليودع حياة الترف والرفاهية . . ويخلع ثوب الجاه والمجد والنعيم الدنيوى . . ليلبس ثوب السعادة الأخروية . . والنعيم الربانى . . فقد التقى برجل من أهل الله اسمه « خير النساج » . . يهدى النفوس الجامحة . . ويرشد العقول الحيرى . . وتنفذ كلماته إلى القلوب فتمزق ما ران عليها من حجب المعصية . . حتى تتملى نور الحق . . وتتذوق حلاوة الطاعة . . وتتنسم عبير القرب من الله . .

كان الشبلى كالأرض الطيبة التى تنتظر من يستثمرها ويخرج منها أفانين الثمار . . وأعاجيب الفاكهة . . وشاء الله أن يحدث له انقلاب قلبى ووجدانى فى جلسة واحدة مع « خير النساج » . . سرعان ما تبدل بعدها الشاب المترف الناعم الأنيق . . إلى عابد زاهد ورع تقى . . معرض عن مغريات الحياة . . متشوف إلى حياة أسمى وأنقى وأصفى . . وكانت لحظة مباركة تلك التى حولته من حال إلى حال . . وغيرته من شأن إلى شأن . . وأخرجت الدنيا من قلبه . . ليصبح هذا القلب مشرق الأنوار . . ومهبط الأسرار . . ومنزل البركات . .

درس الشبلى المذهب المالكى . . وعكف على حفظ الحديث الشريف . . كما درس تفسير القرآن الكريم . . وفروع المعرفة الدينية . . وتهيأت نفسه لتلقى أنوار الحق . . فسقطت الأسوار التى كانت تمنعه من الوصول إلى

الشفافية . . أسوار المنصب والترف والتهافت على الدنيا . . وبقدر ما كان مستغرقاً فى نعم الحياة . . أصبح مستغرقاً فى حب الله . . متفانياً فى عبادته . . محلقاً بجناحى أشواقه إلى الله فوق الدنيا وزينتها . . لا يلبس إلا الثوب المرقع . ولا يتناول إلا الطعام الخشن . . ولا يفترش إلا الحصباء . . ولا يصاحب إلا الفقراء والمساكين . .

أى لمحة سماوية من الهداية جعلته يفصل بين ماضيه وحاضره . . وينظم شعراً كله حب فى الله . . وهيام به . . كابن الفارض . . وابن عربى . . وابن خميس . . وسائر الصالحين الذين أسكرتهم كأس الحب الإلهى . . وذابوا على حرارة الوجد والهيام . . إن هذه اللمحة يضىء الله بها قلب عبده . . فيرى الدنيا ضئيلة لا تساوى جناح بعوضة . . ولا شروى نقير . .

وهكذا انتفض الشبلى انتفاضة روحية صعدت به إلى أعلى مكان من الصفاء النفسى . . والسكينة القلبية . . فلم ير إلا جلال الله فى نومه ويقظته . ولم يشهد إلا إرادة الله فى حله وترحاله . . ولم يتذوق إلا حب الله فى ليله ونهاره . . وقد عبر عن هذا الحب فى كلماته الناصعة المضيئة : « إن المحبة كأس لها وهج . . إن استقرت فى الحواس قتلت . . وإن سكنت فى النفوس أسكرت . . فهى سر فى الظاهر . . ومحبة فى الباطن . . » .

وكان الشبلى بعد حياته الوضيئة الشفافة النقية . . يذهب إلى الجنيد . . ليتزود منه بالعلم الربانى . . والمعانى الإلهية . . وكانت تجرى بينهما مساجلات يتفوق فيها الشبلى على الجنيد . . ولكن الشبلى لتأدبه بأداب الصالحين . . كان يعطى للجنيد وقاره كإمام ومعلم له . .

تذكرت هذا كله . . وأنا بجوار مشهد أبى بكر الشبلى فى الأعظمية . . كما تذكرت الختام الرائع الذى ختم به حياته . . فقد أبى إلا أن يموت على وضوء . . ويلقى الله طاهراً . . فحين جاءه ملك الموت . . وبيده عبق الجنة وعطرها . . وروحها وريحانها . . أسفر وجه الشبلى وتلألأ كأنه القمر . .

وعرف أن هذه هى اللحظة التى سيلقى فيها حبيبه الذى طالما اشتاق إليه . .
وطالما سهر الليالى يعبده ويتذلل إليه . . فأشار لرجل من أصحابه كان يعوده
أن يأتيه بماء ويوضئه . . وكان الشبلى قد ثقل لسانه فلم يستطع النطق . . ولما
وضأه الرجل نسى أن يخلل لحيته بالماء . . فأشار إليه الشبلى أن ينضح لحيته
بالماء حتى منابت الشعر . . ولما فعل الرجل . . أغمض الشبلى عينيه . .
وصعدت روحه الطيبة . . إلى منازل الرضوان . . حيث خصص لها مقعد
صدق عند مليك مقتدر .

• • •

سليمان بن صرد

زعيم التوابين الذين خرجوا يطالبون بدم الحسين

أحس

بالندم يجتاح نفسه . . ويقض مضجعه . . ويجرى كلمات باكية على لسانه . . والسبب أنه كان من بين الذين أرسلوا كتباً إلى الإمام الحسين . . يطلبون قدومه إلى الكوفة ليبايعوه بالخلافة . . فلما استجاب حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم لدعوتهم خذلوه .. فحدث ما حدث فى كربلاء .. وكانت فجيعة لم تشهد لها الإنسانية مثيلا . .

كان سليمان بن صرد . . وهو ممن أسلموا على يد النبى صلى الله عليه وسلم . . يبكى ندماً حتى تخضل لحيته بالدموع . . وكان هناك آخرون يحسون نفس إحساسه . . وربطت المأساة بين قلوبهم . . فتكاشفوا بالندم .. وقرروا أن يتوبوا إلى الله مما فعلوا . . وأن تكون التوبة بأخذ ثأر الحسين . . ولذلك سموا أنفسهم بالتوابين . . وكان زعيمهم سليمان بن صرد . .

كانوا يذهبون إلى قبر الإمام الحسين ويبكون ويصيحون . . وينظرون إلى السماء طالبين من الله الصفح والمغفرة .. وأن يقبل توبتهم .. وكانوا يرددون دائماً هذه الآية الكريمة : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم . . ذلكم خير لكم عند بارئكم . . فتاب عليهم . إنه هو التواب الرحيم » .

وقد بدأت حركة التوابين سراً .. حيث كانوا يجتمعون فى بيت سليمان ابن صرد .. ثم ما لبثوا أن أعلنوا عن أنفسهم . . وكان الشيعة غارقين فى آلامهم وأحزانهم على ما حدث للإمام الحسين وأهل البيت . . فاستجابوا

لدعوة التوابين . . وكثر عددهم حتى بلغوا ستة عشر ألف تواب . . وأصبحوا يشكلون قوة تستطيع أن تأخذ بثأر الحسين . . وأن تقتص من قتلته . .

ورأى بعض التوابين أن يبدأوا بقتل أشراف الكوفة الذين اشتركوا فى قتل الحسين وأصحابه . . فرفض سليمان بن صرد هذا الرأى . . لأنه كان يريد استئصال قتلة الحسين فى كل مكان . . وأن يبدأ بالمحرضين الأساسيين . . وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد . . وحدد سليمان ساعة الصفر فى آخر ربيع الثانى سنة ٦٥ هـ . . إلا أنه رجع وقدم هذا الموعد إلى شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ . . والسبب أنه علم بموت يزيد . . وتصارع بنى أمية على الخلافة . .

وأحب أن يعرف التوابون أنه لا يريد من وراء هذه الحركة مالا أو مغانم . . أو مناصب . . وإنما يريد فقط الأخذ بثأر الحسين . . حتى ولو لقى فى سبيل ذلك حتفه . . فقد خطب سليمان فى جمع من التوابين قائلا : من كان يريد الدنيا وحرثها . . فوالله ما نأتى فيئاً نستفيئه . . ولا غنيمة نغنمها . . ما خلا رضوان الله رب العالمين . . وما معنا من ذهب ولا فضة . . ولا خيل ولا حرير ولا خز . . وما هى إلا سيوفنا فى عواتقنا . . ورماحنا فى أكفنا . . وقدر يسير من الزاد . . فمن كان يريد غير هذا فلا يصحبنا . .

بهذه الكلمات الواضحة الصريحة حدد سليمان بن صرد الهدف من حركته . ثم أكد على هذا المعنى حين بعث إليه عبد الله بن الزبير ، وكان قد نادى بنفسه خليفه فى الحجاز . . أن ينضم إليه برجاله التوابين . . فرد سليمان قائلا : لا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا . . وإن نحن ظهرنا رددنا هذا الأمر إلى أهله . . وإن أصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا . . إن لنا شكلا . . ولابن الزبير شكلا . .

كان هدف سليمان بن صرد واضحاً منذ اللحظة الأولى . . فهو يريد أن ينتقم من قتلة الحسين . . وإذا أفلح فى ذلك . . فسوف يبايع واحداً من

آل البيت بالخلافة . . وإلا فإنه سوف يظفر بالشهادة فى سبيل هذا الهدف النبيل . .

زحف سليمان برجاله – وكانوا قد تناقصوا إلى أربعة آلاف فقط . . حتى مر ببلدة هيث على الفرات . . ثم سار مع النهر حتى بلغ مدينة قرقيسيا .. فرحب به أميرها ، وأمد التوابين بالمؤن . . وبعد ذلك واصلوا زحفهم حتى بلغوا « عين الوردة » . . وبدأ التراشق بينهم وبين جيش الشام . .

كان التوابون متحمسين للغاية . . فهجموا بعنف وضراوة على جيش عبيد الله بن زياد . . وكان القتال يسير لصالحهم . . وكانوا يصيحون . . « يالثارات الحسين ! » .. ولكنهم لم يلبثوا طويلا فى تفوقهم على جيش الشام .. إذ كان أكثر منهم عدداً وعتاداً . . فاستطاع أن يقضى عليهم . . وسقط سليمان بن صرد قتيلا . . ولكن بعد أن قاد القتال ببسالة منقطعة النظير . . وبموته انتهت حركة التوابين الذين قاموا يطالبون بدم الحسين . . ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق غايتهم لافتقارهم إلى الجند والسـلاح . .

* * *

المختار بن أبى عبيد الثقفى

الرجل الذى أخذ بثأر الحسين

عندما

زرت مسجد الكوفة بالعراق . . وجدت بجواره ثلاثة قبور داخل مقصورات فخمة . . أحدها قبر المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى هب للمطالبة بثأر الحسين بعد استشهاده فى معركة الطف . . وقفت قليلا أمام هذا القبر أستعرض تاريخ صاحبه . . فقد استطاع أن يحرك التاريخ من الحجاز إلى العراق . . حركه موارة . . لم تهدأ لحظة واحدة . . بل استطاع أن يهز أعمدة الحكم الأموى . . ويأخذ بثأر الحسين من قتلته بعد أن أبلى فى سبيل ذلك بلاء حسناً . .

أما شريط حياته فيبدأ من مولده بالطائف فى السنة الأولى من الهجرة . . ثم تشاء الأقدار أن يشهد مصرع والده وأخيه – وهو فى الثالثة عشرة من عمره – فى إحدى معارك المسلمين مع الفرس . . حين وجه عمر بن الخطاب الجيوش لفتح العراق . .

وقد كان المختار شيعياً يؤثر الإمام علياً على نفسه . . ووضح حبه للبيت الهاشمى وللبيت العلوى . . حين جمع بعض الرجال لمساندة الإمام الحسين فى معركة الطف . . وهو يعلم مسبقاً ما سوف تسفر عنه المعركة . . ومع ذلك لم يتخلف عن مناصرة الإمام الحسين . . ووقع أسيراً فى يد الأمويين . . وضربه عبيد الله بن زياد بعصا على عينه فأحدثت بها عاهة . . ثم أدخله السجن . . فلبث به فترة . . ولم يطلق سراحه إلا عندما تشفع له زوج أخته عبد الله بن عمر . . على شرط أن يغادر الكوفة . .

ولما طلب إليه مغادرة الكوفة سافر إلى الحجاز . . وشارك فى أحداثها الكبار . . حيث وقف بجانب عبد الله بن الزبير يقاتل الجيش الأموى الذى حاصر الكعبة . . كما أنه لم يتوان لحظة عن مؤازرة ابن الزبير . . إلا أنه عندما عرف أن ابن الزبير لن يجعل منه الرجل الثانى فى الخلافة . . استأذنه فى العودة إلى الكوفة . . ولكنه لم يخرج من الحجاز إلا بعد أن التقى بمحمد بن الإمام على . . المشهور بابن الحنفية . . لأن أمه كانت من بنى حنيفة . . ولم تكن فاطمة الزهراء .. واتفق معه على أن يدعو له فى العراق بالإمامة .. وأن يجمع حوله الناس للأخذ بثأر الحسين . . ورد عليه ابن الحنفية قائلا . . إنى لأحب أن ينصرنا ربنا . . ويهلك من سفك دماءنا . . ولست بآمر بحرب . . ولا إراقة دم . . فإنه كفى بالله لنا ناصراً .. ولحقنا آخذاً وبدمائنا طالباً . .

ذهب المختار إلى الكوفة فوجد كثيراً من أهلها مستعدين لمعاونته فى إنجاز مهمته الكبرى . . وهى الأخذ بثأر الحسين . . وعلى رأس هؤلاء الغاضبين لمقتل الإمام الحسين . . فئة تسمى نفسها التوابين . . يذهبون إلى قبر الإمام كل يوم ويبكون .. ويلقون خطباً يبثون فيها ضراعتهم إلى الله أن يقبل توبتهم . . وكانوا دائماً يتلون هذه الآية : « فتوبوا إلى بارئكم . فاقتلوا أنفسكم . ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم . إنه هو التواب الرحيم » . .

تعاطف المختار مع فئة التوابين . . كما اجتذب إلى صفه الفرس المسلمين . . الذين حرموا من كل المناصب لأنهم غير عرب . . وبدأ يدعو لابن الحنفية . . باعتباره ابن الإمام على وأخا الحسين . . والأحق بالإمامة من غيره . . وأخذت دعوى المختار تنتشر فى الكوفة وينضوى الناس تحت لوائها . . مما أحدث قلقاً فى نفس الوالى . . فقبض على المختار .. وأودعه السجن . . ومرة ثانية تشفع له عبد الله بن عمر . . فأطلق سراحه . .

بيد أن جذوة الجهاد فى نفس المختار لم تكن تخمد أبداً . . فقد تمكن من التغلب على الوالى . . والسيطرة على الكوفة : : والاستعداد لإنجاز مهمته

الكبرى التى نذر نفسه لها . . وقرر أن يستأصل قتلة الحسين فى معركة فاصلة . . وكانت هذه المعركة فى يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦هـ بمكان اسمه « جبانة السبيع ».. فى ذلك اليوم قتل المختار مائتين وثمانية وأربعين رجلا ممن اشتركوا فى قتل الإمام الحسين وأصحابه . . ثم أتى بألف رجل . . فهدموا دورهم . . وجعلوها قاعاً صفصفاً . . ثم جمع رءوس الذين قتلوا الإمام الحسين وأولاده وأصحابه فى سلال . . وأرسلها إلى البيت العلوى والبيت الهاشمى بالحجاز .

بعد ذلك كان لابدمن القضاء على عبيد الله بن زياد رأس الفتنة .. والرجل الذى قاد الجيش الأموى لقتل الإمام الحسين . . كان ابن زياد فى « الموصل » بعد أن قاتل التوابين فى « عين الوردة » وهزمهم . . فبعث إليه المختار بجيش على رأسه إبراهيم بن الأشتر . . وهناك دارت معركة رهيبة سقط فيها ابن زياد على الأرض . . وجثم عليه ابن الأشتر وذبحه . . وفصل رأسه عن جسده بنفس الطريقة التى قتل بها الإمام الحسين . . وكان ذلك فى شهر المحرم من سنة ٦٧هـ. وشاءالله أن يقتص من جميع قتلة الحسين بعد استشهاده بست سنوات تماماً . .

وذات صباح . . بينما كان أهل البيت النبوى وأهل البيت العلوى جالسين فى ديارهم . . يجترون أحزانهم على ما حدث لهم فى كربلاء . . إذا برسل المختار الثقفى تدخل عليهم . . وتلقى بين أيديهم برأس عبيد الله ابن زياد . . ورءوس قتلة أولاد الحسين وأصحابه فى معركة الطف . .

وهنا تهللت الوجوه . . ولهجت الألسنة بالدعاء لله عز وجل على أن وفق المختار ورجاله للأخذ بثأرهم . . واقتص من الظالمين . . وجعلهم عبرة لمن يعتبر . .

• • •

حذيفة بن اليمان

تعلم فى مدرسة النبوة كيف يتجنب الشر

فى قبر لا تحوطه أبهة الدنيا ، ولا يحفه غرور الأحياء ، يرقد جثمان هذا الصحابى الجليل الذى عزف عن متاع الدنيا فى حياته . . وشاءت الأقدار ألا يكون له نصيب من زخرفها بعد مماته . . زرت قبره فى مسجد سلمان الفارسى بمدينة المدائن . . فى العراق . . فلم أر فيه قبة ذهبية .. ولا باباً ذهبياً . . ولا مئذنة ذهبية . . وإنما حجرة متواضعة بها قبران متواجهان . . أحدهما قبر حذيفة بن اليمان . . والثانى قبر جابر بن عبد الله الأنصارى . .

ومسجد سلمان الفارسى . . أو سلمان الباك (والباك بالفارسية معناها الطاهر) ..هو المسجد الوحيد فى المدائن .. ويصلى فيه السنيون والشيعة معاً ، وحيال قبر حذيفة كان لنا لقاء مع إمام وخطيب المسجد . . واسمه الشيخ محمد صادة . . وهو سنى ويتبع المذهب الشافعى . . قال لنا : إن حذيفة كان واليا على المدائن بعد فتح فارس . . وكان قبره على شاطىء نهر دجلة الذى يمر بجوار المدائن . . ولما تآكل الشاطىء . . وتعرض القبر للانهيار . . وشكا الناس إلى الملك فيصل الأول . . طالبين إليه الحفاظ على رفات هذا الصحابى الجليل . . أمر بنقله إلى هذا المكان . . وحين قام الناس بنقله وجدوا جسده سليماً كأنه مات بالأمس . .

وحذيفة بن اليمان أسلم هو وأخوه صفوان مع أبيهما « حسيل بن جابر » على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وكان من أشد الشباب غيرة على الإسلام . . وقد تتلمذ على الرسول صلى الله عليه وسلم وتلقى التعاليم النبوية .. من فمه الطاهر . . ووعاها وعمل بها . . فكان مثال الشاب العالم الورع التقى المجاهد . . وكان يعرض كل ما يعن له من أمور على رسول الله . . ويستمع إلى حكم الله الذى يلهمه لنبيه . . وكان أشد ما يشغل بال حذيفة أن يعلم مواطن الشر ونوازعه ودواعيه وبواعثه . . حتى يتوقى الوقوع فيه . . حتى يتجنب مزالقه . . ويتفادى بوائقه . . ولذلك فإنه كان يستوضح من رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شىء عن الشر . . ويسأله عن علاساته . . وسمات الأشرار . . وهو يصف ذلك كله بقوله :

كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير . . وكنت أسأله عن الشر . . مخافة أن يدركنى . . قلت : يارسول الله . . إنا كنا فى جاهلية وشر . . فجاءنا الله بهذا الخير . . فهل بعد هذا الخير من شر ؟ . . قال : نعم : قلت : فهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن . . قلت . . وما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتى . . ويهتدون بغير هديى . تعرف منهم وتنكر . .

قلت : وهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم . . دعاة على أبواب جهنم . . من أجابهم إليها قذفوه فيها : قلت : يارسول الله . . فما تأمرنى إن أدركنى ذلك ؟ . . قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . . قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال تعتزل تلك الفرق كلها . . ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت . . وأنت على ذلك . .

إن دلت هذه الأسئلة على شىء فإنما تدل على أن حذيفة كان يريد أن يرتفع بنفسه إلى عالم النقاء والصفاء والشفافية والطهر . . ويرصد فى طريقه إلى الله كل عثرة تعطل مسيرته . . أو تؤخر تقدمه نحو النور الأزلى . . فهو يخشى أن يدركه الشر . . فيحجب بصيرته عن الحق والحقيقة . . ويخشى

أن ينحرف عن طريق الخير . . فيقع فى براثن الشر الذى يعمل جاهداً على تلافيه. . هكذا عاش مركزاً عدسة تحركاته على كل شىء فى الحياة . . فلم يعق مسيرته إلى الله عائق . . وحاشا رجل ربانى مثل حذيفة أن تعلق به شبهة من شر . . أو تنأى عنه ذرة من خير . .

وكان حذيفة نعم المجاهد . . ونعم الصابر . . ونعم الزاهد . . قتل والده خطأ بيد المسلمين يوم أحد . . وقدم له الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغاً من المال كفدية . . فأخذه ووزعه على الفقراء والمساكين . . ولم يدخل بدرهم واحد إلى بيته . . وقال : إن مال المسلمين يعطى للمسلمين . .

وكان النبى يرى فى حذيفة من اللماحية والذكاء ما جعله يوكل إليه القيام بعملية ذات شأن أيام غزوة الخندق . . طلب إليه أن يتعسس أخبار الأحزاب . . ويتعرف إلى أسرارهم . . وما ينتوون عمله . . هذه العملية تحتاج إلى جرأة ومغامرة ورباطة جأش ومرونة فى التصرف . . ولا شك أن حذيفة تتجمع فيه كل هذه الصفات . فشمر عن ساعد شجاعته . . وتسلل تحت جنح الظلام . . حتى دخل معسكر الأحزاب . . دون أن يكشف ا... عن شخصيته . . وهناك وضع يده على حقيقة الموقف عند الأحزاب . . وعرف أنهم فى موقف يتطلب منهم سرعة الفرار والعودة إلى ديارهم . . فالرياح تأخذ منهم كل مأخذ . . حيث كفأت قدورهم . . وخلعت خيامهم.. وملأت أعينهم وآذانهم بالحصى والحصب . .

حينئذ رجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأعطاه صورة صادقة عن الموقف . . وكانت هذه الصورة بشارة للمسلمين بنصر الله . .

وظل حذيفة على عهده مع الله ورسوله حتى وافاه الأجل فى العام السادس

والثلاثين من الهجرة . . بعد أن ترك حقيبة ممتلئة بعطر الجهاد والفضائل والطيبات الصالحات فى يد التاريخ . .

هذا الرجل الذى ملأ الدنيا دوياً يرقد الآن فى قبر متواضع لا زينة فيه ولا زخرف . . وكأنما رفض زينة الدنيا حياً وميتاً . . رحمه الله مع الشهداء والأبرار .

* * *

عبدالله بن ثوب

حاولوا إحراقه ليردوه عن الإسلام فكانت النار بردًا وسلامًا

قصة

هذا الفقيه العابد ما فتئت نوراً وضاحاً فى جبين التاريخ . . وآية على أن الله لا يتخلى عن عبده المؤمن . . ولا يخذله فى أحلك الظروف . . وأشد الفتن والمحن . . فقد كان عبد الله ابن ثوب من أفاضل أهل اليمن . . وأكثرهم تقى وورعاً وزهداً فى الدنيا . . وقد منحه الإيمان قوة ذاتية جعلته جريئاً فى قول الحق . . لا يمالىء . . ولا يداهن . . ولا ينافق لأنه مترفع عن عرض الدنيا . . معرض عن زينتها . . تكفيه لقيمات يقمن أوده .. أما زاده الروحى فهو مائدة ممتدة بالليل والنهار.. ساعة يتفكر فى ملكوت الله . . وساعة يسبح الله . . ويتقرب إليه بالفرائض والنوافل . . وساعة يجلس للفتيا . . ويفقه الناس فى شئون دينهم . . وكان لا يبتغى مثوبة ولا جزاء إلا من الله تبارك وتعالى . .

بلغ هذه المنزلة من العلم والتقوى والورع والطهر والشفافية . . فى الوقت الذى كان فيه الأسود بن قيس العبسى يدعى النبوة . . ويزعم أن الوحى يهبط عليه . . وأنه جاء بدين يبيح ما حرمه الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . . ولما علم الأسود الكذاب أن أبا مسلم الخولانى . . وهذه كانت كنية عبد الله بن ثوب . . يلتف الناس حوله ويجلونه لعلمه

وتقواه . . بعث إليه . . وطلب منه على ملأ من أتباعه أن يشهد بأنه . . أى الأسود . . رسول الله . . وانتظر قليلا لعل أبا مسلم يعترف بنبوة الأسود . . ولكن عبد الله بن ثوب لم يتردد فى النطق بشهادة أن لا إله إلا الله . . وأن محمداً رسول الله . .

وهنا أسقط فى يدى الأسود العبسى . . وبخاصة أن أفراد قبيلته مذحج يقفون حوله . . مؤيدين ومؤازرين . . وكذلك أتباعه الذين استطاع أن يخدعهم ويغرر بهم . . فأمر بإحراق هذا الفقيه الذى تأبى أن يخرج من الإسلام . . وسرعان ما جمع أتباعه الحطب والخشب . . وأوقدوا ناراً عظيمة تتأجج وتلتهب وتتسعر . . وقيدوا أبا مسلم وأجلسوه على مقعد . . وقربوه من النار . . فأخذ لهبها يلفح وجهه دون أن يحرقه . . وفزع الأسود العبسى . . وفزع أتباعه . . إذ وجدوا هذا الفقيه العابد ساكناً فى هدوء . . وكأن النار المضطرمة ظلة تحميه . . فقال الأسود لأتباعه . . كرروا عليه الاعتراف بأنى نبى . فقال لهم أبو مسلم : أشهد أن لا إله إلا الله . . وأن محمداً رسول الله . .

ولما يئس الأسود العبسى من رجوع أبى مسلم عن الإسلام . . أمر بنفيه خارج البلاد . . حتى لا يلتف الناس حوله . . ويفسدوا على الأسود مزاعمه فى النبوة . . وبالفعل رحل أبو مسلم عن اليمن متجها إلى المدينة المنورة . . بيد أنه حين وصل إليها . . كان النبى صلى الله عليه وسلم قد انتقل إلى الرفيق الأعلى . . فأناخ أبو مسلم راحلته بباب المسجد . . ثم دخل وصلى ركعتين بجوار سارية . . ولما رآه عمر بن الخطاب . . أدرك أنه غريب عن المدينة . . فقال له : ممن الرجل . . قال : من أهل اليمن . . قال : ما فعل الرجل الذى أحرقه الكذاب بالنار ؟ قال : ذلك عبد الله بن ثوب . . قال : أنشدك بالله أنت هو ؟. قال : اللهم نعم..عندئذ عانقه عمر وبكى . . ثم ذهب به حتى أجلسه بينه وبين أبى بكر . . وقال الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله

عليه السلام . . ثم قال لأبى مسلم : أبشر . . فإنّ عدو الله قد قتلته طائفة من المؤمنين . . وعاد أتباعه إلى الإســلام . .

ومضت الأيام حتى ولى معاوية أمر المسلمين . . وكان أبو مسلم فى الشام . . فدخل على معاوية . . ومجلسه غاص بالناس . . وقال له : السلام عليك ياأجير المسلمين . . فقال له من بالمجلس : إنه أمير المسلمين يا أبا مسلم . فأراد معاوية أن يهدىء الموقف . . فقال لهم اتركوا أبا مسلم يشرح لنا ما يقول . فقال أبو مسلم لمعاوية :

إنما مثلك بعد أن ولاك الله أمر الناس . . كمثل من استأجر أجيراً . . وأوكل إليه أمر غنمه . . وخصص له أجراً على ذلك . . فإن هو أحسن القيام على خدمتها أعطاه أجره . . وإن أهملها حرمه من الأجر وعاقبه . . فاختر لنفسك أى الأمرين تريد . . فقال له معاوية : جزاك الله عنا وعن الرعية خيراً يا أبا مسلم . .

وهكذا عاش عبد الله بن ثوب . . يصدع بالحق فى أى موقف . . وأمام أى إنسان . . وينبه ذوى السلطان إلى أن كل منصب أو مال أو جاه إلى زوال . . فقد كان يتردد على معاوية بين الحين والآخر . . يذكره بلقاء الله . . وحساب الآخرة . . وكان معاوية يصغى إليه مهما يكن فى قول أبى مسلم من جرأة أو صراحة .. رحم الله أبا مسلم .. فقد كان نفساً مباركة .. وروحاً طيبة . . امتلأ كيانه بنور الله . . فهيبت النار أن تمتد إلى هذا النــور . .

* * *

محمد بن مسلمة

أكثر شباب الأنصار فداء وتضحية

كـــان في الثلاثين من عمره . . حين وصل مصعب بن عمير إلى المدينة ليدعو إلى دين الله . . ويعلم الذين أسلموا ليلة العقبة الأولى . . وليلة العقبة الثانية مبادىء الدين الحنيف . . وما إن سمع محمد بن مسلمة وكان حليفاً لبني عبد الأشهل من الأوس . . بالدين الجديد حتى اعتنقه . . وراح يحفظ ما نزل من القرآن . . ويتعلم على يد مصعب كيف يتعبد بدين الإسلام. حتى استضاء وجدانه بنور الله . . وسرت حلاوة التوحيد في كل ذرة من كيانه . . وفي كل جارحة من جوارحه . . ومكث في المدينة متلهفاً على اليوم الذي يصل فيه الرسول صلى الله عليه وسلم إليها . . حتى يغتنم صحبته . . ويفوز بالجلوس إليه . . ويحفظ الوحي أولا فأولا . . كما يحفظ منهج الإسلام من الرسول مباشرة . . وذلك هو الفوز العظيم . .

وما إن هاجر الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى المدينة..حتى كان محمد ابن مسلمة من أكثر شباب الأنصار حرصاً على ملازمة الرسول وحضور مجلسه . . وكان يجلس في حضرة الرسول منصتاً في أدب جم إلى كل كلمة تخرج من بين شفتيه الطاهرتين .. حتى استوعب كثيراً من الأحاديث النبوية

الشريفة . . وسمع القرآن غضا فور نزول جبريل به من السماء على قلب المعصوم صلوات الله وسلامه عليه . .

ثم شاء الله أن تنتقل الدعوة إلى ميدان الجهاد المسلح . . فكانت غزوة بدر أول امتحان للمسلمين فى ساحة القتال . . وقد خاض محمد بن مسلمة المعركة مع الشباب والشيوخ . . حتى حقق الله نصراً عزيزاً لرسوله صلى الله عليه وسلم . . ولصحابته رضوان الله عليهم جميعاً . . على طواغيت قريش . . ومشركى مكة . . ونكس أعداء الإسلام رءوسهم بعد الهزيمة الساحقة الماحقة التى لحقت بهم فى بدر . . والتى تركوا ضحاياهم بها مدفونين فى القليب . .

وبينما كانت أنباء النصر الذى منحه الله للمسلمين تنشر الفرح والبهجة فى كل بيت من بيوت المدينة . . كانت أنباء الهزيمة تملأ بيوت المشركين فى مكة حزناً وأسى ولوعة . . وتملأ بيوت اليهود فى المدينة رعباً وفزعاً وخوفاً من سلطان الدين الجديد . . وكان كعب بن الأشرف اليهودى ، وهو رجل من طيىء ، وأمه من بنى النضير . . شاعراً مقذعاً يسيل قلمه فحشاً . . وبذاءة . . وكان لا يخفى عداوته للرسول وأصحابه . . فما إن بلغه نبأ انتصار النبى والمسلمين حتى اشتعلت نار الحقد والبغضاء فى قلبه . . وراح ينظم شعراً يبكى فيه ضحايا قريش . . ويشبب بنساء المسلمين . . مما جعل الرسول يضيق بهذا اليهودى ويقول . . « اللهم اكفنى ابن الأشرف بما شئت » . . ويقول أيضاً : « من لى بابن الأشرف فقد آذانى » . .

وهنا برز محمد بن مسلمة وقال : «أنا لك به يارسول الله . أنا اقتله» . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم . . « إن قدرت على ذلك » . .

وبالرغم من أن محمد بن مسلمة كان شجاعاً كأبلغ ما تكون الشجاعة .. قوى البنية ، شديد الأسر .. إلا أنه بعد انصرافه إلى منزله بقى ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب .. لأنه كان يتوجس خيفة من عدم قدرته على قتل ابن الأشرف .

ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك . . سأل محمد بن مسلمة : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال له : يارسول الله قد قلت لك قولا . . لا أدرى هل أفى لك به أو لا . . فقال له النبي : « إنما عليك الجهد » . . ثم طلب إليه أن يأخذ مشورة سعد بن معاذ قبل أن يقدم على هذا العمل الفدائى الجليل . .

ذهب محمد بن مسلمة إلى سعد بن معاذ . . وسأله المشورة . . فقال له : اذهب إليه ليلا . . ومعك فتية ممن يثق بهم . . ثم اطلبوا منه أن يسلفكم طعاماً . . لأنكم أصبحتم فى حال مدقعة من الفقر . . وحين ترون اطمئنانه إليكم . . اصحبوه بعيداً عن حصنه . . وانقضوا عليه بسيوفكم . .

صحب محمد بن مسلمة شخصاً عزيزاً على كعب اسمه أبو نائلة سلكان ابن سلامة . . وأشخاصاً آخرين . . وكان ذلك فى ليلة الرابع عشر من ربيع الأول بعد خمسة وعشرين شهراً من الهجرة . . ولما بلغوا حصن كعب ابن الأشرف ناداه أبو نائلة . . فهم بالنزول إليه . . ولكن زوجته حاولت منعه . . وكان زواجهما حديثاً . . فرفض أن يستمع إليها . . وخرج من الحصن . . متطيباً . . وكانت ليلة مقمرة . . وكانت العلامة المتفق عليها أن يضع أبو نائلة أصابعه فى شعر كعب . . ثم يبدى فى المرة الأولى إعجابه بطيبه ورائحته . . وفى المرة الثانية يمسك بشعره وينهالوا عليه بالسيوف . . وقد نفذوا هذه الخطة بنجاح . . وكان محمد بن مسلمة هو الذى طعنه الطعنة القاتلة . ثم حزوا رأسه . وحملوه معهم وعادوا إلى المدينة . .

ولما بلغوا مكاناً بظاهر المدينة اسمه بقيع الفرقد كبروا . . وكان النبي في هذا المكان . . فعرف صلى الله عليه وسلم أنهم تخلصوا من عدو الله . . فكبر وقال : أفلحت الوجوه . . فقالوا : ووجهك يارسول الله . . ثم ألقوا بالرأس بين يديه . .

وقد شهد محمد بن مسلمة جميع المشاهد مع رسول الله . . وكان صوالا جوالا . . لا يهدأ له عزم . . ولا يفتر له جهد . . ولا يهاب الموت . .

وظل يتعشق الجهاد . . ولا يغيب عن موقعة واحدة . . حتى حروب الردة شارك فيها مشاركة بطل يرى الجنة تحت ظلال السيوف . . ويرى رضوان الله يظل المجاهدين . . وقد وافته المنية بعد أن بلغ من العمر سبعة وسبعين عاماً . . وكان جسده قد امتلأ بالجراح . . وكان كل جرح شهادة بولائه لله ورسوله . . ولم يترك الدنيا إلا بعد أن خلف سيرة عطرة يتضوع بها التاريخ . .

* * *

عمرو بن عبسة

كان فى الجاهلية يبحث عن دين جديد

عاش **المرحلة الأولى من شبابه يبحث عن الحقيقة الأزلية . . عن دين جديد يؤمن به العقل والقلب . . كان يشمئز من عبادة الأوثان .. ويرى فيها امتهاناً للعقل .. بل يراها عملا باطلا لا يليق بعاقل أن يمارسه . . وظل عمرو بن عبسة . وكنيته أبو نجيح .. يبحث بهمة ونشاط عن مخرج من عبادة الأوثان.. حتى التقى ذات يوم برجل من أهل الكتاب من تيماء . . وقال له : إننى أرى الرجل الأعرابى يجمع الأحجار ليضع عليها قدره . . ثم بعد أن يفرغ من إعداد طعامه ينتقى أحسن حجر من الأحجار التى جمعها ويسجد له . . ويظل يفعل ذلك فى كل مكان يذهب إليه . . أى يتخذ حجراً يعبده فى المكان الذى ينزل به . . وهذا عمل باطل ينفر منه العقل . .**

قال له الرجل : إن الكتاب الذى بين أيدينا يقول : يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه . . ويدعو إلى غيرها . . فإذا رأيت ذلك الرجل فاتبعه . . فإنه يأتى بأفضل دين . .

بهذه الكلمات انقشعت غمامة الحيرة من عقل عمرو بن عبسة . . وشد الرحال إلى مكة يبحث عن الرجل الذى سيأتى بدين جديد . . كان يسأل كل إنسان يقابله : هل حدث فى بلدكم شىء جديد . . فلم يظفر من أى

مكى بجواب يرد على علامة الاستفهام الكبيرة التى ارتسمت فى ذهنه . وظل يتردد على مكة ينتظر خبراً عن هذا الرجل وأخيراً جاءه الخبر . قالوا له : إن محمد بن عبد الله يتحدث عن وحى ينزل عليه من السماء . . وإنه فى هذه الساعة يجلس فى عكاظ . .

حث عمرو بن عبسة الخطى إلى عكاظ . . وهناك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً . . وبجواره أبو بكر وبلال . . فقال عمرو للرسول : من أنت ؟ فقال : أنا نبي . فسأله عمرو : ومن أرسلك ؟ . . فقال : أرسلنى الله . . قال عمرو : وبم أرسلك ؟ قال الرسول : بعبادة الله وحده لا شريك له . . وبحقن الدماء . . وبكسر الأوثان . . وبصلة الرحم . . وبأمان السبيل ..

أحس عمرو بأن الدين الجديد الذى يبحث عنه هو ذلك الذى يتحدث عنه النبي صلى الله عليه وسلم : فقال للرسول : ومن تبعك فى هذا الأمر ؟ . . قال : معى رجلان : أبو بكر وبلال . .

ولذلك يقول عمرو . . إننى كنت رابع من دخل الإسلام . . وبعد أن بايع عمرو بن عبسة الرسول صلى الله عليه وسلم . قال للرسول : أأمكث معك أم ألحق بقومى ؟ . . فقال له الرسول : ارجع إلى أهلك . . فإذا سمعت أنى قد ظهرت فالحق بى . .

عاد عمرو إلى قومه بنى سليم . . ومكث هناك ردحاً من الزمن حتى مضت بدر وأحد والخندق والحديبية وخيبر . . ثم قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . وقال له : يارسول الله هل تعرفنى ؟ . . فقال الرسول نعم . . أنت السلمى الذى أتيتنى بمكة فسألتنى عن كذا وكذا . . فقلت لك كذا . . وكذا . . فقال له : يانبى الله : علمنى مما علمك الله . . فأخذ عليه الصلاة والسلام يعلمه الصلاة والوضوء .. ويبين له ثوابهما عند الله . قال له النبي :

إذا صليت الصبح فأقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس . . فإذا طلعت فلا تصل حتى ترتفع . . فإنها تطلع بين قرنى شيطان . . وحينئذ يسجد لها الكفار . . فإذا ارتفعت قيد رمح أو رمحين فصل . . فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقبل الرمح بالظل . . ثم أقصر عن الصلاة فإنها حينئذ تسجد جهنم . . فإذا فاء الفيء فصل . . فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلى العصر . . ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس . . فإنها تغرب بين قرنى شيطان .. وحينئذ يسجد لها الكفار .

قلت : يارسول الله أخبرنى عن الوضوء .. قال : ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيمضمض ويمج ويستنشق وينثر إلا جرت خطايا فيه وخياشيمه مع الماء . . ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا جرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء . . ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا جرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء . . ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا جرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء . . ثم يقوم ويحمد الله ويثنى عليه بالذى هو له أهل . . ثم يركع ركعتين إلا انصرف من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمه . .

حكى عمرو بن عبسة هذا الحديث للصحابى الجليل أبى أمامة . فقال له : ياعمرو . انظر ماذا تقول . . أأنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمرو : يا أبا أمامة : لقد كبرت سنى ، ورق عظمى ، واقترب أجلى ، وما بى من حاجة لأن أكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . . لقد سمعته من رسول الله سبعاً أو ثمانيا أو أكثر من ذلك . .

وفى المدينة أمضى العابد الأواب عمرو بن عبسة البقية الباقية من حياته . . يحضر مجالس الرسول . . ويتزود بالتعاليم الإسلامية التى تملأ وجدانه بالنور .. وتكشف أمامه الطريق إلى الله . . ولقد لقى ربه راضياً مرضياً . . وهو أشد ما يكون صفاء ونقاء وطهراً وشفافية . .

* * *

العاص بن الربيع

آخر من أسلم من أصهار الرسول

على الرغم من أنه صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . إذ كان زوج ابنته زينب . . وعلى الرغم من أن السيدة خديجة أم المؤمنين كانت خالته ، فإنه لج فى عناده .. وتشبث بشركه .. ولم يؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم طوال الثلاثة عشر عاماً التى أمضاها النبى الكريم فى مكة يدعو الناس إلى الإسلام . كان قلبه موصداً دون النور الإلهى . وعقله مغلقاً دون كلمة السماء . . ولم يكن له عذر فى ذلك.. لأنه كان يذهب إلى بيت الرسول ، وكان ولا شك يعرف أشياء عن الدين الجديد . . إلا أن الأقدار لم تكن قد هيأته بعد للانضواء فى قافلة المؤمنين ، والارتواء من السلسبيل المصفى من قيم الإسلام ومبادئــه . .

ولذلك فإن العاص بن الربيع الشاب المؤتمن على تجارة قريش .. الوفى لأترابه حيث يعتصم الوفاء من أى شبهة أو ريبة .. ظل مقيدا بأغلال الجاهلية .. سادراً فى متاهاتها .. لا يحيد عن الوثنية .. والنور من حوله مشع ساطع ..

كان يعيش موزع العاطفة بين زوجة مؤمنة يحبها كل الحب..ويجلها كل الإجلال..وبين قوم قلوبهم غلف يسجدون للات والعزى.. ويقاومون الدين الجديد بكل ما يملكون من أسلحة السفاهة .. وقد غلبت عليه شقوته فى تلك الفترة .. فظل حبيسا وراء أسوار الوثنية .. مثل أشقياء قريش .. ثم جاء يوم امتحن فى عاطفته نحو زوجته زينب، ووفائه لها، وحرصه عليها، وتمسكه بها .. فقد طلبت إليه قريش أن يطلق زوجته .. كما طلبت

إلى عقبة بن أبى لهب أن يطلق رقية بنت الرسول .. وكانت قريش تستهدف من وراء ذلك أن تشغل الرسول صلى الله عليه وسلم ببناته ومشكلات أسرته عن الدين الذى يدعو إليه ..

أما عقبة فقد طلق رقية،وزوجته قريش امرأة أخرى .. ولكن العاص رفض أن يطلق زينب .. وقال : إننى لا أرضى بها بديلا .. وخاب مسعى قريش .. وظل حبل الزوجية متصلا وثيقا ، وإن كانت الزوجة مؤمنة ، والزوج مشركا .. فقد كان العاص يرى فى زينب زوجة مثالية لا ترقى إلى أخلاقها واحدة من نساء قريش .. ولا تبلغ امرأة فى مكة ما بلغته زينب من أدب وسلوك طيب وشمائل رقيقة..ولذلك رفض أن ينفصل عنها . وإن كان فى نفس الوقت رفض أن ينفصل عن شركه ووثنيته ..

ولما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .. خلف زينب فى بيت زوجها بمكة .. ثم جاءت غزوة بدر.. ومنى المشركون بهزيمة ساحقة ماحقة .. حيث لقى بعضهم مصرعه ، ووقع البعض أسرى فى يد المسلمين .. وكان من بين الأسرى : العاص بن الربيع ..

اشترط النبى صلى الله عليه وسلم لكى يطلق سراح الأسرى .. أن يقدم كل منهم فدية .. أو يعلم عشرة من المسلمين.. وقبلت قريش هذا الشرط .. وتقدم عمرو بن الربيع أخو العاص بفدية أخيه..وكانت كمية من المال وقلادة زينب بنت الرسول التى أهدتها إليها أمها السيدة خديجة ليلة زفافها ..

وعندما رأى الرسول القلادة .. وكان يعلم أن ابنته ضحية لعناد زوجها .. قال لمن يأخذ الفدية : « إن رأيتم أن تطلقوا الأسير وتردوا ماله فافعلوا » .. فردوا إلى العاص ماله والقلادة .. وقبل أن يغادر العاص المكان آيبا إلى مكة .. طلب إليه الرسول أن ينفصل عن زينب ، لأنه لا يجوز أن تكون زوجة المشرك مسلمة .. فوعده العاص وشد رحاله إلى مكة ..

ومرة ثانية وجد العاص نفسه موزع العاطفة بين زوجته ووعده لرسول الله .. ونظرات السخرية من قريش .. فأعد راحلة .. وخرجت عليها زينب فى وضح النهار .. وبرفقتها نفر من أهل الرسول .. وعز على سفهاء قريش أن تعود زينب لأبيها سالمة . فانبرى لها هبار بن الأسود .. وكان جلفا غليظ القلب .. ونخس بعيرها على حين غرة .. فانتفض البعير فجأة وسقطت عنه زينب .. وكانت حاملا فسقط جنينها .. وبالرغم من تأثرها بهذا الإجهاض المفاجىء .. فإنها ظلت أياما فى مكة .. ثم امتطت راحلتها وخرجت سرا حتى بلغت المدينة وعاشت فى كنف والدها العظيم ..

أما العاص فإنه مارس حياته فى التجارة .. وحدث أن كان عائدا من الشام..فاعترضته سرية من المسلمين..وعرضت عليه الإسلام فرفض.. فاستولت على البضاعة التى كانت معه .. ولأنه كان مؤتمنا بين قومه .. فقد سارع بالذهاب إلى المدينة ، واتجه إلى بيت الرسول .. وهناك التقى بزينب.. وطلب إليها أن تجيره .. فأجارته .. ثم ذهب إلى الرسول وأخبره خبر السرية .. وأعلمه أن المال ليس ماله .. وإنما هو مال قريش .. وأظهر للرسول ميله إلى الإسلام .. فطلب الرسول إلى أصحابه أن يردوا عليه هذا المال .. ولما أعادوه إليه .. رجع إلى مكة .. وأعطى لكل ذى حق حقه .. ولما لم يبق فى ذمته شىء لأحد .. قال : يامعشر قريش .. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. . ثم شد الرحال إلى المدينة.. وبايع النبى عليه الصلاة والسلام . واستأنف حياته الزوجية مع زينب من جديد ..

• • •

خالد بن سعيد

عزم لا يقهر وإرادة لا تلين

لقى

من صنوف التعذيب والقهر والبطش والتنكيل فى سبيل العقيدة ما يجعل الشجاع المتجلد يخرج عن صبره وينسلخ عن شجاعته.. ولكن العقيدة التى كانت تتوهج مضيئة بين جنبيه. والإيمان الذى يمنحه القدرة على احتمال الآلام ، نأيا به عن الفتنة والتخلى عن دينه وعقيدته. فقد صبر على الجوع والعطش.. وواجه الحبس فى بيت أبيه بعزم لا يقهر .. وإرادة لا تلين .. وصرخ فى وجه أبيه وهو يعذبه : لن أسجد لصنم ، ولن ألتمس البركة من حجر ، ولن أعبد أحداً غير الله . . وتنزل هذه الكلمات كالصاعقة على أبيه فتختفى وتتلاشى عواطف الأبوة من نفسه . . ويتحول كالوحش الكاسر ينقض على ابنه ركلا وصفعاً حتى يسقط الابن مغشياً عليه . . وحين يفيق من غشيته ، تكون أول عبارة ينطق بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . .

كان خالد بن سعيد بن العاص ، وهو ابن عم عمرو بن العاص ، خامس خمسة دخلوا الإسلام..وكان شابا من خيرة الشباب فى مكة.. فأترابه يعاقرون الخمر ، ويسهرون لياليهم فى أحضان الخلاعة والمجون . . وينفقون شبابهم فى مراتع اللهو، ومرابع الهوى..ولو شاء خالد أن يعب من كأس اللذاذات والشهوات لشربها حتى الثمالة . . ولكن الله أراد أن يفتح

له خزائن هداه فى شبابه الباكر ، فأراه رؤيا صحا منها حائراً قلقاً . . وقادته قدماه إلى أبى بكر صديقه ورفيق شبابه أن يؤولها له .

قال خالد لأبى بكر : رأيت البارحة، وأنا نائم، حفرة عميقة تندلع منها ألسنة اللهب . . حاولت أن أتحاشاها وأذهب بعيداً عنها . . ولكن لشد ما كانت دهشتى أن أبى راح يدفعنى بكلتا يديه ليلقينى فيها . . وبينما هو يفعل بى ذلك ، إذا بمحمد بن عبد الله يشدنى من طرف ثوبى ويبعدنى عن النار . . فما تأويل هذه الرؤيا ؟ . .

قال له أبو بكر إن تأويل هذه الرؤيا أن أباك يريد أن تظل على عبادة اللات والعزى . . وعبادتهما تؤدى إلى النار . . ولكنك إذا اتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسوف يكون الإسلام حاجزاً لك من النار . . فاذهب إلى النبى ، واعتنق دينه ، فقد أراد الله لك خيراً . .

لم يتردد خالد هنيهة واحدة . . بل سارع بالذهاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وجلس إليه . . وقلبه يتطلع إلى النور الذى جاء به . . وما إن سأله خالد عن الدين الذى يبشر به حتى قال له الرسول : «تؤمن بالله وحده لا تشرك به شيئاً، وتؤمن بمحمد عبده ورسوله، وتخلع عبادة الأوثان التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تضر ولا تنفع » . وعلى الفور أعلن خالد إسلامه . . وعاد إلى بيته تتلألأ نفسه نوراً ، ويضىء قلبه من فرط الشفافية . .

ولم يكن خالد ، وهو شاب من أشرف بيوت مكة ، يتوجس خيفة من أحد إذا عرف أنه ترك عبادة الأصنام واتبع محمداً الذى يسفه آلهة قريش . . فقد أفضى لبعض الشباب بأنه اعتنق الدين الجديد ، وشاع هذا النبأ حتى وصل إلى مسمعى أبيه . . وهنا ثارت ثائرة آل العاص جميعاً . . وأحس سعيد بالذل والهوان والعار .. وقرر أن يعذب ابنه عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين، إذا لم يرجع لعبادة اللات والعزى . .

بدأت مرحلة صراع عنيف بين الوالد وابنه . . الوالد يصر على العودة بابنه إلى عبادة الأصنام ، والابن يصيح فى وجه أبيه : لن أعود إلى عبادتها

مرة ثانية . . ويمارس الوالد كل ألوان الضغوط على ابنه لكى يفتنه عن دينه : يحرمه الطعام الشهى . . يحبسه فى حظيرة الإبل . . يمنع أهل البيت من أن يكلموه . . ولما لم يجد فائدة من كل هذا خرج به إلى الصحراء وطرحه على الرمال الساخنة التى تفح حرارة ووميضاً وتشوى الجلود والأبـــدان . .

ولكن الشاب الصابر الصامد كان فى وسط هذا العذاب المرهق المحرق يحس بنسمات العقيدة تهب عليه عاطرة رطيبة . . كان يشعر أن يد السماء تضمد جراحه وتكفكف ألمه وتخفف عذابه . . ولذلك فإنه لم يجزع ، ولم يخضع ، ولم يستجب لجبروت أبيه . . بل ظل فى صبره وتجلده ، حتى مل والده ، وكف عن تعذيبه وتركه وشأنه .. وهنا هاجر خالد إلى الحبشة بإذن من الرسول ، مؤثراً حياة الشظف والتقشف والحرمان فى ظل الإسلام ، على حياة الرغد والرفاهية فى ظل الأوثـــان . .

وهناك فى مطارح الغربة عاش خالد سنوات عجافاً ، ولكنه كان يتمتع بسكينة النفس وطمأنينة الفؤاد . . ثم عاد مع المهاجرين الذى تصادفت عودتهم يوم فتح خيبر ، وانضم إلى فاقلة المجاهدين . . وحارب مع الرسول كل غزواته . . وكان جندياً من جنود الله المخلصين . . وقد كافأه الرسول على ولائه للدين بأن عينه عاملا على اليمن . . وكان من خيرة الولاة فى عهد الرسول . .

أما استشهاده فقد كان فى معركة مرج الصفر بالشام . . المعركة التى خاضها المسلمون ضد الروم ، وزلزلوا فيها أركان أكبر دولة فى العالم . . وخرجوا منها منتصرين . . ولكن بعد أن قدموا العديد من الشهداء .. وفى طليعتهم شهيدنا البطل خالد بن سعيد . .

* * *

حسان بن ثابت
شـــاعـــر الرســـول

شـــاء الله أن يجعل نصف حياته فى الجاهلية ونصفها فى الإسلام . . خمسين سنة فى الظلام ، وخمسين سنة فى النور . . فقد عاش حسان بن ثابت الخزرجى قرناً من الزمان ، لقب فى نصفه الثانى بشاعر الرسول ، وما أعظمه من لقب فى فم التاريخ . .

ولم يكن وحده الشاعر المدافع عن الإسلام . . وإنما كان هناك شعراء آخرون وقفوا أقلامهم على الدفاع عن دين الله . . بيد أن حسان بن ثابت كان أفصحهم بياناً ، وأبلغهم لساناً ، وأنصعهم حجة ، وأجودهم شعراً . . وكان لنشأته فى يثرب ذات النخل الباسقات ، والحدائق المثمرات ، ووسط عشيرة ذات حسب ونسب ومجادة ، أثر فى صقل موهبته وتكوين وجدانه ، وتنمية عبقريته ، وتفتح شاعريته إلى أرحب مدى ، وأوسع أفق . . فيثرب وما حولها واد خصيب ذو جو نقى ، لا مطر فيه يغرق ؛ ولا إعصار يحرق . . وإنما بقاع تفوح بالعبق وتخضل بالأنداء . .

وكما تفتحت موهبة حسان فى سن مبكرة..كذلك تفتحت نفسه وقلبه وعقله لنور الإسلام فى السنوات الأولى من ظهور الدين الجديد . . فقد اعتنق الإسلام بعد بيعة العقبة الثانية ، إذ سمع من أحد إخوته وكان ممن شهدوا بيعة العقبة عن مبادىء الدين الحنيف .. فلم يتردد فى دخول دين الله .. إلا أنه

كان فى سن متقدمة ، وكان مقطوع الأكحل (الأكحل عرق فى اليد) .. لذلك لم تكن حالته الصحية تسمح له بالجهاد بالسيف إذا ما دعى يوماً إلى الجهاد . . ولكن الله عوضه عن ذلك ببيان يفلق الصخر ، كما كانوا يصفونه فى الجاهلية . . أى إن شعره كان أشد وقعاً من ضرب المعاول . .

كان فى بداية إسلامه يريد أن يشرع قلمه ويرد على أعداء الرسول الذين يهجونه . . ولكنه كان يخشى أن يقال عنه إنه هجا أهل الرسول وأقرباءه . . ثم جاء يوم سمع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم يقول للأنصار : « ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » .. وهنا وقف حسان وقال : أنا لها يارسول الله . . فسأله النبى صلى الله عليه وسلم : « وكيف تهجوهم وأنا منهم ؟ » . فرد حسان : « أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين . . » .

كان هذا إذناً صريحاً من النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بأن يرد على الشعراء المشركين . . فأخذ حسان ينظم العصماء وراء العصماء فى هجاء الذين يهجون الرسول حتى أخرسهم جميعاً . . وشاء الرسول أن يجعل لحسان لونا خاصاً من التكريم ،فأمر بإقامة منبر له فى مؤخرة المسجد يلقى من فوقه الشعر الذى يدافع به عن الرسول والمسلمين . .

وقد احتل حسان مكانة مميزة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . . إذ كان النبى يعتبره لسان حق ،وقلم صدق ،وعبقرى إعلام . . يذود عن الإسلام ،ويدرأ عنه أقلام الشعراء المشركين الذين يسجدون للات والعزى أمثال : عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان بن الحارث وضرار بن الخطاب . . ومن على شاكلتهم من الشعراء الذين كانوا يقومون بحملة إعلامية بغيضة ضد النبى والمسلمين . . وقد وفق الله حسان بن ثابت إلى أن يقحم هؤلاء الشعراء ، ويتفوق عليهم ، ويخمل ذكرهم . .

وبلغ من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان أن كان فى أحد أسفاره . فسأل : أين حسان بن ثابت ؟ فرد حسان : لبيك يارسول الله

وسعديك . فقال له عليه الصلاة والسلام : « احد » أى أنشد . . فأخذ حسان ينشد الشعر ، والرسول يستمع إليه وهو على راحلته . . فلما انتهى من إنشاده قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «لهذا أشد عليهم من وقع النبل » . .

ولا أدل على تقدير النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت من قول عائشة رضى الله عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان « لا يحبه إلا كل مؤمن . . ولا يبغضه إلا كل منافق » . .

وعندما زحفت الأحزاب على المدينة ، ووقفوا دون الخندق مغيظين محنقين ، وراح شعراؤهم يهجون المسلمين بأشعار مسفة مقذعة ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من يحمى أعراض المسلمين ؟ » . فانبرى كعب بن مالك . . وكان من الشعراء المجيدين . . وقال : أنا يارسول الله . وقام بعده كعب بن رواحة وقال : أنا يارسول الله . وقام حسان بن ثابت بعدهما وقال : أنا يارسول الله . . عندئذ قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعم . اهجهم أنت ياحسان . . فإنه سيعينك روح القدس » . .

بهذه الشهادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان نعرف مدى مكانته عنـــد الرسول ، ومصـــدر إلهام شعره . . فإن روح القدس يعينه ويلهمه . .

وهذا الشاعر المجاهد بقلمه الذى يتضوع ثناء على الرسول ، ويفح ناراً على المشركين . . لم يكن شعره مقصوراً على وصف المعارك والبطولات والتضحيات . . وإنما كان سجلا أميناً ودقيقاً لأحداث عصره ووقائع بلاده . . فكما سجل الغزوات والمشاهد ، سجل أيضاً أحداثاً كبرى كان لها دوى شديد فى الجزيرة العربية كلها مثل مقتل كعب بن الأشرف وسلام ابن أبى الحقيق . . ولذلك فإن شعره يعتبر تغطية إعلامية كاملة لعصر الرسول . .

ولما انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى راح حسان يرثيه بشعر يتفجر بالدمع والألم والحسرة ، وظل يبكيه فترة من الزمن حتى كف بصره ، وكان لا يذهب إلى المسجد إلا برفقة ابنه عبد الرحمن ، وكذلك إذا دعي إلى مأدبة أو وليمة . . وعاش مكفوف البصر حتى آخر خلافة علي بن أبي طالب . . ثم لحق بالصديقين والأبرار ، وحسن أولئك رفيقــــاً . .

• • •

كعب بن مالك

اعترف لرسول الله بخطئه فقبل الله توبته

كانت **أول مرة يتخلف فيها عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعى المسلمون إلى الخروج لقتال الروم فى غزوة تبوك . . وكان تخلفه امتحاناً عسيراً دفع فيه سكينة نفسه ، وهدوء أعصابه ، واطمئنان قلبه خمسين يوماً . . إذ عاش هذه الفترة ضيق الصدر ، كاسف البال ، كئيب النفس.. لا يعلم هل يقبل الله توبته ويرضى عنه ، أم يحشر فى زمرة العاصين المذنبين ؟**

وكان أكثر ما يؤلمه ويرمض جوانحه أنه شهد جميع المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا غزوة بدر ، وكان يعتقد أن بيعة العقبة تعوضه عنها . . فقد كان من السابقين الأولين فى الإسلام . . أفبعد هذا العمر المديد الطويل فى الجهاد يبتلى بهذه المحنة ، ويتخلف دون عذر عن مصاحبة الرسول ، كما تخلف المنافقون والضعفاء والعاجزون ؟ !

لقد حاول لمدة يومين أن يجهز متاعه ويخرج مع الجيش ، ولكنه لأمر لا يدريه عجز عن تجهيز أى شىء . . ثم عاود المحاولة مرة أخرى بعد خروج الجيش عساه أن يلحق بالنبي والمسلمين فى الطريق ، ولكنه لم يستطع لتثاقل فى نفسه . . وبقى فى المدينة لا يرى إلا العجزة والمنافقين . .

أما المنافقون فإنهم تخلفوا عن الجهاد . . لأنهم سمعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج إلى تبوك لمواجهة الروم مواجهة عسكرية ، إذ علم أنهم أعدوا جيشاً كثيفاً لغزو المدينة ، فلم ينتظر أن يهاجمه العدو فى يثرب ، وإنما رأى أن يلقن الروم درساً فى عقر دارهم . . ومن هنا كبر على المنافقين أن يشتركوا فى قتال أكبر دولة فى العالم ، وراحوا ينتحلون الأعـــذار . .

وبعد أن نزل النبي والمسلمون فى تبوك وضربوا خيامهم ، افتقد الرسول صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك فسأل عنه ، فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله . حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يارسول الله ما علمنا منه إلا خيراً . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذ علم الروم بأمر المسلمين واستعدادهم للقتال ، وكانوا قد سمعوا عن بسالتهم فى الحرب ، فإنهم لم يلبثوا أن انسحبوا إلى ما وراء حدودهم . . مؤثرين السلامة على منازلة المسلمين . . بل إن أحد أمرائهم المقيمين على الحدود صالح النبي وأعطاه الجزية ، وبذلك لم تعد هناك حاجة إلى مواجهة عسكرية مع الروم ، لأنهم انسحبوا داخل الشام من جهة ، ووقعت البلاد الواقعة على الحدود معاهدة مع النبي من جهه أخـــرى . .

عاد النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من تبوك . وكان من عادته صلى اللهعليهوسلم إذا قدم من سفر أن يقصد إلى المسجد ويصلى فيه ركعتين.. ثم يجلس إلى الناس . . ولما فعل ذلك جاءه المخلفون وأخذوا يحلفون له ويعتذرون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فيقبل منهم صلى الله عليه وسلم أيمانهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى . .

ثم جاءه كعب بن مالك وسلم عليه ، فتبسم النبي تبسم المغضب ، وطلب إلى كعب أن يجلس ، فجلس بين يدى الرسول ، فسأله عليه الصلاة والسلام:

ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟ فرد كعب بكل أمانة وصدق : والله لو كنت أمام غيرك من أهل الدنيا يارسول الله ، لخرجت من سخطه بعذر ، ولكنى لن أكذبك أبداً ، لقد تخلفت بدون عذر . فقال الرسول : أما هذا فقد صدقت فيه .. فقم حتى يقضى الله فيك . .

وبعد أن انصرف كعب قابل رجالا من بنى سلمة وسألهم : هل قال أحد مثل مقالته ؟ أى اعترف بذنبه ؟ فقالوا له : نعم : مرارة بن الربيع وهلال ابن أمية . . فقال كعب إنهما رجلان صالحان . .

كان عقاب هؤلاء الثلاثة أن نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن التحدث معهم ، فقاطعهم كل من فى المدينة . أما مرارة وهلال فقد لزما بيتيهما ولم يخرجا للناس قط . . ولكن كعب بن مالك كان يصلى فى المسجد ويمشى فى السوق ، فلا يجد أحداً يكلمه . .

وحدث يوماً أن وجد نبطياً من الشام جاء المدينة لبيع الطعام ويسأل عنه . . ولما التقى به أعطاه النبطى خطاباً من ملك غسان يعرض عليه فيه أن يترك المدينة التى أصبحت دار هوان له ويلحق به . . فأخذ كعب الخطاب وأحرقه وقال : هذا من البلاء أيضاً ! أيطمع فى رجل من أهل الشرك ؟

مكث كعب على هذه الحال خمسين ليلة . . ثم جاءه الفرج . . فقد تاب الله عليه وعلى مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، إذ نزل فيهم قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم . إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم » .

حين نزل الوحى على الرسول بأن الله تاب على الثلاثة الذين خلفوا أمر الرسول بإبلاغهم بنعمة الله عليهم..وكان كعب بجلس فى خيمة على جبل سلع ، فما إن بلغه الخبر حتى خر ساجداً لله ، وأسرع إلى النبى يعرض عليه أن يقدم كل ماله صدقة لله ورسوله.. فرفض النبى .. وهنا قال كعب : والله ما أنعم الله على نعمة قط بعد أن هدانى إلى الإسلام أعظم فى نفسى من أننى كنت صادقاً مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

• • •

أبو أيوب الأنصارى

صاحب البيت الذى أقام به الرسول فى المدينة المنورة

أى

شرف هذا الذى علقه التاريخ وساماً مضيئاً على بيت خالد ابن سعيد الذى يكنى بأبى أيوب ؟ . . لقد بركت ناقة النبى صلى الله عليه وسلم أمام هذا البيت . . وأصبح متجه الأنظار ، لا من الأنصار وحدهم ، ولكن من أهل المدينة جميعاً . . إن هذا الشرف كان يتمنى كل واحد من الأنصار أن يحظى به . . لقد وقفوا أمام بيوتهم ساعات ينتظرون مرور النبى صلى الله عليه وسلم . . وكلهم شوق وحنين إلى دعوته للنزول عندهم . . وكان النبى صلى الله عليه وسلم كلما مر ببيت من بيوت الأنصار ، يقف أهل البيت أمام الناقة ممسكين بزمامها قائلين للمصطفى عليه الصلاة والسلام : يارسول الله . . هلم إلينا . . إلى العدد ، والعدة ، والمنعة . . فيقول لهم النبى صلى الله عليه وسلم مشيراً إلى الناقة : « خلوا سبيلها . . فإنها مأمورة » . . حتى بيوت أخواله صلى الله عليه وسلم قال لهم هذه العبارة عندما أمسكوا بزمامها . .

عندئذ تركوا زمام الناقة لتمضى فى سبيلها . . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أرخى لها الزمام . . فسارت وهى تنظر يمينا وشمالا . . حتى وصلت إلى دار مالك بن النجار فبركت ثم قامت ، وسارت بضع خطوات . . ثم بركت مرة ثانية أمام بيت أبى أيوب الأنصارى . . وألقت بباطن عنقها فى الأرض ، وأخرجت صوتاً من غير أن تفتح فاها . .

لحظتها وقف الأنصار يغبطون أبا أيوب وهو يحمل رحل الرسول صلى الله عليه وسلم ويدخله بيته . . وكان البيت مكوناً من طابقين .. انتقل أبو أيوب وأسرته إلى الطابق الثانى ، وترك الطابق الأول للرسول صلى الله عليه وسلم استجابة لرغبته صلى الله عليه وسلم .. لأنه كان يريد أن يجنب زواره مشقة الصعود . .

استمرت إقامة الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيت أبى أيوب الأنصارى سبعة أشهر ، كان أبو أيوب خلالها يصنع الطعام للنبى ويبعث به إليه ، ثم ينتظر انتهاء النبى من تناول الطعام، ليأكل ما تبقى منه هو وزوجته التماساً للبركة.

وحدث ذات مساء أن بعث أبو أيوب العشاء للنبى ، وكان الطعام مطهياً بالبصل أو الثوم . . فرده الرسول صلى الله عليه وسلم دون أن يتناول منه شيئاً . . ولما رأى أبو أيوب الطعام لم ينقص منه شيء سارع بالنزول إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له : يارسول الله . . بأبى أنت وأمى . . رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك . . وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغى بذلك البركة . . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : إنى وجدت فيه ريح هذه الشجرة . . وأنا رجل أناجى (أى يأتينى جبريل بالوحى) . . فأما أنتم فكلوه . . فقال أبو أيوب . . فأكلنا هذا الطعام ، ولم نصنع للرسول طعاماً بعد ذلك فيه بصل أو ثوم . . وبعد أن أمضى الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الفترة فى بيت أبى أيوب الأنصارى قرر بناء مسجده ، وإنشاء بيوت أمهات المؤمنين حوله . . وتعاون المسلمون جميعاً فى عملية البناء . . وانتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى داره . . وكانت الأحداث تمر سراعاً ، وقريش تحاول أن تدخل فى قتال مع المسلمين. والمسلمون بدورهم يترقبون اليوم الذى يجاهدون فيه أهل الشرك والكفار . . حتى تكون كلمة الله هى العليا . . وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ثم جاءت الغزوات تباعاً . . واشترك فيها أبو أيوب الأنصارى . . لم تفته غزوة واحدة . ولم يتخلف عن القتال فى سبيل الله . . بل جاهد مع

الرسول صلى الله عليه وسلم . . جهاد من يطلب الشهادة ، ولا يرهب الموت . . بل جهاد من يتطلع شوقاً إلى لقاء الله . .

وكما كان أبو أيوب من المجاهدين الأبطال فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . . فإنه كان كذلك فى عهد الخلفاء الراشدين . . اشترك فى حروب الردة . . وقاتل أعداء الله وأعداء دينه . . وعاش يذود عن قدسية الإسلام . . ويتقدم الصفوف فى كل موقعة . .

ولما نشبت الفتنة بين الإمام على رضى الله عنه وبين معاوية بن أبى سفيان لم يتردد أبو أيوب فى الانضمام إلى صفوف على . . لأنه كان يعلم أن الحق فى جانبه . . وبالفعل قاتل أبو أيوب إلى جوار على كرم الله وجهه . . حتى استشهد الإمـــام . .

وظل أبو أيوب شاهراً سلاحه لم يغمده ، ولم يتوان عن الدخول فى أى معركة من معارك المسلمين . . حتى جاءت معركة القسطنطينية ، فاندفع داخل صفوف الأعداء ، وتناوشته سيوفهم ، وامتلأ جسده بالجراح . . وأحس بدنو أجله . فقال لمن حوله : إن أمنيتى أن أدفن وسط ميدان القتال أو بالقرب منه . . حتى تظل روحى مرفرفة فى سماء المعركة ، وحتى أظل وأنا فى الدار الآخرة أسمع وقع سنابك الخيل وصليل السيوف . .

كان يريد أن تكون آخرته جهاداً . . كما كانت دنياه جهاداً . . ولم يكن وهو يجود بأنفاسه الطاهرة . . يحس ألم الجراح ، وإنما كان يتطلع إلى راية الله .. وإلى كتائب الإسلام . . ويتضرع إلى ربه أن يكتب لها النصر ..

وبعد أن جاد هذا البطل بالنفس الأخير . . حقق المسلمون أمنيته . . فدفنوه بالقرب من ميدان القتال لتظل روحه تتنسم رائحة الجهاد .. وتتهلل وهى فى العالم الآخر بنصر الله . .

* * *

أسامة بن زيد

الشاب الذى عينه النبى قائدًا للجيش

كان دون العشرين من عمره حين اختاره المصطفى صلى الله عليه وسلم قائداً لجيش يضم كبار المهاجرين والأنصار . . فمن هو هذا الشاب الذى بلغ من ثقة النبي صلى الله عليه وسلم به أن بوأه هذا المنصب العظيم ، وأسند إليه هذه المهمة الكبرى ، وقلده هذا الشرف الرفيع . . إن والد هذا الشاب هو زيد ابن حارثة أحد موالى الرسول ، وأحد أحبائه أيضاً . . فقد أشرف النبي على تربية أسامة ، وكان يضفى عليه من الحب والحنان مثلما يضفى على الحسن والحسين ابنى فاطمة الزهراء ، وكان يلقب أسامة بـ : الحب بن الحب . . « بكسر الحاء » . . أى الحبيب ابن الحبيب . .

أى لقب يعادل هذا اللقب فى موازين الإجلال والتكريم . . بل أى عاطفة بشرية يتجرأ التاريخ أن يضعها فى مواجهة هذه العاطفة النبوية الكريمة التى رفعت أسامة وأباه إلى مصاف أحباء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصفيائه ؟ .

كان أسامة جديراً بهذا اللقب . . فقد أشرب منذ طفولته الباكرة حب الله ورسوله وحب الإسلام . . كان لصيقاً بالنبي كالحسن والحسين . . وكان يأكل على مائدة النبي ، ويرى معاملته الكريمة مع أهل بيته وخدمه . :

وشهد من أخلاق النبي وطيب سجاياه وسموه ونبله ما يجعل الجبال تهتز انبهاراً . فنشأ ووجدانه ممتلىء بقيم رفيعة ومثل عليا ، حتى كان وهو فى نضارة الصبا يتمنى أن يحمل السلاح ليجاهد مع المجاهدين ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يرده عن مواقع الجهاد ، كما يرد أترابه الذين تدفعهم أشواقهم إلى منازلة المشركين . .

وحين دخل أسامة مرحلة الشباب ، وأصبح قادراً على حمل السلاح ، سمح له النبي صلى الله عليه وسلم بأن ينضم إلى صفوف المجاهدين ، وأن يحقق هذه الأمنية الغالية التى راودته منذ صباه .. وشاء أن يكون امتحان هذا الشاب قاسياً وعنيفاً ، وشاء الله أيضاً أن يجعله يحرز فى هذا الامتحان النهاية الكبرى للدرجات . .

كان هذا بعد فتح مكة بقليل . . وكانت فلول المشركين ما زال يراودها أمل باهت فى تحقيق نصر على النبي والمسلمين . . وعلم النبي بما دبرته هوازن وثقيف . . وحشدهم آلاف المقاتلين والرماة عند حنين . . فخرج إليهم فى حشد هائل يملأ الأودية والبقاع والسهول . .

وظن بعض المسلمين أنهم لن يهزموا لكثرة عددهم وعتادهم . . وتهامسوا بهذا الظن . . ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يردهم إلى حقيقة دينهم وجوهر عقيدتهم . . ويعلمهم أنه وحده صاحب النصر . . فما كادوا يدخلون فى غبشة الفجر مضيق حنين حتى فاجأهم المشركون بالنبل والسهام ، مما جعل المسلمين يولون الأدبار من هول المفاجأة . .

ولكن النبي صلى الله عليه وسلم ثبت فى مكانه ونادى : أيها الناس . . إلى أين ؟ أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب . . وثبت حوله نفر من خيرة الرجال كان من بينهم الشاب أسامة بن زيد . . ظل هؤلاء النفر حول النبي حتى زال أثر المفاجأة من نفوس المسلمين وعادوا إلى ساحة القتال مرة ثانية ، وأخذوا يقاتلون المشركين حتى قتلوا بعضهم وأسروا البعض الآخر . .

هذا المشهد الذى ينحنى أمامه التاريخ إجلالا ترك أطيب الأثر فى نفس الرسول . . إن الذين وقفوا حوله فى ساعة العسرة كانوا من أصدق الرجال إيماناً وشجاعة . . فلا عجب أن يختار النبى صلى الله عليه وسلم أسامة قائداً لجيش أعده لتأديب الروم بعد أن شهد حسن بلائه ، وصدق جهاده ، وثبات عزيمته . .

ولكن اختيار أسامة قائداً للجيش لم يلق رضا من بعض المهاجرين والأنصار ، وقالوا فيما بينهم : لماذا يختار النبى شاباً . . بينما فينا الشيوخ ذوو الخبرة والتجربة فى إدارة القتال ؟ وبلغ النبى ما قالوا ، وكان قد مرض مرض الموت ، فابترد بالماء ، وخرج إليهم ، وخطبهم قائلا :

« إن بعض الناس يطعنون فى إمارة أسامة بن زيد . ولقد طعنوا فى إمارة أبيه من قبل . وإن كان أبوه لخليقاً للإمارة . وإن أسامة لخليق لها . وإنه لمن أحب الناس إلى بعد أبيه . وإنى لأرجو أن يكون من صالحيكم . فاستوصوا به خيراً » .

ثم أوصى النبى بإنفاذ بعث أسامة . . ولكن الجيش ظل معسكراً بضعة أيام فى الجرف « مكان بالقرب من المدينة »..وكان المرض قد اشتد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما لبث أن انتقل إلى الرفيق الأعلى . .

كان أول قرار أصدره أبو بكر الصديق بعد خلافته مباشرة : « لينفذ بعث أسامة » . . وسرعان ما أخذ الجيش طريقه إلى حدود الشام ، وأغار على قرى الروم الواقعة على الحدود . . وأوقع الرعب فى قلوب أهلها ، مما أرهب بلاط القياصرة ، وجعل الروم فى وجل من المسلمين . .

ثم عاد جيش أسامة دون أن يفقد رجلا واحداً . . وكان موضع حفاوة أهل المدينة جميعاً : .

عاش أسامة بعد ذلك عابداً ناسكا يصوم النهار ويقوم الليل حتى استوفى أجله فى العام الرابع والخمسين من الهجرة ، ولقى الله كأزكى وأطهر ما يلقاه البررة الصادقـــون . .

أبـو الـــدرداء

التاجر الذى زهد فى الدنيا وأقبل على تجارة الآخرة

كـــان **ذا مال وفير يستثمره وينميه عن طريق التجارة . وكان لصدقه وأمانته موضع ثقة أهل مكة..يشترون منه حاجاتهم.. مطمئنين إلى أنه لا يغش ولا يخادع..وإنما يبيعهم الجيد من السلع ، والممتاز من البضائع . . بسعر لا مغالاة فيه ، ولا استغلال . .**

وجاء يوم تفتح فيه عقله وقلبه..للإسلام فذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم واعتنق الدين الحنيف على يديه . . وبعدها عرف أن هناك تجارة أخرى لن تبور . . تجارة رأس مالها الإيمان والعقيدة والجهاد . . فقرر أبو الدرداء أن يستثمر عقله ونفسه وعمره فى تجارة مع الله : •

ولم يترك الدنيا ويتفرغ للعبادة..وإنما استطاع أن يجمع بين التجارة والعبادة . . بين الدنيا والدين . . بين المعاملة الصادقة مع الناس والمعاملة الصادقة مع الله . . بين الأخذ بحظه من نصيب الدنيا . . والأخذ بحظه من نصيب الآخرة . .

وكان يرى أن ذكر الله وتقواه وعبادته أثمن من كل ما فى الأرض من مال ومتاع .وقد ارتفع به ورعه وتقواه إلى درجات القديسين والصديقين .. كان يجلس صامتاً فى بعض الأحيان .. وحين يسأله أحد الناس : فيم استغراقك فى الصمت يا أبا الدرداء ؟ يقول له : تفكر ساعة خير من عبادة ليلة . .

أى أن هذا العابد الزاهد كان يتأمل ملكوت السماوات والأرض ، كان يحدق بعقله فى بديع صنع الله . لم يعد يأخذ من الدنيا إلا النزر اليسير الذى يحصل عليه من متاعها ليمير به أهله ويطعم ويكسو أسرته . . وكان دائماً يحاول أن ينقل روحانيته الشفافة إلى أصحابه فيقول لهم :

« ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند بارئكم ، وأنماها فى درجاتكم وخير لكم من أن تغزوا عدوكم فتضربوا رقابهم ، ويضربوا رقابكم ، وخير من الدراهم والدنانير . . إنه ذكر الله ولذكر الله أكبر » .

كان ذكر الله عند أبى الدرداء أفضل من كل شىء . . كانت حلاوة الإيمان قد ملكت عليه مشاعره وامتلأ بها وجدانه . . كان يحس أن الدنيا قد دانت له ،وأن كل ما فيها من متاع لا يساوى لذة قربه من الله لحظة واحدة . .

ويصف أبو الدرداء متاع الدنيا الزائل فى رسالة بعث بها إلى أحد أصدقائه فيقول له : أما بعد . . فلست فى شىء من عرض الدنيا إلا وقد كان لغيرك قبلك . . وهو صائر لغيرك من بعدك . . وليس لك منه إلا ما قدمت لنفسك . . فآثرها على من تجمع له المال من ولدك ليكون له إرثاً . . فأنت إنما تجمع لواحد من اثنين : إما ولد صالح يعمل فيه بطاعة الله فيسعد بما شقيت به . . وإما ولد عاص يعمل فيه بمعصية الله . . فتشقى بما جمعت له . فثق بما لهم عند الله من رزق ، وانج بنفسك » . .

هكذا كانت نظرة أبى الدرداء إلى المال . . إنه ينصح صاحبه بألا يعكف على جمع المال . . ويجعل هذا الأمر كل همه . . لأن ما جمعه وعدده سوف يؤول إما إلى ولد صالح ينعم به ، وإما إلى ولد عاص ينفقه فى غضب الله . . وإنما على الإنسان أن يسعى ويضرب فى مناكب الأرض دون أن يلهيه ذلك عن العبادة والتأمل فى بديع صنع الله . .

وكما أعرض أبو الدرداء عن عرض الدنيا ،ولم يأخذ منه إلا ما يقيم أوده ، فإنه كذلك أعرض عن أن تكون ابنته الدرداء عرضة لفتنة الثروة والجاه والمال فى هذه الدنيا : إن منهج الزهد الذى أخذ به منذ أسلم كان يطبقه

على أسرته » فقد رفض أن تدخل الدنيا إلى قلبه . . كما رفض أن تدخل إلى قلب ابنته..فحين خطبها يزيد بن معاوية والمال والسلطان بين يديه.. رفض أبو الدرداء الزاهد الفقير أن يزوج ابنته من يزيد صاحب المال والسلطان..لماذا؟ لأنه كان لا يريد أن تشغل ابنته بالدنيا إذا أصبحت أميرة قصر من أعلى قصور بنى أمية . . كان يريد أن تكون مثله ورعاً وتقوى وإيماناً وعقيدة . .

ويسأله بعض أصحابه: لماذا لم تزوج ابنتك من يزيد ؟ فيقول لهم : « ما ظنكم بالدرداء إذا قام على رأسها الخدم، وبهرها زخرف القصور .. أين دينها منها يومئذ » . وعندما تقدم إليه شاب من فقراء المسلمين يطلب يد ابنته لم يتردد أبو الدرداء فى قبوله زوجا لها . . لأن الصراط المستقيم الذى كان يمشى عليه لايريد لابنته أن تمشى على صراط غيره . .

على هذا المنهج الرشيد من الزهد والتقشف والإعراض عن الدنيا عاش أبو الدرداء . الرجل الذى رفض من أول لحظة أسلم فيها أن تلهيه تجارة أوبيع عن ذكر الله . وقد سمعه بعض أصحابه ذات يوم يدعو فى تضرع : « اللهم إنى أعوذ بك من شتات القلب » ولما سألوه عن معنى شتات القلب . قال لهم : « أن يكون لى فى كل واد مال » .

لم يكن أبو الدرداء يريد شيئاً من زينة الدنيا ومتاع الحياة..حتى إنه عندما عينه عثمان بن عفان قاضياً بالشام أراد أن يرتفع بالمجتمع الإسلامى فيها من حب الدنيا إلى حب الآخرة..لأنه رأى المجتمع بدأ يغرق فى الترف ويسقط فى الرفاهية، فدعا أبو الدرداء أهل الشام إلى اجتماع فى المسجد وخطبهم قائلا:

« يا أهل الشام .. أنتم الإخوان فى الدين، والجيران فى الدار، والأنصار على الأعداء، ولكن أراكم لا تستحون .. تجمعون ما لا تأكلون ! وتبنون ما لا تسكنون وترجون ما لا تبلغون ! قد كانت القرون من قبلكم يجمعون فيدعون، ويؤملون فيطيلون ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بوراً .. وأملهم غروراً ، وبيوتهم قبوراً . . أولئك قوم عاد . . ملأوا ما بين عدن إلى عمان أموالا وأولاداً » : هل منكم من يشترى منى تركة آل عاد بدر همين ؟ :

وهكذا أراد أبو الدرداء أن يشيع فى المجتمع روح التقشف والزهد حتى لا تغرهم الدنيا بباطلها وزخرفها . . وينصرفوا عن عبادة الله . .

وكما كانت العبادة معنى ساطعاً فى قلب أبى الدرداء كان العلم معنى مضيئاً فى عقله . . كان متفقهاً فى الدين .. يبحث دائماً عن المعرفة، ويسعى إلى بلوغ الحقيقة، ويستزيد كل يوم فهماً لكتاب الله وسنة رسوله .. وفى هذا يقول : « لا يكون أحدكم تقياً حتى يكون عالماً . . ولن يكون بالعلم جميلا حتى يكون به عاملا » .

وظل أبو الدرداء العالم العامل الزاهد الناسك مهاجراً إلى الله طيلة حياته حتى انتهى به المطاف هنا فى أرض مصر . . ورقد جثمانه فى بقعة مباركة من أرض مدينة الإسكندرية . . بعد أن أنزله الله منازل الصديقين والأبـرار . .

* * *

طلحة بن البراء

مثل أعلى لحب الرسول وبر الوالدين

بالرغم **من صغر سنه وحداثة عمره . . فإنه ضرب أعلى مثل فى حب الرسول والبر بالوالدين . . كان يتوق إلى لقاء الرسول صلى الله عليه وسلم . . ليبايعه على الإسلام . . ويصبح من الشباب المسلم الذى يجاهد بنفسه فى سبيل الله . . وذات يوم أراد أن يحقق هذه الأمنية . . فانطلق إلى المسجد فوجده حافلا بالمهاجرين والأنصار . . يستمعون إلى حبيبهم المصطفى صلى الله عليه وسلم . . فأخذ مكانه فى مؤخرة الصفوف ، حيث يجلس الصبية والغلمـــان . .**

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من حديثه ، وبدأ الصحابة يأخذون طريقهم إلى خارج المسجد .. اقترب طلحة بن البراء من رسول الله، وأخذ يقبل يديه فى شغف ومحبة .. ويقول له : أنا طلحة بن البراء ابن عمير .. جئت لأبايعك على الإسلام .. فمرنى بما أحببت .. لا أعصى لك أمرا .. وينظر الرسول إلى هذا الغلام الذى أقبل عليه يطلب مبايعته ، ويربت كتفه قائلا : « وإن أمرتك بقطيعة والديك ؟ » . فيرد طلحة « لا » .. لأن له أما يبرها أشد البر .. ويحبها أعمق الحب .. ولا يتصور أن يصبح عاقا لوالديه .. فيكرر عليه الرسول العبارة السابقة .. ويكرر طلحة الرد نفسه . . ولكنه فى المرة الثالثة قال « نعم » .. لأن حبه للرسول كان أقوى من حبه لوالديه . . ولعلـه من الذين ينطبق عليهم الحـديث

الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » ..

وحين نطق طلحة بكلمة « نعم » ابتسم فى وجهه الرسول وقال له: « ياطلحة .. إنه ليس فى ديننا قطيعة رحم .. ولكن أحببت ألا يكون فى دينك ريبة » ..

خرج طلحة من مجلس الرسول بعد أن أسلم وحسن إسلامه .. وقرر أن يعد نفسه للمهمة الكبرى .. وهى الجهاد فى سبيل الله .. كان يخرج كل يوم إلى بقعة خارج المدينة، ممهدة كساحات الشباب .. ويتدرب مع الصبية والغلمان على فنون الحرب .. ووسائل القتال .. وكان كل صبى يتمنى أن يكون مثل ابنى عفراء اللذين قتلا أبا جهل فى يوم بدر .. رغم أنهما صبيان حدثان لم يبلغا مبلغ الشباب .. كان مصرع أبى جهل على يدى صبيين عملا بطوليا خارقا ، وآية من آيات الله .. وكان حديث المهاجرين والأنصار .. كما كان إسلام طلحة بن البراء بالصورة التى تم عليها .. موضع إجلال الشيوخ والشباب .. كان درسا من دروس الحب فى الله ورسوله .. ودرسا من دروس البر بالوالدين .. وحين تذكر درجات المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم .. يتبوأ طلحة بن البراء قمة عالية بين أحباب النبى ..

وقد شاء الله أن تكون حياة طلحة قصيرة الأمد .. إلا أنها عامرة بكل صنوف الحب والوفاء والبر والمثل العليا .. كان لا يتوانى يوما عن التدرب على السلاح .. ولا يتخلف يوما عن الصلاة خلف الرسول .. وكان يحفظ من القرآن الكريم ماتتسع له واعيته الباطنة .. ومن تعاليم الإسلام ما يقدر على حفظه واستيعابه .. وكان يتعجل اليوم الذى يأذن له فيه الرسول بالاشتراك فى قتال المشركين ..

إلا أن المنية عاجلته قبل أن يقاتل فى سبيل الله .. فقد مرض مرضا شديدا ، وكان ذلك فى فصل الشتاء .. وكان يصاب بين الساعة والساعة بإغماء وغيبوبة .. ونمى إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن طلحة مريض .. فذهب ليعوده فوجده قد أشرف على الموت .. فقال لأهله : « إنى لا أرى إلا طلحة مقبوضا . فأذنونى به وعجلوا .. فإنه لاينبغى لمسلم أن يحبس بين ظهرانى أهله .. وإن أفاق فأرسلوا إلى » ..

وعند منتصف الليل أفاق طلحة .. فسأل أهله : هل عادنى النبي صلى الله عليه وسلم .. ؟ فقالوا له : نعم .. وأخبروه بما قاله الرسول .. فقال لهم : إذا مت الساعة فلا ترسلوا إلى النبي .. لأنى أخاف عليه من اليهود .. كما أخاف أن تلسعه دابة .. أو يصيبه شيء .. ولكن أقرئوه منى السلام . . وقولوا له : فليستغفر لى . . ثم أخذ يردد الشهادتين ، وهويلفظ أنفاسه فى أناة وسكينة وهدوء ..

كان طلحة بن البراء حتى فى لحظات موته .. لايفكر إلا فى الرسول .. كان يخشى عليه من أى سوء .. وآثر أن يموت ويدفن دون أن يحضر الرسول .. مع أنه كان يتمنى أن يلقى النبي عليه نظرة الوداع .. ولكن حبه للنبي أقوى من كل أمنية .. وأعظم من كل رغبة ..

قام أهل طلحة بدفنه ليلا قبل أن يطلع الفجر .. ولما خرج الرسول للصلاة .. أخبروه بموت طلحة .. فأدى صلاة الفجر .. ثم صحب أصحابه إلى حيث يوجد قبره وصفهم حول القبر .. ورفع يديه وقال : « اللهم الق طلحة تضحك إليه .. ويضحك إليك » ..

وهكذا انتهت حياة الصحابى الصغير .. بعد أن ضرب أروع الأمثال فى حب الله ورسوله .. وبعد أن خلف فى الدنيا عبير الحب والبر والوفاء ..

* * *

حمزة بن عبد المطلب

أسد الله وأسد رسوله وبطل بدر

كــان **من أعز فتيان قريش . . يتألق شبابه نضارة وقوة وعزاً . . وكان يتأنق فى ملبسه ، ويضع ريش النعام على صدره . . ويخرج كل يوم إلى الصحراء للصيد والقنص ، ثم يعود ليجلس مع شباب قريش يلهو كما يلهون ، وينعم بملذات الحياة كما ينعمون . .**

وبالرغم من أنه تربى مع الرسول فى بيت واحد ، وكانا فى سن متقاربة ، ويعرف أن ابن أخيه محمدا لا يكذب قط ، ولا يلهو مع فتيان قريش ، فإنه لم يؤمن بدينه فى أول الأمر ..

ولكن حدث شيء غير مسار حياته تماما .. فقد كان عائدا من الصحراء بعد أن مارس هوايته في الصيد والقنص .. وعندما بلغ بيت «عبد الله بن جدعان» استوقفته خادم بالبيت، وقالت، له وكلماتها تقطر حزنا : يا أبا عمارة (وهذه كانت كنيته) .. لو رأيت اليوم ما لقي ابن أخيك محمد من الحكم بن هشام (أبي جهل) .. وجده هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف، ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم .:

ما إن سمع حمزة هذه الكلمات حتى تميز من الغيظ ، وصمم أن ينتقم من أبي جهل على إيذائه للرسول .. وانطلق بجواده يبحث عن

أبى جهل حتى عثر عليه جالسا مع جمع من الناس عند الكعبة .. فانقض عليه وضربه بقوسه ضربة قطعت فروة رأسه وسال منها الدم على وجهه ولحيته .. وقال له : أتشتم محمدا ؟ .. فأنا على دينه . . أقول ما يقول . فرد على ذلك إن استطعت ..

كانت مفاجأة للجالسين مع أبى جهل ، ومنهم بعض رجال من بنى مخزوم ، فأرادوا أن يجردوا سيوفهم ويدخلوا فى قتال مع حمزة ، ولكن أبا جهل قال لهم : « دعوا أبا عمارة . . فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبا قبيحا . .

بيد أنهم صاحوا : ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت (أى غيرت دينك) .. فرد عليهم : ومن يمنعنى ؟ .. لقد استبان لى منه ما أشهد أنه رسول الله .. وأن الذى يقول حق .. فوالله لا أنزع .. فامعنونى إن كنتم صادقين ..

ثم تركهم حمزة وهم فى ذهول .. إن معنى إسلام حمزة أن دين محمد يقوى ويشتد يوما بعد يوم بأعز فتيان قريش .. وإن فى هذا خطرا على آلهتهم .. وبدلا من أن يفكروا فى الدم الذى خضب وجه ولحية أبى جهل ، راحوا يفكرون فيما يجب أن يتخذوه حيال محمد وأصحابه ودينه ..

أما حمزة فإنه بعد أن سكت عنه الغضب ، وخفتت حدة انفعاله ، أخذ الشيطان يوسوس له .. كيف تترك دين آبائك فى لحظة غضب ؟ إن الموت خير لك مما صنعت .. ويقع حمزة فى الحيرة والقلق .. ولا يدرى كيف يتصرف .. وجلس فى بيته حزينا مهموما لا يغمض له جفن طوال الليل .. ثم ذهب إلى الكعبة ودعا الله بقوله : اللهم إن كان رشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا ..

وأخيرا استقر رأيه على أن يذهب إلى النبى ويحدثه بما يجول فى صدره .. وفعلا ذهب إلى النبى وقال له : يا ابن أخى : : إنى قد وقعت

فى أمر ولا أعرف المخرج منه .. فحدثنى حديثا، فقد اشتهيت يا ابن أخى أن تحدثنى ..

عندئذ قرأ النبى صلى الله عليه وسلم بعض آيات من القرآن الكريم، فدخل نور القرآن قلبه فصاح : أشهد أنك الصادق شهادة الصدق . فأظهر يا ابن أخى دينك .. فوالله ما أحب أن لى ما أظلته السماء وأنا على دينى الأول .

كان إسلام حمزة صدمة قاسية لقريش .. أكدت أن الدين الجديد سيأخذ طريقه إلى الانتشار دون أن يقف فى طريقه أى عائق ..

ثم مضت الأيام . وهاجر النبى والمسلمون إلى المدينة .. وهناك بدأ النبى يكون الدولة الإسلامية .. ولم يمض غير قليل حتى وقعت غزة بدر ، وكان حمزة بطل هذه الغزوة ، إذ فعل بالمشركين – كما قالوا – الأفاعيل ، وانتهت الغزوة بنصر الرسول وأصحابه، وهم قلة، على جبابرة قريش ، وهم أكثر عددا وعتادا ..

وقررت قريش أن تنتقم لقتلاها فى بدر ، فجاءت بعد عام فى ثلاثة آلاف مقاتل ، وكانت معركة أحد التى استشهد فيها حمزة بن عبد المطلب ، بعد أن أبلى بلاء حسنا ، ولولا أن عصى الرماة أمر الرسول ، لما وقعت الهزيمة بالمسلمين .

ولما علم الرسول باستشهاد عمه حمزة والتمثيل بجثته ، طفرت الدموع من عينيه وقال : لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم .. فنزل عليه الوحى بالآية الكريمة : وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ..

ثم أخذ النبى يصلى على الشهداء شهيدا بعد شهيد .. ولما وضع أمامه جثمان عمه حمزة صلى عليه سبعين صلاة ..

رضى الله عن حمزة فى منازل الصديقين والشهداء .

* * *

الطفيل بن عمرو الدوسى

الشاعر الداعية الذى مهد طريق الإسلام لأهله

كـــان **أحد الشرفاء المرموقين فى بنى دوس . . تحيطه نظرات الإكبار والتبجيل . . وكانت شاعريته إحدى الدعائم الشامخة التى قامت عليها شهرته كشاعر مبدع بين القبائل . ومن أجل ذلك كان الطفيل بن عمرو الدوسى محط الأنظار فى كل مكان يحل به . . وكان أبناء البادية يرددون شعره ، كما يرددون قصائد الشعراء الذين احتلوا مكانة فريدة فى عالم الشعر ، وكانوا فخر قبائلهم ، وقلادة المجد والسؤدد التى تتحلى بها هذه القبائل . .**

وكان الطفيل يتردد على مكة بين الفينة والفينة .. يلتقى بشعرائها فينشدهم ويسمع منهم .. كما يلتقى بسادتها وأشرافها وينزل عليهم ضيفا كريما ، ويتبادلون معه الزيارة فى بنى دوس ..

وذات يوم كان فى إحدى زياراته لمكة ليشهد موسم عكاظ.. وشاهده بعض القرشيين الذين يعرفونه كما يعرفون آباءهم وأبناءهم.. فاستوقفوه وقالوا له :

يا طفيل .. إنك قدمت بلادنا .. وإن محمد بن عبد الله قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا . إن قوله كالسحر ، يفرق بين الرجل وأبيه ، وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجته .. وإنا نخشى عليك وعلى قومك ماقد دخل علينا .. فلا تكلمه ولا تسمع منه حديثا ..

تأثر الطفيل بكلام القرشيين، فقرر ألا يكلم الرسول، وألا يسمع منه شيئا .. ثم حشا أذنيه ببعض القطن لكى لا يسمع كلمة واحدة من الرسول صلى الله عليه وسلم .. ولكنه عندما ذهب إلى المسجد وجد النبي يصلى عند الكعبة .. فجلس قريبا منه مطمئنا إلى أنه لن يسمع شيئا من الرسول حيث أذناه محشوتان بالقطن . .

بيد أن هذه اللحظة كانت نقطة تحول فى حياته .. فقد سمع بعض آيات من القرآن الكريم ، ووجد لها مذاقا حلوا فى قلبه وعقله ووجدانه . بل سحرته بلاغة هذه الآيات لدرجة أنه نسى كلام القرشيين ، وقال فى نفسه : واثكل أمى ! .. والله إنى لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى على الحسن من القبيح .. فما يمنعنى أن أسمع من الرجل ما يقول ، فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ..

ويحكى الطفيل قصة أول لقاء له بالرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : مكثت بالمسجد حتى انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبعته .. حتى إذا دخل بيته دخلت عليه ، فقلت : يا محمد . إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا ، وما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسن (قطن) .. لئلا أسمع قولك .. ولكن شاء الله أن أسمع ، فسمعت قولا حسنا ، فاعرض على أمرك .. فعرض على الرسول الإسلام ، وتلا القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه . فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، وقلت : يارسول الله . إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وإنى راجع إليهم ، وداعيهم إلى الإسلام ، فادع الله أن يجعل لى آية تكون عونا عليهم فيما أدعوهم إليه .

فقال : اللهم اجعل له آية .

انصرف الطفيل ورجع إلى قومه إنسانا آخر .. كان يفخر قبل سفره إلى مكة بأنه من الشعراء المعدودين فى القبائل .. والآن يفخر بأنه أصبح من أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم . وأن الله هداه إلى الدين الحق ..

ولما بلغ بيته التقى بأبيه، وكان شيخا مسنا ، وشرح له ما دار بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، وطلب إليه أن يعتنق الدين الجديد ، فلم يتردد الرجل وأعلن إسلامه .. وكما فعل الطفيل مع والده ، فعل مع أمه وزوجته ، فأسلمت كل منهما ، وأصبح بيت الطفيل أول بيت مسلم فى بنى دوس ..

أخذ الطفيل يدعو قومه إلى الإسلام فلم يسلم غير أبى هريرة رضى الله عنه .. ولما ألفى الطفيل تباطؤا من قومه فى دخول الإسلام ، جاء إلى الرسول وأخبره خبر قومه ، وسأله أن يدعو الله عليهم..إلا أنه أخذته الدهشة وهو يرى الرسول صلى الله عليه وسلم يرفع يديه فى ضراعة إلى السماء ويقول : اللهم اهد دوسا ، وآت بهم مسلمين .. ثم التفت النبى صلى الله عليه وسلم إلى الطفيل ، وقال له : ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم ..

عاد الطفيل إلى بنى دوس،وأخذ يدعوهم إلى الإسلام،ويبصرهم بمبادئه ، ودأب على ذلك سنوات طوالا ، هاجر خلالها النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وجاهد الكفار فى بدر وأحد والخندق .. ثم قدم الطفيل على النبى فوجده فى خيبر بعد أن نصره الله على اليهود ، وكان مع الطفيل ثمانون بيتا من دوس جاءوا ليعلنوا إسلامهم للرسول ..

وتمضى قافلة الزمن فى طريقها الأزلى ، ويزداد الإسلام كل يوم منعة وعزة وسلطانا ، وتتوارى الوثنية شيئا فشيئا فى زوايا العدم .. ويأذن الله لرسوله أن يفتح مكة المكرمة ، وأن يطهر بيته الحرام من الأصنام .. ويطلب الطفيل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحرق « ذا الكفين » ، وهو صنم عمر بن حممة ، فيأذن له الرسول،فيوقد الطفيل النار فى الصنم حتى يتحول إلى قطعة سوداء يسخر منها ويتهكم عليها الجميع ..

ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يستشهد هذا البطل فى موقعة اليمامة ، وأن يستشهد ابنه فى موقعة اليرموك ، ويتحول أول بيت مسلم فى بنى دوس إلى بيت للشهداء :

عمارُ بن ياسر

من أقوال الرسول : من عادى عمارًا عاداه الله

اختار

طريق الحق ، وهو يعلم أنه طريق التضحية ، وطريق المعذبين . . كان يلقى به على الحجارة الساخنة فى وهج الظهيرة فينضج جلده وتتصاعد أنفاسه لاهثة كأنه يعانى سكرات الموت . . وكان معذبوه يمزقون جلده بالسياط حتى تتفجر منه الدماء وتخضب الرمال التى ألقى جسده عليها عاريا .. ولم يكن يعذب إلا لأنه ترك عبادة الأصنام ، واعتنق الإسلام ليعبد الله وحده . . ومع أنه عانى الكثير من صنوف البطش والتنكيل ، إلا أنه ظل ثابتاً على دينه ، راسخاً فى عقليته . . لا يزيده العذاب إلا إيماناً بالله ورسوله ، ولا يزيده التنكيل إلا تمسكاً بالإسلام .

وذات يوم والرسول صلى الله عليه وسلم يمر بالقرب من المكان الذى يمارس فيه جبابرة قريش تعذيب عمار وأمة سمية وأبيه ياسر ، ويرى المعذبون الثلاثة نور الرسول وقد ملأ الساحة وفاض على المكان . فيهتف عمار من قلبه : يارسول الله .. لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ .. وينظر الرسول صلى الله عليه وسلم بعينين رحيمتين مشفقتين إلى الأسرة التى مزقت أجسادها بالسياط فى سبيل الله .. ويقول لعمار : « صبرا أبا اليقظان .. صبرا آل ياسر .. فان موعدكم الجنة .. » .

وتنزل كلمات المصطفى كالبلسم الشافى على الأسرة المعذبة .. ويحس عمار أن السكينة تملأ صدره ، وأن رضوان الله يظلله ، وعبير السماء يسرى فى بدنه كله .. لقد بشره النبي بالجنة ، وأصبح طريقه مفتوحا إليها .. يدخلها مع والديه ليظفروا فيها بالنعيم المقيم .

وإزاء إصرار عمار على التمسك بدينه وعقيدته لم تجد قريش فائدة من استمرارها فى تعذيبه والتنكيل به .. بل كانت تفاجأ كل يوم بأن مساحة الإسلام تتسع وأشخاصه يزيدون ، وأنه لا جدوى من مقاومة هذا الدين الذى يكسب مؤيدين جددا له كل يوم .

ثم يأذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى المدينة .. ويتدفق المسلمون عليها فى غفلة من أعين قريش .. وتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام .. حيث أصبح المهاجرون والأنصار نواة دولة امتدت فيما بعد إلى مساحات كبيرة من الدنيا .. وأصبح علم هذه الدولة يخفق فى البر والبحر .. بل أصبح سلطان هذه الدولة مهيبا فى المشرق والمغرب .

وكانت سياسة الرسول صلى الله عليه وسلم تقوم على بناء المساجد فى كل مكان يحل به .. حيث كان المسجد ملتقى الذين آمنوا بالله ورسوله .. يؤدون فيه الصلاة ، ويتدارسون فيه الدين .. بل كان فيه مكان مخصص لعلاج المرضى .

وكان صلى الله عليه وسلم يشترك فى بناء المساجد بنفسه ، حيث ينقل الحجارة مع أصحابه .. وحدث فى أثناء بناء مسجد الرسول أن كان عمار يردد أرجوزة ارتجزها الإمام على..وكان صوت عمار أعلى من أصوات الصحابة ، مما جعل أحدهم يطلب إليه أن يغض صوته .. وكان هذا الصحابى عنيفا فى طلبه ، فغضب الرسول وقال : ما لهم ولعمار .. إن عمارا جلدة ما بين عينى وأنفى .

وهنا يدرك الصحابة مدى حب النبي لعمار ، ومدى حدبه عليه ، ثم يتأكد لهم هذا الحب وهذا الحدب فى موقف آخر .. حين جرى جدل حاد بين عمار وخالد بن الوليد حسمه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « من عادى عمارا عاداه الله ، ومن أبغض عمارا أبغضه الله » .

وتمضى الحياة الطاهرة الشريفة بعمار بن ياسر .. ويحمل سلاحه وينضوى تحت لواء الإسلام .. ويجاهد فى سبيل الله جهاد مؤمن لا تخور عزيمته ، ولا تهن قوته .. وقد شهد جميع الغزوات ، وأبلى فيها بلاء حسنا ، كما شهد حروب الردة ، ومعركة اليمامة التى فقد فيها إحدى أذنيه .. وكان يفخر دائما بأن هذه الأذن ذهبت فى سبيل الله .

وحين يختاره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب واليا على الكوفة .. تتجلى فى عمار صفات الوالى الزاهد الورع المتقشف .. الذى لا ينال من الدنيا إلا بمقدار ما يقيم أوده ويسد حاجته .. كان يذهب إلى السوق بنفسه ويشترى ما يكفيه مؤونة يومه .. وكان يحمل بضاعته على كتفه ، ويرفض أن يحملها له أحد المسلمين .. وكان مجلسه حافلا بأهل العلم والتقوى ، يستمع إليهم ويناقشهم ، ويستزيد مما منحهم الله من علم ومعـــرفة .

وإذا كان كل إنسان يجهل نهايته ، فإن عمار بن ياسر كان يعلم هذه النهاية وعلى أى صورة تكون .. فقد أنبأه الرسول بأنه ستقتله الفئة الباغية .. وتتحقق نبوءة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .. وتقتل الفئة الباغية عمار بن ياسر فى معركة صفين وهو يقاتل فى صف الإمام على رضى الله عنه .

كان يرى الحق فى جانب الإمام على .. ومع أن عمارا كان شيخا بلغ الثالثة والتسعين من عمره فإنه حمل السلاح وخاض المعركة ضد معاوية وأنصاره .. وكان يردد فى أثناء القتال : « غدا ألقى الأحبة .. محمدا وصحبه » . . كأنما كاشفه الغيب بأنه سيموت فى هذه المعركة .. وبأنه سيلتقى بالنبي وأصحابه فى الجنة ..

وفعلا قتل عمار بن ياسر فى معركة صفين .. بعد أن أمضى عمرا طويلا يجاهد فى سبيل الله ، ولم يضع سلاحه حتى لقى الله ، وعلى ثغره ابتسامة راضية .. تعبر عما ينتظره من الرحمة والرضوان ..

* * *

عمر بن عبد العزيز

أعدل حاكم بعد الخلفاء الراشدين

كان

جديراً باللقب العظيم الذى أطلقه عليه المؤرخون . . وهو خامس الخلفاء الراشدين . . فهو فى عدله وتقواه وورعه وخشيته من الله لا يقل عن واحد من هؤلاء الخلفاء المهديين. كان إذا ذكر الله يرتجف جسده حتى إن زوجته كانت تتوقع أن يموت كل ليلة . . ورغم أنه ولد فى أحضان النعيم فإنه ما كاد يتولى الخلافة حتى أعرض عن الدنيا وزينتها ، وزهد فى متاعها ، وأقبل على الآخرة بقلب تضيئه العقيدة ، ونفس أوابة ، ووجدان نقى . .

ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة المنورة،وقيل بحلوان،وتولى الخلافة فى صفر سنة ٩٩ هجرية .. وكانت أول خطبة ألقاها فى المسلمين يقول فيها :

– أوصيكم بتقوى الله فإنها خلف من كل شىء .. إن هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى كتابها أو نبيها .. وإنما اختلفت فى الدينار والدرهم .. وإنى والله لا أعطى أحدا باطلا .. أو أمنع أحدا حقا . أطيعونى ما أطعت الله .. فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

واكتفى عمر بأن يركب بغلته،وألا يتقاضى أجرا من بيت المال، ورفض أن تسير الشرطة بين يديه ..

ثم أخذ جواهر ابنته وأودعها بيت المال .. كما أخذ الأموال والأراضى التى كانت بأيدى أقاربه وردها إلى بيت المال أيضا ..

وشدد عمر على عدم استغلال النفوذ . وحظر على الولاة أن يتاجروا . لأنهم يستطيعون بنفوذهم أن يضروا بالرعية . كما حظر عليهم أن يستأثروا بالأموال العامة .

وأعطى عمر للمظلومين حق الدخول عليه بدون استئذان .. وقال : من ظلمه عامله فليس عنه منى إذن . وأمر الولاة ببناء الخانات « الفنادق » لإيواء المسافرين . وأصبح من حق المسافر أن يقيم على نفقة الدولة .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز استقرت أحوال الدولة، وقمعت الفتنة التى كانت ناشبة فيها .. فقد دعا عمر القرامطة إلى إجراء حوار حول الأسباب التى من أجلها انشقوا على المسلمين وحملوا السلاح . واقتنع القرامطة بوجهة نظر عمر . وأطفئت نار الفتنة ، وساد السلام والهدوء أرجاء الدولة الإسلامية ..

وقد انتشر الإسلام فى عهد عمر بصورة لم يحدث لها مثيل .. وذلك بفضل السياسة الحكيمة النابعة من مبادىء الإسلام ، والتى كان عمر ينتهجها قولا وسلوكا .. فقد أعفى أهل الذمة من الجزية . وقال قولته المشهورة : « إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا » ..

وعمر بن عبد العزيز هو الذى أمر بجمع الأحاديث النبوية فى عصره. وأمر بأن يتم الجمع عن طريق الثقات المشهود لهم بالورع والتقوى ..

وكان عمر يرفض قبول الهدايا .. وحدث أن علم أحد المسلمين أن الخليفة رغب فى أكل التفاح ولكنه لم يجد مالا يشترى به هذه الفاكهة .. فأهدى إليه هذا الرجل كمية من التفاح فرفض قبولها .. ولما سأله عن سبب رفض الهدية قال : أنا لا أقبل الهدية وأنا خليفة للمسلمين .

ولم يكن عمر يريد أن ينفرد عن الناس بشيء .. وبلغ من إنكاره لذاته أن طلب من خطباء المساجد ألا يخصوه بأى دعاء .. وقال لهم : ادعوا للمؤمنين والمؤمنات عامة . فإن كنت منهم أدخل فيهم ..

وذكر الإمام الجوزى أن عمر بن عبد العزيز كان كثير البكاء. ولما سئل عن ذلك قال : « إننى أذكر منصرف الخلائق بين يدى الله ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير » .. ثم غشى عليه .

وعثر عمر بأحد النائمين فى المسجد ، فقال له الرجل أمجنون أنت ؟ .. فهم الحارس بتأنيب الرجل . فمنعه عمر ، وقال له: لقد سألنى عما إذا كنت مجنونا فقلت له : لا ..

ولم يكن عمر رحيما بالناس فقط .. وإنما كان رحيما بالدواب أيضا . بكل ذى كبد رطبة .. فقد نهى عن إلجام الدواب بالثقال وعن ركض الدابة من غير حق .

لقد كان عمر أرفع نموذج للحاكم المسلم .. كان نقى السريرة نقاء النور .. عفيف اليد واللسان .. لم يعرف عنه أنه تكلم كلمة واحدة ينكرها الإسلام .. وإنما كانت حياته خالصة لله قولا وعملا .. ولقد توفى فى رجب عام ١٠١ هـ. وكانت مدة خلافته عامين وخمسة أشهر نشر فيها العدل والتقوى ، ولقى الله راضيا مرضيا .

• • •

أويس بن عامر القرني

قال عنه النبي ﷺ إنه من أهل الجنة

اكتفى

من الدنيا بالخشن من الثياب . . واليسير من الزاد . . لأن تقوى الله كانت خير زاد له . . والاستمتاع بالقرب من الله أغناه عن متاع الدنيا وزخرف الحياة ..كان مجهولا لدى أهل الأرض . . معروفاً لدى أهل السماء . . عاش باليمن فى حضيض الفقر . . يرعى إبل الأغنياء بدراهم قليلة . . إلا أنه كان يحس بأنه فوق الدنيا بأسرها . . لأن الدنيا لم تستطع أن تجتذبه إليها بمغرياتها . . وكذلك الشيطان لم يتمكن من الالتصاق به . . لأنه وجد فيه عابدا ارتفع بنفسه فوق الشهوات والملذات .. فخنس الشيطان عنه .. ولم يجد فيه مكاناً لوساوسه . . ولا موطناً لهواجسه . .

وبذلك تغلب أويس بن عامر القرنى على الدنيا والشيطان . . وعاش فى كنف الله .. صفياً نقياً خالياً من كل شائبة ..مطهراً من كل دنس ، عالياً على كل دنية ، محلقاً بروحه فى ملكوت السموات والأرض . . وحسبه مرتبة عالية بين الصديقين والأبرار أن النبي بشر بأنه من أهل الجنة ، وقال لأصحابه إذا رأيتموه فاسألوه أن يستغفر لكم . . ووصف النبي علامات أويس القرنى حتى لا يلتبس على الناس أمره . .

أما كيف جاء ذكر أويس القرنى على لسان الرسول . . صلى الله عليه وسلم . . مع أنهما لم يلتقيا قط .. فلأن « أويس » كانت له أم عجوز مريضة يبرها ويرعاها . . ولم يتركها قط . . ولم يبرح اليمن . . حتى انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى . . ولكنه وقد أجرى الله الإلهام والحكمة على لسانه . . أعلمه بحقيقة هذا العابد وبمكانته عنده . . فكشف الرسول لأصحابه عن هذا الرجل وسماته وصفاته . . ويحكى أبو هريرة ما قاله الرسول بشأن أويس فيقـــول :

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حلقة من أصحابه إذ قال : « ليصلين معكم غداً رجل من أهل الجنة » . . فطمعت أن أكون ذلك الرجل . . فغدوت فصليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأقمت فى المسجد حتى انصرف الناس . وبقيت أنا وهو . . فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل أسود . . متزر بخرقة . . مرتد برقعة . . فجاء حتى وضع يده فى يد الرسول . . ثم قال : يا نبى الله . ادع الله لى . . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم له بالشهادة . . وكانت تفوح من الرجل ريح المسك الأذفر . . فقلت يارسول الله : أهو هو ؟ . . قال نعم .. إنه لمملوك لبنى فلان .. قلت : أفلا تشتريه فتعتقه يانبى الله ؟ . . قال : وأنى لى ذلك . . إن كان الله يريد أن يجعله من ملوك الجنة . .

ثم وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحباب الله فقال : يا أبا هريرة . . إن الله يحب من خلقه الأصفياء الأبرياء : الشعثة رءوسهم . . المغبرة وجوههم . . الخمصة بطونهم إلا من كسب الحلال . . الذين إذا غابوا لم يفتقدوا . . وإن حضروا لم يدعوا . . وإن طلعوا لم يفرح بطلعتهم . وإن مرضوا لم يعادوا . . وإن ماتوا لم يشهدوا . .

قالوا : يارسول الله : كيف لنا برجل منهم ؟ قال : ذاك أويس القرنى .. قالوا : وما أويس القرنى ؟ : قال : معتدل القامة . . أدم شديد الأدمة . . ضارب بذقنه إلى صدره .. متزر بإزار صوف ورداء صوف..مجهول فى

أهل الأرض معروف فى السماء . . لو أقسم على الله لأبر قسمه . . ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء . . ألا وإنه إذا كان يوم القيامة . . قيل للعباد : ادخلوا الجنة . . وقيل لأويس قف فاشفع . . فيشفعه الله عز وجل فى مثل عدد ربيعة ومضر . .

ثم قال النبي ياعمر . . يا على . . إذا لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما . . يغفر الله تعالى لكما . .

مكث عمر وعلى يبحثان عن أويس القرنى عشر سنين فلم يعثرا عليه . . وفى السنة التى توفى فيها عمر رضى الله عنه . . وقف على جبل أبى قبيس فى موسم الحج ، ونادى بأعلى صوته : يا أهل الحجيج من أهل اليمن . . أفيكم أويس من مراد ؟ . . فقام شيخ كبير طويل اللحية . . وقال إنا لا ندرى من أويس . . ولكن أخى له ابن يقال له أويس . . هو أخمل ذكراً ، وأهون أمراً من أن ترفعه إليك . . إنه يرعى إبلنا . . وهو حقير بين أظهرنا . . ويرعى الإبل الآن فى أراك عرفات .

ما إن سمع عمر بن الخطاب كلام الرجل اليمنى ، حتى سارع هو وعلى ابن أبى طالب بالذهاب إلى جبل عرفات..وهناك لقيا رجلا قائماً يصلى..وعليه رداء قديم من الصوف . . وأمامه مجموعة من الإبل يرعاها . . سألاه عن اسمه ، فقال : أويس . . فطلبا منه أن يريا العلامة التى أخبر النبى بأنها تحت منكبه ، فأراهما إياها .. فقالا له : إنك أويس القرنى الذى أخبر الرسول بأنك من أهل الجنة . . وسألاه أن يستغفر لهما . . فقال : إننى لا أخص أحداً باستغفارى. ولكنه لجميع المسلمين والمسلمات .. والمؤمنين والمؤمنات .

ثم أراد أويس القرنى أن يتعرف عليهما . . فقال له على : أما هذا فعمر أمير المؤمنين . . وأما أنا فعلى بن أبى طالب . . فقال لهما . . جزاكما الله عن هذه الأمة خيراً . . فقال له عمر : مكانك ــ يرحمك الله ــ حتى أدخل مكة ــ وآتيك بنفقة من عطائى ، وفضل كسوة من ثيابى ، فقال أويس : يا أمير المؤمنين . . ما أصنع بالنفقة ؟ وما أصنع بالكسوة ؟ . . أما ترى

على إزاراً من صوف . ورداء من صوف ؟ متى تراني أبليهما ؟ . . أما تراني قد أخذت من رعايتى أربعة دراهم . . متى تراني آكلها ؟ .

وهنا ضرب عمر الأرض بدرته . . ثم قال : ألا ليت أم عمر لم تلده . . ياليتها كانت عاقراً لم تعالج حملها . . ألا من يأخذها بما فيها ولها ؟

بعد ذلك عاد عمر وعلى إلى مكة . . والدموع تبلل لحيتيهما من فرط ما عرفا عن هذا العابد الزاهد الذى بشر النبى بأنه من أهل الجنة . . دون أن يراه . . أما أويس القرنى فإنه ذهب مع المسلمين حين غزوا أذربيجان . . وفى رحلة العودة مرض ومات . . وانطوت صفحة رجل كان يقوم الليل ويصوم النهار . . ويتعيش من أربعة أراهم يحصل عليها من رعى الإبل أجيراً . . وما رئى إلا والدموع فى عينيه من خشية الله عز وجل . .

• • •

عمير بن سعد

نزل فيه قرآن يصدق ما قاله الرسول

أى

مرتبة عالية يحوزها المرء إذا أنزل الله قرآناً يشهد بصدقه، ويؤيد ما قاله ؟ . . إنها شهادة من لدن حكيم خبير . . وما أعظمها من شهادة فى ميزان الإنسانية ، وفى ميزان التاريخ . . ولم تنزل هذه الشهادة الإلهية فى شيخ حركته التجارب ، وحنكته السنون . . وإنما نزلت فى غلام يتيم من الأنصار . . آمن بالله ورسوله ، وارتفع بأخلاقه وسلوكه إلى أعلى ذروة من ذرى المبادىء والقيم الإسلامية .. وكان حبه لله ورسوله أقوى من حبه لأى شيء فى الحياة . . فما هو هذا الموقف الذى نزلت فيه آية كريمة تشهد بصدق عمير ابن سعد . . ومتى نزلت هذه الآية ؟

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجهز لغزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة . . وكان المنافقون من أهل المدينة ، ومنهم الجلاس بن سويد، قد أزمعوا أن يتخلفوا عن شهود هذه الغزوة مع الرسول.. وجلجت كلمة شائهة فى صدر الجلاس ما لبث أن فاه بها على مسمع من عمير بن سعد ، إذ كان الجلاس زوجاً لأم عمير . . قال : إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير . . وصكت هذه الكلمة أذنى عمير ، وهزت أعماقه ، فاستشاط غضباً ، وقال لجلاس : والله إنك لأحب الناس إلى . . وأحسنهم عندى يداً . . وأعزهم على أن يصيبه شيء يكرهه . . ولقد

قلت مقالة لئن رفعتها إليك لأفضحنك . . ولئن صمت عليها ليهلكن ديني . .
ولإحداهما أيسر من الأخرى . .

انطلق الغلام المؤمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قال الجلاس . . فاستدعى النبي صلى الله عليه وسلم الجلاس وسأله عما إذا كان قد قال هذه العبارة . . أم أن الغلام تقول عليه . . فأنكر الجلاس أنه قالها واتهم عميراً بالكذب . . وتأزم الموقف بين الغلام وزوج أمه الذى ينفق عليه . . ولكن ما لبث الوحى أن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد بصدق عمير . . وصمت الجميع فى اللحظات التى كان فيها جبريل يبلغ الرسول بالآية الكريمة :

« يحلفون بالله ما قالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » . .

ولما فرغ جبريل عليه السلام من تبليغ هذه الآية للرسول ، تلاها صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ثم أخذ بأذن عمير بن سعد ، وقال له : « وفت ذمتك ياغلام . وصدقك ربك » . . حينئذ أحس الجلاس بافتضاح أمره ، فأقبل على الرسول فى خجل ، وقال له : استتب لى ربى . . فإنى أتوب إلى الله ، وأشهد أن عميراً صادق . .

علم أهل المدينة جميعاً بهذا الموقف . . فعظم شأن عمير فى أعينهم . . ولقى منهم — على صغر سنه — كل إجلال وإكبار . .

ومضت الحياة بعمير بن سعد . . كما تمضى بالمؤمنين الصادقين . . لا يأبه بالدنيا ومتاعها . . وإنما اتخذ منها معبراً إلى الآخرة . . يسير فيه مستقيم الخطى . . متجها إلى الله عز وجل . . وكان لزهده وورعه وتقواه واستقامته يطلقون عليه نسيج وحده . . أى كان فريداً مميزاً فى سلوكه وعبادته . . مبرأ من الكذب ، منزهاً عن الخطل ، بعيداً عن الزيف ،

مجافياً للباطل ، خصيماً للبهتان . . كان قيماً عليا مجسدة . . ومثلا رفيعة تمشى على الأرض . . وأخلاقاً تتعامل مع المجتمع . . وروحاً شفافة كالملائكة تخاف مقام الله . .

وكان مضرب الأمثال فى الصدق والأمانة والنزاهة والتقوى والوفاء مما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعينه والياً على حمص فى الشام . . وكان عمر دقيقاً فى اختيار الولاة . لا يعين والياً إلا إذا كان ماضيه وتضحياته وسلوكه تشهد بأنه كفء لتولى شئون المسلمين . .

وذهب عمير بن سعد إلى حمص ،ومكث بها عاماً ينشر العدالة فى ربوعها ، ويجبى الزكاة ويوزعها كلها على الفقراء دون أن يبعث إلى الخليفة عمر ابن الخطاب بشىء . . ولما انقطعت أخباره عن عمر ، وراودته بعض الظنون بسبب ذلك ، بعث إليه يستدعيه ، ويتعرف على مجريات الأمور فى حمص :

وذات صباح بينما كان الخليفة فى بيته .. إذا بعمير بن سعد يدخل عليه . . ويقول له : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وينظر الخليفة إلى عمير فيجد لونه شاحباً ،ووجهه مغبراً ،وشعره طويلا .. فيسأله : ما شأنك ؟ فيقول عمير : إننى صحيح البدن ، طاهر الدم . معى الدنيا أجرها بقرنها . . فظن عمر أنه جاء بمال . . فقال له : وما معك . . ؟ . فقال له : معى جرابى أضع فيه زادى . وقصعتى آكل فيها ، وأغسل فيها رأسى وثيابى وقربتى أحمل فيها وضوئى وشرابى . . وعصاى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدواً إن عرض لى .. فسأله عمر : هل جئت من حمص ماشياً ؟ قال : نعم .. لأن أحداً لم يعطنى دابة أركبها . .

ثم أخذ عمير بن سعد يقص على عمر كيف كان يجبى الزكاة ويوزعها على الناس بواسطة أفاضل أهل حمص . . وكيف عاش عاماً بأكمله لا يأكل إلا خبز الشعير . . وهنا حاول عمر أن يعطيه بعض المال والثياب. فقال له : وزعها على أبناء الشهداء والفقراء .

ولم يطل العمر بعمير بن سعد بعد ذلك . . فانتقل إلى الدار الآخرة ، يحمل معه صحفاً مضمخة بعبير التقوى والطاعة فواحة برضوان الله عز وجل .

وهب بن منبه

فقيه المتصوفة وإمام العباد

لو

أراد هذا الفقية العابد الزاهد المتصوف أن يملك مفاتيح الثروة والغنى . . لوجد الطريق ممهداً إليها . . ولكنه آثر أن يهبه الله مفاتيح رحمته ورضوانه..ولذلك عاش وعيناه لا تنظران إلى متاع الدنيا وزينة الحياة .. بينما يتطلع قلبه إلى السماء . . ليظل موصولا بالحقيقة الأزلية . . وهكذا كانت حياة وهب بن منبه . . الارتواء من مناهل علوم الدين . . والاستغراق فى عبادة الله . . ونشر النور الإلهى بين الناس . . لم يكن صوفياً تشغله الطاعة عن تحصيل العلم . . ولم يكن عالما تصرفه حلاوة الوعظ عن قيام الليل وصيام النهار وكثرة الذكر والاستغفار . . وإنما كان يجمع بين العلم والعمل . . وبين التحصيل والعبادة . . وبين العكوف على التأمل . . والأخذ بيد الحيارى إلى الطريق المستقيم . .

كان يرى أن النفس لا يصلح شأنها إلا بالإيمان والعمل ، فإذا لم يجتمعا معاً . . فقدت رشدها . . وزايلت هداها .. وقد وصف ذلك بقوله: الإيمان قائد . . والعمل سائق..والنفس حرون .. إن فتر قائدها صدت عن الطريق ، ولم تستقم لسائقها..وإن فتر سائقها حرنت ولم تتبع قائدها .. فإذا اجتمعا استقامت طوعاً أو كرهاً . .

وكانت فلسفته فى تربية القلوب وتهذيب النفوس وتقويم الأخلاق مستمدة من التعاليم الربانية التى لقنها الله لرسوله ، ففاضت على لسانه حكمة وعلماً وبياناً . . يقول وهب بن منبه لأحد جلسائه وهو يعظه : «ألا أعلمك طباً لا يتعايا فيه الأطباء . وفقهاً لا يتعايا فيه الفقهاء . . وعلماً لا يتعايا فيه الحكماء ..؟ » قال الرجل : بلى يا أبا عبد الله . . قال : « أما الطب الذى لا يتعايا فيه الأطباء فلا تأكل طعاماً إلا ما سميت الله على أوله . وحمدته على آخره . . أما الفقه الذى لا يتعايا فيه الفقهاء . . فإن سئلت عن شىء عندك فيه علم . . فأخبر بعلمك . . وإلا فقل لا أدرى . . وأما العلم الذى لا يتعايا فيه الحكماء فأكثر من الصمت إلا أن تسأل عن شىء . . »

ويرى وهب بن منبه أن مفتاح رحمة الله فى التضرع . . ومن منحه الله هذا المفتاح فقد منحه النعيم الدائم الذى لا يزول ولا يبلى . . وفى ذلك يقول : « إن مفتاح رحمة الله فى التضرع إليه .. فمن حفظ ذلك المفتاح وجاء به . فتح له الباب ودخل الخزائن . ومن دخل الخزائن فله ما تشتهى الأنفس ، وتلذ الأعين . . وله نعيم مقيم ، وأجر عظيم ، وثواب كريم . . نزلا من غفور رحيم » .

والعبادة فى رأى وهب بن منبه ليست شطحات صوفية . . وإنما التزام بالشريعة ،واحتكام إلى الفطرة والعقل..ويصف ذلك بقوله : «ما عبد الله عز وجل بشىء أفضل من العقل . . وما يتم عقل امرىء حتى تكون فيه عشر خصال : أن يكون الكبر منه مأموناً . . والرشد فيه مأموراً . . يرضى من الدنيا بالقوت . . وما كان من فضل فمبذول . . والتواضع فيها أحب إليه من المجد . . والذل فيها أحب إليه من العز . . لا يسأم من طلب العلم دهره . . ولا يتبرم من طالبى الخير . . يستكثر قليل المعروف من غيره..ويستقل كثير المعروف من نفسه . . وأن يرى جميع الناس بين خير منه أفضل . . وآخر شر منه أرذل . . فإذا رأى من هو خير منه تمنى أن يلحقه . . وإذا رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك . . ولعل لهذا باطناً لم يظهر لى ، وذلك خير له . . »

وكما كان وهب بن منبه يعظ عامة الناس ، فإنه كان كذلك يعظ الدعاة . . كان يطلب إليهم ألا يسألوا أبناء الدنيا شيئاً . . وأن يرتفعوا بأنفسهم فوق الدنيا بأسرها . . وأن الله هو الذى يعطى ذوى المراكز والنفوذ مناصبهم فى الحياة . . فكيف نطرق أبوابهم المغلقة . . بينما باب الله مفتوح لا يغلق أبدا . . يقول وهب بن منبه لعطاء الخراسانى . . وكان من علماء عصره :

« ويحك ياعطاء ! ! ألم أخبر أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا . . ويحك يا عطاء ! أتأتى من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويوارى عنك غناه ؟ وتدع من يفتح لك بابه ، ويظهر لك غناه ، ويقول « ادعونى استجب لكم » . . ويحك يا عطاء ! ! . . ارض بالدون من الدنيا مع الحكمة ،ولا ترض بالدون من الحكمة مع الدنيا .. ويحك يا عطاء..إن كنت يغنيك ما يكفيك ، فإن أدنى ما فى الدنيا يكفيك . . وإن كان لا يغنيك ما يكفيك ، فليس فى الدنيا شىء يكفيك » .

وسأله يوماً أحد تلاميذه عن علامات الدين ، فقال له : « إن للدين ثلاث علامات يعرف بهن . . وهى الإيمان والعلم والعمل . » ثم وصف كل علامة على حدة فقال : للإيمان ثلاث علامات : « الإيمان بالله وملائكته ، وبكتبه ورسله » . . وللعمل ثلاث علامات : « الصلاة والزكاة والصيام .. » وللعلم ثلاث علامات « العلم بالله وبما يحب الله وبما يكره » .

بهذا الفهم الدقيق لدين الله . . وبهذا السلوك الربانى . . كان وهب ابن منبه إمام عصره ، وقائد جيله ، وربان زمانه . . لم يسلك بالعلم طريقاً إلى المال ، ولا إلى الجاه ، ولا إلى المجد . . وإنما سلك به طريقاً إلى الله . . وما ترك الدنيا فى العام السادس عشر بعد المائة إلا بعد أن ملأها حكمة وعلماً ، وجمع أهلها على مائدة الزهد والتقوى ، وخلف تراثاً ما زال يكشف معالم الطريق لمن يريد أن يسعى إلى نور الله ورحمته . . وهناك فى صنعاء قبر متواضع يضم رفاته معطرا بعبير السماء . تمر من حوله العصور خاشعة . . لفرط ما تتملى فيه من مهابة وجلال . .

كعب الأحبار

أسلم عن علم .. وآمن عن معرفة

كـــان

حبراً من أحبار اليهود . . يقرأ التوراة . . ويتعبد فى صومعته . . ويعظ الناس . . ويعلم مما قرأ فى الكتاب الذى أنزل على موسى . . صفة رسول الله . . وصفة أتباعه من المجاهدين الأبرار . . وشاء الله أن يلحق هذا الحبر بقافلة الإسلام . . وأن يكون أحد علماء هذه الأمة . . وأحد دعاتها الصادقين . . فقد تصادف أن مر برجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية الكريمة : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » . . ما كاد كعب الأحبار يسمع هذه الآية حتى انتفضت مشاعره. واشرأبت روحه إلى الإسلام . . فسارع باعتناقه . . وأعلن خروجه من ديانة اليهود . . ولم يلبث أن قدم على عمر ابن الخطاب . . وأخبر الخليفة بإسلامه . .

كان ذلك فى الفترة التى يتجهز فيها المسلمون لغزو الروم . . وكان كعب أسلم عن علم ، وآمن عن معرفة . . وكان مما تعلمه فى التوراة أن المجاهدين لهم أعلى الدرجات يوم القيامة . . ولذلك استأذن عمر بن الخطاب فى أن يسافر مع المجاهدين لقتال الروم فأذن له . . بيد أنه عندما انتهى إلى أرض

الشام وجد راهباً قد حبس نفسه فى صومعة أربعين سنة . . فناداه كعب . . فأشرف عليه الراهب . . وقال : من أنت ؟ . . قال : أنا كعب الحبر . . قال الراهب : سمعت بك . . فما حاجتك : قال كعب : جئت لأسألك عن حالك . . نشدتك بالله . . هل حبست نفسك فى هذه الصومعة . . إلا لآية فى التوراة تقول : إن أصحاب رءوس الصوامع البيض هم خيار عباد الله عند الله يوم القيامة ؟ قال الراهب : اللهم نعم . . قال كعب : نشدتك بالله . . هل تجد فى الآية التى تتلوها أنهم الشعث الغبر ، الذين أولادهم يتامى لغيبة آبائهم – وليسوا يتامى – ونساؤهم أيامى لغيبة أزواجهن ولسن بأيامى . : أزودتهم على عواتقهم . . تحملهم أرض وتضعهم أخرى . . مجاهدون فى سبيل الله . . هم خيار عباد الله . . قال الراهب . . اللهم نعم . . قال كعب : إن هذه ليست الصوامع . . وإنما هى فساطيط أمة محمد عليه عليه الصلاة والسلام يغزون فى سبيل الله . . وليست الصوامع التى حبست فيها نفسك . .

عندئذ نزل الراهب من صومعته وأسلم وغزا معه الروم .. ثم انصرفا إلى عمر ، فأعجب بهما . . فكانت الرهبانية بدعة منهما . .

تحول كعب الأحبار بعد إسلامه إلى داعية مجاهد بالكلمة والسيف ، عكف على حفظ القرآن الكريم . . حتى حفظه عن ظهر قلب . . كحفظه للتوراة تماماً . . وانتهل من الأحاديث النبوية حتى ارتوى عقله وقلبه . . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأنس إلى كعب .. ويميل إلى الإصغاء له.. وكان كعب لفصاحة لسانه . . وبلاغة بيانه يتسلل بحكمه وعظاته إلى شغاف القلوب . . فيمحو ما ران عليها من ذنوب . . ويزيل ما انساح عليها من معاص . . حتى كأن كلماته قطرات ضوء . . تتناهى إلى الأعماق فتغسل كل راسبة من رواسب الإثم وتدعها نقية بيضاء . .

وبما أن كعب الأحبار بلغ من العلم مبلغاً يضيق المقام عن الإحاطة بآفاقه ومداه . فسوف نجتزىء ببعض آرائه . . ونكتفى بطائفة من خواطره .. فيها رى للعقول الظمأى . . وزاد للقلوب الغرثى . . وشعاع للأنفس الحائرة . . يقول فى رده على سؤال لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن الموت :

يا أمير المؤمنين . . إن الموت كغصن كثير الشوك . . يدخل فى جوف الرجل . . فتأخذ كل شوكة بعرق يجذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ ، وأبقى ما أبقى . . وعن تفسير قوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب » قال كعب : إن التفسير الذى قرأته قبل الإسلام أن الله يبدل جلودهم فى الساعة الواحدة مائة وعشرين مرة . . فقال عمر : صدقت . . فقد سمعت هذا التفسير من رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وسئل كعب الأحبار عن صفة النبي وأتباعه فى التوراة فقال : مكتوب فى التوراة . . محمد عبدى المتوكل المختار . . ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة . . ولكن يعفو ويغفر . . مولده بمكة . . وهجرته بطيبة . . أمته حمادون يحمدون الله عز وجل على كل خير وشر . . يكبرون الله على كل شرف . . ويسبحون الله فى كل منزل . . نداؤهم فى جو السماء . . لهم دوى فى صلاتهم كدوى النحل على الصخر : يصفون فى الصلاة كصفوف الملائكة . . ويصفون فى القتال كصفوفهم فى الصلاة . . إذا غزوا فى سبيل الله كانت الملائكة بين أيديهم ومن خلفهم برماح شداد . . وإذا حضروا الصف فى سبيل الله كان الله عليهم مطلا . .

وكان كعب يبكى . . وهو يتعبد . . حتى تخضل لحيته بالدموع . . ولما سأله صديقه عبد الله بن شقيق العقيلى عن سبب بكائه قال : لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعى على وجنتى . . أحب إلى من أن أتصدق بوزنى ذهباً . .

وهكذا عاش كعب الأحبار : عقلا مضيئاً بالمعرفة . . وقلباً مشعاً بالإيمان .. ولساناً فياضاً بالحكمة..حتى أطل العام الثانى والثلاثون من الهجرة فتسلل القدر بآلامه وأسقامه إلى الشيخ الذى ملأ الدنيا علماً . . وما لبث نور الحياة أن خبا فى هذا السراج الوهاج . . وتحت قطعة مباركة من أرض مدينة حمص . . رقد جثمانه الطاهر . . ولكن سيرته المضيئة ستظل ساطعة كالكوكب الدرى فى سماء التاريخ .

واثلة بن الأسقع

القانع من الدنيا بثوب واحد وطعام يومه

لم يكن يملك من الدنيا إلا ثوباً بالياً من الصوف ونعلين قديمين . . وكما كانت يده نظيفة من الدنيا . . فإن قلبه كان طاهراً من غرورها . . ومن التطلع إليها . . كان من أهل الصفة الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . . وكانوا معروفين بأنهم فقراء المهاجرين .. لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله . . ولم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا . . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا أتته صدقة بعث بها إليهم .. وإذا أتته هدية أشركهم فيها . . وكان يوصى أصحابه بأن يمدوا أهل الصفة بالتمر والزاد . . وهم الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم : « ليبشر فقراء المؤمنين بالفوز يوم القيامة..قبل الأغنياء بمقدار خمسمائة عام.. هؤلاء فى الجنة ينعمون . . وهؤلاء يحاسبون » . .

كان واثلة بن الأسقع من هؤلاء الصفوة الذين ذكرهم الله فى أهل السماء .. فحين طلب بعض أغنياء قريش من الرسول ألا يجلس هؤلاء الفقراء ذوو الثياب البالية معهم فى مجلسه صلى الله عليه وسلم أنزل الله سبحانه وتعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . ما عليك من حسابهم من شىء . وما من حسابك عليهم من شىء . فتطردهم فتكون من الظالمين » ..

وقد أسلم واثلة والنبي صلى الله عليه وسلم يتجهز لغزوة تبوك .. كان ذلك فى شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة .. وكان موعد هذه الغزوة امتحانا للمسلمين . . فقد كانت سنة مجدبة . . والحر فيها شديدا . . وأصحاب الحدائق أينعت ثمارهم .. ويحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم .. والمنافقون يثبطون عن الخروج مع الرسول .. فى هذا الموقف الصعب تقدم واثلة بن الأسقع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، وطلب إليه أن يبايعه .. فنظر إليه الرسول : وسأله : من أنت ؟ فقال : أنا واثلة بن الأسقع .. وكنيتى أبو قرفاصة .. فقال له الرسول : هل تبايع فيما أحببت وكرهت ؟ قال : نعم . قال له الرسول : فيما أطقت ؟ قال : نعم .. فبسط الرسول يده وبايعه ..

عاد ابن الأسقع إلى بيته وأخبر والده بما فعل .. فأقسم ألا يكلمه أبدا .. ولما حضر عمه وعلم بأنه اعتنق الإسلام .. أنحى عليه باللائمة .. وقال له : لم يكن ينبغى لك أن تسبقنا بأمر .. وبينما أبوه وعمه يتميزان من الغيظ .. إذا بأخته تنتحى به جانبا .. وتسأله عما حدث .. فيخبرها بأنه بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهنا تقول له : إننى دخلت الإسلام مثلك .. وأنا مسلمة منذ الآن .. فقال لها .. جهزى أخاك جهاز غاز .. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم على جناح سفر ..

كان أول عمل قام به واثلة بعد إسلامه أن ذهب إلى سوق بنى قينقاع . وجعل ينادى : من يحملنى وله سهمى .. كان يبحث عن إنسان يحمله على راحلته فى هذه الغزوة إلى حدود الشام .. ويعطيه نصيبه من الفىء .. مع أنه لا يملك شيئاً .. كان همه فى الجهاد لا الفىء .. فى الحصول على رضا الله .. لا على عرض الدنيا .. شأن المسلمين الصادقين جميعا .. وبينما هو ينادى فى السوق . . إذا بالصحابى الجليل كعب بن عجرة يقول له : أنا أحملك عقبة بالليل وعقبة بالنهار ، ويدك أسوة يدى ، وسهمك لى ..

وهنا يحس واثلة بأن أبواب السماء انفتحت له .. وأن الله مهد له طريق الجهاد .. فقال لكعب : رضيت بما اشترطت به على ..

ولما حانت ساعة الرحيل إلى تبوك .. وأذن الرسول فى المسلمين بالتحرك .. ركب واثلة راحلة كعب .. ولّى من كرمه وجوده ما جعل لسانه يلهج بالثناء عليه .. فقد كان كعب يقدم له الطعام والشراب .. ويقاسمه حتّى فى التمر ..

ويحكى واثلة أن المسلمَين أصابوا فيئا كبيرا فى إحدى السرايا التى كان أميرها خالد بن الوليد..وقسم الفىء فكان نصيب واثلةست نياق..فأخذيسوقها حتّى بلغ خيمة كعب ابن عجرة .. وناداه : اخرج يرحمك الله .. فانظر إلى نياقك وخذها .. وكانت مفاجأة لواثلة أن خرج كعب وهو مبتسم .. وقال : ياواثلة .. بارك الله لك فيها .. ما حملتك وأنا أريد أن آخذ منك شيئا ..

كانت هذه النياق أول شىء يصيبه واثلة من عرض الدنيا .. فقد أمضى حياته مع أهل الصفة .. ربما يمر عليه يوم ويومان .. وهو صائم لا يجد ما يفطر عليه .. ولم يحدث أن حصل على درهم أو دينار .. أو كان له ثوبان فى وقت واحد .. وكان عزاؤه أن متاع الدنيا قليل . . وأن نعيم الآخرة لاينفد .. وأن ما فاته فى الدنيا سيعوضه الله عنه يوم القيامة . . وقد أكسبته حياة العزلة والعبادة صفاء فى النفس . ونقاء فى القلب ، وشفافية فى الوجدان ، ووضاءة فى الفكر ، ونورا فى البصيرة .. وأصبح بين أهل الأرض كالكوكب الدرى فى السماء .. تأنس به الملائكة..وتتعطر الأرض من عبير سجوده وقيامه عليها .

وحسب واثلة بن الأسقع ، وحسب زملائه من أهل الصفة أنهم أول زمرة تدخل الجنة .. فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة ؟ » .. قالوا : الله ورسوله أعلم .. قال : « فقراء المهاجرين الذين تتّقى بهم المكاره، يموت

أحدهم وحاجته فى صدره ، لا يستطيع لها قضاء . فتقول الملائكة : ربنا نحن ملائكتك وخزانك وسكان سماواتك لاتدخلهم الجنة قبلنا .. فيقول : عبادى لا يشركون بى شيئا .. تتقى بهم المكاره . يموت أحدهم وحاجته فى صدره ، لم يستطع لها قضاء ، فعند ذلك تدخل عليهم الملائكة من كل باب ، وتقول لهم : «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .. فهنيئا لواثلة ببشرى رسول الله .. وهنيئاً لزملائه من أهل الصفة .

* * *

مجاهد بن جبر
أحد أئمة التابعين والمفسرين

من

حق تاريخه المضيء بنور القرآن ، والمعطر برائحة التفسير ، والمثمر بغرائس التقوى . . أن نقف عنده وقفة نتأمل مدارجه فى العلم ، ومعارجه فى الفهم ، ومنازله بين أئمة التابعين . . الذين سمعوا من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم . . وتعلموا على يد المصطفى كيف ينشدون رحمة الله ، ويبتغون مغفرته ، ويملأون قلوبهم بحبه ، ويصقلون وجدانهم بمعرفته ، ويستغنون به إذا افتقر الناس ، ويعزون به إذا ذل الناس . .

كان مجاهد بن جبر أفقه تلميذ فى مدرسة ابن عباس . . على يده تعلم التفسير ونبغ فيه . . ودرس أسباب نزول القرآن آية آية . . حتى قيل إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاث مرات . . كان يقفه عند كل آية ويسأله : متى نزلت ؟ ولماذا ؟ وأين؟، وكان ابن عباس رضى الله عنهما ، يروى غلة مجاهد ويشبع نهمه بالعلم والمعرفة . . حتى أصبح إماماً من أئمة عصره . . يفد إليه المسلمون من كل حدب وصوب ليفهموا من كتاب الله ما عز عليهم فهمه أو غمض عليهم تأويله . .

وكان مجاهد بن جبر لا يرتزق بالعلم ، ولا يتكسب به ، وإنما كان يطلب الأجر من الله . . كما كان إذا وقف بين يدى الله عز وجل للصلاة يستغرق فى أدائها . . حتى إذا ركع يطيل الركوع حتى يظن من يراه أنه

سيظل راكعاً ، وإذا سجد يطيل السجود حتى يخيل لرائيه أنه لن يرفع جبهته من الأرض . . وكان لسانه لا يفتر عن ذكر الله ، ويقول عن ذلك : لا يكون الرجل من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً . أما عن الخشوع فى الصلاة فكان يصفه بقوله : كان العلماء إذا قام أحدهم إلى الصلاة.. هاب الرحمن عز وجل أن يشذ نظره ، أو يلتفت ، أو يقلب الحصى ، أو يعبث بشيء ، أو يحدث نفسه بشيء من الدنيا ما دام فى الصلاة . . كانوا إذا دخلوا فى الصلاة تسبح أعضاؤهم كلها ، وتتحول أجسادهم إلى ألسنة تناجى الله . .

ونظراً لما كان يتمتع به من لماحية ذهنية ، وغزارة علمية ، وعذوبة فى منطقه ، فإنه كان يجتذب الناس إلى مجلسه اجتذاباً ، حتى إن بعضهم كان حريصاً على ألا يفوته مجلس واحد ، وإلا ضاع منه خير كثير . . وكان منذ شبابه يتوقع أن يموت كل ليلة . . ولذلك فإنه كان يردد لا إله إلا الله وهو مضطجع حتى ينام . . ولما سئل عن ذلك قرأ قوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل » . . ومن بين عظاته التى حفظها الناس منه قوله : يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر : بالغنى والمريض والعبد المملوك . فيقول الله عز وجل للغنى : ما شغلك عن عبادتى التى خلقتك لها؟. فيقول الغنى : يارب إنما أكثرت من المال فطغيت . . فيؤتى بسليمان عليه السلام فى ملكه فيقول الله للغنى : أنت كنت أكثر مالا ، وأشد شغلا أم هذا ؟.فيقول الغنى : بل هذا يارب . فيقول الله له : إن هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتى . .

ثم يؤتى بالمريض فيقول له الله : ما منعك عن عبادتى التى خلقتك لها ؟ . فيقول: يارب شغلنى عن هذا مرض جسدى . . فيؤتى بأيوب عليه السلام فى ضره وبلائه . . فيقول الله للمريض : أأنت كنت أشد ضراً ومرضاً أم هذا ؟ . فيقول : بل هذا يارب . . فيقول الله : إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتى .

ثم يؤتى بالعبد المملوك . فيقول الله له : ما منعك عن عبادتى التى خلقتك لها . . فيقول المملوك : يارب فضلت على أرباباً . . فملكونى وشغلونى عن عبادتك . . فيؤتى بيوسف عليه السلام فى رقه وعبوديته ، فيقول الله له : أأنت كنت أشد فى رقك وعبوديتك أم هذا ؟. فيقول : بل هذا يارب . فيقول الله : إن هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتى .

كان مجاهد فى كل كلماته وعظاته يستهدف الدخول بالمسلم فى رحاب الطاعة الكاملة ، والعبادة الخالصة ، فلا يشغله عن الله شاغل من غنى أو مرض أو رق . . فقد ابتلى الأنبياء بأشد وأقسى ما يبتلى به إنسان . . ومع هذا لم يصرفهم بلاؤهم عن الله ، بل كانوا أكثر عبادة له ، وتضرعاً إليه .

وأما عن تفسير مجاهد بن جبر للقرآن الكريم ، ودقة فهمه لكتاب الله الله عز وجل ، فإننا نزجى بعض أمثلة ونماذج من ذلك . . يقول فى تفسير قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » : النعم الظاهرة هى الإسلام والقرآن والرسول والرزق. والنعم الباطنة هى ستر العيوب والذنوب .. وفى قوله تعالى : « وقوموا لله قانتين » . . القنوت هو الخشوع وغض البصر وخفض الجناح رهبة من الله . وفى قوله تعالى : « فظن أن لن نقدر عليه » أى لن نعاقبه بذنبه . وفى قوله تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدق به » . أى الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه . . وفى قوله تعالى : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » أى البدع والشبهات . . وفى قوله تعالى : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته » . . الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبنى على الشىء المحيط . كلما عمل ذنباً ارتفعت حتى تغشى القلب ، حتى تكون هكذا . . ثم قبض يده . . وكان يقول : إن لبنى آدم جلساء من الملائكة ، فإذا ذكر الرجل أخاه المسلم بخير قالت الملائكة : ولك بمثله . وإذا ذكره بسوء قالت الملائكة : ياابن آدم المستور عورته . . اربع على نفسك واحمد الله الذى ستر عورتك . .

وقد أسند مجاهد عن ابن عمر وابن عباس وأبى هريرة وابن عمرو وأبى سعيد ورافع بن خديج . . ومما حدث به عن ابن عمر قال : سمعت

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تموتن وعليك دين . فإنما هى الحسنات والسيئات . ليس ثم دينار ولا درهم . وليس يظلم الله أحداً » .

وعن ابن عمر أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم :«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » . :

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«إن الله تعالى يباهى بأهل عرفات ملائكة السماء ، يقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثاً غبراً من كل فج عميق . أشهدكم أنى قد غفرت لهم ».

وعلى هذا الطريق المضىء بالعلم والمعرفة ، أمضى مجاهد بن جبر ثمانين سنة . . تلميذاً فى مدرسة ابن عباس ، ثم فقيهاً يمسك بمشعل الكتاب والسنة . . حتى لقى الله وهو ساجد وكانت أكرم ميتة لأعظم فقيه وإمام من أئمة التابعين .

الفضيل بن عياض التميمي

انشغاله بالله أغناه عن لقاء الملوك

بلغ

من مراقبته لله تعالى أنه كان إذا غفل لحظة واحدة عن ذكره . . اعتبرها خسارة فادحة ألحقت به . . فالعمر هو رأس ماله . . إذا لم يستثمره فى طاعة الله ، نقص رأس المال . وبالتالى لم يكن هناك ربح يضيفه إلى رصيد الحسنات . . . وكانت التقوى بمثابة حرس على قلبه تمنع أى طائف من الدنيا ، أو مس من الشيطان أن يمسه أو يقترب منه . . وكان يرتل القرآن بتمعن وتأمل وترو . . وإذا مر بآية فيها ذكر الجنة يظل يرددها ، وكأنه يستروح عطر الجنة وشذاها. كما كان يخاف مقام ربه . . فيبكى حتى تخضل لحيته بالدموع . . وتحمر حدقتاه . . ويشحب وجهه وترتعد فرائصه . . وكأنه مقبل لتوه على الحشر والحساب . . ولا يدرى أصائر إلى الجنة أم إلى النار . .

وحين يسأل عن أسباب إجابة الدعاء يقول : لئن علم الله إخراج الآدميين من قلبك . . حتى لا يكون فيه مكان لغيره سبحانه وتعالى . لم تسأله شيئاً إلا أعطاك . لأن الفضيل كان يعتقد أن القلب إذا شغل بغير الله احتجب عن رؤية الأسرار الكونية . وبالتالى تكون الصلة مقطوعة بينه وبين اللسان . فاللسان يدعو ، والقلب غافل ، والله لا يستجيب دعاء ذى قلب غافل . .

وانشغال الفضيل بالله ملك الملوك . . كان يغنيه عن لقاء الملوك والخلفاء . والزهد مما فى أيديهم . . لأنه لا يسأل إلا الذى أعطاهم . . فهم مثله فقراء إلى الله . . حدث أن كان هارون الرشيد يؤدى فريضة الحج فذهب إلى دار الفضيل بن الربيع . وأمر حاجبه بأن يناديه . . فخرج الفضل مسرعاً وقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلى لأتيتك . . فقال هارون : ويحك ! ! قد خطر فى نفسى شىء ، فانظر لى رجلاأسأله . فقلت: ها هنا سفيان بن عيينة . . فذهبنا إليه ، وحدثه الرشيد ساعة . . ثم أعطاه بعض المال ليقضى به دينه . . وقبل سفيان المال .

ولكن الرشيد طلب عالماً آخر . . فذهبنا إلى عبد الرزاق بن همام . . وجلس إليه الرشيد وسمع منه ثم أعطاه بعض المال وقبله أيضاً . . ثم قال لى : اذهب بى إلى عالم ثالث . . فما زالت المسألة تحك فى نفسى . . فذهبنا إلى الفضيل بن عياض.. فكان لقاؤه مختلفاً عن لقاء سفيان بن عيينة . وعبد الرزاق ابن همام لأمير المؤمنين . . إذ أن كلا منهما ما كاد يعلم أن أمير المؤمنين بالباب . . حتى خرج مسرعاً وقال لهارون لو أرسلت إلى لأتيتك . . كما أنهما قبلا المال الذى أعطاه لكل منهما . . أما الفضيل فحينما أتيناه كان قائماً يصلى ويردد آية من القرآن الكريم . . ولما قرعنا البابقال: من هذا ؟ قلت : أجب أمير المؤمنين . . فقال : مالى ولأمير المؤمنين ؟ .. فقلت : سبحان الله! أما عليك طاعة ؟ فنزل وفتح الباب . . ولما صافح هارون الرشيد قال الفضيل ويده فى يد أمير المؤمنين : يالها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل !

فقال له الرشيد : خذ لما جئناك له رحمك الله . وهنا قال الفضيل ابن عياض : إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القرظى ، ورجاء بن حيوة وقال لهم : إنى قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا على . . فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة . . وهذا ما أحب أن أنبه له أمير المؤمنين . .

فسأله الرشيد . وماذا قال الثلاثة لعمر بن عبد العزيز ؟ فقال : الفضيل : أما سالم فقد قال له : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك الموت . ولكن محمد بن كعب قال له : إن أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً . فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتحنن على ولدك ، وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عز وجل ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك . . ثم مت كما شئت.

وأنا أقول لك يا أمير المؤمنين : إنى أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام . . فهل معك – رحمك الله – من يشير عليك بمثل هذا ؟ .

فبكى هارون بكاء شديداً . . فقال الفضيل بن الربيع لابن عياض : ارفق بأمير المؤمنين . فقال الفضيل : يابن الربيع أتقتله أنت وأصحابك . وأرفق به أنا ؟ . . وكان يعنى بهذا أن النفاق يقتل الخليفة . . والنصيحة تمنحه الحياة . .

وبالرغم من أن الفضيل كان صريحاً فى موعظته مع أمير المؤمنين ، فإن هارون الرشيد كان يستزيده من النصائح والعظات ، ويبكى كلما ذكر له مسئوليته أمام الله يوم القيامة . . ولما هم بالانصراف قال للفضيل : أعليك دين ؟ قال : نعم دين لربى يحاسبنى عليه ، فالويل لى إن سألنى ، والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتى . قال هارون : إنما أعنى دين العباد . فقال الفضيل : إن ربى لم يأمرنى بهذا . وإنما أمرنى أن أوحده وأطيع أمره . . ثم تلا هذه الآيات : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

فقال له الرشيد : هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك ، وتقوبها على عبادتك . فقال الفضيل : سبحان الله ! . أنا أدلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئنى بمثل هذا ؟ سلمك الله ووفقك . .

ثم صمت ولم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فلما صرنا على الباب قال هارون : أبا عباس . . إذا دللتنى على رجل ، فدلنى على مثل هذا . . هذا سيد المسلمين . .

ولكن سرعان ما دخلت امرأة الفضيل عليه وقالت له : أما ترى ما نحن فيه من ضيق الحال .. فلو قبلت هذا المال فتفرج به علينا؟ فقال لها : مثلى ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه . فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه . . ولما سمع هارون هذا الكلام قال : ندخل فعسى أن يقبل منا المال . ولكن الفضيل أصر على موقفه ولم يأخذ درهما ولا ديناراً . .

أما عن عبادته فإنه كان يلقى له حصير بالليل ، فيصلى من أول الليل حتى يغلبه النوم ، فيلقى نفسه على الحصير ، فينام قليلا ، ثم يقوم . . فإذا غلبه النوم نام ثم يقوم . . وهكذا حتى يصبح . . ومن رأيه أن من لم يقدر على قيام الليل فهو مكبل بخطيئته . .

وسأله رجل : كيف حالك يا أبا على ؟ فقال : عن أى حال تسأل ؟ عن حال الدنيا أو حال الآخرة ؟ . إن كنت تسأل عن حال الدنيا فإن الدنيا قد مالت بنا ، وذهبت بنا كل مذهب ، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة فكيف ترى حال من كثرت ذنوبه ، وضعف عمله ، وفنى عمره ، ولم يتزود لمعاده ، ولم يتأهب للموت ؟ ! !

ثم تنهد وقال : أما تدرى متى يلقى بك فى حفرة ضيقة . فى بيت الوحشة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود !

وكان الفضيل يتحدث دائما عن رحمة الله التى تسع كل شىء . . . يقول : لو ألقى بى فى النار ما يئست من رحمة الله طرفة عين . . إنه ما من ليلة اختلط ظلامها . وأرخى الليل سربال ستره إلا نادى الجليل جل جلاله من فوق عرشه : أنا الجواد . ومن مثلى ؟ أجود على الخلائق ، والخلائق لى عاصون ! . وأنا أرزقهم وأكلأهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى . أنا الجواد ، ومن مثلى ؟ أجود على العاصين لكى يتوبوا فأغفر لهم . فيابؤس

القانطين من رحمتي ! ويا شقوة من عصاني وتعدى حدودي ! أين التائبون من أمة محمد ؟

وكان الفضيل يبجل حامل القرآن ، ويطلب إليه أن يرتفع بأخلاقه وسلوكه فوق أخلاق وسلوك البشر . . لأن نور الله الذى يتلألأ فى صدره يجب أن يظل ساطعاً وهاجاً ، ولأن حامل القرآن قريب من الله . . فلا ينبغى أن يلغو ولا أن يسهو ، ولا أن يطلب من أحد شيئاً . . يقول الفضيل :

حامل القرآن ، حامل راية الإسلام ، لا ينبغى له أن يلغو مع من يلغو . . ولا أن يلهو مع من يلهو . . ولا أن يسهو مع من يسهو . . ينبغى لحامل القرآن ألا يكون له إلى الخلق حاجة . لا إلى الخلفاء فمن دونهم . . وينبغى أن تكون حوائج الخلق إليه . .

كما كان الفضيل لا يحب المرائين الذين يقولون ما لا يفعلون ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فى المجالس ، ويتظاهرون بالتقوى ، وهم عصاة . . يقول: اتق الله . لا تكن مرائياً ، وأنت لا تشعر . تصنعت وتهيأت حتى عرفك الناس . فقالوا : هو هو رجل صالح . . فأكرموك ، وقضوا لك الحوائج ، ووسعوا لك فى المجالس . . وإنما عرفوك بالله . ولولا ذلك لهنت عليهم كما هان عليهم الفاسق . . لم يكرموه ولم يوسعوا له فى المجلس . .

وكان الفضيل ينهى عن الغيبة . . ويقول : إذا ظهرت الغيبة ارتفعت الأخوة فى الله . . إنما مثلكم فى ذلك الزمان مثل شىء مطلى بالذهب والفضة . داخله خشب ، وخارجه حسن .

هذه لمحات من حياة هذا العابد الأواب الذى ولد بخراسان . وقدم الكوفة وهو كبير . فسمع بها الحديث . . ثم تعبد وانتقل إلى مكة فمات بها فى سنة سبع وثمانين ومائة . . وقد لقى الله وهو ساجد فى المحراب .

طاووس بن كيسان اليمانى

صلى الفجر بوضوء العشاء اربعين سنة

إذا كان الإيمان مراتب والتقوى درجات . . والعبادة منازل . . فإن طاووس بن كيسان اليمانى يتبوأ أسمى مراتب الإيمان . . وأعلى درجات التقوى . . وأطيب منازل العبادة . . كان من العباد الزهاد الصابرين الشاكرين . . الآمرين بالمعروف . . والناهين عن المنكر . . الصوامين القوامين . . الذين يصلون الفجر بوضوء العشاء . . حتى إنه حج أربعين سنة.. وصلى الفجر بوضوء العشاء طوال هذه السنوات الأربعين.

وكان إذا رأى منكراً لا يسكت عليه . . بل يقول رأى الإسلام فيه واضحاً صريحاً . . مهما يكن شأن مرتكب المنكر . . ولذلك كان ولاة بنى أمية يحاولون استرضاءه . . فى الوقت الذى كان يتهافت على هباتهم وعطائهم بعض طلاب الدنيا من المسلمين . . وكان طاووس يقول لكل من يقابله من أصدقائه : لا تنزلن حاجتك بمن أغلق دونك أبوابه . . ووضع عليها حجابه . . ولكن أنزلها بمن بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة . . فقد أمرك بأن تدعوه . . وضمن لك الإجابة . .

ويدلنا مدى زهد طاووس بن كيسان فى مال الولاة ، لحرصه على أن يظل مجاهراً برأى الإسلام . . دون ممالأة أو مواربة أو خوف . . ما وقع بينه وبين محمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج . . فقد بعث إليه هذا الأمير بخمسمائة دينار . . ليستعين بها على نفقته ونفقة أولاده . . فرفض طاووس

أن يأخذها . . فما كان من مبعوث الأمير إلا أن ألقى بها فى كوة البيت . . وانصرف . . ولما عاد إلى محمد بن يوسف الثقفى كذب عليه . . إذ قال له : إن طاووس بن كيسان قبل المال . . فكافأه الأمير بثياب فاخرة على ذلك .

ولكن ما إن مضت فترة قصيرة ، حتى سمع الأمير أن طاووس بن كيسان تناول بعض تصرفاته بالنقد ، فأرسل إليه حاجبه ليذكره بالمال الذى منحه إياه . . فقال له طاووس فى هدوء : إن الصرة التى رماها مبعوث الأمير فى كوة البيت ما زالت فى مكانها لم تمسسها يد . . وقد خيمت عليها العنكبوت . . ثم نادى خادمه وأمره بأن يعطى الصرة الموجودة فى كوة البيت حاجب الأمير . .

ولما رجع الحاجب إلى الأمير . . وأخبره بحقيقة الأمر . . تيقن أن هذا الفقيه الزاهد وضع الدنيا تحت قدميه . ولم يسمح لشىء فيها أن يشوب ضميره أو عقيدته . .

ثم مضت فترة من الزمن قرر خلالها سليمان بن عبد الملك أن يؤدى فريضة الحج .. فطلب من حاجبه أن يأتيه بفقيه ليسأله فى بعض المناسك. ولما كانت سمعة طاووس العلمية تطبق الآفاق . . فقد ذهب إليه حاجب الخليفة وطلب منه أن يذهب معه للقاء أمير المؤمنين . . فقال له طاووس : أعفنى .. فكرر الحاجب عليه الطلب حتى قبل وذهب إلى سليمان بن عبد الملك ولما دخل عليه قال له :

ـ يا أمير المؤمنين . . إن صخرة كانت على شفير جب فى جهنم ثم هوت فيها سبعين خريفاً ، حتى استقر قرارها . . أتدرى لمن أعدها الله ؟

فقال له سليمان بن عبد الملك :

ـ ويلك ! ! لمن أعدها الله ؟

قال طاووس :

ـ لمن أشركه الله فى حكمه فجار على عباده وظلمهم . .

فأطرق سليمان برأسه إلى الأرض . . واغرورقت عيناه بالدموع . .
ثم رفع رأسه وقال : ثم ماذا ياطاووس ؟ حدثني وعظني . .

فاستأنف طاووس حديثه قائلا : حدثني رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا : « دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى طعام في مجلس من مجالس قريش . . فقال : إن لكم على قريش حقاً . . ولهم على الناس حق . . ما استرحموا فرحموا . . واستحكمو فعدلوا . . وائتمنوا فأدوا الأمانة . . فمن لم يفعل ذلك فإن الله لا يقبل منه صرفاً ولا عدلا . . »

وبعد أن فرغ طاوس من كلامه أراد سليمان بن عبد الملك أن يكافئه على موعظته فقال له : يا أمير المؤمنين إننا لا نأخذ على العلم أجراً . . وإن عمر ابن الخطاب كان يقول : إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه . . أى فاتهموه فى علمه . .

ومن شمائل طاووس بن كيسان أنه كان كثير الصمت . . دائم التفكر . . ولما سئل عن سبب صمته الطويل قال : ما من شيء يتكلم به ابن آدم إلا أحصي عليه . . حتى أنينه فى مرضه . . وإن المرء يقول الكلمة لا يلقى لها بالا . يهوى بسببها فى النار سبعين خريفاً . .

ومن نصائحه لابنه : يابنى . . إن المال يؤتى به يوم القيامة هو وصاحبه فيتحاجان . . يقول صاحب المال للمال : ألم أجمعك فى يوم كذا . فى ساعة كذا ؟ فيقول المال : قد قضيت بى حاجة كذا . وأنفقتنى فى كذا . . فى ساعة كذا . . فيقول صاحب المال : إن الذى تعده على حبال أوثق بها . . فيقول المال : أنا الذى حلت بينك وبين أن تصنع بى ما أمرك الله عز وجل . .

كما كان يعلم ابنه كيف يختار أصدقائه وجلساءه . .

يقول له : يابنى صاحب العقلاء . . تنسب إليهم وإن لم تكن منهم . .

ولا تصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم . واعلم أن لكل شيء غاية . . وغاية المرء حسن خلقه . .

وقد عاش طاووس بضعاً وتسعين سنة . . وأدرك خمسين رجلا من الصحابة . . وأكثر روايته عن ابن عباس رضى الله عنه . . وقد توفى بالمزدلفة . وقيل بمنى . . وخرجت مكة كلها تشيع جثمانه حتى إن عبد الله ابن الحسن بن الإمام على كرم الله وجهه حمل قائمة النعش ولم يتركها حتى بلغ القبر .. إجلالا لهذا الفقيه العظيم .

معروف الكرخي

في طفولته لا يصدق أن الله بحاجة إلى وسيط

لم يكن أبواه مسلمين . . ولم تصافح آيات القرآن الكريم مسمعيه فى طفولته . . كل ما كان يعرفه ديانة أخرى غير الإسلام . . لم يطمئن لها قلبه . . ولم يستجب لها وجدانه . . ولم تسترح لها نفسه . . كان فى طفولته الغضة لا يصدق أن الله بحاجة إلى وسيط . . إذ كيف يخلق الناس متساوين . . ثم يختار من بينهم من يجعله وسيطاً بينه وبين عباده . . وهو الذى يعلم السر وأخفى . . ويرى خطرات القلب . . بل يسمع دبيب النملة فى جنح الليل . . كيف يكون قريباً من نفس الإنسان ويعلم عنها ما لا يعلم الإنسان نفسه . . ثم لا تصل إليه توبة عبد أو دعاؤه إلا بواسطة واحد من خلقه . . ؟ !

كل هذه المعانى جاشت فى نفس معروف بن الفيرزان الكرخى . . وهو طفل يدرج إلى الصبا ، ويتعلم فى الكتاب مبادئ القراءة والكتابة . . واهتدى بنظرته النقية السوية إلى وحدانية الله . . وعرف هذه الوحدانية بعد ذلك من أطفال المسلمين . . وتمردت نفسه فىالسن المبكرة على كل ما لقنه أبواه من تعاليم كان يرفضها عقله ، ويلفظها وجدانه ، ولا تجد مكاناً لها فى قلبه وأحاسيسه . .

وأعلن تمرده هذا ذات يوم فى الكتاب أمام معلمه . . فحين طلب إليه المعلم أن يردد وراءه تعاليم ديانته أبى الطفل الذى لم يبلغ العاشرة ، وصاح بأعلى صوته الطاهر : « أحد . . أحد » . . نفس العبارة التى كان ينطقها بلال بن رباح وهو يعذب بسياط المشركين . . وفوجئ معلم معروف الكرخى بأن تلميذه متمرد على دراسة ديانته ، فما كان منه إلا أن ألهبه بالسوط ، وظل يضربه ضرباً مبرحاً . . حتى انطلق الطفل وهو يصيح من شدة الألم . . وهام على وجهه فى الطرقات . . وخشى إن ذهب إلى والديه أن يوسعاه ضرباً لخروجه من ديانته . .

وسرى فى بغداد كلها نبأ الطفل معروف الكرخى الذى أسلم وترك دين آبائه . . بل هجر أسرته ، وذهب إلى حيث لا يعلم أحد عنه شيئاً . . وكان وقع هروبه أليماً على أمه . . فراحت تبحث عنه دون جدوى . . ولما يئست من العثور عليه . . قالت وهى تبكى : لئن رد الله على ابنى معروفاً لاتبعته على أى دين كان . .

وبعد سنوات كثيرة عاد معروف إلى أسرته . . فقالت له أمه : يابنى .. على أى دين أنت ؟ فقال لها : على دين الإسلام . . قالت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . ثم أسلمت الأسرة كلها . .

أخذ معروف الكرخى يدرس الإسلام ويتفقه فيه . . وشاقه أن يكون مؤذناً ومقيماً للشعائر . . وكان شعر لحيته وصدغيه يقف حين يؤذن كأنه زرع . . كما كان يبكى فى السحر وينشـــد :

أى شىء تريد منى الذنوب   شغفت بى فليس عنى تغيب
ما يضر الذنوب لو أعتقتنى   رحمة لى . . فقد علانى المشيب

وجاء رجل إلى معروف وقال له : أوصنى . فقال له معروف : توكل على الله حتى يكون جليسك وأنيسك وموضع شكواك . . وأكثر ذكر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره . . واعلم أن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ، ولا يعطونك ولا يمنعونك . . وخف الله تملأ مهابتك القلوب ..

وعليك بالصلاة فى وقت السحر . . لكى تشهد لك الملائكة . . فوالله ما نفع الصالحين مثل كثرة الأذكار . . والصلاة فى الأسحار . . وأخرج الدنيا من قلبك . . فلن تصح لك سجدة . . وحب الدنيا بين جوانحك . .

وكان معروف الكرخى إذا رأى معصية يسأل الله أن يتوب على صاحبها.. ولم يحدث أن دعا على إنسان قط . . وكان يجلس يوماً على شاطئ دجلة ومعه بعض أصحابه . . فمر عليهم زورق به صبية يشربون ويغنون . . فقال له أصحابه : أما ترى أن هؤلاء فى الماء يعصون الله ؟ ادع عليهم . . فرفع يده إلى السماء وقال : إلهى وسيدى . . أسألك أن تفرحهم فى الجنة . . كما فرحتهم فى الدنيا . . فقال له أصحابه : إنما قلنا لك : ادع الله عليهم . . ولم نقل لك : ادع الله لهم . . فقال : إذا فرحهم فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا ، ولم يضركم بشىء . . .

وبهذا لقن أصحابه درساً فى معاملة العصاة . . لقد كان يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم . . إذ كان لا يدعو على أحد قط . . بل كان يقول عن المشركين : عسى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله . .

ويروى عن معروف الكرخى أنه كان مستجاب الدعاء . . ذهب إليه رجل اسمه خليل الصياد . وقال له : يا أبا محفوظ . . ابنى قد غاب فى الأنبار ، ووجدت أمه عليه وجداً شديداً . . فقال له معروف : ماذا تريد ؟ فقال الرجل : تدعو الله أن يرده عليها . . فرفع معروف يديه وقال : اللهم إن السماء سماؤك ، والأرض أرضك . . وما بينهما لك ، فأت به . . قال خليل : فأتيت باب الشام ، فإذا ابنى قائم بنهر . . فسألته : متى جئت ؟ . قال : جئت الساعة من الأنبـــار . .

وقد عاش معروف الكرخى حتى سنة مئتين هجرية . . ولما وافته المنية . قال لأهله : إذا مت فتصدقوا بقيمصى هذا . . فإنى أحب أن أخرج من الدنيا عريان . . كما دخلت إليها عريان . .

ويحكى أحد معاصريه . . واسمه أحمد بن الفتح . . قال : رأيت بشر ابن الحارث فى منامى ، وهو قاعد فى بستان . . وبين يديه مائدة يأكل منها . فقلت له : يا أبا نصر ما فعل الله بك ؟ قال : اغفر لى ورحمنى وأباحنى الجنة بأسرها . . وقال لى : كل من ثمارها ، واشرب من أنهارها . . وتمتع بجميع ما فيها . . كما كنت تحرم نفسك الشهوات فى دار الدنيا . . فقلت له : فأين أخوك أحمد بن حنبل ؟ قال : هو قائم على باب الجنة ، يشفع لأهل السنة ممن كان يقول : القرآن كلام الله غير مخلوق . فقلت له : فما فعل معروف الكرخى؟ فحرك رأسه ، ثم قال لى : هيهات! حالت بيننا وبينه الحجب . . إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته . ولا خوفاً من ناره . . وإنما عبده شوقاً إليه . . فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ، ورفع الحجب بينه وبينه . .

رضى الله عن معروف الكرخى . . فقد ضوأ الله قلبه وهو طفل غض الإهاب . . ومسحت يد السماء على وجدانه النضير فامتلأ بحب الله ، ولم تجد الدنيا موضعاً لها فيه . . وكان مباركا فى غدواته وروحاته . . تتصاعد أنفاسه مسبحة لله ، وخواطره هائمة فى ملكوته . . حتى لقى الله وكله شوق إلى لقائه .

ربيعة بن أبي عبد الرحمن

موضع إعجاب شيوخه وتقدير معلميه

شهد **مسجد الرسول ﷺ شاباً فى مقتبل العمر . . يجمع بين ملاحة الشباب . . ووضاءة التقوى . . وسمة العلماء . . إذا عقد مجلسه فى العشية يحضره أشراف المدينة المنورة . . وكلهم لهفة لسماعه ، وشوق لمتابعته ، حتى إن مالك بن أنس ، وأبا حنيفة النعمان وهما من أئمة الفقه ، كانا يحرصان على شهود مجلسه . . لما عرف عنه من فهم عميق للدين . . وعبقرية فى تخريج مسائل الفقه ، وأستاذية فى تفسير كتاب الله . . فقد آتاه الله قلباً صافياً يلهمه الحكمة ، ونفساً مطمئنة تحبوه الفطنة ، وذهناً متوهجاً يفتح له أكمام الوعى . . وبهذه المواهب والقدرات تبوأ قمة الشهرة ، وارتقى درج الإجلال والتبجيل . . فتعالوا بنا نرصد دوران نجمه فى فلك الحياة منذ طفولته الطاهرة الباهرة .**

كان والده أبو عبد الرحمن فروخ مولى آل المنكدر . . خرج أيام بنى أمية إلى خراسان غازيا فى سبيل الله . . وربيعة جنين فى بطن أمه . . وقد ترك فروخ لزوجته أم ربيعة ثلاثين ألف دينار وبيتا فى المدينه . . ولم يكن يعلم مدى الفترة التى سيمضيها فى خراسان . . أشهرا ستكون أم سنوات . .

ومرت أشهر الحمل على زوجته ثم وضعت ربيعة . . وكان منذ تفتحت عيناه على الدنيا من حوله تبدو عليه مخايل النجابة . وأمارات العبقرية . . فقد عكفت أمه على تربيته تربية علمية . . مؤملة أن يأخذ حظه من الحياة فى وسط العلماء . . وصدق حدسها . . فقد حفظ ربيعة القرآن فى سن مبكرة على يد أحد الحفاظ فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . . وانخرط فى دراسة علوم الدين بكل ما آتاه الله من قدرة على الفهم والاستيعاب حتى بذ أقرانه ، وتفوق على لداته ، وكان نسيج وحده فى التحصيل . .

وكان ربيعة لنبوغه المبكر ، وذكائه اللماح ، موضع إعجاب شيوخه ، وتقدير معلميه . . فوجدت أمه فيه عوضا عن أبيه فروخ الذى غاب فى خراسان ولم تعد تسمع عنه شيئا . . وإذ كانت الأم قد فرغت ابنها تماما للعلم والدراسة ، فلم يكن لديها مورد رزق إلا المال الذى أودعها زوجها إياه . . فأخذت تنفق منه على ربيعة حتى نضج شبابه ، واستوفى على الغاية من العلم الذى ينشده . . ولما أنس فى نفسه القدرة على أن يؤدى دور الواعظ ، استأذن إمام مسجد الرسول فى أن يلقى على الناس درسا بعد صلاة المغرب . . فأذن له .

كان أول درس ، أو أول محاضرة ألقاها ، أمرا عجبا عند الناس . . فقد شهدوا فتى يتحدث بطلاقة فى شئون الدين ، حتى استولى على ألبابهم ، وهيمن على مشاعرهم . . وأجبرهم حسن حديثه ألا يبرحوا المسجد . . وبالطبع خلف أثرا حسنا فى النفوس ، ووقعا طيبا فى القلوب . . فحرص الناس فى اليوم التالى على حضور مجلسه والاستماع إليه . . ونمى إلى أشراف المدينة نبأ هذا الشاب . . فكانت نسبة حضورهم لمجلسه مائة فى المائة . .

وعلمت أم ربيعة بأن ابنها بلغ درجة من العلم والحكمة والعبقرية جذبت إليه القلوب . وحفته بهالة من الإعجاب . . وأحاطته بطفاوة من التقدير . فشكرت الله على أن غرسها أثمر ، بل أينع ثمره ، وآتى أكله . .

كان ربيعة قد بلغ السابعة والعشرين من عمره حين طرق الباب طارق . . ولما فتح له وجده رجلا يركب فرسا وفى يده رمح . . وسرعان ما نزل

عن فرسه . . ثم دفع الباب برمحه . . ليدخل البيت . . فتصدى له ربيعة وقال له : يا عدو الله . أتهجم على منزلى ؟ فقال له فروخ : بل أنت عدو الله.. كيف دخلت على زوجتى ؟ ! ثم شهر كل منهما السلاح فى وجه صاحبه ، وكادا يدخلان فى معركة . . وهنا تدخل الجيران . . وأسرع رجل إلى مالك بن أنس وكان فقيه المدينة فحضر ومعه بعض الشيوخ . . فسمعوا ربيعة يقول : والله لا أفارقك إلا عند السلطان : : وفروخ يرد عليه : والله لا فارقتك إلا عند السلطان . . فقد وجدتك عند امرأتى . .

وحين أبصر الناس مالك بن أنس سكتوا جميعا . . وهدأت الضجة فقال مالك لفروخ : أيها الشيخ . . لك سعة فى غير هذه الدار . . فقال الشيخ : هى دارى . وأنا فروخ مولى آل المنكدر . . فسمعت امرأته من داخل الدار كلامه فخرجت وقالت : هذا زوجى . وهذا ابنه الذى خلفه وأنا حامل به . :

وهنا خيم الصمت على الجميع . . وتعانق الأب والابن وهما يبكيان . . ثم دخلا المنزل . . وانصرف أنس بن مالك والشيوخ الذين كانوا معه . . كما انصرف الجيران . . وكل منهم فى عجب مما حدث .

ولما جلست أسرة فروخ . . الزوج والزوجة والابن . . سألها : ماذا فعلت بالمال الذى تركته معك ؟ فقالت له : دفنته وسأخرجه بعد أيام . . فمد يده بكيس ممتلىء بالنقود . . وقال لها : خذى هذا المبلغ . فهو أربعة آلاف دينار . .

وبعد أن أخذ فروخ قسطا من الراحة خرج إلى مسجد الرسول . . فشهد لأول مرة مجلس ابنه ربيعة وأشراف المدينة جالسون فيه . . فتملكه الزهو . . وأحس بالفرحة تملأ جوانحه . . فعاد إلى بيته وقال لزوجته : لقد رأيت ولدك فى حالة ما رأيت أحدا من أهل الفقه والعلم عليها . . فقالت له : أيهما أحب إليك : ثلاثون ألف دينار ؟ أم هذا الذى هو فيه من الجاه ؟ فقال : لا والله إلا هذا . . قالت : إنى أنفقت المال كله عليه . . فقال : والله ما ضيعته . .

عاش ربيعة متفرغا للدعوة ، زاهدا فى المناصب ، عازفا عن جاه الدنيا . . حتى إنه حين عرض عليه أبو العباس السفاح جائزة قدرها خمسة آلاف درهم . . أبى أن يقبلها ، وعرض عليه أن يوليه منصب القضاء فأبى أيضا . . واكتفى ربيعة من الدنيا بالقليل من الزاد والثياب . . ولما اختاره الله لجواره فى السنة السادسة والثلاثين بعد المائة من الهجرة . . خرجت المدينة كلها تشيعه . . وقال يومها مالك بن أنس : ذهبت حلاوة الفقه بعد ربيعة . فوالله ما رأيت أحدا فى مثل عقله ورأيه وفطنته . . لقد كان صواما قواما خدم الدين كما لم يخدمه أحد .

أبو سليمان الداراني

كان أعبد أهل زمانه

إذا نظرت إلى أى جانب من جوانب حياته تجده مشرقاً وضاء شفيفاً طيب الرائحة وسيم الملامح..فهو عابد كأخلص ما تكون العبادة. . تقى كأسمى ما تكون التقوى . . متوهج الوجدان حباً لله وشوقاً إليه . . كتألق الشهاب الساطع حين لا تحجبه مزنة ، أو يخفيه سديم . . يعيش على مائدة القرآن وعلومه فى نهم دائم ومواجيد متصلة . . وكأنما ارتفع فوق بشريته وسما فوق عناصره الأرضية . . ولم يكن رغم انهماكه فى العبادة كلا على أحد . . ولا عالة على إنسان . . وإنما كان يمشى فى مناكب الأرض طلباً للرزق . . دون أن يشغله شاغل عن الله . . أو يغويه شيطان بمعصية . . أو توسوس له له نفسه بنزوة تهبط به من سدرة الحب الإلهى إلى عراء الحرمان من لذة القرب من ربه . . أو تقصيه عن نعيم الفيض السماوى الذى يجرى فى جوانحه وجوارحه .

وكان لعبد الرحمن بن أحمد العنسى وهذا اسمه — أختان تتنافسان فى التقوى . وتتسابقان فى العبادة . وتتباريان فى الورع . . وكأنما أراد الله لهذه الأسرة أن تستظل بالإسلام مبادىء وقيماً ومثلا وأن تتشكل سلوكياتها وفق تعاليم السماء .

وبما أن الإسلام يحث على العمل . ويعد العاملين بأعلى الدرجات ،

فقد كان أبو سليمان الدارانى يأكل من عمل يده ؛ ويسعى لكسب قوته ، ولا يجلس فى بيته ينتظر من يتصدق عليه بدرهم أو بدينار ، كان يطبق الحديث النبوى الشريف : اليد العليا خير من اليد السفلى..وكان يقول لكل واحد من أصحابه : ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك ، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد ، ولاخير فى قلب يتوقع قرع الباب ويتوقع إنساناً يجيئه ليعطيه شيئاً .

وكانت حكمه الغوالى فى مجالس علمه تأخذ بيد السالك إلى أقوم طريق ، وترشده إلى مزالق المعصية ليتحاشى السقوط فيها ، وتعالج أمراض القلب لكى يظل سليماً يتذوق حلاوة الطاعة ، ويأنف من مرارة المعصية . . كان أبو سليمان الدارانى كالطبيب النطاسى يعلم مواطن الداء ويصف العلاج الناجع له . .

ومن بين كلماته الشافية الهادية قوله :

تعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف . واستجلب نور القلب بدوام الحزن . . والتمس باب الحزن بدوام الفكرة . . والتمس وجوه الفكرة فى الخلوات . . وتحرز من إبليس بمخالفة هواك . . وتزين لله بالإخلاص والصدق فى الأعمال..وتعرض للعفو بالحياء منه والمراقبة . . واستجلب زيادة النعم بالشكر .. واستدم النعم بخوف زوالها .
وكان يقول كذلك :

لا عمل كطلب السلامة ، ولا سلامة كسلامة القلب ، ولا عقل كمخالفة الهوى . . ولا فقر كفقر القلب . . ولا غنى كغنى النفس . . ولا قوة كرد الغضب . . ولا نور كنور اليقين ، ولا يقين كاستصغار الدنيا . . ولا معرفة كمعرفة النفس . . ولا نعمة كالعافية من الذنوب . . ولا عافية كمساعدة التوفيق ، ولا زهد كقصر الأمل..ولاحرص كالمنافسة فى الدرجات..ولا طاعة كأداء الفرائض.. ولا تقوى كاجتناب المحارم ، ولا عدم كعدم العقل ، ولا فضيلة كالجهاد ،ولا جهاد كمجاهدة النفس ، ولا ذل كالطمع .

كما كان يقول أيضاً :

من لم يحسن رعاية نفسه أسرع به هواه إلى الهلكة..ولا ينفع الهالك نجاة المعصوم.. ومرارة التقوى اليوم حلاوة يوم القيامة ،والهالك من هلك فى آخر سفره وقد قارب المنزل .

وبينما كان أبو سليمان الدارانى يمر يوماً فى جبل اللكام ، إذا به يسمع عابداً يتعبد فى الجبل ، ويدعو الله قائلا : ياسيدى وأملى ومؤملى . ومن به تم عملى ، أعوذ بك من بدن لا يقف بين يديك . وأعوذ بك من قلب لا يشتاق إليك ، وأعوذ بك من دعاء لا يصل إليك .. فاقترب أبو سليمان من هذا العابد وقال له :

– يافتى . . إن للعارفين مقامات . . وللمشتاقين علامات .

فقال له العابد : وما هى يرحمك الله ؟ .

قال أبو سليمان: كتمان المصيبات وصيانة الكرامات ، اذهب فلا ترد الدنيا ، واتخذ الفقر غنى ،والبلاء من الله عز وجل شفاء ، والتوكل على الله عز وجل شفاء ، ومعاشاً . . والجوع حرفة . . واتخذ الله لكل شدة عدة .

وقد أسند أبو سليمان الدارنى عن عدد من التابعين أحاديث قليلة ، منها أنه قال :

حدثنى شيخ بساحل دمشق يقال له علقمة بن يزيد بن سويد الأزدى. قال ، حدثنى أبى عن جدى سويد بن الحارث ، قال :

وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سبعة من قومى. فلما دخلنا عليه وكلمنا أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا ، فقال : من أنتم؟.قلنا: مؤمنون ، فتبسم وقال :

– إن لكل قول حقيقة . فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟

قلنا : خمس عشرة خصلة ، خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها ،

وخمس منها أمرتنا رسلك أن نعمل بها . وخمس منها تخلقنا بها فى الجاهلية . . فنحن عليها إلى أن تكره منها شيئاً .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

– وما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تؤمنوا بها ؟

قلنا : أمرتنا رسلك أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت .

قال الرسول :

– وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها ؟

قلنا : أمرتنا رسلك أن نقول: لا إله إلا الله ، ونقيم الصلاة . ونؤتى الزكاة ، ونصوم رمضان ، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلا ..

قال الرسول :

– وما الخمس التى تخلقتم بها أنتم فى الجاهلية ؟

قلنا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء . والصدق فى مواطن اللقاء ، والرضا بمر القضاء ، والصبر عند شماتة الأعداء .

فقال صلى الله عليه وسلم: علماء حكماء كادوا من صدقهم أن يكونوا أنبياء . ثم قال صلى الله عليه وسلم :

– وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة..إن كنتم كما تقولون . فلا تجمعوا ما لا تأكلون ، ولا تبنوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه تزولون ، واتقوا الله الذى إليه ترجعون وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون . وفيه تخلدون .

فانصرف القوم من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وحفظوا وصيته وعملوا بها .

وقال علقمة بن يزيد: والله يا أبا سليمان ما بقى من أولئك النفر ولا من أولادهم أحد غيرى .

ولقد كان أبو سليمان الدارانى من مواليد قرية داريا إحدى قرى دمشق ولم يعلم فى عصره أعبد منه ، وتوفى فى سنة خمس ومائتين بعد أن ضرب أروع الأمثال فى الزهد والتقوى والإخلاص لله عز وجل.

شقيق بن ابراهيم البلخى

نزل عن أملاكه فى ثلثمائة قرية للفقراء والمساكين

تجرد

لله فى خشوع خاشع وتضرع ذليل . . وصبر لا تهزه الأحداث . . وتوكل محفوف بالإيمان . . وحب عميق لله ملأ قلبه وصدره ووجدانه ، وجعل مشاعره ربانية . . ترتوى من جداول النور الإلهى . . فلم تدع للخواطر الدنيوية منفذاً إلى كيانه وباطنه . . وهانت الدنيا فى عينيه حتى تخلى عن كل شىء يملكه فيها . . وما أوسع أملاكه التى نزل عنها راضياً للفقراء والمساكين . . فقد كانت تمتد فى ثلثمائة قرية كلها بساتين وارفة الظلال ، يانعة الثمر . . دانية القطوف .

كان رأسمالياً بلغة العصر . . ولكنه سمع عبارة هزته هزاً عنيفاً . فراح ينفق ذات اليمين وذات اليسار . . حتى أصبح أفقر فقراء عصره مالا . . ولكنه أغنى أهل العصر طاعة وتقوى وورعاً وزهداً ، وأثراهم علماً ومعرفة . . وأصفاهم نفساً وقلباً وعقلا . . ومن ثم كان أكثر مهابة من الملوك فى أسماله البالية . . وأعظم جلالا من السلاطين فى هيئة النقية ، وملامحه الوضاءة . .

أما العبارة التى حولت مسار حياته فقد سمعها فى بيت من بيوت الأصنام فى تركيا . . كان فتى حدثاً يتخايل بفتوته وثرائه . . وكان تاجراً تملأ قوافل تجارته ما بين تركيا وبلخ . . كما كان شاعراً يتذوق الفصاحة ، وينظم الشعر ساحراً باهراً يهز الأسماع والقلوب . . فقد حدث أن كان

فى تركيا يزاول التجارة ، وزار قوماً يقال لهم الخصوصية يعبدون الأصنام . . ودخل بيت أصنامهم ، فوجد الخادم حليق الرأس ملتحياً يلبس ثياباً حمراً أرجوانية . . فقال له شقيق :

ـ إن هذا الذى أنت فيه باطل . . ولهذا الخلق خالق ليس كمثله شىء . . ورازق كل شىء . .

فقال له الخادم :

ـ إن قولك لا يوافق فعلك . .

فقال شقيق : كيف ؟

قال الخادم : زعمت أن لك خالقاً قادراً على كل شىء . . وقد تعنيت إلى ههنا لطلب الرزق . . ولو كان كما تقول فإن الذى يرزقك ههنا ، هو الذى يرزقك هناك . . فلا داعى للعناء . .

سمع شقيق البلخى هذه العبارة من الرجل التركى . . فقرر أن ينزل عن كل أملاكه للفقراء والمساكين . . وأن ينفق الأموال التى عنده فى وجوه البر ، وكان مقدارها ثلثمائة ألف درهم . . ثم لبس الصوف وتفرغ لتحصيل العلم . . حتى استوى على عرش المعرفة . . وكانت الحكمة تجرى على لسانه وامضة هادية . . تقشع ظلام الأفئدة ، وترفع حجب المعصية عن النفوس . .

وبالرغم من أنه أعرض عن الدنيا ، وصدف عن زينة الحياة ، وتحول من حياة الدعة والترف ، إلى حياة التقشف والحرمان ، فإنه كان إذا سمع عن شىء يزيده قرباً من الله ، يبادر إلى العمل به . . فقد التقى يوماً بأحد زهاد العصر ، واسمه عبد العزيز بن أبى رواد . . فقال له :

ـ ياشقيق . . ليس البيان فى أكل الشعير ولبس الصوف والشعر ، وإنما البيان فى ثلاثة أشياء :

ـ أن تعرف الله عز وجل . . أى تعبده ولا تشرك به شيئاً . .

ـ أن ترضى عن الله عز وجل : . لتكون من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه : .

ـ أن تكون بما فى يد الله أوثق منك فى أيدى المخلوقين : :

وكان شقيق البلخى يرى أن الصبر طريق الزهاد . . والصبر على الجوع بالسرور لا بالفتور . . والصبر على العرى بالفرح لا بالحزن . . والصبر على البؤس بالرضا لا بالسخط . . والصبر على الصيام بالإقبال لا بالملالة . . :

كما كان يقول : ثلاث خصال هى تاج الزاهد . .

ـ أن يميل على الهوى ، لا مع الهوى .

ـ أن ينقطع إلى الزهد بقلبه .

ـ أن يذكر كلما خلا بنفسه كيف مدخله إلى القبر . . وكيف مخرجه منه . . وأن يذكر الجوع والعطش والعرى وطول القيامة والحساب والصراط .

أما صلاح عمل العبد فإنه فى رأى شقيق البلخى لا يتم إلا بالتضرع الدائم .. والخوف من الوعيد ، وحسن الظن بالمسلمين ، وعدم الاشتغال بعيوب الناس ، والحفاظ على أسرارهم . .

وإلى جانب ما كان يتصف به شقيق البلخى من أخلاق فاضلة وشيم حميدة وصلاح وتقوى ، فإنه كان مدرباً على حمل السلاح ، متأهباً دائماً للدفاع عن حوزة المسلمين ، وكان يتشوف إلى الشهادة حتى يلقى الله مع الأبرار والشهداء والصديقين .. ولم يكن فى معمعان الحرب يداخله خوف ، ولا يتلبسه فزع . . ومصداق ذلك أنه خاض معركة ضد الترك . فما وهن

ولا ضعف . . وإنما كان وجهه يسفر تحت النقع كأنه البدر . . لأنه كان يشم رائحة الجنة تحت ظلال السيوف ، ويدرك أن كل قطرة تسيل من دمائه فى سبيل الله . . إنما هى شهادة على صدق إيمانه . . وقد تعجب منه الواقفون بجواره . . والرءوس تتطاير . . والدماء تخضب أرض المعركة . . وهو متهلل الوجه باسم . . ويقول لمن حوله : إننى أحس بفرحة تملأ جوانحى . . كتلك الفرحة التى كنت أحسها ليلة زفاف امرأتى لى . .

هكذا كان إحساس شقيق البلخى . . العابد الصادق فى جهاده . . والثرى الذى آثر التجرد من كل ماله . . ليكون غنياً بطاعة الله وحده . . فليس الغنى فى رأيه أن يحوز الذهب والفضة ، وأن يمتلك عقارات فى ثلثمائة قرية ، وإنما الغنى أن تكون صحفه مطهرة زاكية معطرة برضوان الله . .

وحين وافاه أجله : : كان طلق الوجه يتأمل ملائكة الرحمة من حوله . . وفاضت روحه الطاهرة فى موكب من الروح والريحان . . إلى حيث برزخه المضمخ بعبير السماء .

حاتم الأصم

عاش منذ طفولته لا يشغله شيء عن الله

ارتفع

بإيمانه وسلامة فطرته وصدقه مع الله فوق زينة الدنيا وزخرف الحياة . . فكان لا يأنس إلا بالله وحده . . ولا يصغى إلا لنداء العقيدة ينبعث ربانياً من بين عطفيه فيملأ حوله الزمان والمكان . . ولا يرى إلا وميض الحب الإلهى يحجب عنه كل ما يشغله عن الحق جل وعلا . . وقد كان فى صحوه ومنامه لا تتذوق جوارحه إلا حلاوة الإيمان ولذة الطاعة ونشوة العبادة . . فآدميته تسمو إلى شفافية الملائكة . . وبشريته ترق كأمواج الأثير . . فدنياه محراب يصلى كل شيء فيه لله . . وحياته تمضى ثوانيها مسبحة مهللة . . صافية نقية . . كأنما غسلتها السماء بماء طهور . . وكان منذ صباه الغض قد تتلمذ على شقيق البلخى حتى صار ضريعه فى الزهد . . وضريبه فى العلم . . ومثيله فى الطاعة . . فهما عبدان صالحان تربطهما آصرة الحب فى الله . . وتجمعهما وشيجة الغيرة على الدين . . وتؤشب بينهما البيئة والمناخ . . إذ نبتا نباتاً حسناً فى بلد واحد . . وشرب كلاهما من كأس العلم والمعرفة والتقوى حتى الثمالة .

وعندما سئل حاتم الأصم : ماذا أفدت من شقيق ؟ قال : إننى صحبته ثلاثين سنة . . فقال لى يوماً : أى شيء تعلمت ياحاتم ؟ قلت له : رأيت

رزقى من عند ربى فلم أشتغل إلا بربى :: ورأيت أن الله تعالى وكل بى ملكين يكتبان على كل ما تكلمت به فلم أنطق إلا بالحق :: ورأيت أن الخلق ينظرون إلى ظاهرى ، والرب تعالى ينظر إلى باطنى ، فرأيت مراقبته أولى وأوجب ، فسقطت عنى رؤية الخلق :: ورأيت أن الله مستحثاً يدعو الخلق إليه ، فاستعددت له متى جاءنى (يعنى ملك الموت) فقال لى : ياحاتم . ما خاب سعيك ::

وكان يتكلم يوماً عن التوكل فسأله أحد أصحابه : علام بنيت أمرك هذا فى التوكل على الله ؟ فقال : على خصال أربع . . علمت أن رزقى لا يأكله غيرى ، فاطمأنت به نفسى ، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى ، فأنا مشغول به . وعلمت أن الموت يأتينى بغتة فأنا أبادره ، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا أستحي منه . .

وكان يتكلم فى مجلسه يوماً عن الصلاة ، فقال له أحد الحاضرين : كيف تصلى ياحاتم ؟ فقال حاتم : أقوم بالأمر . . وأمشى بالسكينة .. وأدخل بالنية . . وأكبر بالعظمة . . وأقرأ بالترتيل والتفكر . . وأركع بالخشوع . . وأسجد بالتواضع . . وأسلم بالسنة . . وأسلم بالإخلاص إلى الله عز وجل . . ثم أخاف ألا تقبل منى . .

وقد علم حاتم أولاده التسعة كيف يلتزم كل منهم الأدب مع الله . ويتحلى بضبط النفس مع الناس ، يباعد بينه وبين المعصية . وينأى عن الشبهات والمال الحرام . . وكان يقول لهم : إن المال الحرام قطعة من جهنم .. إذا دخل بيتاً أحرق البركة فيه . .

وقيل للرشيد : إن حاتم الأصم قد اعتزل الناس فى قبةله منذ ثلاثين سنة لا يحتاج إلى الناس فى شىء من أمور الدنيا ، ولا يكلمهم إلا عند مسألة لا بد له من الجواب عنها . فقال هارون : سأمتحنه ، وأرسل إليه أربعة من رجاله ، فذهبوا إلى حاتم حتى وقفوا تحت قبته . . ونادى أحدهم : ياحاتم، ياحاتم. فلم يجبهم فقالوا : بحق معبودك إلا أجبتنا .

وهنا أخرج حاتم رأسه ، وقال : يا أهل الحيرة .. هذه يمين مؤمن لكافر. وكافر لمؤمن . . لم خصصتمونى بالمعبود دونكم . . ولكن الحق جرى على ألسنتكم ، لأنكم اشتغلتم بعبادة الرشيد عن طاعة الله تعالى .

فقال أحدهم : ما علمك بأنا خدام الرشيد ؟ . . قال : لا يرضى من الدنيا بمثل حالكم إلا من اشتغل بعبادة الفرد عن عبادة الله ! . . وأنا لا يد للرشيد وأشباهه على ! ! . . فقال أحدهم : لم اعتزلت الناس ، وفيهم من تعلم . وفيهم من يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟.

قال حاتم : صدقت . ولكن بينهم سلاطين الجور . . يفتنوننا عن ديننا . فالتخلى عنهم أولى .

سأله أحدهم : علام وطنت نفسك فى العزلة وثبت عليه أمرك ؟

قال حاتم : علمت أن القليل من الرزق يكفينى ، فأقللت الحركة من طلبه . . وأن فرضى لا يقبل إلا منى فأنا مشغول بأدائه . . وأن أجلى لابد أن يأتينى . . فأنا منتظر له . . وأنى لا أغيب عن عين من خلقنى فأستحيي منه أن يرانى وأنا مشغول بغير ما أمرنى به وأوجبه على .

ثم رد باب القبة ، وحلف ألا يكلمهم ، فرجعوا إلى الرشيد ، وقد حكموا أنه أعقل أهل زمانه . .

وسئل حاتم الأصم عن تعريفه للكذاب فقال : من ادعى حب الله بغير ورع عن محارمه فهو كذاب . . ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله

فهو كذاب : : ومن ادعى حب النبى صلى الله عليه وسلم من غير حب الفقراء فهو كذاب .

وظل حاتم الأصم فى قبته حتى نادى منادى الجهاد : . وكانت قد نشبت معركة ضارية بين بلده وبين الترك ، فحمل سلاحه وانتظم فى صفوف المجاهدين . . ويحكى ما حدث له فى هذه المعركة فيقول :

لقينا الترك ، وكانت بيننا جولة فرمانى تركى بحبل فى عنقى فقلبنى عن فرسى ، ونزل عن دابته ، فقعد على صدرى وأخذ بلحيتى ، وأخرج من خفه سكيناً ليذبحنى . . فوحق سيدى ما كان قلبى عنده ولا عند سكينه . . وإنما كان قلبى عند سيدى أنظر ماذا ينزل به القضاء منه . . فقلت : ياسيدى قضيت على أن يذبحنى هذا فعلى العين والرأس . . إنما أنا لك وملكك .

وبينما أنا أخاطب سيدى ، وهو قاعد على صدرى آخذ بلحيتى ليذبحنى ، إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه . . فسقط عنى . . فقمت أنا إليه فأخذت السكين من يده فذبحته .

فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات . .

وهكذا عاش حاتم الأصم متجرداً لله . . يكتفى من دنياه بالقليل . . ليدخر رصيداً كبيراً من الصالحات الطيبات .

ابراهيم بن اسحاق الحربي

عالم الفقه والحديث والأدب

بلغ

من رضاه عن الله واستسلامه لقضائه أنه لم يشك من علة أو فقر أو مصيبة قط . . كان يجوع فيصبر حتى يؤتى له بأيسر الزاد .. ويمرض فلا يبوح بآلامه لأحد .. حتى ولا لزوجته وأمه وعشيرته الأقربين . . ويبتلى فى أحد أولاده ، فلا يتأوه ولا يتوجع ولا يبدى استياءه من تصاريف القدر . . وكان معروفاً بين أهل بغداد بأنه إمام فى جميع العلوم . . ولم يفته مجلس علم طوال خمسين سنة . . وقد نسخ بيده اثنى عشر ألف كتاب فى الأدب والحديث والفقه . . وكانت حياته علماً وعبادة وزهداً . تزجى إليه المنح والعطايا . فلا يمد لها يده . . ويؤثر أكل الخبز الجاف بالملح على أن يأخذ مما يقدمه الخليفة المعتضد من أموال العلماء والفقراء . .

فتعالوا بنا نصحب هذا العالم العامل الزاهد ساعة .. نتملاه فى روعته وصبره وتقواه . . هلموا نستمع إلى إبراهيم الحربى وهو يصف سلوكه الإيمانى ، ليعطينا المثل والقدوة والنموذج . . فى هذا السلوك تتجسد صفات لمؤمن الأواب فى أعلى قمم التقرب من الله ، والامتثال بنفس راضية ، وقلب صبور : : يقول إبراهيم الحربى :

– أجمع عقلاء كل أمة على أنه من لم يجر مع القدر لم يتهن بعيشه ..

تصيبنى الحمى فلا أشكو إلى أمى ولا إلى أختى ولا إلى امرأتى ولا إلى أولادى : حتى لا أصيبهم بالفزع أو الألم . . وعندى صداع نصفى منذ خمس وأربعين سنة . . ما أخبرت به أحداً قط . . وأمضيت من عمرى ثلاثين سنة آكل كل يوم رغيفين . . إن جاءتنى بهما أمى أو أختى أكلت . . وإلا بقيت جائعاً عطشان إلى الليلة الثانية . . وتقطع فردة من حذائى ، فأدور فى بغداد لا أحدث نفسى أن أصلحها . . حتى لا أتخلف عن مجلس العلم . . وأصبت فى إحدى عينى بمرض جعلنى لا أبصر بها منذ عشر سنين ، وما أخبرت بذلك أحداً . . ومات ابن لى فى الحادية عشرة من سنه بعد أن حفظ القرآن والحديث والفقه . . فوجدت فى موته رضواناً من الله على . . لأننى رأيت فى النوم كأن القيامة قد قامت . . والصبيان بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس يسقونهم . . وكان اليوم يوماً حاراً شديداً حره . . فقلت لأحدهم : اسقنى من هذا الماء . فنظر إلى ، وقال : أنت لست أبى . فقلت : أى شىء أنتم ؟ قال : نحن الصبيان الذين متنا فى دار الدنيا ، وخلفنا آباءنا نستقبلهم ، فنسقيهم الماء .. فلما مات ابنى هذا أدركت أنه سيستقبلنى بالماء العذب يوم القيامة . .

بهذا الإيمان القوى عاش إبراهيم الحربى فى معقل أمين . . لا تهزه رياح الأحداث . . ولا تزلزله أعاصير الخطوب . . وبالرغم من أنه كان صفر اليدين من متاع الدنيا ، فإنه كان يعرض عنها إذا أقبلت عليه . . ويشيح عنها إذا عرضت له . . حدث أن كان عايلا ، وليس فى بيته إلا الخبز الجاف والملح . . وبعث إليه الخليفة بألف دينار ، فرفض أن يأخذها . . فانصرف رسول الخليفة ثم عاد إليه ، وقال له : إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرق هذا المبلغ على جيرانك.فقال له إبراهيم : عافاك الله . هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه . فلا نشغلها بتفريقه . . قل لأمير المؤمنين . . إن لم تتركنا تحولنا من جوارك .

سمعت ابنته هذا الحوار الذى دار بين أبيها وبين رسول الخليفة ، فغضبت وآلمها أن يرفض أبوها المال ، وهم فى حاجة إلى كل درهم منه . . وتصادف أن جاء عمها لزيارتهم . . فناداها والدها : اخرجى إلى عمك . . فألقت على وجهها الخمار ، ودخلت غرفة أبيها . . فقال لها : هذا عمك كلميه . . فقالت : ياعم . نحن فى أمر عظيم ، لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة . . الشهر والدهر . . ما لنا طعام إلا كسر يابسة وملح . . وربما عدمنا الملح ، وقد أرسل إلينا المعتمد بألف دينار فلم يأخذها ، وأرسل إلينا فلان وفلان بمال فلم يأخذ منه شيئاً وهو عليل . .

فالتفت إبراهيم الحربى إلى ابنته وتبسم وقال لها : يابنية . . إنما خفت الفقر ؟ قالت : نعم . قال: انظرى إلى تلك الزاوية . . فنظرت فإذا بكتب موضوعة بعضها فوق بعض . . فقال : هذه الكتب اثنا عشر ألف جزء فى اللغة والفقة والحديث . . كتبتها كلها بخطى . . إذا مت فبيعى كل جزء بدرهم . . ومن كان عنده اثنا عشر ألف درهم فليس بفقير . .
ومن الأدعية التى كان يؤثرها إبراهيم الحربى دعاء كان يلهج به بعض زهاد عصره ، وهو : اللهم إن كنت تعلم أنى أعبدك خوفاً من نارك فعذبنى بها . . وإن كنت تعلم أنى أعبدك حباً منى لجنتك، وشوقاً منى إليها فاحرمنى منها، وإن كنت تعلم أنى أعبدك حباً منى لك ، وشوقاً منى إلى وجهك الكريم فأبحنيه واصنع بى ما شئت . .

وكان رأيه فى الغربة أنها لا تكون إلا لرجل صالح ذهب عنه إخوته الصالحون الذين كانوا يعينونه على عبادة الله وطاعته . . أما من فارق وطنه فليس بغريب . لأن الرجل الصالح فى أنس دائم بالله ، فلا يحس بوحشة . . لأن الله معه . . قال إبراسم لجماعة عنده : من تعدون الغريب فى زمانكم هذا ؟ فقال واحد منهم : الغريب من نأى عن وطنه . وقال كل واحد منهم شيئاً آخر . .وعندما فرغوا من كلامهم قال إبراهيم: الغريب فى زماننا رجل صالح عاش بين قوم صالحين . إن أمر بالمعروف آزروه ، وإن نهى عن المنكر أعانوه . . وإن احتاج إلى شىء من الدنيا مانوه . . ثم ماتوا وتركوه .

كما كان إبراهيم الحربى يعنى بتربية الأبناء على مبادئ الإسلام . . ويطلب إلى الآباء أن يكونوا قدوة لأبنائهم فى السلوك الحسن والعمل الطيب . . قابله أحد أصحابه يوماً ومعه أولاده . . فقال لصاحبه : هؤلاء أولادك ؟ قال : نعم . . قال : احذر أن يروك ، حيث نهاك الله ، فتسقط من أعينهم .

وكان يدعو أصحابه إلى التحلى بالصبر إذا حزبهم أمر ، أو أخذت أزمة بمخنقهم . . جاءه واحد منهم يبثه فاقة ألمت به ، فقال له : لا تضق ذرعاً بما أنت فيه . فإن فرج الله قريب . . وإن مع العسر يسراً . . وإن الفقر ابتلاء يجب أن نخرج من معركته فائزين . . ولن نفوز إلا إذا رضينا عن الله . . ورحبنا بابتلائه . . يقول عز وجل : رضى الله عنهم ، ورضوا عنه . . واعلم يا أخى أننى تمر بى الأزمة تلو الأزمة . . فلا أرى فيها ضيقاً . . ولا أحس سأماً ولا ملالة . . وإنما أتطلع إلى السماء ، فتفتح لى أبواب الرحمة ، ولذلك ترانى دائماً لا أتبرم ولا أشكو ولا أضيق بمقدور . .

وقد عاش إبراهيم الحربى سبعة وثمانين عاماً كلها علم وزهد وتقوى . . ولما اشتدت به العلة فى مرض الموت ، ودخل عليه قوم يعودونه ، وسألوه : كيف حالك يا أبا إسحاق ؟ قال لهم : أجدنى كما قال الشاعر :

دب فى البلاء سفلا وعلــوا وأرانى أموت عضوا فعضوا
ذهبت جدتى بطاعة نفسى وتذكرت طاعة الله نضــوا

ومن المصادفات العجيبة أن الطبيب الذى كان يعالجه مات قبله بيوم واحــد . .

فقال إبراهيم :

إذا مات المعالج من سقامى فيوشك للمعالج أن يموتــا

وقد مات إبراهيم الحربى رضوان الله عليه ببغداد سنة خمس وثمانين ومائتين . ودفن ببغداد . . وقبره هناك يتبرك الناس به .

عمر بن ذر الهمدانی
لم تفته صلاة واحدة طوال حياته

شغله

الخوف من الله عن كل ما تحفل به الدنيا من متع ومسرات وما يخبئه القدر بين عطفيه من فواجع وأحداث . . فقد كان يعيش بجسده بين الناس . . وبفكره ووجدانه بين الملأ الأعلى الذين يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون . . كان إذا أقبل الليل وهجعت الأعين ، واستراحت الجنوب فى المضاجع ، يقول لأصحابه : اعملوا لأنفسكم – رحمكم الله – فى هذا الليل وسواده . . فإن المغبون من غبن خير الليل والنهار .. والمحروم من حرم خيرهما . . وإنما جعلا سبيلا للمؤمنين إلى طاعة ربهم ، ووبالا على الآخرين للغفلة عن ربهم . . فأحيوا أنفسكم لله بذكره فإنما تحيا القلوب بذكر الله . . كم من نائم فى هذا الليل قد اغتبط بقيامه فى حفرته.وكم من نائم فى هذا الليل قد ندم على طول نومه . . . عندما يرى كرامة الله عز وجل للعابدين غدا . . فاغتنموا مر الساعات والليالى – رحمكم الله .

وكان لهذا العابد الأواب ابن نشأ فى عبادة الله عز وجل . . كان اسمه « ذر » . . لم تفته صلاة واحدة منذ طفولته . . ولم يغترف من لهو الشباب . : وإنما تربى فى حجر العلم ، ونما فى مناخ الطاعة ، وتألق وجدانه فى حرم البر بالوالدين . . وقد حمل عن أبيه عبء السعى إلى الرزق . . وكفاه مشقة

العمل فى شيخوخته . . وكان « ذر » حريصاً على حضور مجالس العلم . . لنهمه بالمعرفة وشغفه بالتفقه فى الدين . . وكان يتعجب مما يرى فى مجلس أبيه . . إذ كان المستمعون إلى عمر بن ذر لا يملكون أعينهم من الدمع ، ولا أنفسهم من البكاء . . فقال « ذر » لأبيه يوماً : ياأبى ما بال المتكلمين يتكلمون فلا يبكى أحد . . فإذا تكلمت يا أبت سمعت البكاء من ها هنا ، وها هنا . . فقال : يابنى . . ليست النائحة المستأجرة كالنائحة الثكلى . .

كانت كلماته تخرج من قلبه صادقة مبرورة . . تنفذ إلى القلوب ، وتستكن فى الصدور ، وتفعل فعلها فى الجوارح . . فالعيون تبكى ، والقلوب تضطرب خوفاً من الله . . والنفوس تضع أغلال الهوى . . والغرائز تفر من درك الغواية . .

كما كان دعاء عمر بن ذر ينبىء عن سلوكه الربانى ، ويكشف عن صدق إيمانه ، ودرجة خوفه من الله ، وحبه له ، وأنسه به . . كان يقول فى دعائه : اللهم أسألك خيراً يبلغنا ثواب الصابرين لديك . . وأسألك اللهم شكراً يبلغنا أجر الشاكرين لك . . وأسألك اللهم توبة تطهرنا من دنس الآثام حتى نحل بها عندك محل المنيبين إليك . . فأنت ولى جميع النعم والخير . . وأنت المرغوب إليك فى كل شدة وكرب وخير . . اللهم هب لنا الصبر على ما كرهنا من قضائك . . والرضا بذلك طائعين . . وهب لنا الشكر على ما جرى به قضاؤك ، رجاء المزيد والزلفى لديك ياكريم . . اللهم لا شىء أنفع لنا عندك من الإيمان . . وقد مننت به علينا ، فلا تنزعه منا ، ولا تنزعنا منه . . حتى تتوفانا عليه . .

وكان عمر بن ذر حليما هادىء الطباع . . يعفو عمن أساء إليه ، ويصفح عمن ظلمه . . ولا يضمر لإنسان شرا . . ولا يخفى بين جوانحه غدرا . . بل إنه كان يقابل الإساءة بالإحسان . . والتطاول عليه بالإغضاء والمغفرة . .

حدث أن شتمه رجل اسمه ابن عياش المنتوف فقال له عمر بن ذر : يا هذا لا تغرق فى شتمنا ، ودع للصلح موضعا . . فإنا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه . .

ومع كل هذه الشمائل المعطرة بمبادىء الإسلام وتعاليم الكتاب والسنة . . فإن أبرز علامات هذا العابد القانت المخبت كانت تتمثل فى الصبر . . والرضا عن الله فى أشد المحن زلزلة للنفس . . ولقد ابتلى عمر بن ذر فى فقد ابنه الشاب الذى كان يقوم مقامه فى طلب الرزق . . وكان الابتلاء مفاجئا لم يسبقه تمهيد . . فقد توفى « ذر » بنوبة قلبية مباغتة لم تمهله لحظات . وحين سرى النبأ الحزين سريان النار فى الهشيم ، قال أصحاب عمر . . والألم يغلف كلماتهم : لقد ضاع الشيخ . . لأن « ذر » كان بارا بوالديه . .

ولما سمع عمر بموت ابنه فجأة . . وجاءه أهل بيته يبكون ، قال فى رباطة جأش . . وصلابة إيمان : ما لكم ! ! إنا والله ما ظلمنا ، ولا قهرنا ، ولا ذهب لنا بحق ،ولاأخطىء بنا ، ولا أريد غيرنا ، وما لنا على الله معتب . . ثم التفت إلى من قالوا: ضاع الشيخ ، وقال لهم : كيف أضيع ، والله حى لا يموت ؟ ! .

ولما وارى ابنه التّراب وقف على قبره وقال : رحمك الله ياذر . . ما علينا بعدك من خصاصة ، وما بنا إلى أحد مع الله حاجة . . والله لقد كنت لى يا بنى بارا . . وكنت عليك حدبا . . ولا إلى أحد بعد الله فاقة . . ولا ذهبت لنا بعز . . ولا أبقيت علينا من ذل . . ولقد شغلنى الحزن لك عن الحزن عليك . .

يا ذر لولا هول المطلع ومحشره لتمنيت أن أكون مكانك . . فياليت شعرى : ماذا قيل لك ، وماذا قلت ؟ يعنى منكرا ونكيرا . .

ثم رفع رأسه وقال : اللهم إنك وعدتنى الثواب بالصبر على ذر . . اللهم فعلى ذر صلواتك ورحمتك . . اللهم إنى قد وهبت له حقى فيما بينى وبينه . . فتجاوز عنه فإنك أرحم به منى . . وإنك أجود منى وأكرم . .

ولما هم بالانصراف نظر إلى القبر وقال : يا ذر قد انصرفنا عنك وتركناك . . ولو أقمنا ما نفعناك . .

كان وجهه يتلألأ بالإيمان فى أثناء كلامه على القبر .. وكان المعزون فى عجب ودهشة مما يرون ويسمعون . . وأمضى عمر بن ذر بقية حياته بعد ذلك . . دون أن يشعر بفاقة أو خصاصة . . فقد منحه الله بسطة فى الرزق . . وجزاه على صبره أحسن الجزاء . .

موسى بن جعفر

آخر الصالحين المعروفين من أهل المدينة المنورة

هو **فرع من شجرة النبوة الباسقة التى تروى بماء الحكمة ، وتمتد فى أرض الخلود بأرجها وعبقها ، وتغذى البشرية بثمرها وجناها وقطوفها ، فجده الإمام الحسين رضى الله عنه ، حفيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان أمة وحده فى العبادة والتقوى والصلاح ، وأوتى من مراتب القرب من الله ما جعل حبه يملأ القلوب ، ويجمع حوله المؤمنين ، مما أخاف منه المهدى ، ومن بعده هارون الرشيد ، لتعلق الناس به . والتفافهم حوله ، وإجلالهم له .**

ولم يكن موسى بن جعفر يبتغى مالا ، ولا يطلب سلطانا ، ولا يريد جاها ، وإنما كان يرى أثمن ذخيرة فى الوجود. أن يسير على خطا سابقيه من شجرة النبوة الذين ملأوا الدنيا علما وفضلا وتقوى وورعا ، وكانت مهابتهم فوق مهابة الملوك ، وعظمتهم مستمدة من عظمة الإسلام ، وأخلاقهم معطرة بأريج النبوة ، وشفافيتهم وضاءة كشفافية الملائكة . . كانوا ربانيين إذا رفعوا أيديهم نحو السماء تفتحت أبوابها ، وإذا همسوا بدعاء أجابهم الله إلى ما يطلبون ، حتى ارتفعت عن قلوبهم الحجب ، وانكشفت عن بصائرهم الأستار ، واستضاء كيانهم بمشاعل إلهية أطلعتهم على الأسرار الكونية ، فاستشفوا ما عجز عن رؤيته البشر ، وما عجز عنه العلم ، وما حار فيه الفهم . .

وموسى بن جعفر شخصية باهرة نيرة ، وضاءة خيرة . . كان معاصروه يسمونه « العبد الصالح » لأجل عبادته واجتهاده وقيامه الليل ، وعفوه عن المسيئين إليه . . ولم يكن يعفو عنهم فقط . . وإنما يمدهم بالمال زيادة فى الصفح ، وإمعانا فى المغفرة ، وبسطا فى الرحمة . . وكانت عناية الله تظلل موسى بن جعفر بأفيائها السماوية . . والمقادير تحفه بسياج من الأمن الربانى . . حتى إذا أريد به مكروه وجد يد الله تدفع عنه هذا المكروه .

فقد حدث أنه عندما قام المهدى بحبس موسى بن جعفر ، خوفا من شعبيته ، وتوجسا من حب الناس له ، والتفافهم حوله ، أن رأى المهدى فى المنام على بن أبى طالب عليه السلام وهو يقول : يا محمد : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » . . فصحا المهدى من نومه مفزوعا ، وأرسل إلى الفضل بن الربيع فجاءه مسرعا ، فوجده يقرأ هذه الآية ، وكان أحسن الناس صوتا ، وقال : على بموسى بن جعفر . ولما جىء به عانقه وأجلسه إلى جانبه ، وقال : يا أبا الحسن . رأيت أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى النوم يقرأ على كذا . . فهل تعاهدنى على ألا تخرج على أو على أحد من ولدى ؟ . . فقال له موسى : والله لا أفعل ذلك أبدا . . فقال المهدى : صدقت ، وأمر له بثلاثة آلاف دينار ، ورده إلى المدينة .

وأما عن شفافيته ، واختراقه الحجب ، ورؤيته المكنون ، ونفاذه إلى الأسرار المخبوءة فى الصدور . . فيحكى طرفا منها « شقيق بن إبراهيم البلخى » . . وكان من الصالحين المشهود لهم بالصدق والتقوى فى عصره . يقول شقيق : خرجت حاجا فى سنة تسع وأربعين ومائة . . فنزلت القادسية فبينما أنا أنظر إلى الناس فى زينتهم وكثرتهم فنظرت إلى فتى حسن الوجه شديد السمرة ، يعلو فوق ثيابه ثوب من صوف ، مشتمل بشملة ، وفى رجليه

نعلان ، وقد جلس منفردا . فقلت فى نفسى : هذا الفتى يريد أن يعيش عالة على الناس . . والله لأفضين إليه ولأوبخنه . . فدنوت منه . . فلما رآنى مقبلا قال : يا شقيق « اجتنبوا كثيرا من الظن . إن بعض الظن إثم » . . ثم تركنى ومضى . فقلت فى نفسى : إن هذا لأمر عظيم . قد تكلم على مافى نفسى ، ونطق باسمى ، وما هذا إلا عبد صالح لألحقنه ولأسألنه أن يستحلنى : فأسرعت فى أثره فلم ألحقه وغاب عن عينى .

ولما نزلت « واقصة » وهو ماء لبنى كليب بالقرب من المدينة وجدته يصلى ، وأعضاؤه تضطرب ، ودموعه تجرى . فقلت :هذا صاحبى . . سأمضى إليه وأستحله . فصبرت حتى جلس وأقبلت نحوه . . فلما رآنى مقبلا قال :ياشقيق اتل : « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » . ثم تركنى ومضى . فقلت :لقد تكلم على سرى مرتين . . فمن هو هذا الرجل الصالح يا ترى ؟ .

وقد ظل مجهولا لدى لا أعرف حتى مجرد اسمه . . إلى أن جاء يوم دخلت فيه مكة ، فرأيته إلى جنب قبة الشراب فى منتصف الليل يصلى بخشوع وأنين وبكاء . . ولم يزل كذلك حتى ذهب الليل . . فلما رأى الفجر جلس فى مصلاه يسبح الله ثم قام فصلى الغداة وطاف بالبيت سبع مرات وخرج فتبعته . فإذا له حاشية وموال ، وهو على خلاف ما رأيته فى الطريق : ودار به الناس من حوله يسلمون عليه . فقلت لبعض من رأيته يقرب منه : من هذا الفتى؟ فقال : هذا موسى بن جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب عليهم السلام . قلت : إنه لا يمكن أن تكون هذه العجائب إلا لمثل هذا السيد .

ومما أثر عن موسى بن جعفر أنه كان يدعو الله قائلا : إلهى من أولى بالزلل والتقصير منى . وقد خلقتنى ضعيفا ، ومن أولى بالعفو عنى منك وعلمك فى سابق ، وأمرك بى محيط . . أطعتك بإذنك ، والمنة لك على . .

وعصيتك بعلمك والحجة لك . فأسألك بوجوب حجتك وانقطاع حجتى ، وبفقرى إليك وغناك عنى أن تغفر لى وترحمنى .

إلهى لم أحسن حتى أعطيتنى ، ولم أسىء حتى قضيت على . . اللهم إنا أطعناك بنعمتك فى أحب الأشياء إليك : شهادة أن لا إله إلا الله ، ولم نعصك فى أبغض الأشياء إليك : الشرك بك . فاغفر لى ما بينهما . . اللهم سرى إليك مكشوف . وأنا إليك ملهوف . إذا أوحشتنى الغربة آنسنى ذكرك . وإذا صببت على الهموم لجأت إليك استجارة بك ، علما بأن زمام الأمور بيدك ، ومصدرها عن قضائك . .

أما مولد موسى بن جعفر فقد كان بالمدينة فى سنة ثمان وعشرين ومائة . وأما وفاته فقد كانت فى بغداد لخمس بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين ومائة . . وكان آخر الصالحين المعروفين من أهل المدينة المنورة .

عبيد الله بن العباس
الجواد السخى ... والصابر المحتسب

سخاؤه

كان مضرب الأمثال فى عصره .. كما كان علم أخيه عبد الله حديث الناس فى مجالسهم ومنتدياتهم. ولذلك كان يقال من أراد الجمال والفقه والسخاء فليأت دار العباس بن عبد المطلب: الجمال للفضل.. والفقه لعبيد الله.. والسخاء لعبد الله. وكان أولاد العباس عم النبى موضع إعزاز الرسول وحبه وحنانه، فقد كان يداعبهم ويلاطفهم ويصف الفضل وعبدالله وعبيد الله، ويقول لهم من سبق إلى فله كذا فيستبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره، فيقبلهم ويلتزمهم تماماً .. كما كان يفعل مع الحسن والحسين

وكان عبيد الله أصغر من أخيه عبد الله بسنة واحدة، وكان كريما وسيما جميلا يشبه أباه فى الجمال . . كما كان يبسط الموائد للفقراء والمساكين وابن السبيل، ويرسل أكياس الدقيق سرا بعد موهن من الليل إلى المحتاجين. وكان فى الجود كالريح المرسلة تفيض يمناه بالبر . كما تفيض المزنة الوطفاء بالماء العميم . . وإذا قدم إليه إنسان يدا . . رد له اليد أضعافا مضاعفة . . وأثابه على الجميل الواحد بأكثر من مائة جميل .

حدث أن كان عبيد الله بن العباس مسافرا . فنزل على خيمة رجل من الأعراب . . فلما رآه الأعرابى أعظمه وأجله . . لما رأى فيه من مهابة الطلعة، وجلال المنظر . . ودخل الخيمة على امرأته وقال لها: ويحك !

ماذا عندك لضيفنا هذا؟ فقالت له : ليس عندنا إلا هذه الشويهة (شاة صغيرة) . . التي حياة ابنتك من لبنها . فقال : إنه لابد من ذبحها . . فقالت : أتقتل ابنتك ، فقال : وإن ! ! ثم أخذ الشفرة والشاة وجعل يذبحها ويسلخها وهو يقول مرتجزا :

يا جارتى لا توقظى البنية

إن توقظيها تنتحب عليه

وتنزع الشفرة من يديه

ثم طهت الزوجة الشاة وقدمها الأعرابى لضيفه ، وكان عبيد الله قد سمع محاورة الأعرابى لامرأته فى الشاة . . فلما فرغ من تناول العشاء قال لعبده الذى يصحبه فى السفر : ويلك ! ماذا معك من المال ؟. فقال : معى خمسمائة دينار فضلت من نفقتك فقال : ادفعها إلى الأعرابى . فتعجب العبد وقال : سبحان الله ! تعطيه خمسمائة دينار . . لأنه ذبح لك شاة تساوى خمسة دراهم ! فقال عبيد الله : ويحك ! والله لهو أسخى منا وأجود . لأننا أعطيناه بعض ما نملك ، وجاد علينا هو بجميع ما يملك ، وآثرنا على مهجة نفسه وولده .

هذه صورة واحدة من صور رد عبيد الله للجميل . . وكان إلى جانب سخائه ورعا تقيا عادلا عالما متفقها فى الدين . . كما كان من شيعة الإمام على كرم الله وجهه . . وقد استنابه الإمام على اليمن فى أيام خلافته . . وحج بالناس سنة ست وثلاثين ، وسنة سبع وثلاثين . . فلما كان سنة ثمان وثلاثين بعثه الإمام على أيضا ليحج بالناس ، وبعث معاوية فى ذلك العام يزيد بن شجرة الرهاوى ليقيم الحج . فاجتمعا « عبيد الله ويزيد . . وسأل كل منهما صاحبه أن يسلم له فأبى . واصطلحا على أن يصلى بالناس شيبة بن عثمان .

مر على ذلك عامان ، ودخل العام الأربعون للهجرة . . وكان القدر يخبيء لعبيد الله من الأحداث ما تتصدع له الجبال وتميد له الأرض . فبينما هو يدير شئون اليمن . محتكما إلى كتاب الله وسنة رسوله فى كل أمر يعرض عليه . إذا به يفاجأ بأن معاوية بعث بشر بن أرطأة العامرى إلى اليمن ليتولى شئون الولاية فيها ، وكان بسر طاغية جبارا ذا كبد غليظة ونفس قاسية لا ترحم . . ولما علم عبيد الله بمقدم بسر هرب بليل ، وترك زوجته وطفليه الصغيرين على أن يلحقوا به . . ولم يطف بخلده أن بسرا سيلحق بهم شرا . . لأن تعاليم الإسلام تقضى بتحريم أذى النساء والأطفال .

ولكن بسرا ارتكب فى حق عبيد الله ، وفى حق الإسلام ، جريمة تقشعر منها الأبدان . فقد ذبح طفلى عبيد الله بين يدى أمهما بدون شفقة أو رحمة .

وأحست الأم أن الأرض تميد من تحتها وهى ترى ولديها يذبحان أمامها وراحت تنشد شعرا تصف فيه هول الواقعة وبشاعة الجريمة ، وظلت تهيم على وجهها فى الأرض ، وتنشد هذا الشعر فى موسم الحج .

ولما سمع عبيد الله بن العباس بما حدث لطفليه اغرورقت عيناه بالدموع ولكنه دخل المسجد ، واستغرق فى الصلاة ، لأنه كان حين يصلى لا يبقى فى قلبه إلا الله ، ولا يهزه شيء فى الدنيا مهما يكن قاسيا أو عنيفا أو أليما . ورغم بشاعة الجرم ، فإنه تجمل بالصبر ، واحتسب طفليه عند الله ، وأمضى بقية حياته متمسكا بحب الإمام على حتى وافته المنية بالمدينة فى سنة سبع وثمانين من الهجرة ، وكان كل من يواسيه فى طفليه يذكر له أن الذى يموت له طفل ويصبر . . يأتى هذا الطفل يوم القيامة ، وبيده قدح من الماء العذب يسقيه منه .. فى موقف يلتهب فيه جوف ابن آدم من شدة العطش .

بهذا الخلق الرضى ، وبهذه النفس المطمئنة ، وبهذه اليد المعطاء . . لقى عبيد الله بن العباس ربه ناصع الصفحات . . مضيء القلب له . . تتفتح له غرف الجنان . . وترفرف من حوله ملائكة الرحمة .

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي

كان مفتيًا وهو في الخامسة والعشرين

كما يقف الإنسان مبهوراً أمام بحر لجى زاخر باللؤلؤ والمرجان مأخوذاً بروعة البحر وجلاله .. كذلك يشعر بنفس الشعور وهو فى خضم التاريخ يستعرض سيرة حياة هذا الفقيه العابد الذى استطاع ، بالرغم من يتمه وفقره ، أن يتبوأ درجة رفيعة من العلم جعلته فى شبابه إماماً يقتدى به ، وفقيهاً يفد إليه المسلمون من كل حدب وصوب . ليستفتوه فيما أعضل عليهم من أمور الدين . وأشكل عليهم من شئون الإسلام، وغمض عليهم من أحكام الفقه.. وقد بلغ الأوزاعى منزلة من فصاحة اللسان ، وبلاغة البيان، وحلاوة المنطق ، ما جعل أبا جعفر المنصور يتمنى لو كان الأوزاعى يكتب له رسائله وخطاباته. ولكن الأوزاعى كان داعية يؤثر مجالس العلم على لقاء الولاة ويفضل أن يجيب عن أسئلة الفقراء على أن يذهب إلى قصور الخلفاء .

ومن صفاته التى حفظها لنا التاريخ أنه كان كثير العبادة . حسن الصلاة . ورعا . ناسكا . طويل الصمت . وكان من شدة الخشوع كأنه أعمى ، وإذا سجد يبكى حتى يبتل مكان سجوده بالدموع . وحدث أن دخلت امرأة على زوجة الأوزاعى فوجدت الحصير الذى يصلى عليه مبلولا فقالت لها: لعل الصبي بال ههنا ؟ فقالت امرأة الأوزاعى: هذا أثر دموع الشيخ

من بكائه فى سجوده ، وكان يؤثر فى سامعيه حتى لا يبقى أحد فى مجلسه إلا وبكى بقلبه أو عينيه . وكان إذا صلى الصبح جلس يذكر الله سبحانه حتى تطلع الشمس ، ويقول عن ذلك : كان السلف إذا صدع الفجر أو قبله بشىء كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم حتى لو أن صديقا أو قريبا لأحدهم غاب عنه حينا . ثم قدم ما التفت إليه . . فلا يزالون كذلك حتى يكون الوقت قريبا من طلوع الشمس ثم يقدم بعضهم على بعض فيتحلقون . . وأول ما يفيضون فيه أمر معادهم وما هم صائرون إليه . . ثم يتحلقون إلى الفقه والقرآن .

ومما كان يقوله فى مجالس وعظه : ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهى معروضة على العبد يوم القيامة يوما فيوما وساعة فساعة . ولا تمر به ساعة لم يذكر الله فيها إلا وتقطعت نفسه عليها حسرات..فكيف إذا مرت به ساعة بعد ساعة ويوم بعد يوم .

وكان يقول أيضا :أيها الناس.تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها على الهرب من نار الله الموقودة.. التى تطلع على الأفئدة . . فإنكم فى دار ، الثواء فيها قليل، وأنتم فيها مؤجلون خلائف من بعد القرون التى استقبلوا من الدنيا رونقها وزهرتها . . فهم كانوا أطول منكم أعمارا . وأمد أجساما . وأعظم آثارا . فخددوا الجبال ، وجابوا الصخور ، ونقبوا فى البلاد ، مؤيدين ببطش شديد،وأجسام كالعماد.. فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مدتهم . وعفت آثارهم ، وأخوت منازلهم ، وأنست ذكرهم ، فما تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم ركزا ، كانوا بلهو الأمل آمنين لبيات قوم غافلين ،أو لصباح قوم نادمين..ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتا من عقوبة الله عز وجل.. فأصبح كثير منهم فى ديارهم جاثمين ، وأصبح الباقون ينظرون فى آثار نقمة ، وزوال نعمة ، ومساكن خاوية ، فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم . وعبرة لمن يخشى..فلا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل، وغر بطول الأجل ، وتبلغ بالأمانى .

ومما يدل على علو مكانته بين معاصريه أنه حج مرة فدخل مكة وسفيان الثورى آخذ بزمام جمله ، ومالك بن أنس يسوقه ، والثورى يقول : افسحوا للشيخ . . حتى أجلساه عند الكعبة . وجلسا بين يديه يأخذان عنه . . وقد تذاكر مالك والأوزاعى مرة بالمدينة من الظهر حتى صليا العصر ، ومن العصر حتى صليا المغرب . . ومن المرجح أن الأوزاعى بدأ يفتى وهو فى سن الخامسة والعشرين . وظل يفتى حتى مات ، وقد أجاب عن سبعين ألف مسألة . . وكان يرى أن العلم هو ما أخذ عن أصحاب رسول الله . . وأما ما لم يؤخذ عنهم فليس بعلم . . كما كان يكره الجدل ، ويقول : إذا أراد الله بقوم شرا فتح عليهم باب الجدل ، وسد عنهم باب العلم والعمل . .

كما كان الأوزاعى سخى اليد كريما . بلغ ما حصل عليه من بيت المال ، من خلفاء بنى أمية وبنى العباس نحو سبعين ألف دينار . فلم يمسك منها شيئا ، ولا بنى قصرا ، ولا اقتنى عقارا . . بل إنه يوم مات لم يجدوا عنده سوى سبعة دنانير . .

ولم يكن الأوزاعى بمعزل عن أحداث عصره . . فحين أسر ملك الروم آلاف المسلمين فى معركة ضد أبى جعفر المنصور ، ورفض أن يطلق سراح الأسرى إلا إذا حصل على فدية لكل أسير ، وامتنع أبو جعفر أن يدفع الفدية . . كتب إليه الأوزاعى يقول : أما بعد فإن الله استرعاك أمر هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائما ، وبنبيه صلى الله عليه وسلم فى خفض الجناح والرأفة متشبها . . أسأل الله تعالى أن يسكن على أمير المؤمنين دهماء هذه الأمة ، ويرزقه رحمتها . . فإن المشركين استنزلوا العوائق والذرارى من المعاقل والحصون ، لا يلقون لهم ناصرا . ولا عنهم مدافعا . فليتق الله أمير المؤمنين . وليبتغ بالفدية بهم من الله سبيلا . .

والخطاب طويل . . طالب فيه الأوزاعى بدفع الفدية حتى يطلق ملك الروم سراح الأسرى . . فما إن قرأه أبو جعفر المنصور حتى دفع الفدية . ولم تكن هذه هى الرسالة الوحيدة التى بعث بها الأوزاعى إلى الخليفة . . وإنما كان يكاتبه ، ويذكره دائما بمسئوليته أمام الله عن كل رجل وامرأة وطفل ، ويزجى له صورا ومواقف من حياة الرسول ، ليتخذ منها الأسوة والقدوة .

وكان الأوزاعى لا يمالىء أبا جعفر . . لأنه زاهد فيما فى يديه . . وقد حدث أن كان عنده فى قصر الخلافة بدمشق . ولما هم بالانصراف استأذنه فى ألا يلبس السواد . كما كان يفعل الناس فى ذلك العهد فأذن له . ولما خرج الأوزاعى قال أبو جعفر لحاجبه : الحق به واسأله لماذا يكره لبس السواد . ولا تعلمه أنى قلت لك . . ولما سأله الربيع قال الأوزاعى : لأنى لم أر محرما أحرم فيه . . ولا ميتا كفن فيه . . ولا عروسا جليت فيه . . فلهذا أكرهه . .

هذا عرض سريع لتاريخ الأوزاعى الذى ولد سنة ثمان وثمانين فى قرية الأوزاع بدمشق . . ثم سكن ببيروت ومات بها يوم الأحد لليلتين بقيتا من صفر سنة سبع وخمسين ومائة . . وكانت وفاته فى الحمام . . حيث دخله وأغلق عليه صاحب الحمام الباب . وذهب لحاجة له . . ولما عاد فتح الحمام فوجد الأوزاعى ميتا . ويده اليمنى تحت خده . وهو مستقبل القبلة . . وخرج المسلمون فى جنازته بالآلاف وهم يقولون : مات إمام هذه الأمة .

داود بن نصير الطائى
عالم عصره فى الفقه بعد أبى حنيفة

عرفته

الكوفة فى مقتبل عمره شاباً نقى السيرة والسريرة . . شفاف النفس والقلب . . لا يستطيب إلا العلم ، ولا يستمرىء إلا المعرفة ، ولا يستعذب إلا الحكمة . . فقد كان عازفاً عن لهو الشباب . . صادفاً عن لغو الحديث . . أميناً فى تجارة الخز « الحرير » ، كصديقه أبى حنيفة.. فكلاهما كان طالب علم ، وتاجر خز . . وكلاهما كان يعيش وخشية الله تهز وجدانه وترج كيانه . . ومراقبة الله تراوحه وتغاديه . . وقد أمضيا شبابهما فى دراسة علوم الدين على فقهاء الكوفة وشيوخها الأجلاء . . حتى استوى كل منهما على عرش المعرفة ، واحتل مركز الفتيا فى سن مبكرة . . وأصبح مرموقاً بين العامة والخاصة على السواء . .

ذات يوم ..وبينما كان أبو حنيفة وداود الطائى يتحادثان فى بعض مسائل الفقه . . وأحكام الشريعة . . إذا بالإمام الأعظم يقول للطائى: ياداود إننا أخذنا نصيبنا من العلم . . وحظنا من المعرفة . . وطاقتنا من الحكمة . . ولم يبق إلا أن نعمل بما نعلم . . ونطبق ما نفقه . . فصادفت هذه العبارة هوى فى نفس داود . . فقرر أن يقسم وقته بين التجارة والعبادة . . على أن يكون للعبادة الحظ الأوفى . . والنصيب الأكبر .

وكان داود قد ورث عن والديه بيتاً متداعياً وثلاثين ديناراً . . فصمم على أن يعيش فى هذا البيت القديم المتداعى لا ينفق درهماً على تجديده وترميمه. وإنما ينفق معظم أرباح تجارته على الفقراء والمساكين . . مكتفياً بأيسر الزاد ، وأرخص الثياب ، وأبسط العيش . . وكان يعمد فى طعامه إلى تناول الثريد حتى لا يضيع وقتاً طويلا فى الأكل . . ويقول لمن يسأله عن سبب ذلك: إن ما بين مضغ الخبز الجاف وبين تناول الثريد أستطيع أن أقرأ خمسين آية .

إلى هذا الحد كان داود الطائى حريصاً على أن يجعل وقته كله لله . . وكان إذا غفل عن ذكر الله لحظة . . يؤنب نفسه . . وكثيراً ما كان جيرانه يسمعونه فى هدأة الليل وهو يقول: اشتهيت كذا وكذا . فوالله لن أأتمر بأمرك، ولن أطيع هواك أيتها الأمارة بالسوء . .

وقد كان الطائى نموذجاً للتاجر المسلم الذى يطبق مبادىء الدين ..فلا يغش ولا يحتكر . ولا يغالى فى الربح . . وحدث أن طلب منه ابن أخيه مبلغاً من المال يتاجر به . . فأعطاه ستين درهماً فمكث شهراً ثم جاءه وقدم له مائة وعشرين درهما . وقال له : هذا هو ربح القرض الذى اقترضته منك . . فدهش داود وقال : كيف يربح الدرهم درهمين فى شهر ؟ . ينبغى أن يكون عندك بيت مال . . تريد أن تخدعنى . . ؟ لقد أغليت السعر على المسلمين . فرد على رأس مالى لأنك لست أميناً فى تجارتك . . ولن أتيح لك فرصة استغلال المسلمين . . وهكذا استرد منه الستين درهما . ولقنه درساً فى أمانة التاجر . . حتى لا يستغل حاجة المسلمين ويرفع السعر ! !

وكان داود الطائى يؤثر على نفسه . . ولو كان به خصاصة . . فقد حدث أن صنعت امرأة من أهله طعاماً وبعثت به إليه مع جارية لها . . بينها وبينه رضاع .

فلما وضعت الجارية القصعة بين يديه ، وسعى ليأكل منها ، جاء سائل ووقف بالباب ، فقام داود ودفعها إليه وجلس معه على الباب حتى أكلها . . ثم دخل فغسل القصعة . . وعمد إلى تمر كان أعده لعشائه ووضعه فى القصعة . . وقال أقرئها السلام . . وتعلق الجارية على ذلك بقولها : إنه دفع إلى السائل ما جئناه به . . ودفع إلينا ما أراد أن يفطر عليه . . وما أظنه إلا بات جائعاً .

وحادثة أخرى تدل على أن داود الطائى كان يطعم الطعام على حبه أيتام الحى الذى يسكن فيه بالكوفة . . فقد قالت له جاريته يوماً : ياداود . . لو طبخت لك دسماً ؟ فقال لها : افعلى .. فطبخت له طعاماً شهياً . . ثم جاءته به . فقال لها : ما فعل أيتام بنى فلان .. ؟ . قالت : هم على حالهم . . قال : اذهبى بهذا الطعام إليهم . . لأننى إذا أكلته استحال قمامة . أما إذا أكله هؤلاء الأيتام فيكون عند الله مذخوراً .

وذات يوم قالت له أمه : لو اشتهيت طعاماً صنعته لك . فقال : اصنعى ما شئت من أطايب الطعام . . وسوف أدعو إخواناً لى ليتناولوه معى . فقامت أمه وطهت من الطعام كل شهى مستطاب . فإذا بداود يقعد على الباب وكلما مر به سائل أدخله حتى أطعم عدداً كبيراً من فقراء الكوفة . . وأمه تتعجب مما يفعل . . ثم قام وصلى ركعتين وسأل الله أن يتقبل منه هذا العمل ، لأنه فعله خالصاً لوجهه . . ولم يفعله رثاء الناس .

أما عن تقوى داود الطائى وخوفه من الله وخشيته من الحساب يوم القيامة . . فهناك أمثلة عديدة عليها . منها أنه خرج فى جنازة بالكوفة وقعد بجوار جدار حتى يتم دفن الميت ، فجاء الناس وقعدوا قريباً منه فتكلم وقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد . . ومن طال أمله ، ضعف عمله ، وكل ما

هو آت قريب ، وأعلم يا أخى أن كل ما يشغلك عن ربك إنما هو عليك مشئوم ، واعلم أن أهل القبور إنما يفرحون بما يقدمون ويندمون على ما يخلفون ، وأهل الدنيا يقتتلون ويتنافسون فيما عليه أهل القبور يندمون .

وقد صام داود الطائى أربعين سنة دون أن يعلم بذلك أهله ، كان يحمل طعامه معه ، ويتصدق به فى الطريق ، ويرجع إلى أهله عشاء لا يعلمون أنه صائم . . وذات يوم زاره رجل من أهله وقال له: يا أبا سليمان . . قد عرفت الرحم التى بيننا فأوصنى . . فدمعت عينا داود وقال : ياأخى . . إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة . . حتى ينتهى بهم ذلك إلى آخر سفرهم . . فإن استطعت أن تقدم فى كل مرحلة زاداً لما بينها فافعل . . فإن انقطاع السفر عن قريب . . والأمر أعجل من ذلك . . فتزود لسفرك . . واقض ما أنت قاض من أمرك . إنى لأقول لك هذا . . وما أعلم أحداً أشد تضييعاً منى لذلك . .

ويحكى إسحاق بن منصور السولى . . وكان جاراً لداود الطائى . . أنه كان يسمع داود يناجى الله طيلة الليل لا يهدأ . . ومما كان يقوله فى مناجاته: اللهم إن همك عطل على كل الهموم . . وحالف بينى وبين السهاد . . وشوقى إلى النظر إليك أوثق منى . . وحال بينى وبين اللذات . . فأنا فى سجنك أيها الكريم مطلوب . .

ويقول إسحاق : كان داود يترنم فى السحر بشىء من القرآن فأرى أن نعيم الدنيا جمع فى هذه الترنيمة .

وكان داود يوصى ببر الوالدين واجتناب الناس وصلاة الجماعة . . وقال له أبو الربيع الأعرج ، وكان ممن يصلون معه فى المسجد : أوصنى . .

فقال له داود اتق الله ، وإن كان لك والدان فبرهما . وصم عن الدنيا ، اجعل الفطر موتك . . واجتنب الناس غير تارك لجماعتهم .

كما أوصى صديقه ابن السماك بهذه الوصية : انظر ألا يراك الله حيث نهاك ، ألا يفقدك حيث أمرك . . واستح فى قربه منك . . وقدرته عليك .

ولذلك فإن ابن السماك حين مات داود الطائى سنة خمس وستين ومائة خلافة المهدى وقف يقـــول :

ياداود ما أعجب شأنك ! ألزمت نفسك الصمت حتى قومتها على العدل : أهنتها وإنما تريد كرامتها . . وأذللتها وإنما تريد إعزازها . . ووضعتها وإنما تريد تشريفها . . وأتعبتها وإنما تريد راحتها ، وأجعتها وإنما تريد شبعها ، وأظمأتها وإنما تريد ريها ، وأمت نفسك قبل أن تموت . . وقبرتها قبل أن تقبر . . وعذبتها قبل أن تعذب . . وغبت بنفسك عن الدنيا إلى الآخرة . . فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت . . آنس ما تكون إذا كنت بالله خالياً . . وأوحش ماتكون إذا كنت مع الناس جالساً . ياداود . . كنت تسهر ليلك إذ الناس نائمون . . وكنت تربح إذ الناس يخسرون .

وظل ابن السماك يعدد فضائل داود الطائى والناس يقولون له : صدقت . . وقد شيعت جثمانه الكوفة بأسرها رجالا ونساء وأطفالا . وعلى لسان على منهم : ياأفقه الناس بعد أبى حنيفة . . ويا أعبد الناس فى عصرك . . ويا أزهد الناس فى دنياك . اذهب إلى جوار ربك راضياً مرضياً جزاء وفاقاً على ما قدمت . ـ الح الأعمال .

معاذ بن عفراء

ثانى اثنين اشتركا فى قتل أبى جهل

خليق

بنا أن ندخل رحاب تاريخه المضىء فى غبطة وإجلال.. وأن نقف ملياً أمام سيرة حياته الناصعة الساطعة . . لنتملى سجاياه النادرة ومزاياه الباهرة.. وإحساسه بالمسئولية فى صباه الغض النضير. فقد كان منذ طفولته تتمثل فيه سمات النجابة . . وتتراءى فيه صور الطموح . . وتتألق فيه مخايل النبل . . وكأنما أرادت له السماء أن ينعم بنورها ويحظى بلألائها قبل أن تجرفه الجاهلية فى تيارها المردى . . وتغرقه فى أمواجها المهلكة . . فقد أسلم مع أول ستة من الأنصار . . وكان عمره إذا ذاك فى رقة الزهور . . ومنذ اللحظة التى دخل فيها الإسلام قلبه . . وهو يعيش مع الله روحاً ووجداناً وإحساساً . . وينفر من غسق الوثنية وباطل الجاهلية . . فمن هو هذا المؤمن الصغير الذى كان فخر قبيلته . . وزهو عشيرته . . وحديث الأنصار فى المدينة المنورة كلها ؟

إن اسمه الحقيقى معاذ بن الحارث . . ولكن غلب عليه نسبه لأمه عفراء . وقد أنبته الله نباتا حسنا ليكون بطلا من أبطال الإسلام . . فالتقى فى موسم الحج برسول الله صلى الله عليه وسلم ضمن ستة من الأنصار . . وبالرغم من تحذير قريش لهؤلاء الستة ألا يستمعوا إلى (غلام قريش)..هكذا كانوا

يسمون الرسول، فإنهم جلسوا إليه . . واستمعوا منه إلى القرآن الكريم . فاطمأنت أنفسهم إلى دعوته . وعرفوا أنه النبي الذى يسمعون من أهل الكتاب عن صفته . . فصدقوه وآمنوا به . . ولما انقلبوا إلى أهلهم . . وأخبروهم بإسلامهم .. لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين . .

وفى موسم الحج التالى ذهب سبعون رجلا وامرأتان من الأنصار إلى مكة . . وبايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم . وكان من بينهم معاذ ابن عفراء . الذى شهد البيعتين . ووضع يده فى يد الرسول مرتين . . وتزود فى الحضرة النبوية المباركة بآخر تعاليم السماء . .

وعندما عادت القافلة المؤمنة إلى المدينة . . وجد المسلمون أنفسهم بحاجة إلى من يعلمهم شئون دينهم . . ويحفظهم كتاب الله . . فوقع اختيارهم على معاذ بن عفراء ورافع بن مالك . فطلبوا إليهما أن يذهبا إلى الرسول ويسألاه أن يرسل إلى المدينة رجلا . . يدعو الناس بكتاب الله . فإنه خليق بأن يتبع.. وللمرة الثالثة يلتقى معاذ بن عفراء بالرسول..ويستجيب صلوات الله وسلامه عليه لرغبة الأنصار . . ويبعث إليهم مصعب بن عمير . ليقوم بمهمة المعلم والداعية . .

وتمر الأيام . . ويأذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة . . وهناك بدأ يؤسس الدولة الجديدة . . ويربى الدعاة والقضاة والمجاهدين . . ولم تمض فترة قصيرة على هجرة الرسول وصحبه حتى جاءت معركة بدر.. أولى معارك الإسلام ، وهنا يرسم التاريخ أروع مشاهد البطولات والتضحيات وأشواق المجاهدين إلى الشهادة . فحينما ثار النقع . وحمى وطيس المعركة . واستحر القتال . واقتحم المؤمنون مواقع المشركين . . برزت مواقف بطولية ما فتئت تهز أعطاف التاريخ دهشة وإعجابا .

من هذه المواقف وما أكثرها ما يحكيه الصحابى الجليل وأحد العشرة المبشرين بالجنة.. عبد الرحمن بن عوف . . يقول إننى لواقف يوم بدر فى الصف . . فنظرت عن يمينى وشمالى ،فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما.تمنيت أن أكون بين أضلع منهما . فغمزنى أحدهما وقال سرا : يا عماه أتعرف أبا جهل؟فقلت : نعم.وما حاجتك إليه؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا . فتعجبت لذلك، فغمزنى الثانى وقال لى سرا مثل ما قال الأول.فلم ألبث أن نظرت إلى أبى جهل ، وهو يجول فى الناس،وقلت:ألا تريان؟هذا صاحبكم الذى تسألانى عنه ، ولكنه فى مثل الحرجة (أى الشجرة التى لا يوصل إليها) لا يخلص إليه،فشدا عليه مثل الصقرين . وضربه كل منهما بسيفه . .

كان هذا الصبيان هما (معاذ بن عفراء ومعاذ بن عمرو بن الجموح) . . أما كيف انتهيا إلى أبى جهل . . وهو وسط رجال كثيرين مثل الشجرة . . فهذا ما يحكيه عن نفسه معاذ بن عفراء . . يقول : إننى ما كدت أعرف أبا جهل حتى قصدت إليه . . فلما أمكننى الله منه حملت عليه وضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه . . فوالله ما شبهتهما حين طارت فى الهواء إلا نواة طاحت من تحت الحجر . .

ولكننى فوجئت بابنه عكرمة يضربنى بالسيف فيقطع يدى..إلا أنها ظلت معلقة بجلدة إلى جنبى . . ورغم ذلك ظللت أقاتل حتى أذانى حمل يدى المقطوعة ، فضغطت عليها بقدمى ، حتى تخلصت منها . .

بأى قلم نصف هذه الشجاعة أيها المسلمون ؟ ! إن الكلمات لتقف عاجزة واجمة لا تستطيع أن تعطى صورة لهذه المغامرة المثيرة.وهذا الموقف العجيب ! ! صبى يزاحم هو وصبى مثله وسط رجال مدججين بالسلاح ويتقد

الشر فى عيونهم وقلوبهم ويخلصان إلى زعيم المشركين أبى جهل والمنية تتخطف الأرواح ويضربانه بسيفيهما فيطرحانه أرضاً يعالج سكرات الموت . ثم يضرب أحدهما وتقطع يده ولكنه يتحامل على نفسه ويواصل القتال بيد واحدة . . هل هذه شجاعة أم صفة أكبر من الشجاعة ؟.. إننى لا آنس فى نفسى ولا فى قلمى القدرة على إعطاء هذا الموقف العظيم حقه من الثناء والإطراء .

ويكتمل المشهد الرائع حين يسأل النبى صلى الله عليه وسلم : هل يوجد أبو جهل فى القتلى ؟ .

ويتجول عبد الله بن مسعود بين قتلى المشركين ، فتقع عيناه على أبى جهل والدم ينهمر من جراحه بغزارة فينقض عليه ويحتز رأسه بالسيف ، ويذهب بالرأس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضعه بين يديه ، وكان الصبيان واقفين أمام الرسول كل منهما يقول له : أناقتلت أبا جهل. ويمسك النبى بسيفيهما وينظر إلى الدم العالق بهما ويقول :

كل منكما قتله . وكانت لحظة تجمع فيها الزمن كله سعادة وسروراً لدى الصبيين ، ولدى ابن مسعود أيضاً .

وتتوارى الأيام يوماً بعد يوم فى حقيبة السنين ويتبوأ عمر بن الخطاب منصب الخلافة بعد أبى بكر ، ويأمر بأن تنسج حلل جيدة لأهل بدر تكريماً لهم .

ويبعث أمير المؤمنين بحلة إلى معاذ بن عفراء . . فيرفض أن يرتديها . ويقول لمن حملها إليه : بعها وأعتق بثمنها رقاباً .فباعها الرجل وأعتق بثمنها خمسة من الموالى .

وهكذا كان معاذ بن عفراء صورة فريدة للمؤمن المجاهد الزاهد الصابر المحتسب . أنار الله آخرته بالرحمة والرضوان . كما أنار دنياه بالعقيدة والإيمان .

ضمام بن ثعلبة

هدى الله به مئات الرجال

لم يكن من طلائع الإسلام الأولى . . ولا ممن حملوا السلاح ودافعوا عن العقيدة . . ونافحوا عن الدين . . وإنما قدم عملا عظيماً ارتفع به إلى مرتبة الأبرار والصديقين . . فقد فتح الطريق أمام قومه بنى سعد إلى الإسلام . . ولم يهد الله به رجلا واحداً..وإنما هدى به مئات من الرجال كانوا يعبدون اللات والعزى . . فى الوقت الذى عم فيه نور الإسلام معظم الجزيرة العربية . . ونكص الشرك على عقبيه . وولت الوثنية الأدبار . .

كان ذلك فى السنة التاسعة من الهجرة . . وبنو أسد ما فتئوا على شركهم ووثنيتهم . . وكانوا بمعزل عن الدين الجديد . . فبعث إليهم النبى صلى الله عليه وسلم بمن يدعوهم إلى الإسلام ، ويبسط أمام عقولهم مبادئه وقيمه . . ولكنهم بعد جدل ومشاورة بعضهم البعض قرروا أن يرسلوا إلى النبى رجلا حصيفاً منهم يستوضح منه أمر الدين الذى جاء به . . كان هذا الرجل هو ضمام بن ثعلبة .. وكان ـ كما يقول الرواة ـ جلداً وله غديرتان.وذا شأن فى قومه . .

انطلق ضمام إلى المدينة وقد استوعب كل ما قاله مبعوث النبى عن

الدين الجديد . . وكان طوال الطريق ينسق أفكاره ، ويتمثل النبي أمامه وهو يجرى حواراً معه . . وقرر ألا يخاطب الرسول بقوله : يانبي الله. كما يفعل المسلمون . . وإنما يناديه باسمه مجرداً . . حتى إذا ما اقتنع بالإسلام . . يقول له : يانبي الله . .

وعندما وصل ضمام بن ثعلبة إلى المدينة . . عرف أن الرسول جالس فى المسجد بين أصحابه . . فذهب إلى المسجد وأناخ بعيره على بابه . . ثم عقله ودخل المسجد . . وأجال عينيه فى الحاضرين ثم قال : أيكم ابن عبد المطلب؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : أنا ابن عبد المطلب . فقال له : ياابن عبد المطلب . . إنى سائلك . ومغلظ عليك فى المسألة . . فلا تجدن فى نفسك .. « أى لا تغضبن » . . فقال له الرسول : لا أجد فى نفسي . . فسل عما بدالك ..

وهنا أدرك ضمام أن الرسول سمح كريم . . وأنه لا يغضب مهما يكن سائله جافى الطبع . . جاف الكلام . . فقد عرف من ضمام أنه سيكون خشناً فى حواره ... ومع ذلك سمح له بالحوار . . فجرى بينهما على هذا النسق :

ضمام : أنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك . . الله بعثك إلينا رسولا ؟

النبي : اللهم نعم .

ضمام : أنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك . . الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون ؟

النبي : اللهم نعــم .

ضمام : أنشدك الله إلهك ، وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك . . الله أمرك أن نصلى هذه الصلوات الخمس ؟

النبي : اللهم نعم .

استمر الحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين ضمام ،ولم يقف عند

هذا الحد . . فقد امتد إلى جميع فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة : والصيام . . والحج . . وشرائع الإسلام كلها . . كان ضمام ينشد الرسول فى كل فريضة منها ، كما ينشده فى التى قبلها . . حتى إذا فرغ قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . . سأؤدى هذه الفرائض . . وأجتنب ما نهيتنى عنه . . ثم لا أزيد ولا أنقص . . فقال الرسول لأصحابه : إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة .

خرج ضمام بن ثعلبة من المسجد وركب بعيره . . وانطلق عائداً إلى قومه . . فاجتمعوا إليه . . فكانت أول كلمة قالها : بئست اللات والعزى . . فقالوا له محذرين : مه ياضمام ! . اتق البرص ! اتق الجذام ! اتق الجنون !.. فقال لهم ضمام : ويلكم ! إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولا . . وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه . وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه . .

سرى نبأ إسلام ضمام بن ثعلبة فى كل بيت من بيوت بنى سعد . . فلم يبت فيهم رجل أو شاب أو امرأة أو طفل إلا واعتنق الإسلام . . وبدأوا فى اليوم التالى يبنون المساجد ويؤذنون عليها للصلاة . . وكان ضمام هو الذى فتح لهم طريق الهداية ، بعد أن فتح الله قلبه وعقله للإسلام . . وأنار بصيرته بتعاليم السماء . .

وصدق ابن عباس حين قال : ما سمعنا بوافد قط كان أفضل من ضمام ابن ثعلبة . . لماذا ؟ لأن هناك رجالا من أصحاب الرسول أسلموا وذهبوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام فلم يستجب لهم إلا قليل . . بل إن صحابياً مثل الطفيل الدوسى ، لم يستجب له إلا رجل واحد من قبيلته دوس . . هو عبد الرحمن أبو هريرة . . أما ضمام فقد استجاب له قومه جميعاً . . وانضووا بعد ذلك تحت لواء الجهاد . . وكان إسلامهم قبل فتح مكة بقليل . . الفتح الذى قضى على آخر قلعة من قلاع الوثنية فى الجزيرة العربية . . واستأصل جذور الشرك . . وطهر الكعبة مما حولها من الأصنام . . فأصبحت — كما بناها الخليل إبراهيم — مطهرة للطائفين والعاكفين والركع السجود .

عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز
أروع مثال للشباب المسلم

تعالوا

نعش لحظات مع هذا الشاب الطاهر الباهر الذى ما كاد يومض بأخلاقه وأدبه وورعه وتقواه حتى أطفأته يد المنية ، ولكنه بقى نجماً ساطعاً من نجوم تاريخ المسلمين . . ولا تقاس سيرته بالمساحة الزمنية التى قطعها ، ولكن بالأعمال الكبيرة التى نهض بها فى سنوات قصار . . فهو ابن الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز الذى ما إن ذكر اسمه إلا برزت كل الفضائل مطلة برأسها تومىء إليه . . وقد نشأ عبد الملك نقى النفس والضمير . . سليم القلب والوجدان . . يتألق نضارة ، ويتضوع طهارة ، ويتأجج حماسة للإسلام . . ويروى أترابه ولداته أنه كان عزوفا عن متع الحياة رغم أنه ربيب القصور . يدبر عن دنيا أقبلت عليه بلذاتها ومباهجها ومسراتها . . ويقبل على آخرة فتحت له ذراعى الرحمة وأحضان المغفرة . . وكان لا يأنس إلا بالله ، ولا يغشى إلا مجالس الفقراء . .

وسلوكه الربانى كان لا يتمثل فى صيام النهار وقيام الليل فحسب . وإنما كان يتمثل أيضاً فى وقفاته المضيئة من أبيه العظيم الذى كان نموذجا عالياً للحاكم العادل . . فقد كان عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة وبعدها يصغى بكل جوارحه إلى ابنه عبد الملك إذا ألقى بين يديه بعظة أو نصيحة . .

وكان يجد فى ابنه الشاب معواناً له على الخير ، وظهيراً له على التقوى ، وسنداً له فى الحصول على مرضاة الله . . حتى إن بعض المغالين من شيوخ الشام كانوا يظنون أن عبد الملك هو سبب ما عليه عمر بن عبد العزيز من ورع وتقوى وزهد . . وهذا الرأى وإن كان محفوفاً بالمغالاة ، إلا أن العلاقة الروحية بين الأب والابن تؤكد أن عبد الملك كان له أبلغ الأثر فى حياة أبيه .

حدث يوم أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، أن أمر بإزالة الأستار التى يجلس وراءها الخلفاء . كما أمر بأن تباع الثياب التى كانت تبسط لهم . وتدخل أثمانها فى بيت مال المسلمين . . وأن يركب بغلته ، ولا يسير فى موكب حاشد . . وبعد أن خطب فى الناس اتجه إلى بيته ليأخذ قسطاً من الراحة . . فإذا بابنه عبد الملك يستأذن فى الدخول عليه . . فأذن له فدخل . . وقال : يا أمير المؤمنين . ما أدخلك غرفة نومك هذه الساعة؟ فقال عمر : أردت أن أستريح . . فقال عبد الملك : تستريح ولا ترد المظالم ؟ فقال عمر : يابنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان . . فإذا صليت الظهر رددت المظالم . . قال عبد الملك : ياأمير المؤمنين . . من أين لك أن تعيش إلى الظهر ؟ .

عند ذلك انتفض عمر انتفاضة غبطة وحبور وقال لابنه : ادن منى : فدنا منه فقبل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . . ثم خرج على الناس ، وأمر مناديه بأن ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها إلى أمير المؤمنين . . وجلس عمر رغم ما يعانى من جهد وإرهاق يرد المظالم ويحكم بين الناس بالعدل . .

وكان عبد الملك يرى أن هناك مظالم كثيرة ، وبدعاً استحدثت ، وسنة يجب إحياؤها ، وأن على والده ، وقد أصبح مسئولا عن الأمة ، أن يرد جميع المظالم ، وأن يزيل البدع وأن يحيي السنة ، وأن يعيد الخلافة إلى ما كانت

عليه فى عهد الخلفاء الأربعة . . كان هذا الأمر يشغل باله ، ويملك عليه أقطار نفسه . . حتى إنه دخل على أبيه وكان جالساً مع مسلمة بن عبد الملك ، وقال له : ياأمير المؤمنين إن لى إليك حاجة فأخلنى . .

فقال له عمر : أسر دون عمك ياعبد الملك؟فقال : نعم..فقام مسلمة وخرج. وجلس عبد الملك بين يدى أبيه . . وتوقع عمر أن هناك أمراً خطيراً يريد عبد الملك أن يفضى به إليه . . فإذا به يقول له :

- ياأمير المؤمنين . . ماذا أنت قائل لربك غداً إذا سألك : رأيت بدعة فلم تمتها ، وسنة فلم تحيها؟.. فقال له عمر : ما الذى حملك على أن تقول هذا؟ أهو رأى رأيته من قبل نفسك؟.. فقال عبد الملك : نعم . . هو رأى رأيته من قبل نفسى . . عرفت أنك مسئول . وتذكرت قول جدى عمر بن الخطاب : لو أن دابة عثرت فى العراق ، لخشيت أن يسألنى ربى : لماذا لم تمهد لها الطريق ! .

فربت عمر كتف ابنه وقال له : رحمك الله وجزاك من ولد خيراً . فوالله إنى لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير . . ثم راح يشرح له موقف بنى أمية وماذا فعلوا بعد ن تبوأوا منصب الخلافة . قال عمر :

- يابنى إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة . . وعروة عروة . . ومتى ما أريد مكابرتهم على انتزاع ما فى أيديهم لم آمن أن يفتقوا على فتقاً تكثر فيه الدماء . . والله لزوال الدنيا أهون على من أن تراق بسببى قطرة من دم . . أما ترضى ألا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ، ويحيى فيه سنة ، حتى يحكم الله بيننا بالحق ، وهو خير الحاكمين .

وكان عبد الملك من فرط بره بأبيه وحبه له ينبهه دائماً إلى كل هفوة تصدر منه . حدث أن غضب عمر بن عبد العزيز يوماً واشتد غضبه ،

وكان عبد الملك حاضراً ، فلما سكن غضبه قال : يا أمير المؤمنين . . أنت فى قدر نعمة الله عليك ، وموضعك الذى وضعك الله به ، وماولاك من أمر عباده ، يبلغ بك الغضب ما أرى ! فقال عمر :كيف؟! فأعاد عليه عبد الملك الكلمات التى قالها فى أثناء غضبه . . فقال عمر لابنه : أما تغضب ياعبد الملك؟فرد عبد الملك قائلا : ما تغنى سعة جوفى إن لم أردد فيه الغضب . . حتى لا يظهر منه شىء أكرهه . .

هذه بعض مواقف عبد الملك من أبيه . . الشاب الذى نشأ فى عبادة ربه . . وشارك أباه فى الحكم بالرأى الصواب ، والفكر السديد والقول الراشد . . ولكن الله اختاره لجواره ، وهو أنضر ما يكون شباباً . . وكان يوم دفنه يوماً مشهوداً . . بكاه الشباب والشيوخ . . ولكن عمر بن عبد العزيز تجلد وصبر ووقف على قبره والناس من حوله يقول :

والله يابنى كنت براً بأبيك . . وما زلت منذ وهبك الله لى مسروراً بك . والله ما كنت قط أشد سروراً . . ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى المنزل الذى صيرك الله إليه . . فرحمك الله ، وغفر لك ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، ورحم كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد وغائب . . رضينا بقضاء الله وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين . .

رحم الله عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز . . فقد ترك سيرة تفوح بعبير الصلاح والتقوى والاستقامة والأدب مع الله وبذل النصيحة حتى لأبيه أمير المؤمنين .

عبد الله بن عون

لم تكتب عليه الملائكة خطيئة واحدة

منذ طفولته الغضة الناعمة النضيرة . . وتعاليم الإسلام ومبادئه تشكل سلوكه . . وتصوغ حياته . . . وتنأى به عن مزالق الشيطان . . . فقد حفظ القرآن الكريم قبل أن يبلغ العاشرة من عمره .. وكان ذكاؤه اللماح الوامض..وذهنه الثاقب المضيء.. وبديهته اليانعة الثمر . . تتيح له أن يحفظ ما يقرأ أو يسمع من مرة واحدة .. حتى إنه استوعب الكثير من أحكام الفقه وأصول الشريعة فى سن مبكرة . . وكان يضرب به المثل فى الحفظ والاستيعاب . . . وقد أمضى طفولته وصباه عاكفاً على الدراسة والعبادة والاستغراق فى التأمل . . وبلغ من تأدبه بأدب الإسلام أنه كان لا يمازح أحداً . . ولا يمارى أحداً . . لأنه كان فى شغل شاغل عن اللهو واللغو . . وقد وصفه أحد معاصريه بأنه صان لسانه عن كل ما يغضب الله أربعين سنة . . . فلم تكتب عليه الملائكة خطيئة واحدة . .

هذا هو عبد الله بن عون بن أرطبان الذى كان أعلم أهل السنة بالعراق فى عصره .. وكانت السكينة تضيء جوانحه وتبسط أشعتها على نفسه..حتى إنه لم يغضب فى حياته قط مهما أصيب بمكروه فى نفسه أو ماله . . بل إنه كان لا يزيد فى ساعة المحنة على قوله : « الحمد لله ربنا » . . ولا يحفل بما

يعتريه من خطوب . ولا بما ينوبه من شدائد . . لأن الدنيا لم تدخل قلبه يوماً . ومتاع الحياة لم يقتحم ساحة إيمانه . . أو يغش سماء عقيدته . . وكانت فلسفته تقوم على أن العبد لن يصيب حقيقة الرضا حتى يكون رضاه عن الفقر كرضاه عن الغنى . فهو القائل : كيف تستقضى الله فى أمرك . . ثم تسخط إن رأيت قضاءه مخالفاً لهواك . . ولعل ما هويت فيه هلاكك ! ! وترضى بقضائه إذا وافق هواك . . إنك ما أنصفت من نفسك . . ولا أصبت باب الرضا ! .

ولم يكن حديث ابن عون عن الرضا بقضاء الله وقدره إلا جزءا من سلوكه ، ولوناً من أعماله ، وجانباً من تصرفاته . . حدث أن ضرب غلامه الجمل ففقأ عينه . . . ففزع الغلام وارتعدت فرائصه . . . ولما عاد بالجمل وأخبر ابن عون الخبر ، ووجهه مصفر من الخوف . . . نظر إليه العالم الزاهد الصابر الراضى عن الله . . . وابتسامة حلوة تكسو وجهه . . وتتلألأ فى ملامحه . . وقال له : لا ترع . . واذهب فأنت حر لوجه الله عز وجل . . . فهو لم يكتف بالعفو عن الغلام ، وإنما منحه حريته . . . أما عن شمائله الطيبة الطاهرة فقد وصفه أحد أصحابه بأنه لم يره شاتماً أحداً قط : عبداً ولا أمة . . ولا دجاجة . . ولا شاة . . ولا كان أحد أملك للسانه منه . . وبالنسبة لعبادته فإنه كان إذا صلى الغداة مكث مستقبل القبلة فى مجلسه يذكر الله عز وجل . . فإذا طلعت الشمس صلى . . ثم أقبل على أصحابه . . كما كان يصوم يوماً ويفطر يوماً . . عملا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « أحب الصوم إلى الله صوم أخى داود . كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ؛» .

وكان ابن عون إذا توضأ لا يعينه أحد . . . بل كان يتناول الإبريق ويصب الماء على أعضائه منه . . ويتطيب قبل دخوله إلى الصلاة . . وإذا تصدق على إنسان أعطاه الصدقة سراً ، وإن صنع معروفاً صنعه سراً ،

لأن صدقة السر يزيد ثوابها على صدقة الجهر . . كما أنه لم يحلف على يمين برة ولا فاجرة قط . . وإذا تحدث إلى أمه يخفض صوته . . كأنه فى حضرة أحد الملوك . . وحدث أن ارتفع صوته مرة على صوت أمه فكفر عن ذلك بأن أعتق رقبتين . . وظل يستغفر طيلة نهاره .

وبلغ من حرصه على ألا يروع مسلماً . . أنه كان لا يؤجر حوانيته للمسلمين . . حتى لا يجيء أول الشهر ويفزعهم بطلب الإيجار . . ولما كانت العزلة محببة ومشوقة إلى نفسه . . . فقد سأله أحد أصحابه : لماذا تنقطع عن الناس بعض الوقت ؟ فقال له : لو أن رجلا انقطع إلى ملوك الدنيا لانتفع بهم . . . فكيف بمن ينقطع إلى من له السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى . . . ؟

وكان ابن عون ينأى بنفسه عن الحديث فى القدر . . لأنه راض رضاء تاماً عما يحدث له . . . سأله رجل ذات يوم : لماذا لا تتحدث عن القدر ، وقد رأيت قوماً يتكلمون فيه وسمعت منهم ؟ . . فرد ابن عون : يقول الله عز وجل : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ، فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره.وإما ينسينك الشيطان ، فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » . . . فكان يسمى الظالمين الذين يخوضون فى القدر . . . ومن وصاياه رضى الله عنه أنه كان يقول لإخوانه : أحب لكم يامعشر إخوانى ثلاثة : هذا القرآن تتلونه آناء الليل وأطراف النهار . . . وأن تلزموا الجماعة وتكفوا عن أعراض المسلمين. وبما أنه كان إمام السنة فى عصره فقد حفظ علماء البصرة كثيراً من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عنه . . . ومنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم يصلى ، يسأل الله تعالى فيها خيراً إلا أعطاه إياه » . . وقوله أيضاً : « لا يزال الله تعالى فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، والله يحب

إغاثة اللهفان » . وقوله كذلك : « إن لله تعالى ملكا ينادى عند كل صلاة : يابنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها على أنفسكم ، فأطفئوها بالصلاة ». كل هذه الأحاديث وغيرها كانت مما يحفظه عبد الله بن عون ، ويلقيه فى مجالسه . .

وعلى هذا الصراط المستقيم أمضى هذا الفقيه العابد حياة منورة بالطهر ، ألاقة بالإيمان ، زاخرة بالتقوى ، لا يتحرك لسانه إلا بعلم أو معرفة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر . . . إلى أن شاء الله سبحانه وتعالى أن يختاره لجواره فى رجب سنة إحدى وخمسين بعد المائة ، وكان أشبه بالملائكة فى شفافيته ونورانيته . . فقد عاش بروحه فى الملأ الأعلى . . . إلى أن تلقته ملائكة الرحمة والرضوان . . . وكأن الملأ الأعلى قد تهيأ للقائه واستعد لقدومه .

زيد بن سعنة

أسلم عن اقتناع بأنه النبي الذي بشرت به التوراة

سيظل

اسمه يتبوأ مكانة فريدة سامية شاهقة فى التاريخ . . لأنه ينفرد بصفات نادرة عجيبة تجعله مميزاً . . حتى بين الشخصيات التى تعتبر طلائع القافلة الإنسانية منذ سيرتها الأولى فى هذا الوجود.. فهو من كبار علماء عصره . . وأساتذة جيله . . وعباقرة بيئته . درس التوارة واستوعب تعاليمها السماوية . . وشد انتباهه أن آخر رسالات السماء ستنزل على رجل عربى ..يتحلى بشمائل لم يتحل بها بشر من قبله . . وأن من علامات نبوته أنه يقبل الهدية ويرفض الصدقة . . وأن أتباعه من المستضعفين . . . يزيدون ولا ينقصون . . وأنه سيقضى على الشرك والوثنية والمجوسية وأى عبادة غير عبادة الله وحده . . وأنه سيأتى مصدقاً لما جاء به الأنبياء السابقون . . وأنه يتصف بالصدق والأمانة والخلق العظيم . . وأنه سيتلقى الوحى بواسطة الناموس الذى أنزل على موسى . . وأن حلمه يسبق جهله . . ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً . .

كل هذا .. وصفات أخرى نورانية ربانية يتجمل بها النبى المنتظر . . قرأها زيد بن سعنة الحبر الإسرائيلى فى التوراة . . وعاش فى لهفة وشوق إلى رؤية هذا النبى الخاتم . . ليؤمن به ويصدق برسالته . . ولذلك فإنه

عندما سمع بأن محمد بن عبد الله يأتيه خبر السماء بادر بجمع معلومات دقيقة عن حياته وسلوكه . . وكان يطابق هذه المعلومات على ما ورد فى التوراة عن النبي المنتظر . . ولشد ما ملأت الفرحة نفسه ، وفاض الحبور فى جوانحه حين وجد أن محمد بن عبد الله هو نفس النبي الذى بشرت به التوراة . . وذكرت صفاته مفصلة تفصيلا . .

كان زيد بن سعنة تدفعه أشواقه إلى اعتناق الإسلام . . وكان بعض أحبار اليهود الذين درسوا التوراة وتفهموها ، وأضاءت تعاليمها عقولهم وقلوبهم . . مثل عبد الله بن سلام . . قد تحولوا من يهوديتهم إلى الدين الجديد . . عن اقتناع بأنه الذين الذى ورد ذكره فى التوراة . . ولكن الحبر الإسرائيلى زيد بن سعنة . . كان يريد أن يستوفى كل علامات النبوة فى الرسول . . قبل أن يدخل الإسلام ويصبح من أتباع النبي . . وكان يقول لأصدقائه : ما من علامات النبوة شىء .. إلا وقد عرفتها فى وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه . . إلا علامتين أريد أن أعرفهما .. فقد جاء فى التوراة أنه : يسبق حلمه جهله . . ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما . . وقد دبرت أمرا لأعرف هاتين العلامتين . .

ويحكى زيد بن سعنة عن هذا الأمر فيقول: انتظرت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خرج من أحد بيوته ، ومعه على بن أبى طالب رضى الله عنه . . وكانت معى راحلة . . وكنت ألبس ملابس البدو . . فقلت : يارسول الله . . لى نفر فى قرية بنى فلان قد أسلموا . . وكنت قد حدثتهم إن أسلموا سيأتيهم الرزق رغداً . . ولكن قد أصابهم قحط من الغيث . . وأنا أخشى يارسول الله أن يخرجوا من الإسلام طمعاً . . كما دخلوا فيه طمعاً . . فإن رأيت أن ترسل إليهم بشىء تغيثهم به فعلت . .

ثم سكت قليلا . . والرسول وعلى بن أبى طالب ينظران إلى . .
واستأنفت حديثى قائلا : يامحمد . . هل لك أن تبيعنى تمراً معلوماً فى حائط (بستان) بنى فلان إلى أجل كذا وكذا . . ؟ قال : نعم . . وهنا فتحت كيس نقودى . . وأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب . . واتفقنا على اليوم الذى أتسلم فيه التمر . . وقبل أن أنصرف . . قال لى الرسول : اعدل بينهم وأغثهم . . أى وزع التمر عليهم بالعدالة والمساواة . .

كان زيد بن سعنة يريد من وراء هذه الصفقة أن يختبر حلم الرسول . . وأن يتعرف إلى آخر علامة من علامات نبوته . . فلم ينتظر حتى يأتى موعد تسليم التمر . . وإنما ذهب قبل الموعد بثلاثة أيام . . وكان الرسول ومعه أبو بكر وعثمان رضى الله عنهما ونفر من أصحابه .. قد فرغوا من صلاة الجنازة على أحد المسلمين . . ودنا الرسول من جدار ليجلس إليه . . فتهجم عليه عليه زيد بن سعنة . . وأخذ بمجامع قميصه وردائه . . ونظر إليه بوجه متجهم . . وقال له :

ـ يامحمد ! . . ألا تقضينى حقى ؟ فوالله إنكم مطل يابنى عبد المطلب . . أى تماطلون فى دفع الحق . . وهنا نظر عمر بن الخطاب إلى الرجل . . وعيناه تدوران فى وجهه كالفلك المستدير . . وقال : ياعدو الله ! أتقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع ؟ وتصنع به ما أرى ؟ فوالذى نفسى بيده لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفى رأسك . .

حدث كل هذا . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الرجل فى سكون وتؤدة . . ثم قال : ياعمر . . أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا . . أن تأمرنى بحسن الأداء . . وتأمره بحسن الطلب . . اذهب به ياعمر فأعطه حقه . . وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته . . أى جزاء ما فزعته . .

انطلق عمر إلى البستان.. وأعطى الرجل حقه من التمر «وزاده عشرين صاعاً .. فقال زيد بن سعنة : ما هذه الزيادة ياعمر ؟ . . قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أزيدك مكان ما رعتك . . فتلألأ وجه زيد بالبشر . . وقال : أتعرفني ياعمر ؟ . . قال عمر : لا أعرفك . . قال : أنا زيد بن سعنة . . قال عمر : الحبر ؟ . قال زيد : نعم الحبر . .

سأله عمر — والدهشة ترتسم على وجهه — : ما دعاك إلى أن فعلت برسول الله ما فعلت . . وقلت ما قلت ؟ فأفصح زيد عن خبيئة نفسه . . وقال : اسمع ياعمر . . لم يكن من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . حين نظرت إليه إلا علامتين هما : يسبق حلمه جهله . . ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً . . وقد عرفتهما الآن . . فأشهدك ياعمر أني قد رضيت بالله رباً . . وبالإسلام دينا . . وبمحمد نبياً . . وأشهدك أن شطر مالي صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم . .

بعد أن أعلن زيد بن سعنة إسلامه أمام عمر بن الخطاب . . عاد الرجلان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ووقف زيد أمام الرسول . . وكشف عن شخصيته . . وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . .

لقد جاء إسلام زيد بن سعنة بعد معاناة ومكابدة . . فقد غامر بنفسه حين جذب الرسول من ردائه . . بغية أن يعرف آخر علامة من علامات النبوة فيه . . ووصل إلى مبتغاه . . وأسلم عن عقيدة واقتناع . . وشهد بعد ذلك مشاهد كثيرة مع الرسول . . حتى استشهد في غزوة تبوك ، مقبلا غير مدبر . . رافعاً رأسه إلى السماء لحظة استشهاده لعله كان يرى ملائكة الرحمة . . وهي تزف روحه الطاهرة الطيبة إلى دار الخلود .

محمد بن المنكدر

كف بصره من البكاء خشية من الله

خوفه

من مقام الله جعله يبكى حين يقرأ القرآن . . ويبكى حين يصلى حتى تبتل الأرض من موضع سجوده . . ويبكى حين يكون خالياً يفكر فى يوم القيامة . . وعذاب الحشر . . ورهبة الحساب . . وكان فقيراً معدماً لا يملك من الدنيا إلا الثوب الذى يلبسه . . والفراش الخشن الذى ينام عليه . . وكان يرى أن الدنيا حيزت له بحذافيرها . . لأن صحته تعينه على العبادة . . وتساعده على سهر الليل فى الصلاة والذكر . . وقد ظل محمد بن المنكدر بن عبد الله عزباً لم يتزوج حتى بلغ مبلغ الرجال . . لأنه لا يملك مالا يدفع منه المهر . . ولا أثاثاً يصلح لبيت الزوجية . .

وكان يمت بصلة قربى ووشيجة دم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه . . فهما يلتقيان عند جدهما الأكبر سعد بن تيم . . وقد دفعته هذه القرابة إلى أن يذهب ذات يوم إلى السيدة عائشة رضى الله [illegible] يشكو لها الحاجة . . . عساه أن يجد عندها ما يدفع عنه غائلة الجوع ، ويقيه مرارة الحرمان ، ويكشف عنه غاشية الفقر . . ولما أفضى إلى السيدة عائشة بما يعانيه ، وباح لها بما يكابده . . قالت له : لو كان عندى عشرة آلاف درهم لوهبتها لك . .

وحدثت مفاجأة فى اليوم نفسه . . فقد بعث إليها معاوية بن أبى سفيان بعشرة آلاف درهم . . . فقالت : ما أسرع ما امتحنت به ياعائشة ! . . وأرسلت فى طلب محمد بن المنكدر . . وأعطته الآلاف العشرة . . . فاشترى جارية . . وودع حياة العزوبة . . واستقبل حياة جديدة . . ورزقه الله من هذه الجارية ثلاثة أولاد هم : محمد ، وأبو بكر ، وعمر . . سماهم على اسم الرسول وصاحبيه . .

وكان لمحمد بن المنكدر جار مبتلى . . لا ينام الليل ويرفع صوته من فرط الألم . . بينما محمد يرفع صوته بالحمد . . ولما سئل عن ذلك قال : هو يرفع صوته بالبلاء . . وأنا أرفع صوتى بالنعمة . . وذات ليلة كان محمد ابن المنكدر يصلى . . فبكى وطال بكاؤه . . حتى فزع أهله وسألوه : ما الذى أبكاك ؟ فلم يرد عليهم ، وتمادى فى البكاء حتى ظنوا أنه أصيب بسوء . . فأرسلوا إلى صديق له اسمه أبو حازم ، وأخبروه بأمره . . فجاء أبو حازم إليه ، فوجده يبكى . . فقال: يا أخى . . ما الذى أبكاك ؟ قد رعت أهلك ! ! فقال له : إنى مرت بى آية من كتاب الله عز وجل . . قال أبو حازم : ما هى ؟ . . فقال . . قوله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » . . فبكى أبو حازم معه ، فقال بعض أهله لأبى حازم : جئنا بك لتفرج عنه فزدته . . فأخبرهم بسبب بكائهما . .

وكان محمد بن المنكدر يقول : إن الله تعالى يحفظ المؤمن فى ولده وولد ولده ، ويحفظه فى داره ، وفى الدور التى حوله ، ولا يزالون فى حفظ وعافية ما كان بين أظهرهم . . وكان لا يرى جنازة إلا صلى على الميت مهما يكن رأى الناس فى هذا الميت . . وقد سئل يوماً . . لماذا تصلى على فلان ؟ فقال . . إنى أستحى من الله عز وجل أن يعلم منى أن رحمته تعجز عن أحد من خلقه . .

وفى هذا البيت الذى تظلله التقوى . . ويضمخه عطر الورع . . وتتلألأ فى جوانبه أنوار القرآن الكريم . . نشأ أولاد محمد بن المنكدر نشأة طاهرة زكية . . نقية . كانوا مثل أبيهم إيماناً وعقيدة . . وصلاحاً وخشية لله . . وتحولت دارهم إلى محراب عبادة . . يتلون فيها كتاب الله ، ويتدارسون العلم . .

كان عمر بن المنكدر لا ينام الليل ، ويكثر من البكاء . . ولما شق ذلك على أمه قالت لأخيه محمد : إننى مشفقة على عمر مما يفعل . . فلو كلمته فى ذلك . . فعسى أن يرفق بنفسه . . فخلا محمد بأخيه وقال له : إن الذى تصنع يشق على أمك . . فرد عليه عمر قائلا : إن الليل إذا دخل على هالنى ، فأستفتح القرآن ، فأجد فى تلاوته لذة لا تعدلها الدنيا بكل ما فيها من لذائذ ومتاع . . وأما بكائى فسببه خوفى من الله . . ألا يتقبل عملى . . فإننى سمعت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم معناه . . إن الإنسان يعمل بعمل أهل الجنة . . حتى ما يبقى بينه وبينها ذراع . . فيسبق إليه الكتاب . . فيعمل بعمل أهل النار . . فيدخل النار . .

ثم سكت عمر قليلا . . وقال لأخيه محمد : ألا ترى أن أباك ظل يبكى من خشية الله حتى كف بصره . . ومع ذلك فإنه يقول : ما زلت مقصراً فى حق الله . . مفرطاً فى جانبه . . يا أخى . . إن من سبقونا بالإيمان كانوا يقولون : ومن علامة القبول أن الدموع تجرى وأنت لا تدرى . . ولكن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . .

وهكذا كان يعيش محمد بن المنكدر وأولاده . . أسرة مؤمنة تراقب الله فى كل خاطرة ، وتحاسب نفسها فى كل خطوة . . ولعلها تكون من أهل السعادة يوم القيامة .. ومن الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ..

وعندما حضرت الوفاة محمد بن المنكدر بدا عليه الجزع . . فقيل له : لم تجزع ؟ قال : أخشى آية من كتاب الله عز وجل . . فهو يقول « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » . . فإننى أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أكن أحتسب . .

ويحكى أحد الصحابة أنه جلس بجواره ، وهو يحتضر . . فقال له : يا أبا عبد الله . . كأنى أراك قد شق عليك الموت . . وظل يهون عليه حتى رأى وجهه يتلألأ كالبدر . . وهنا قال له محمد بن المنكدر : لو ترى ما أنا فيه لقرت عينك . . ثم فاضت روحه . . والغرفة كلها تفوح بعبق الروح والريحان . . وكان ذلك فى سنة إحدى وثلاثين بعد المائة من الهجرة .

سلمة بن دينار

الفقيه الزاهد... العالم الورع

انتهى إلى درجة فى الزهد جعلته لا يتناول فاكهة فى حياته قط . . . وكان إذا رأى الفاكهة يقول: « موعدك الجنة». وانتهى إلى درجة فى الورع جعلته يعيش ربانياً . . فوقفت الدنيا دون قلبه ووجدانه لا تستطيع أن تقترب منهما مهما يكن فيها من زينة ومتاع . . وانتهى إلى درجة من العلم جعلته كالمورد العذب كثير الزحام . . يقبل الناس على مجلسه فى مسجد الرسول إقبال الظماء على السلسبيل المصفى يسألونه فيما أشكل عليهم من أحكام الدين . . ثم ينصرفون وقلوبهم راوية بالنور .. وعقولهم متناغمة مع الهدى .. وأحاسيسهم مضمخة بعبير التقوى.. وكان لغزارة علمه ودقة فهمه للإسلام تتهادى الحكم الغوالى من فمه رفافة شفافة.. كما تتهادى قطرات الضوء فى الصبح المسفر صافية نقية فيها متاع للعين وبهجة للنفس.

هذا هو سلمة بن دينار العالم الفقيه الذى رفض أن يأخذ أجرا على علمه رغم أنه كان يعيش فى خصاصه ولا يكاد يجد قوت يومه . . وكان يبذل علمه لمن يطلبه . . ويقول لمن يريد أن يهبه شيئاً: إن أجرى إلا على الله . كما كان لا يذهب إلى الولاة ولا يدخل دواوينهم ولا يرغب فى شىء مما فى أيديهم، ويعلل تصرفه هذا فى قوله لابن شهاب الزهرى..وكان عالما يجالس

الأمراء : إن بنى إسرائيل حين كانوا على صواب كان الأمراء يحتاجون إلى العلماء .. وكان العلماء يفرون بدينهم من الأمراء ، فلما رأى ذلك قوم من أذلة الناس تعلموا العلم ، وأتوا به إلى الأمراء فاستغنوا بهم عن العلماء .. واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا ، ولو كان علماؤنا يصونون علمهم لهابهم الأمراء .

كان سلمة يريد من العلماء ألا ينزلقوا إلى الولاة ويمدوا إليهم يد السؤال ..وأن يحرصوا على كرامتهم إجلالا للعلم الذى فى صدروهم وتوقيرا لدين الله الذى يقومون بالدعوة له . . وكان يقول فى مجالسه : إن كان يغنيك من الدنيا ما يكفيك فأدنى عيش من الدنيا يكفيك . . وإن كان لا يغنيك ما يكفيك ، فليس ثمة شيء يكفيك .. كما كان كثير البكاء فى الصلاة ، وإذا سجد تبلل دموعه الأرض ، ولما قيل له : يا أبا حازم . لم تبكى هكذا ؟ قال : بلغنى أن النار تصيب موضعا أصابته الدموع من خشية الله تعـــالى ؟

وحدث أن بعث إليه سليمان بن عبد الملك ..فذهب إليه فى قصر الخلافة بدمشق .. فقال له سليمان : يا أبا حازم مالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنكم أخربتم آخرتكم وعمرتم دنياكم ..فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب . قال سليمان : صدقت .فكيف القدوم على الله عز وجل . . ؟ قال سلمة : أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله .. وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه .

عندئذ بكى سليمان بن عبد الملك حتى اخضلت لحيته بالدموع وقال : ليت شعرى مالنا عند الله يا أبا حازم ؟ قال سلمة : اعرض نفسك على كتاب الله عز وجل..فإنك تعلم مالك عند الله. فقال سليمان : يا أبا حازم . .

وأنى أصيب ذلك ؟ قال سلمة : عند قوله تعالى : إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم .

أطرق سليمان بن عبد الملك هنيهة،وبدا عليهالتفكير ،ثم رفع رأسه وقال لسلمة ابن دينار : يا أبا حازم .. ما تقول فيما نحن فيه ؟ .

كان سليمان يريد أن يتعرف إلى رأىابن دينار فى توليه منصبالخلافة . إذ تولاه بعد أخيه الوليد. فقال سلمة : أعفنى من هذا. فقال سليمان : إنها نصيحة تلقيها . فما كان من هذا العالم الفقيه الذى لا يكتّم علمه ، ولا يحبس رأيه .. ولايوجه الكلام غير وجهته إلاأن قال : إن أناسا أخذوا هذا الأمر عنوة من غير مشاورة من المسلمين ولا اجتماع من رأيهم..فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا .. ثم ارتحلوا عنها .. فليت شعرى ما قالوا وما قيل لهم ؟ .

وهنا ران الصمت على المجلس .. ورأى بعض من فيه أن سلمةبندينار يعرض ببنى أمية وأسلوبهم فى تولى الخلافة..فقال لهأحد الحاضرين:بئس ما قلت يا شيخ ! فنظر إليه سلمة وقال له : كذبت . . إن الله تعالى أخذ على العلماء لتبيننه للناس ولا تكتمونه . . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا . فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة . ؟

وإذ استشعر سليمان بن عبد الملك الرهبة مما يقوله سلمة بن دينار ،فقد أراد أن يجعله من بطانته فقال له : اصحبنا يا أبا حازم تصب منا ونصب منك . . فقال سلمة:أعوذ بالله من ذلك.إننى أخاف أن أركن إليكم قليلا فيذيقنى الله ضعف الحياة وضعف الممات . وقبل أن ينفض المجلس قدم سليمان مائة دينار لسلمة فردها إليه . . وقال : لا آخذ أجرا على ما قلت .

وهكذا أبى العالم الورع الفقيه الزاهد سلمة بن دينار أن يعيش مرفها فى قصر الخلافة أو أن يأخذ مالا من الخليفة . . كان الله فى قلبه فهانت

عليه الدنيا بما فيها ومن فيها . وكان دائماً يقول : عجبا لقوم يعملون لدار يرحلون عنها كل يوم مرحلة . . ويدعون أن يعملوا لدار يرحلون إليها كل يوم مرحلة . . كما كان يقول : ما أحببت أن يكون معك فى الآخرة فقدمه اليوم . . وما كرهت أن يكون معك فى الآخرة فاتركه اليوم .

وقد عاش سلمة بن دينار حاملا مشعل الهداية يضىء السبيل لأبناء جيله، ويصقل القلوب والعقول بما أفاء الله عليه من العلم، وما أفاض عليه من المعرفة، وما أسبغ عليه من الخواطر الملهمة.. إلى أن اختاره الله لجواره سنة أربعين بعد المائة فى خلافة المنصور . فطوبى له فى جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

ومن المبشرات برضوان الله عليه أن سليمان بن سليمان العمرى قال : رأيت فى المنام أبا جعفر ، القارى فقال لى : أقرىء أبا حازم السلام وقل له: يقول لك أبو جعفر : إن الله وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات .

عامر بن عبد الله البصري

كان يصلى فى اليوم ألف ركعة

ما

شوهد فى ساعة من ليل أو نهار إلا راكعاً أو ساجداً . .
فقد كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة . . ومع ذلك
يتهم نفسه بالتقصير فى عبادة الله عز وجل . . كان دائماً يحاول
أن يقف على قدم المساواة مع الملائكة الذين يسبحون بالليل
والنهار ولا يفترون عن ذكر الله لحظة واحدة . . وكان
لا يتناول إلا لقيمات معدودة كل يوم . . يكاد يمسك بها
رمقه . . ولذلك كان ضامراً هزيلا . . ولكن جسده النحيل
كان ممتلئاً بقوة روحانية عجيبة . . تعينه على أداء ما كلف
نفسه به من صلاة . . وقد عاش عزباً لم يتزوج . .
بالرغم من أن معاوية بن أبى سفيان عرض عليه أن يخطب
من شاء . . ويدفع له المهر من بيت المال . . لأن عامر بن
عبد الله بن عبد قيس البصرى كان قد تجرد لله . . وقرر ألا
يلهيه عن عبادته شيء . . ولذلك فإنه يعد أحد الثمانية التابعين
الذين انتهى إليهم الزهد . . وكان يقول : لذات الدنيا أربعة :
المال والنساء والنوم والطعام . . أما المال والنساء فلا حاجة
لى فيهما . . وأما النوم والطعام فلابد لى منهما . . ولكنى والله
لأضرن بهما جهدى . .

وكان ضرره بالنوم والطعام يتمثل فى أن يبيت قائما . ويظل صائما .

وكان إبليس يحاول أن يقترب من موضع سجوده ، فيشم رائحته النتنة . . فإذا ما وجد رائحة إبليس نحاه بيده ويقول : لولا نتنك لم أزل عليك ساجدا . . وكان إبليس يأتى له فى صورة حية . . فلما نحاها بيده . . قالوا له . . ألا تخشى أن تلدغك الحية . . فقال له : إننى لأستحى من الله أن أخشى شيئاً غيره . .

وقد أدى قيامه للصلاة آناء الليل وأطراف النهار إلى أن تورمت ساقاه وقدماه . . وكان يقول : يا نفس إنما خلقت للعبادة يا أمارة السوء . . فوالله لأعملن بك عملا حتى لا يأخذ الفراش منك نصيبا . . وكان بين الحين والحين يخرج إلى أحد الجبال يتعبد فيه بعيدا عن الناس . . وحدث أن خرج يوما وظل يمشى حتى هبط واديا اسمه وادى السباع . . وقد سمى الوادى بهذا الاسم . . لأن السباع كانت تسكنه . . ولم يكن يرتاده أحد من الناس . . اللهم إلا المتصوفة الخلص . . الذين امتلأت قلوبهم وجوانحهم بهيبة الله . . فلم يعودوا يخافون سواه . . حتى السباع الضارية . . والأفاعى السامة . . والوحوش الكاسرة . .

حين هبط عامر هذا الوادى . . وجد فيه متصوفا آخر على شاكلته اسمه « حممة » . . انفرد عامر يصلى فى ناحية . . وحممة يصلى فى ناحية أخرى . . ومضت أربعون ليلة لا يكلم أحدهما الآخر . . لأن كلا منهما منهمك فى الصلاة والعبادة . . بيد أن عامر بن عبد الله البصرى أراد أن يتعرف إلى هذا العابد الذى يعيش معه فى وادى السباع . . وينافسه فى طاعة الله عز وجل . . فذهب إليه وسأله : من أنت يرحمك الله ؟ فقال له : دعنى وهمى ! قال : أقسمت عليك . . قال : أنا حممة الحبشى . . قال عامر : لئن كنت حممة الذى ذكر لى . . لأنت أعبد من فى الأرض . . أخبرنى عن أفضل خصلة . قال حممة : إننى لمقصر . . ولولا مواقيت

الصلاة تقطع على القيام والسجود لأحببت أن أجعل عمرى راكعا . .
ووجهى مفترشا حتى ألقاه . . ولكن الفرائض لا تدعنى أفعل ذلك . .
فمن أنت يرحمك الله ؟ قال : أنا عامر بن عبد قيس . قال حممة : لئن
كنت عامرا الذى ذكر لى فأنت أعبد الناس . فخبرنى بأفضل خصلة . .
قال عامر : إن هيبة الله فى صدرى جعلتنى لا أهاب غيره . .

وبينما عامر وحممة يتحادثان فى عبادة الله وطاعته . . إذا بسبع يأتى من
خلف عامر ويثب عليه . . فوضع عامر بكل هدوء يديه على السبع وتلا هذه
الآية الكريمة : « ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود » . .
فما كان من السبع إلا أن جثا على الأرض . . وأخذ يبصبص بذنبه . . وكأنه
قط وديع . . ولما رأى حممة هذا المشهد قال لعامر : بالله يا عامر . .
أما هالك ما رأيت؟ . فقال له : ألم أقل لك يا حممة . . إننى لأستحى من
الله عز وجل أن أهاب غيره . .

وإذ كان العابد الزاهد عزبا لا بيت له . . فقد كانت له ابنة عم اسمها
عبيدة تصنع بين الحين والحين ثريدا وتأتى له به . . وتقول له : إنما صنعته
لك بنفسى لتأكله . . فيخرج إلى أيتام الحى ويدعوهم إلى تناول هذا الثريد . .
وكان يقول لابنة عمه : يا عبيدة . . تعزى عن الدنيا بالقرآن . . فإنه من لم
يتعز بالقرآن عن الدنيا . . تقطعت نفسه على الدنيا حسرات . .

وكان عامر بن عبد قيس يعقد مجلسا بالمسجد فى بعض الأيام . . ومما كان
يقوله فى هذا المجلس: إننى رأيت نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم
وصحبتهم فحدثونى أن أصفى الناس إيمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه . .
وأن أشد الناس فرحا فى الدنيا أشدهم حزنا يوم القيامة . . وأن أكثر الناس
ضحكا فى الدنيا أكثرهم بكاء يوم القيامة . .

ولم يكن زهد عامر بن عبد قيس يصرفه عن مجابهة الظلم إذا رأى إنسانا يظلم . . ولو كان على غير دينه . . فقد شاهد يوما رجلا ذميا يجره أعوان الوالى . . والذمى يستغيث به . . فخلصه منهم وقال : لا تخفر ذمة محمد صلى الله عليه وسلم وأنا حى . . ولما علم الوالى بما فعله عامر أمر بنفيه إلى الشام . . لأنه لم يرجع إليه . . بل عمل عملا ليس من حقه . .

وعندما خرج عامر فى طريقه إلى الشام اجتمع أصحابه ليودعوه . . فقال لهم : إنى داع فأمنوا . . فظنوا أنه سيدعو على من تسبب فى نفيه . . فقالوا له : كنا نتمنى منك ذلك . فرفع يديه وقال : اللهم من وشى بى ، وكذب على ، وأخرجنى من مصرى ، وفرق بينى وبين إخوانى . . اللهم أكثر ماله وولده . . وأصح جسمه . . وأطل عمره . .

وهكذا دعا بكثرة المال والولد والصحة وطول العمر لمن ظلموه وأخرجوه من البصرة بعد أن عاش بين أهلها ورعا تقيا زاهدا يقتفى خطا أستاذه أبى موسى الأشعرى فى العلم والخلق والحياة الطاهرة . . وكما جاء إلى الدنيا ويده نظيفة من متاعها . . فقد فارقها وهو لا يملك شيئا من هذا المتاع . . وإنما يملك رصيدا عظيما من العمل الصالح يسلكه فى عداد الأبرار والصديقين .

قيس بن سعد بن عبادة

ضرب أروع الأمثال في الجود بالنفس والمال

حينما يذكر الأبرار والصديقون يقف هذا البطل فى الطليعة الرائدة منهم . . مطلا على الأزمنة والعصور بأعماله الشامخة وعقيدته الراسخة . . وجوده السابغ . . وذكائه اللماح . . وبسالته الجسور . . فهو من كرام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأسخيائهم ودهاتهم . . كان فى الحروب صاحب رأى ومكيدة . . وفى المكارم صاحب بذل وعطاء . . رفعه أبوه سعد بن عبادة إلى النبى ليخدمه . . فنال بقرب الرسول شرفاً يتدنى دونه كل شرف . . وحظى بمجد يتطامن أمامه كل مجد . . وشهد الوحى وهو ينزل على النبى . . . عاطراً بعبق السماء . . منوراً فى فم جبريل . . وقد نشأ قيس وحب الله ورسوله يملأ قلبه ووجدانه ، ويفيض على مشاعره وأحاسيسه . . ونما فى ظل أبيه العظيم . . يداه مبسوطتان بالخير . . ونفسه فياضة بالبر . . وشمائله مضمخة بالكرم . . ثم عاش حياته كلها . . كالريح المرسلة فى الجود . . وكالبحر الزاخر فى الندى . . وكالغمام المطير فى العطاء . . وكالريح الصرصر فى ميدان الحروب . . يجود بنفسه كما يجود بماله . . ولذلك أفرد له التاريخ مكاناً ومكانة . . ودون بأشرف أقلامه حياته المثمرة النادرة الفريدة . .

كان قيس بن سعد بن عبادة سليل بيت مؤمن .. فأبوه أحد النقباء فى

ليلة العقبة .. وكان يطعم فى كل ليلة ثمانين رجلا من أهل الصفة .. ويرسل حفنة من الثريد كل يوم إلى بيت رسول الله .. وقد نما قيس على هذه المزايا وترعرع على هذه السجايا .. وكان أول اختبار لجوده وكرمه وسخائه وبذله حين ذهب مع سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى حى من جهينة على ساحل البحر فى السنة الثامنة من الهجرة .. وكان هدف السرية أن ترصد عيرا لقريش .. ولم يكن معها من الزاد إلا ما يكفيها أياما قليلة .. ولما نفد الزاد كان مع أبى عبيدة جراب من التمر أعطاه له الرسول . فراح يوزع كل يوم تمرة واحدة على كل رجل من أفراد السرية البالغ عددهم ثلثمائة من المهاجرين والأنصار .. ولما أوشك التمر على النفاد كان يقسم التمرة الواحدة بين الرجلين .. مما جعل أصحاب الرسول يأكلون ورق الشجر ليسدوا جوعهم الشديد .

حينئذ قام قيس بن سعد بن عبادة وراح ينادى : من يبيعنى نياقا بتمر .. على أن يعطينى النياق هنا .. وأعطيه التمر فى المدينة؟.. ولما سمعه عمر بن الخطاب قال : واعجبا لهذا الغلام !! إنه لا يملك مالا ويدين فى مال غيره!!..وبينما قيس يكرر نداءه تقدم منه رجل من جهينة وقال له: من أنت ؟ والله ما أعرفك حتى أعطيك ما تطلب .. فقال : أنا قيس ابن سعد بن عبادة .. فقال الرجل الجهنى : إن أباك شريف من أشراف العرب .. وسيد من ساداتهم .. ولذلك سوف أبيع لك خمس نياق .. على أن يكون ثمن كل منها حمل بعيرين من التمر .. غير أنى أريد شاهدا .. فقال قيس : أشهد من تحب .. فطلب الرجل الجهنى من عمر بن الخطاب أن يشهد فرفض ، وقال إن:هذا الغلام لا مال له وإنما المال مال أبيه .. فكيف أشهد على هذا بدين .. ؟

فما كان من الرجل الجهنى إلا أن استغنى عن الشهود .. وقال : لا يمكن

لشاب مثل هذا أن يخذله أبوه .. وهو من هو شرفا ونسبا فى العرب .. ثم أتى بخمس نياق وسلمها لقيس .. راح يذبح كل يوم ناقة حتى ذبح أربعا منها .. وفى اليوم الخامس حين أراد أن يذبح الناقة الخامسة نهاه أبو عبيدة ابن الجراح وقال له : يا قيس .. تريد أن تخرب ذمتك .. ولا مال لك .. ؟ فقال قيس : يا أبا عبيدة .. أترى أن والدى يخذلنى فى كمية من التمر .. وهو يقضى ديون الناس .. ويحمل الكل .. ويطعم فى المجاعة .. وأنا ما فعلت هذا إلا لقوم مجاهدين فى سبيل الله عز وجل ؟.

وبعد أن انتهت مهمة السرية وعادت إلى المدينة .. التقى سعد بابنه قيس وسأله عما لاقوه .. فحكى له عن المجاعة التى أصابتهم .. والنياق التى اشتراها لإطعام الصحابة فقال له :

« قد أعطيتك أربعة حوائط (بساتين) .. فقم واجمع تمرها .. وأعط الرجل الجهنى حقه .. والله لو لم تفعل ما فعلت لغضبت منك » ..

وعلى الفور قام قيس إلى البساتين .. وجمع من تمرها ما يعادل الثمن الذى اشترى به النياق ، وأعطاه الرجل الجهنى .. فقال الرجل : لقد صدق حدسى : إنكم تسمون إلى معالى الأخلاق وجسيمها .. ولما سمع الرسول بما فعله قيس قال : إنه من بيت جود .

أما ما حدث للسرية بعد ذلك .. فقد أخرج الله لها حوتا من البحر ضخم الحجم .. من سمك العنبر .. أخذ الصحابة يأكلون من لحمه وشحمه عشرين ليلة .. حتى استردوا عافيتهم ، وزال عنهم الضعف والهزال .

بعد هذا نعود إلى سيرة قيس بن سعد .. فقد كان مثلا فريداً فى الجهاد .. ونموذجا نادرا فى الجود .. بلغ من جوده وسخائه أنه كان إذا أقرض قرضا لا يأخذه حين يرده صاحبه .. فقد جاءه يوما أحد المسلمين وسأله أن يقرضه ثلاثين ألفا يشترى بها داراً لعياله . فأعطاه المبلغ .. وذهب

الرجل ليشترى الدار فرفض صاحبها إلا أن يبيعها بثمن أعلى . فعاد إلى قيس وقدم له المبلغ فأبى أن يأخذه وقال : إنا لا نعود فى شيء أعطيناه .. وذهبت إليه امرأة فقيرة وقالت له : إن الفئران لا تدخل بيتى .. وهذه كناية عن أنه لا يوجد فى بيتها طعام .. لأن الفئران لا تدخل إلا البيت الذى به طعام .. فقال لها قيس .. والله لأملأن بيتك فئرانا .. وملأ بيتها طعـــاما . .

وكان والده سعد بن عبادة حين خروجه من المدينة قد قسم ماله بين أولاده .. إلا أنه ولد له مولود بعد ذلك ، وكان سعد قد فارق الحياة فذهب أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .. وقالا لقيس : هل يمكن أن تنقض هذه القسمة حتى يأخذ المولود حقه ؟. فقال لهما : لن أغير ما صنع أبى .. وسأعطى نصيبى لهذا المولود ..

وكان قيس يحب آل البيت ويعتقد أنهم أحق بالخلافة من بنى أمية .. ولذلك فإنه شهد مع الإمام على الجمل وصفين والنهروان .. ولما قتل الإمام على كان مع قيس خمسة آلاف رجل حلقوا رءوسهم وتبايعوا على الموت .. إلا أنهم فوجئوا بأن الحسن بن على دخل فى بيعة معاوية .. فقال قيس لأصحابه : إن شئتم جالدت بكم حتى يموت الأعجل منكم . وإن شئتم أخذت لكم أمانا .. فقالوا : خذ لنا أمانا .. فأخذ لهم الأمان .. ثم عاد إلى المدينة .. وعكف على العبادة حتى وافاه مرض الموت ولكن عواده أبطأوا عليه ؛. ولما سأل لماذا لايعوده الناس .. قالوا له : لأنهم مدينون لك ، ويستحون أن يحضروا من أجل الديون التى عليهم لك .. فأمر مناديا ينادى : من كان عليه دين لقيس بن سعد بن عبادة فهو له . . فأتاه أناس كثيرون حتى إنهم هدموا درجات السلم التى كانوا يصعدون عليها إليه .. وقدتوفى فى العام السادس والستين من الهجرة فى آخر خلافة معاوية .. ولبس حلل الرضوان وهو ذاهب إلى جنات النعم ..

ثابت بن الدحداح

أقرض الله كل ما يملك ومات شهيداً في أحد

تعالوا

نقف ساعة فى فيض غامر من الحب الإلهى مع تاريخ هذا العظيم . . هلموا نعش فى معارج بطولته .. نتملى جلالها . . ونستشرف آياتها . . ونزجى إليه تحية إعظام وإكبار . . كما أزجت إليه السماء تحية الرحمة والمغفرة والرضوان . . إن نفسه الخيرة المعطاء جعلت من حياته نهراً دافقاً بالبر ، وأسطورة باهرة للبذل ، وأحدوثة فى فم الأيام والليالى تتناقلها عصراً بعد عصر . . لم تكن تعنيه الحياة بكل ما فيها من زخرف ومتاع ..وإنما كانت تعنيه الباقيات الصالحات بكل ما فيها من شفافية وطهر . . ولذلك عاش عازفاً عن الدنيا .. صادفا عن بهجتها . . متجهاً إلى الله فى حله وترحاله . .

وحين نتهادى إلى سيرته الطيبة العابقة بالفضل والفضائل .. نجده من الأنصار الذين أووا النبى ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه .. ونجده أيضا تلميذا نابغا فى مدرسة النبوة .. لا يتخلف عن مجلس واحد من مجالس معلم الإنسانية وأستاذ البشرية صلوات الله وسلامه عليه .. ونجده كذلك فارسا شجاعا يخوض الغمرات .. ويقتحم المنايا .. ويجابه الأخطار .. ويواجه الشدائد .. ويصارع المكاره .. وإلى جانب هذا يسارع إلى إغاثة الملهوف ونجدة المظلوم ومواساة المحزون .. وفوق هذا كله يقف فى الذؤابة العليا من حب الله ورسوله .. يستعذب نداء الجهاد .. ويستمرىء مشاق القتال ، ويشم رائحة الجنة تحت ظلال السيوف ..

ومن مظاهر حبه لله أنه كان يملك بستانا يضم ستمائة نخلة باسقة .:
ولما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم » ذهب مسرعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله .. هل يريد منا الله القرض ؟ فقال له النبي : نعم . فقال له : أعطني يدك يا رسول الله .، فناوله النبي يده . فقال له : أشهدك أنى أقرضت ربى حائطى .. « أى بستانى » ..

ثم انصرف وكله فرح وحبور بما فعل .. وذهب إلى البستان ، ونادى بأعلى صوته : يا أم الدحداح ! يا أم الدحداح !. أخرجى من الحائط (البستان) فقد أقرضته ربى عز وجل.فردت أم الدحداح فى نبرة بهجة وسرور : ربح البيع .. ربح البيع .. ثم أخرجت البلح من أكمام أولادها .. وقالت لهم : أبوكم قد أقرض الله هذا الحائط .

ويحكى عبد الله بن مسعود ما حدث بعد ذلك فيقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح » .. والعذق من النخل كالعنقود من العنب .. ورداح أى ثقيل .. والمعنى أن الله سيعطى ثابت بن الدحداح فى الجنة نخلا ممتلئة بالتمر جزاء له على ما قدم لله ..

وكما قدم ثابت بن الدحداح كل ما يملك لله .. فقد جاء يوم قدم فيه نفسه لله أيضاً ..

وقصة استشهاده فى يوم أحد تكشف عن مدى استعداده دائماً للتضحية .. للبذل .. لإعطاء حياته وهى أغلى ما يملك ..

كان يوم أحد مزدحما بالدروس الإلهية .. الرسول القائد أعد خطة الدفاع والهجوم .. وعهده برجاله ألا يخالفوا له أمرا .. ولكن لحكمة عليا خالف الرماة الخمسون الذى صفهم الرسول فى ثغرة بالجبل أمره .. فأصيب أصحاب الرسول بهزيمة مفاجئة .. غير متوقعة .. وحاول بعض

المشركين قتل الرسول.. رماه عتبة بن أبى وقاص فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى .. ورماه عبد الله بن شهاب الزهرى فشجه فى جبهته ، ورماه عبد الله بن قمئة فدخلت حلقتان من المغفر فى وجنته ، ووقع صلى الله عليه وسلم فى حفرة حفرها المشركون فأخذ على بن أبى طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله ..

حدث كل هذا للرسول فى يوم أحد حتى ظن المشركون أنه قتل وأشاعوا ذلك بين المسلمين لينالوا من عزائمهم ، وليثبطوا من هممهم ، وليردوهم عن دينهم إن استطاعوا .. ولكن المسلمين كانوا أثبت جنانا رغم مرارة الهزيمة ، ورغم كثرة الشهداء ، ورغم ما حاق بهم من اضطراب .. فوقف ثابت بن الدحداح ينادى بصوت جلجل فى كل أرجاء الجبل :

يا معشر الأنصار .. إلى .. إلى .. إن كان محمد قد قتل، فإن الله حى لا يموت . فقاتلوا عن دينكم .. قوموا وموتوا على مات عليه الرسول .. وما إن فرغ من ندائه حتى نهض إليه نفر من الأنصار وراحوا يقاتلون المشركين فى استماتة واستبسال .. ولكنهم كانوا فى مواجهة جيش كثيف السلاح يتقدمه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وضرار بن الخطاب .. فدار قتال عنيف بين الأنصار والمشركين .. بيد أن خالد بن الوليد تمكن بكفاءته القتالية من أن يطعن ثابت بن الدحداح بالرمح طعنة نافذة ، وقع على أثرها ميتا .. ثم قتل جميع من كانوا معه من الأنصار ، وكانوا آخر شهداء المسلمين يومئذ .

وعندما قام المسلمون بدفن الشهداء .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة وجرحه يدمى .. اللون لون الدم .. والريح ريح المسك ..

وهناك فى حضن جبل أحد ترقد أجساد شهداء هذه المعركة .. ويقف التاريخ خاشعا على كل قبر .. يتمتم بعبارات الثناء والإطراء .. وإن كان ما فعله هؤلاء الشهداء من أجل الله ورسوله والإسلام فوق الثناء والإطراء .

عمرو بن الجموح

الأعرج الذي كان أسبق المقاتلين يوم أحد

بالرغم من أنه كان أعرج شديد العرج . . يتحرك ببطء . . ويمشى على مهل . . ولا يعرف العدو . . فإنه انطلق إلى غزوة أحد يسابق الرياح . . وينافس الجياد الصافنات . . ويقتحم صفوف المشركين كالجمل الأورق . . حتى أدهش المقاتلين ببسالته . . وشد انتباه المجاهدين ببطولاته . . كانت حماسته كالمرجل الفوار . . وعزيمته كالصخرة الصماء . . وحركاته كالموج الموار . . لم يهدأ لحظة واحدة منذ التحام المؤمنين والمشركين فى قتال مستمر . . وكان يشم عبق الجنة فى النقع الثائر . . والغبار الطائر . .

كما كان يسدد طعناته يمنة ويسرة . . كأن ساعديه من فولاذ . . أو كأنه يرمى عن يمين القدر . . وهكذا كان عمرو بن الجموح نجما من نجوم أحد . . ثار على عرجه . . فتحول ضعفه إلى قوة . . وبطء حركته إلى جيشان وانفعال وانطلاق بلا حدود . .

وحين نعود القهقرى إلى حياة هذا البطل العظيم إبان جاهليته . . نجده وهو شريف من أشراف الخزرج ، وسيد من ساداتهم ، يتخذ فى داره صنما من الخشب يعبده ويتبرك به . . بالرغم من أن ابنه معاذا كان قد أسلم ليلة العقبة وحسن إسلامه وشهد بدرا . . وقد ظل عمرو بن الجموح على

وثنيته يعبد صنمه « مناة » . . موصدا عقله دون نداء الحق . . ولما ضاق فتيان بنى سلمة بشيخهم هذا اتفقوا على أن يقدموا له درسا عمليا فى أن « معبوده » هذا لا ينفع ولا يضر . . بل إنه لا يستطيع أن يدافع عن نفسه إذا مسه ضر . . أو لحق به أذى . .

كان هؤلاء الفتيان ينتظرون حتى يأتى الليل ويأوى عمرو بن الجموح إلى فراشه ويستغرق فى سبات عميق . . ثم يتسللون إلى داخل الدار ، وفى مقدمتهم معاذ بن عمرو ويحملون الصنم ويلقون به فى إحدى حفر القمامة الخاصة ببنى سلمة . . حتى إذا أصبح عمرو ولم يجد صنمه يقول : ويلكم ! من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ ! ثم يخرج ويبحث عنه حتى يلتقطه ملوثا من القمامة فيغسله ويطهره ويطيبه . . ويقول فى غضب : والله لو أعلم من فعل بك هذا لأخزيته . . ولكن نفس الواقعة تتكرر كل ليلة . . حتى استشاط عمرو بن الجموح غضبا . . فعلق سيفا فى رقبة الصنم . . وقال له : إنى والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى . . فإن كان فيك خير فامتنع . فهذا السيف معك .

ثم ذهب إلى فراشه ونام . . ولما أحس فتيان بنى سلمة أن شيخهم رسب الكرى فى أجفانه . . دخلوا على الصنم وأخذوا السيف من رقبته . . ثم ربطوه بحبل فى كلب ميت وألقوا به فى بئر من آبار بنى سلمة . . ولما تألق نور الصباح واستيقظ عمرو . . صوب نظره إلى مكان الصنم فوجده شاغرا . . فخرج يبحث عنه . . فوجده مربوطا بكلب ميت وقابعا وسط كومة من القمامة فى إحدى الآبار . . فوقف ينظر إليه فى غيظ . ويقول له : أين السيف ؟ ويحك ! ! لماذا لم تدافع عن نفسك ؟ . . إن العنز تدافع عن نفسها . . والله ما عدت أرى فيك خيرا . . وفى خطوات بطاء عاد عمرو ابن الجموح إلى بيته . . والهموم تتناوح فى صدره . . والأفكار الحزينة

تجمجم فى حناياه . . وماضيه فى الوثنية يتغشاه كالثوب البالى الممزق . .
وما كاد يستقر فى بيته حتى سأله أهله : أين الرجل الذى تتحدثون عنه ؟
أريد أن أراه وأسمع منه . . وسرعان ما أحضروا له مصعب بن عمير . .
فتلا له مصعب قوله تعالى : « ألر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه
قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . .

ما كاد عمرو يسمع هذه الآية حتى أعلن إسلامه وقال : آمنت بما أنزل
على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوبل إسلامه من شباب بنى سلمة بالبهجة
والحبور . . وسرى النبأ العظيم فى ديار الخزرج فوقع من نفوسهم موقعا
طيبا حسنا . . ثم مرت فترة غير طويلة من الزمن حفظ خلالها عمرو ما شاء
الله له أن يحفظ من القرآن . . واستوعب من تعاليم الدين ما قدر الله له أن
يستوعب . . وكانت المدينة رغم هدوئها تتوقع أن يقوم كفار مكة بعمل
عسكرى ردا على ما حدث لهم فى غزوة بدر حيث تخطفتهم المنايا على حد
سيوف المسلمين . . وحيث امتلأ القليب برفاتهم ودمائهم . . وحدث
ما توقعه المسلمون . .

فقد حشدت قريش ثلاثة آلاف مقاتل . وجاءت بالأسلحة والطبول
والدفوف وأناشيد الثأر ، وعسكرت فى جبل أحد . . وأذن فى المدينة مؤذن
الجهاد . . فخرج المسلمون على قلب رجل واحد ينشدون الشهادة أو النصر
ووجد عمرو بن الجموح أن الفرصة سانحة للإسهام فى الجهاد . . فصارح
أبناءه برغبته . . فلم يحظ بموافقة واحد منهم . . بل قالوا له : إن الله قد
عذرك ولا حرج عليك . . إعمالا لقوله تعالى : « ولا على الأعرج حرج » . .
ولكن الرجل كانت حماسته للجهاد قد بلغت مداها ، وتصميمه على القتال
قد جاوز غايته . . فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد
وقال له : يا رسول الله . . إن أولادى يريدون أن يحبسونى عن الخروج

معك . . والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة . . فقال له الرسول : أما أنت فقد عذرك الله . . ولا جهاد عليك . . ثم قال لبنيه : لا عليكم ألا تمنعوه . . لعل الله عز وجل يرزقه الشهادة . . فخلوا عنه . .

كان هذا إذنا له من الرسول بالاشتراك فى القتال . . فصاح : قوموا بنا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين . . اللهم لا تردنى إلى أهلى خائبا . .

وحين صف الرسول الصحابة للقتال كان عمرو بن الجموح فى الصف الأول . . وكان يردد : أنا والله مشتاق إلى الجنة . . ثم بدأت المعركة . . فإذا بعمرو يرتفع فوق ضعف عرجه . . ناسيا فى فورة حماسته أنه يتحرك برجل واحدة . . وأن الرجل الثانية لا تساعده على الحركة السريعة .. وحدث ما يشبه المعجزة..فقد كانت حركته فى معمعان القتال أسرع ممن يقاتلون برجلين سليمتين . . ولما انكشف المسلمون بعد مخالفة الرماة لأوامر الرسول . . هجم عمرو وابنه خلاد على الكفار . . فتكاثروا عليهما وقتلوهما مع من قتل من الشهداء . .

وبعد أن انجلى غبار المعركة أمر الرسول بدفن القتلى . . وقال لهم : ادفنوا عمرو بن الجموح وصهره عبد الله بن عمرو فى قبر واحد . . فإنهما كانا متصافيين . .

وتمر ستة وأربعون عاما على غزوة أحد . . وينزل سيل عرم يهدم بعض قبور شهدائها . . ويحفر قبر عمرو وصهره لينقلا إلى قبر آخر . . فإذا بهذين الشهيدين لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس . . بل إن جسديهما كانت تفوح منهما رائحة أطيب من رائحة المسك . . كأنما ضمختهما الجنة بعبقها وعبيرها . وينحنى التاريخ على هذا القبر ليقول كلمته . . فيجد من معانى العظمة والجلال مالا تتسع له الكلمات . .

أحمد بن الرشيد

الأمير الذي فضل العمل والفقر على حياة القصور

كان بوسعه أن يعيش حياة البذخ فى القصور . . بين الخدم والحشم . . وتحت أفياء النعيم . . تمد له الدنيا أفانين المتع . . وتركع تحت قدميه زخارف الحياة . . وتبتسم له الأيام . . وتأنس به الليالى . . ولكنه آثر طاعة الله ، واستغرق فى عبادته ، واكتفى من الدنيا بالخبز الجاف والملبس الخشن ، وتأبى حياة الكسل والخمول . . ورفض أن يأكل من جهد غيره ، وعرق سواه ، فراح يعمل بيديه ، ويقتات من ثمرة جهده وكدحه ونصبه وإرهاقه . . وعاش بالبصرة فى كوخ متواضع لا أثاث فيه ، ولا خدم ، ولا طعاماً شهياً . . ومع ذلك كان أنسه بالله يغنيه عن صخب القصور ومتاعها الزائل . . ويجعله فى نشوة روحية لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها . .

هذا هو أحمد بن هارون الرشيد الذى لم يحفل به التاريخ .. كما حفل بالأمين والمأمون ، ونسج حولهما الأساطير .. ولو أنصف التاريخ لوضع أحمد فى أعلى قممه . . وأشمخ ذراه . . وأفرد له من الصفحات ما يجعله أسطورة عصره ، وأعجوبة زمانه ، وأحدوثة الأجيال .

إننى لأحس المهابة تسرى فى عقلى وقلبى ووجدانى وأنا سائر على استحياء إلى رحابه الطاهر .. أتملى حياة هذا العظيم الذى كان لا يملك من الدنيا

غير « مر وزبيل » . . والمر هو المسحاة التى يستخدمها عامل البناء فى دهان الحائط بالطين . . أما الزبيل فهو « القفة » . . التى يحمل فيها الطين إلى مكان العمل . . أى قدرة خارقة على الزهد كان يتمتع بها أحمد بن الرشيد رضى الله عنه ؟! إنه فى الوقت الذى يسيطر فيه الرشيد على مقاليد الأمور فى الدولة . . وتتلألأ قصوره بالمتع ، وتحفل أيامه ولياليه بالبهجة والحبور وأطايب الطعام والشراب . . يعيش ابنه هذا فى البصرة عاملا فقيرا يفترش الأرض ، ويلتحف السماء . . لأنه لا يجد ما ينام عليه ، ولا ما يتغطى به . وينفق كل يوم دانقا على طعامه وشرابه . . ولو أنه ولد فى بيت فقير معدم لقلنا: هذا حظه وقدره . . ولكنه ولد على مهد النعيم والرغد . . ونما فى أحضان المجد والعز . . ورأى فى طفولته المباهج دانية قطوفها إليه ، والمسرات ممتلئة كئوسها بين يديه . .

بيد أن أحمد بن الرشيد . . حفظ القرآن مبكرا . . ووعى تعاليم الرسول . . وعرف أن الدنيا ليست بدار قرار ، وأن الآخرة خير وأبقى . . وأن الإنسان محاسب على كل درهم ودانق . . بل محاسب على كل نفس يتنفسه . . وعلى كل خطوة يخطوها . فودع حياة القصور إلى الأبد . . وانطلق إلى حياة العمل والزهد والورع والتقوى والفقر المدقع . . وكان آخر عهد أبيه الرشيد به يوم تولى الخلافة ، وجاءت الدنيا إلى قصره مختالة تجرر أذيالها . .

وفى سوق البصرة كان أحمد يجلس مع الحرفيين كل يوم سبت فقط ، وبجواره مسحاته وقفته ينتظر من يعرض عليه العمل كطيان لقاء درهم ودانق . . وكان ينفق من الدرهم والدانق طوال الأسبوع . . حيث لا يأكل إلا خبز الشعير والملح . . ويمضى أيامه ولياليه فى العبادة وطاعة الله عز وجل . . ولم يحدث أن اشترى أحمد ثوبا جديدا فى حياته كلها . . ومن أين يملك ثمن الثوب . . ولذلك كان يلبس جبة قديمة من الصوف . . ونعلين أشد منها قدما . .

ويعطينا رجل من أهل البصرة صورة عن حياة أحمد . . وكيف كانت نهايته . . يقول عبد الله بن الفرج : احتجت يوما إلى رجل يرم لى شيئاً فى الدار ، فذهبت إلى السوق . . فدلونى على شاب شاحب الوجه بين يديه « مر وزبيل » . . فسألته عما إذا كان يقبل أن يذهب معى لإصلاح بعض الجدران . . فوافق بشرط أن يتوقف عن العمل فى وقت الصلاة ليؤديها فى المسجد . كما اشترط أن يأخذ درهما ودانقا لقاء عمله . .

صحبته إلى الدار ، فشد حزاما حول وسطه ، وراح يعمل بجد ونشاط دون أن يكلمنى بشىء . . حتى إذا أذن المؤذن للظهر ، قال : يا عبد الله قد أذن المؤذن . فقلت له: شأنك . فخرج وصلى . ولما رجع عمل عملا جيدا إلى العصر ، ثم قال : يا عبد الله قد أذن المؤذن . فقلت له : شأنك . فخرج وصلى . ثم رجع وظل يعمل إلى آخر النهار . . وعندما أردت أن أعطيه أجره ، زدته . . فأبى أن يأخذ الزيادة ، فألححت عليه فضجر ، وتركنى ومضى ، فأسرعت خلفه وأعطيته الأجر الذى اشترطه فقط . . وكان عمله يستحق أجرا أكثر مما اشترط .

وبعد فترة احتجت إليه ، فذهبت إلى السوق فى يوم السبت فلم أجده .. سألت عنه فقيل لى إنه مريض . . ودلونى على بيته . . فذهبت إليه فوجدته نائما على الأرض . . وتحت رأسه قطعة من الطوب . . فقلت له : هل تريد شيئاً ؟ فقال : إننى سأموت . . فإذا مت فاغسل جبتى ومئزرى وكفنى بهما . . وافتق جيب الجبة ، فإن فيه خاتما من الياقوت ، فخذه واذهب به إلى الرشيد وأعطه له . . وما لبثت روحه الطاهرة أن صعدت إلى بارئها .. والمكان كله يفوح برائحة كرائحة المسك . . كأنما الملائكة ألبسته حلة من الرضوان . .

دفنت أحمد فى مقبرة الفقراء بعد أن أخذت الخاتم من جبته . وانتظرت اليوم الذى يخرج فيه الرشيد . وجلست له فى الطريق . . ولما مر بالقرب منى ناديته : يا أمير المؤمنين . عندى لك وديعة . . فأمر الحرس بأن يدخلونى القصر بعد أن ينفض الزوار . . ولما لم يكن عنده أحد استدعانى وطلب منى الوديعة فأعطيته الخاتم . . وما كاد يراه حتى انتابته حالة عنيفة حادة من الدهشة والذهول وسألنى : من أين أتيت بهذا الخاتم ؟ فحكيت له حكاية الشاب الطيان . . فسقط على البساط وضرب برأسه الأرض ، وكاد يغشى عليه . . وانخرط فى البكاء والنحيب والنشيج . . وقال : إنه ابنى . . تركنى بعد أن ابتليت بالخلافة . . فأعطيته هذا الخاتم ليستعين بثمنه إذا احتاج إليه . . وقال : إنه كان ينصحنى دائما ، ويقول لى : أخشى عليك من سكرة السلطة . . وها هو ذا قد مشى إلى ربه دون أن يأخذ منى درهما واحدا وأنا خليفة المسلمين . . بل قبل أن يعمل طيانا على أن يكون أميرا».

وبعد أن جف دمعه وخفت بكاؤه . . طلب منى أن أذهب معه ليلا إلى قبر أحمد . وهناك وقف خاشعا على القبر يبكى ويتمتم بعبارات الحزن والأسى . . ولما طال بكاؤه قلت له : هون عليك يا أمير المؤمنين . . فأطرق برأسه إلى الأرض . . وقال : أنا الذى أقول لكل سحابة تمر ببغداد .. أمطرى فى أى مكان . . فسوف آخذ منه الخراج . . والله إننى لأخجل من نفسى أن يكون ابنى طيانا يعيش بالدرهم والدانق . . وأنا أملك خزائن الأرض . . إنه سيلقى الله ويده صفر من الدنيا .. أما أنا فسوف ألقاه وحسابى طويل على كل درهم فى هذه الخزائن . . لقد فضل أحمد أن يكون عاملا أجيرا . . على أن يكون مترفا أميرا . . فطوبى له فى منازل الأبرار والصديقين . .

ويقول عبد الله بن الفرج : ظللت بعد ذلك أقرب المقربين إلى الخليفة أصحبه بين الحين والحين إلى قبر أحمد . . لنزوره وعيناه جدول من الدمع .. وقلبه شعلة من الحزن . . ونفسه تذوب حسرات . . وأحسست أن الخلافة بجلالها وفخامتها لم تعد تساوى عنده جناح بعوضة ! !

سعيد بن جبير

استشهد وهامته مرفوعة

ابتسم

للموت لحظة استشهاده . . كأنه قادم إلى مهرجان حافل في السماء . . يتلقاه بالحبور والبهجة . . وينتظره بالروح والريحان . وفاحت من دمائه رائحة المسك ، وهي تتناثر قطرات كحبات العقيق . . فيها من عبق الأبرار . . وعبير الصديقين . . وأسفر وجهه كالبدر كأنه وشى بغشاء من النور . . بينما جلاده منكس الرأس خجلا وخوفاً ورهبة مستشعراً بشاعة الجرم . . ممزق الوجدان من سوء ما فعل . . وبين مهابة الشهيد وصغار الجلاد . . وقف التاريخ يدون أروع مواقف العزة والشموخ . . وأقبح صور العسف والبطش والتنكيل . .

كان سعيد بن جبير – وهو من العباد الزهاد القانتين الذين يقومون الليل ويصومون النهار – يختم القرآن كل ليلتين . ويخرج من الكوفة كل سنة مرتين : مرة للعمرة . ومرة للحج . . ولا يتحدث إلى أحد بين صلاة الفجر وطلوع الشمس . لأنه مستغرق فى ذكر الله . . لا يشغله من أمر الدنيا شاغل . .

وإلى جانب ورعه وتقواه وزهده وعبادته وتجرده لله . . كان ثائرا على الظلم . . ناقما على الحجاج خارجا عليه . . حتى إنه خاض موقعة دير الجماجم

التى نشبت بين جيش الحجاج وجماعة عبد الرحمن بن الأشعث . . مما جعل الحجاج يتميز غيظا وحنقا وموجدة على سعيد . . وبعث إلى والى مكة أن يرسله إلى العراق مكبلا بالأغلال ، ليقتله شر قتلة . . ولما نمى إلى أصدقاء سعيد بن جبير ما بيته الحجاج لسعيد ، ذهبوا إليه ، وطلبوا منه الخروج من مكة بليل . . فأبى وقال : إنى لأستحى من الله أن أهرب من القتل . .

وحدث أنه حين ذهب رجال الوالى إلى سعيد بن جبير ليقبضوا عليه ويقيدوه بالأغلال . . كانت ابنته الطفلة فى حجره فبكت . . فقبلها وقال لها : لا تبكى يابنيتى . . فما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة ؟

وفى الطريق من مكة إلى العراق قال له حارسه مشفقا عليه : والله إنى لأعلم أنك ذاهب إلى من يقتلك . . فاذهب إلى أى طريق شئت . . فالتفت إليه سعيد وقال له : يرحمك الله يا أخى . . إنك إن أطلقت سراحى فسيقتلك الحجاج . . ولو كنت أريد الفرار من الموت لفررت قبل أن يقبض على . . ولكن المقاتل لا يفر من الموت ! !

كان سعيد طوال الرحلة يصوم النهار ويقوم الليل ولا يفتر عن ذكر الله لحظة . . وكان حارسه ينام وهو مطمئن إلى أن المقبوض عليه لن يهرب . . وبعد مسيرة ثلاثة أيام مجهدة . . وصل سعيد إلى الحجاج . . ومثل بين يديه . . والشموخ يطل من عينيه ، والعزة تضىء جبينه ، وحب الشهادة يملأ قلبه ووجدانه . .

نظر الحجاج إلى سعيد فوجده مكلل الهامة بالشمم . . فأراد أن يطامن من كبريائه فسأله فى سخرية : ما اسمك ؟ . . فرد عليه ورائحة العزة تفوح من كلماته : اسمى : سعيد بن جبير . . فقال الحجاج فى غطرسة : بل أنت شقى ابن كسير . . فقال له سعيد : لست شقيا . . والشقى هو من لا يعلم قدر نفسه . . فقال الحجاج . . أما والله لأبدلنك من دنياك نارا تتلظى . . فقال له سعيد : لو علمت أنك تملك جهنم . . لما اتخذت إلها غيرك . .

وهنا قطب الحجاج ما بين حاجبيه ، وأحس أن الرجل المكبل أمامه بالقيود أشد منه قوة وبأسا . . فأدار الحوار وجهة أخرى . .

قال لسعيد : ما تقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

فقال سعيد : نبى مصطفى . خير الباقين ، وخير الماضين .

فقال الحجاج : فما تقول فى أبى بكر الصديق ؟ فقال : ثانى اثنين إذ هما فى الغار . أعز الله به الدين . عاش سعيدا ، ومضى حميدا ، ومضى على منهاج نبيه لم يغير ولم يبدل .

فقال الحجاج : وما تقول فى عمر ؟ فقال : خيرة الله . وخيرة رسوله .. أحب الله أن يعز الدين بأحد الرجلين . . فكان أحقهما بالخيرة والفضيلة . .

فقال الحجاج : وما تقول فى عثمان بن عفان ؟ . . قال : مجهز جيش العسرة ، والمشترى بيتا فى الجنة ، والمقتول ظلما . .

فقال الحجاج : فما تقول فى على ؟ . . قال : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأول من أسلم من الصبيان . . وزوج فاطمة وأبو الحسن والحسين .

قال الحجاج : فما تقول فى معاوية ؟ قال : كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الحجاج : فما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟ . . قال : إن يكن محسنا فعند الله ثواب إحسانه . . وإن يكن مسيئا فلن يعجز الله . .

قال الحجاج : سؤال أخير . . ما تقول فى أنا ؟ . . قال سعيد : أنت أعلم بنفسك . . فقال له الحجاج : لا تكتم رأيك . .

وهنا خرجت الكلمات من فم سعيد كأنها الصواعق المحرقة . . فارتج لها وجدان الحجاج غضبا . .

قال له : لقد ظهر منك جور فى حد الله . . وجرأة على معاصيه بقتلك أولياء الله . .

فقال الحجاج فى غيظ : والله لأقطعنك قطعا ، وأفرقن أعضاءك عضوا عضوا . .

فرد عليه سعيد : إذن تفسد على دنياى ، وأفسد عليك آخرتك . . والقصاص أمامك . .

وفى نبرة ملؤها الحنق والغضب صاح الحجاج : اذهبوا به فاضربوا عنقه . . فقال سعيد : إنى أشهدك أنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . . أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة . .

فلما ذهبوا بسعيد لقتله ضحك . فقال له الحجاج : لم تضحك ؟ قال : من جرأتك على الله عز وجل . . فقال الحجاج : أضجعوه للذبح : فلما أضجع قال : « وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً » . . فقال الحجاج : اقلبوا ظهره إلى القبلة . . فقرأ سعيد : « فأينما تولوا فثم وجه الله » : فقال الحجاج : كبوه على وجهه . . فقرأ سعيد : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » . .

بعد ذلك أهوى الجلاد بالسيف على عنق سعيد ، وهو يقول : لا إله إلا الله . . قالها مرتين . . وفى الثالثة لم يتمها ، لأنه كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة . .

مرت على الحجاج ثلاثة أيام بعد ذلك لم ينم خلالها لحظة واحدة . وكان يقول لمن يدخل عليه : مالى ولسعيد بن جبير ؟ ! كلما أردت أن أنام أخذ برجلى ! !

وقبل أن تهدأ الضجة التى حدثت بسبب قتل سعيد بن جبير . . أصيب الحجاج بمرض غريب لم يمهله إلا بضعة أيام . . ثم اخترمته المنية . . والصالحون من المتصوفة أمثال الحسن البصرى يدعون عليه عقب كل صلاة . .

سعيد بن المسيب

لم تفته صلاة الجماعة أربعين سنة

عماذا نصفه والتاريخ مبهور من سيرته ؟ ماذا نقول عنه وأعماله عبق فى نافجة الخالدين ؟ كيف نجترىء على دخول رحابه . . وهو محفوف بالمهابة ، موشى بالجلال ؟ إننا نتقدم نحو تاريخه فى استحياء . . لنقتبس بعض ومضات صافية منه . . ونزجيها لمن يريد أن يملأ عقله نوراً ، ووجدانه ضياء ، ويضفى على حياته الطهر والشفافية . . لقد كان سعيد بن المسيب صفاء فى طفولته ، وسمواً فى صباه ، وحكمة وثقافة فى شبابه . . وعبادة خالصة لله فى مراحل حياته كلها . . كان يخشى الله حتى ترتعد فرائصه فى أثناء الصلاة.. وتخضل لحيته بالدموع وهو يتلو القرآن . . وقد ملأت هيبة الله جوانب نفسه فلم يهب أحداً سواه . . حتى إنه واجه التعذيب بنفس راضية وقلب صبور . . وتأبى أن يكون عبداً إلا لله ، أو أن يخفض جبهته إلا لخالقه . . وكان حريصاً على صلاة الجماعة طوال أربعين سنة . .

هذا هو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومى الذى ولد بعد سنتين من تولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة . . فقد حبا فى مهده نحو حياة مباركة ، طعم فيها العلم على موائد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونما فى ظلال هؤلاء الصفوة المباركين ، فكان كالريحانة الغضة تأسر

العين والقلب بمرأها وشذاها . . ولما استوى على سوقه فاضت الحكمة على لسانه . . وتلألأ الحق فى بيانه . . وكان نموذجا عاليا للشباب فى سلوكه وأدبه وعلمه وصراحته وجرأته فى مواجهة الباطل . . حتى قيل إنه كان لفرط مهابته لا يجترىء إنسان على سؤاله قبل أن يستأذنه . . كأنه داخل على أمير . .

وكان سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئاً . . لا ديناراً ولا درهما . . ولا طعاماً ولا شراباً . . إذ كان يكتفى من الدنيا بما يقيم أوده ، ويسد جوعته . . ولا يفكر فى رزق الغد . . ولما سئل : لماذا لا تفكر فيما يقوتك غداً ؟ قال : عجباً ! ! أأفكر فى أمر أقسم الله بأنه ضامنه لى . . وكما كان زاهداً فى عرض الدنيا ، معرضاً عن زينتها . . فكذلك أراد لابنته أن تحيا والدنيا بعيدة عن قلبها . . والآخرة نصب عينيها . . حتى لا يحجبها زخرف الحياة وملذاتها عن تذوق حلاوة الطاعة . . واستشفاف نور الحق . . ولذلك فإنه رفض أن يزوج ابنته للوليد بن عبد الملك ، أى ابن خليفة المسلمين والقابض على مقاليد الأمور فى الأمة الإسلامية . . وزوجها لرجل فقير معدم لا يملك إلا درهمين أو ثلاثة . .

كان يفضل نسب الطاعة والعبادة والتقرب إلى الله على نسب القصور والخدم والحشم . . وقصة زواج ابنته تدل على أنه كان حر الرأى ، ولكن فى إطار الإسلام . . وكان كل شىء يهون فى سبيل حريته . . حتى البطش به لم يثنه عن رأيه . . فقد حدث أنه عندما خطب عبد الملك بن مروان بنت سعيد لابنه الوليد حين ولاه العهد . . ورفض سعيد هذه الخطبة . . احتال عبد الملك عليه . . حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد . . وصب عليه جرة ماء . . وألبسه جبة خشنة من الصوف . . ومع ذلك ظل هذا العالم الورع التقى الزاهد الفقير شامخاً صامداً . . لم يخلبه إغراء المال ومتاع القصور . .

ولم يرهبه ضرب السياط وإغرااقه بالماء البارد فى الشتاء القارس . . كان فى حصن حصين من إيمانه وعقيدته .. وسياج متين من علمه وحكمته . .

أما كيف زوج ابنته لرجل لا يملك إلا درهمين أو ثلاثة فلها حكاية يرويها الزوج نفسه . . يقول كثير بن أبى وداعة : كنت ألازم مجلس العلم الذى يعقده سعيد بن المسيب فى المسجد . . لا أتخلف عنه يوماً واحداً . . ولكن حدث أن توفيت زوجتى ، ومكثت أيام العزاء لا أذهب إلى المسجد . . فافتقدنى سعيد ، ولما جئته سألنى : أين كنت ؟ فأخبرته بوفاة زوجتى . فقال لى : هل تزوجت ؟ فقلت له : يرحمك الله . . ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا أزوجك . . ثم حمد الله ، وصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وزوجنى على ثلاثة دراهم . .

أخذت أفكر . . ممن أقترض حتى أتم الزواج . . واستغرقت فى التفكير دون جدوى . . وكنت صائماً ، فصليت المغرب . . وذهبت إلى المنزل لأتناول طعام الإفطار . . ولم يكن عندى إلا الخبز والزيت . . وما كدت أبدأ الأكل حتى سمعت طرقاً على الباب . . فقلت : من هذا ؟ قال : أنا سعيد . . ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، لأنه لم ير على مدى أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد ، ولما فتحت الباب فوجئت بأنه سعيد بن المسيب..فأخذتنى الدهشة .. فقال : إنك كنت رجلا عزباً وتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك . . وهذه امرأتك . . وهنا تملكنى الخجل . . فلم يكن فى بيتى ليلة الزفاف إلا الخبز والزيت . .

وإذا انتقلنا إلى موقف آخر من مواقف سعيد بن المسيب — وما أكثر مواقفه الرائعة — نجده يرفض أن يعطى البيعة لابنى عبد الملك مرة واحدة لأن ذلك يناقض الإسلام . . فقد طلب إليه أن يبايع الوليد وسليمان فأبى . .

وقال : لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار . . وأخذ جزاء على رفضه وإبائه مائة سوط . . ومع ذلك لم يحد عن موقفه . . لأنه كان يقيس كل شيء بمقاييس الإسلام . . وكان على صلة دائمة بربه . . يراقبه ويخشاه . . ولم تكن عبادته عكوفاً فى المسجد فحسب ، وإنما حج أربعين حجة ، وكان يقول : ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله عز وجل ، ولا أهانت أنفسها بمثل معصية الله عز وجل ، وكفى بالمؤمن نصرة من الله أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله . . ومن اعتز بالعبيد أذله الله .

وجاءه رجل يسأله عن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع فى فراش المرض . . فقال له : إنى لأستحى أن أتحدث عن الرسول وأنا مضطجع . .

وحسب سعيد بن المسيب جلالا أنه كان مهيباً كالملوك . . محبوباً كزعيم دينى . . عذب ونكل به . . ومع ذلك ظل شامخ النفس صلد العزيمة . . وبعد أن بلغ من العمر أربعا وثمانين سنة لقى الله وهو أشد ما يكون شوقاً للقائه . . فطوبى له فى جنة عرضها السماوات والأرض .

عبد الله بن حذافة

تمنى أن يقتل فى سبيل الله بعدد شعر رأسه

سارع

إلى اعتناق الإسلام . . والمسلمون يومئذ قلة تكابد من أذى قريش . . وتعانى من اضطهاد المشركين . . ولم يلبث بعد إسلامه أن هاجر إلى الحبشة فراراً بدينه وعقيدته . . وقد اجتمعت فى عبد الله بن حذافة السهمى القرشى خصال لم تجتمع فى صحابى آخر . . فهو ذو عزيمة وثابة لا تعرف الكلل . ونفس طامحة تتأبى على الخمول . . واستماتة فى سبيل إعلاء كلمة الله . . حتى ولو مزق إرباً . . ومع ذلك فهو رجل خفيف الظل ، كثير المرح والدعابة . . يفاكه أصحابه حتى فى أصعب المواقف وأشدها حرجاً . . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينكر عليه مرحه ودعابته إلا إذا كان فيهما مساس بمبدأ من مبادىء الإسلام .

فقد حدث أن جعله النبى صلى الله عليه وسلم أميراً لإحدى السرايا . . وأراد عبد الله بن حذافة أن يداعب أصحابه ، فطلب إليهم أن يجمعوا حطباً ويوقدوا ناراً . . ولما فعلوا ما أمرهم به . . طلب إليهم أن يقتحموا النار فأبوا . . فقال لهم : ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم بطاعتى ؟ إذ قال من أطاع أميرى فقد أطاعنى ؟ فقالوا له : إننا ما آمنا بالله واتبعنا رسوله إلا لننجو من النار . ولما عادوا وعرضوا الأمر على رسول الله صوب رأيهم . . وقال : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . . إن الله تعالى يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما » . .

وعبد الله بن حذافة هو الذى اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم ليذهب بكتابه إلى كسرى عاهل الفرس . وكان ذلك فى شهر ذى الحجة من السنة السادسة للهجرة . . ولما قدم عبد الله على كسرى وناوله الكتاب . . طلب رجلا من بطانته ليقرأه عليه . فلما قرأ العبارة الأولى : من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . . غضب كسرى غضباً شديداً ومزق الكتاب من قبل أن يعلم ما فيه . . فلما بلغ الرسول ما فعله كسرى قال : مزق الله ملكه ، ولن يكون كسرى بعده . .

ولم يكتف كسرى بشق كتاب الرسول . . وإنما بعث إلى بازان نائبه على اليمن أن يرسل رجلين جلدين إلى محمد بن عبد الله فى الحجاز ويقتلاه . . أو يأتيا به حياً . . وهنا تبرز معجزة من معجزات الرسول . . فعندما بعث بازان برجلين للنبى صلى الله عليه وسلم . . وأخبراه بمهمتهما . . أمهلهما إلى اليوم التالى حتى يأتيهما بالرد . . وفى اليوم التالى قال لهما : إن كسرى سيقتل بيد ابنه فى شهر كذا . . وفى يوم كذا . . وإن دينى سيبلغ ما بلغ كسرى . . وفعلا قتل كسرى بيد ابنه شيرويه فى اليوم الذى حدده الرسول صلى الله عليه وسلم . . مما جعل بازان وجميع أبناء الفرس فى اليمن يعتنقون الإسلام . . وأكثر من هذا لم يمض ثلاثون عاماً حتى كان المسلمون قد استولوا على أرض فارس كلها . . كما أخبر الرسول . . وانتهى بذلك ملك الأكاسرة إلى الأبد . .

بعد ذلك نمضى مع عبد الله بن حذافة فى مواقفه البطولية . . فقد ذهب فى العام التاسع عشر من الهجرة مع الجيش الذى أرسله عمر بن الخطاب إلى الشام لمحاربة الروم . . فقد شاء حظه أن يقع أسيراً ضمن ثمانين رجلا من المسلمين . . وجىء به إلى ملك الروم . . وقالوا له : إن هذا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم . . فقال له الطاغية :

ــ هل لك أن تترك دينك وأشركك فى ملكى وسلطانى ؟

فقال عبد الله بن حذافة :

ــ لو أعطيتنى كل ما تملك ، وجميع ما ملكته العرب ، على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما فعلت .

قال له الملك : إذن أقتلك !

قال عبد الله : أنت وذاك !

عندئذ أمر الملك بأن يصلب عبد الله بن حذافة ، فأسرع جند الروم وصلبوه . وقال الملك : ارموه قريباً من يدى . . وقريبا من رجلى . .

وفى أثناء عملية الرمى . . كان الملك يعرض على عبد الله أن يترك الإسلام وهو يأبى . . فأمر الملك بإنزاله وإحضار قدر ممتلئة بالماء المغلى . . وإلقاء أحد الأسرى فيها إذا رفض الرجوع عن الإسلام . .

حدث كل هذا على مشهد من عبد الله بن حذافة لإرهابه حتى يفتن عن دينه . . ولكن المفاجأة التى أذهلت ملك الروم وحاشيته أن الأسير الذى أحضروه قبل الموت فى الماء المغلى . . وفضل الموت على الخروج من دين الإسلام. وكذلك فعل عبد الله بن حذافة فقد سيق مكبلا بالأغلال إلى القدر التى يفور فيها الماء من شدة الغلى والجميع شاخصون إليه . . والملك يعرض عليه الخروج من دينه . . وهو يرفض فى إباء وشمم . . ولما رفعه الجنود لإلقائه فى القدر بكى .. فظن الملك أنه يبكى خوفاً من الموت . . فقال له: ما أبكاك ؟ قال : أبكانى أننى سأموت الآن فى هذه القدر ميتة واحدة . . وكنت أتمنى أن يكون فى جسدى نفس بعدد كل شعرة فيه . . حتى يتكرر موتى فى سبيل الله بعدد هذه الشعرات . .

وعندئذ أسقط فى يد ملك الروم . . ولم يجد فائدة من موت عبد الله ابن حذافة . . فقال له : هل لك أن تقبل رأسى ، وأخلى سبيلك ؟ .

قال عبد الله : لا مانع عندى أن أقبل رأسك . . بشرط أن تخلى سبيل جميع أسرى المسلمين . .

ولما وافق الملك . . قبل عبد الله رأسه . فأطلق الملك سراح الأسرى . . وعادوا جميعا إلى المدينة . . وحين علم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بهذه الواقعة . . قال : حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة . . ثم قام وقبل رأسه . .

وكما شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون تراب مصر مثوى كثير من الطاهرين الأبرار من آل البيت والصحابة الأخيار . . فقد شاء جل شأنه أن يموت عبد الله بن حذافة فى مصر ويدفن فى أرضها . . ويفوح من قبره الطيب عبق الجنة وأريجها .

عبد الله بن جحش

حقق الله أمنية ورزق الشهادة

كانت أمنيته أن يلقى الله شهيداً . . بعد أن يمثل به الكفار ويجدعوا أذنه وأنفه . . وتحققت هذه الأمنية له فى يوم من أيام الله . . ووسط سبعين شهيداً تفوح من دمائهم رائحة المسك . . وتنبعث من جراحهم ومضات الرحمة . . وتظلهم الملائكة وهم صاعدون إلى غرف الجنان . . وتبتسم لهم السماء وهم قادمون إلى الملأ الأعلى . . وإذا كانوا قد ختموا حياتهم هذه الخاتمة الرائعة . . فما هو شريط حياتهم منذ بدأوا الجهاد ، وحملوا راية الله ، وانضموا إلى قافلة المؤمنين ، ووضع التاريخ على سيرتهم تاج المهابة والجلال . . وكان لهم ذكر عند أهل السماء . . كذكرهم على ألسنة العصور . .

تعالوا معاً نصحب عبد الله بن جحش فى رحلة حياته التى ضوأها الإسلام وهو يرسل أول شعاعاته على الجزيرة العربية . . لقد أسلم قبل دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أرقم بن الأرقم . . أى كان ممن هداهم الله إلى الإسلام فى طلائعه الأولى . . واحتمل فى سبيل إسلامه ما تنوء به العزائم الصلدة من مساءات المشركين . . حتى لم يجد مناصاً من الهجرة إلى الحبشة مع أخويه أحمد وعبيد الله..ثم عاد إلى المدينة ليتحمل تبعات الجهاد المقدس . . ويشارك فى مسئوليات نشر الدعوة والدفاع عنها .

وتوسم فيه الرسول صلى الله عليه وسلم شجاعة نادرة ، وجرأة وإقداماً ، تؤهله للقيام بعمليات استطلاعية هدفها تأمين المسلمين فى المدينة . . فأرسله على رأس سرية تضم ثمانية من المهاجرين إلى مكان اسمه نخلة يقع بين مكة والطائف وأعطاه كتاباً مغلقاً ، وأمره ألا يفضه إلا بعد مسيرة يومين . . ثم يمضى لما أمره به . .

انطلق عبد الله بن جحش إلى الغاية التى رسمها له الرسول . . وبعد أن سار يومين فتح الكتاب وقرأه فوجد الرسول يقول له فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة ، بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » . . ولما فرغ عبد الله بن جحش من قراءة باقى الكتاب ، قال : سمعاً وطاعة . . ثم قال لأصحابه :

– لقد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضى إلى نخلة ، أرصد بها قريشاً . . حتى آتيه منها بخبر . . وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم . . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها ، فلينطلق .. ومن كره ذلك فليرجع . أما أنا فماض لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

وهنا أعلن أفراد السرية أنهم ماضون معه . . تنفيذاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وأنهم يؤثرون الشهادة وإراقة دمائهم فى سبيل الله . . ثم واصلوا سيرهم حتى نزلوا بنخلة . . وهناك مرت بهم عير تحمل بضائع لقريش . . فشاور عبد الله بن جحش أصحابه فيما ينبغى أن يكون تصرفهم إزاء العير – وأخيراً انتهى الرأى إلى قتل من يقدرون عليه ، وأخذ ما معهم من متاع . . ولكنهم لم يتمكنوا إلا من قتل رجل واحد وأسر اثنين ، وعادوا بالعير وبالبضائع إلى رسول الله . . ولما علم النبى بما فعلوا قال لهم : « ما أمرتم بقتال فى الشهر الحرام » . . ورفض أن يأخذ العير والأسيرين . . وكان لموقف الرسول رد فعل عنيف فى المدينة.. فقد راح الصحابة يلومون عبد الله بن جحش ، وأخذ اليهود يعلنون شماتتهم فى المسلمين . .

وإزاء هذا الموقف العصيب الذى واجهه عبد الله بن جحش وأصحابه نزل القرآن يبرىء ساحتهم ، فقد هبط جبريل عليه السلام على النبى بهذه الآية الكريمة « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل.ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . .

خنس اليهود بعد نزول هذه الآية . . وأحس عبد الله بن جحش أن السماء أنصفته . . وأن ما فعله من أجل الله ورسوله كان حقاً . . فشكر الله على ما آتاه من فضل ، وما أسبغ عليه من نعمة . . وكانت هذه الواقعة قبل غزوة بدر الكبرى التى شارك فيها عبد الله مشاركة مجاهد يتطلع إلى الشهادة .. ولكنه لم يمت فى غزوة بدر . . وإنما لقى الميتة التى يتمناها فى غزوة أحد . . فى الليلة التى سبقت المعركة ، كان يجلس مع سعد بن أبى وقاص يتمنى كل منهما على الله أمنية . . قال سعد : يارب إذا لقيت العدو غدا ، فلقنى رجلا رجلا شديداً بأسه ، شديداً حرده (أى غضبه) . . أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم ارزقنى عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه . . أما عبد الله بن جحش فقد دعا الله قائلا: اللهم ارزقنى غدا رجلا شديداً بأسه شديداً حرده (أى غضبه) أقاتله فيك،ويقاتلنى ثم يأخذنىفيجدع أنفى وأذنى..فإذا لقيتك قلت: ياعبد الله. فيم جدع أنفك وأذنك ؟ فأقول : فيك وفى رسولك . فتقول : صدقت . .

وفى الصباح . . بعد أن حمى وطيس المعركة استشهد عبد الله بن جحش. فقد قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق . . وقطع أذنه وأنفه وعلقهما فى خيط.. ولما رآه الصحابة بعد المعركة على هذه الحال قالوا : أجاب الله دعوته. وأطلقوا عليه « المجدع فى الله » . .

كان قد تجاوز الأربعين من عمره يوم استشهاده . . وأمر الرسول بأن يدفنوه مع خاله حمزة بن عبد المطلب . . وكانت لحظة دفنه بالغة الروعة والجلال . . فقد انبعثت من دمائه رائحة كرائحة المسك . . حتى كأن قبره ممتلىء بالريحان، وما زال قبره وقبور شهداء أحد تنضح حتى الآن بالعطر وتحفها الرحمة .

عمير بن سعد

نزل فيه قرآن يصدق ما قاله للرسول

أى

شرف يحوزه المرء إذا أنزل الله قرآناً يشهد بصدقه ، ويؤيد ما قاله ؟ . . إنها شهادة من لدن حكيم خبير . . وما أعظمها من شهادة فى ميزان الإنسانية ، وفى ميزان التاريخ . . ولم تنزل هذه الشهادة الإلهية فى شيخ عركته التجارب، وحنكته السنون . . وإنما نزلت فى غلام يتيم من الأنصار . . آمن بالله ورسوله، وارتفع بأخلاقه وسلوكه إلى أعلى ذروة من ذرى المبادىء والقيم الإسلامية . . وكان حبه لله ورسوله أقوى من حبه لأى شىء فى الحياة . . فما هو هذا الموقف الذى نزلت فيه آية كريمة تشهد بصدق عمير بن سعد . . ومتى نزلت هذه الآية ؟

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجهز لغزوة تبوك فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة . . وكان المنافقون من أهل المدينة ، ومنهم الجلاس ابن سويد ، قد أزمعوا أن يتخلفوا عن شهود هذه الغزوة مع الرسول . . وجلجت كلمة شائهة فى صدر الجلاس ما لبث أن فاه بها على مسمع من عمير بن سعد ، إذ كان الجلاس زوجاً لأم عمير . . قال : إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير . . وصكت هذه الكلمة أذنى عمير ، وهزت أعماقه ، فاستشاط غضباً ، وقال لجلاس : والله إنك لأحب الناس إلى . . وأحسنهم عندى يداً . . وأعزهم على أن يصيبه شىء يكرهه . . ولقد قلت مقالة لئن رفعتها إليك لأفضحنك . . ولئن صمت عليها ليهلكن دينى . . ولإحداهما أيسر من الأخرى . .

انطلق الغلام المؤمن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قال الجلاس . . فاستدعى النبى صلى الله عليه وسلم الجلاس ، وسأله عما إذا كان قد قال هذه العبارة . . أم أن الغلام تقول عليه . . فأنكر الجلاس أنه قالها . . واتهم عميراً بالكذب . . وتأزم الموقف بين الغلام وزوج أمه الذى ينفق عليه . . ولكن ما لبث الوحى أن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدق عمير . . وصمت الجميع فى اللحظات التى كان فيها جبريل يبلغ الرسول بالآية الكريمة :

« يحلفون بالله ما قالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » . .

ولما فرغ جبريل عليه السلام من تبليغ هذه الآية للرسول ، تلاها صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ثم أخذ بأذن عمير بن سعد ، وقال له : وفت ذمتك ياغلام . وصدقك ربك . . حينئذ أحس الجلاس بافتضاح أمره ، فأقبل على الرسول فى خجل ، وقال له : استتب لى ربى . . فإنى أتوب إلى الله وأشهد أن عميراً صادق . .

علم أهل المدينة جميعاً بهذا الموقف . . فعظم شأن عمير فى أعينهم . . ولقى منهم — على صغر سنه — كل إجلال وإكبار . .

ومضت الحياة بعمير بن سعد . . كما تمضى بالمؤمنين الصادقين . . لا يأبه بالدنيا ومتاعها . . وإنما اتخذ منها معبراً إلى الآخرة . . يسير فيه مستقيم الخطى . . متجهاً إلى الله عز وجل . . وكان لزهده وورعه وتقواه واستقامته يطلقون عليه نسيج وحده . . أى كان فريداً مميزاً فى سلوكه وعبادته . . مبرأ من الكذب ، منزهاً عن الخطل ، بعيداً عن الزيف : مجافياً للباطل ، خصيما للبهتان . . كان قيما علياً مجسدة . . ومثلا رفيعة تمشى

على الأرض . . وأخلاقاً كريمة تتعامل مع المجتمع . . وروحاً شفافة كالملائكة تخاف الله . .

وكان مضرب الأمثال فى الصدق والأمانة والنزاهة والتقوى والوفاء . . مما جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعينه والياً على حمص فى الشام . . وكان عمر دقيقاً فى اختيار الولاة ، لا يعين والياً إلا إذا كان ماضيه وتضحياته وسلوكه تشهد بأنه كفء لتولى شئون المسلمين . .

وذهب عمير بن سعد إلى حمص ومكث بها عاماً ينشر العدالة فى ربوعها.. ويجبي الزكاة ويوزعها كلها على الفقراء دون أن يبعث إلى الخليفة عمر ابن الخطاب بشيء . . ولما انقطعت أخباره عن عمر ، وراودته بعض الظنون بسبب ذلك ، بعث إليه يستدعيه ، ويتعرف على مجريات الأمور فى حمص ..

وذات صباح بينما كان الخليفة فى بيته . . إذا بعمير بن سعد يدخل عليه .. ويقول له : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وينظر الخليفة إلى عمير فيجد لونه شاحباً ووجهه مغبراً وشعره طويلا . . فيسأله : ما شأنك ؟ فيقول عمير : إننى صحيح البدن . طاهر الدم . معى الدنيا أجرها بقرنها . . فظن عمر أنه جاء بمال . . فقال له : وما معك ؟ . . قال : معى جرابى أضع فيه زادى . وقصعتى آكل فيها ، وأغسل فيها رأسى وثيابى . . وشرابى . . وعصاى أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوا إن عرض . . فسأله عمر : هل جئت حمص ماشياً ؟ قال : نعم . . لأن أحداً لم يعطنى دابة أركبها . .

ثم أخذ عمير بن سعد يقص على عمر كيف كان يجبي الزكاة ويوزعها على الناس بواسطة أفاضل أهل حمص . . وكيف عاش عاماً بأكمله لا يأكل إلا خبز الشعير . . وهنا حاول عمر أن يعطيه بعض المال والثياب . فقال له : وزعها على أبناء الشهداء والفقراء .

ولم يطل العمر بعمير بن سعد بعد ذلك . . فانتقل إلى الدار الآخرة ، يحمل معه صحفاً مضمخة بعبير التقوى والطاعة ، فواحة برضوان الله عز وجل .

سفيان بن سعيد الثورى

عالم ترك ميراثاً عظيماً من العلم والمعرفة

قمة سامقة من العلم والتقوى يتربع هذا العالم العامل . . ورائحة الحديث النبوى تضوع شذى وعطراً من حوله . . وفيض رقراق من نور النبوة يملأ زمانه . . وتخضل بهحياته. فقد نشأ فى بيت يحفه العلم بسموه ونبله وبهائه وروائه . . حيث كان والده أحد أئمة الحديث الذين وهبوا حياتهم من أجل كل كلمة قالها الرسول صلى الله عليه وسلم . . وكان حسبه من العلم أن ينال به مكانة عند الله . . لا منزلة عند الناس. ودرجات فى الجنة . . لامناصب فى الدنيا . . كما كانت والدة سفيان الثورى سيدة صالحة تقدر العلم حق قدره، وتتشوف إلى أن يكون ابنها أحد العلماء الذين يقودون عصرهم نحو المعرفة ، ويضيئون زمانهم بالعلم . . ولذلك فإنها كانت تحثه على طلب العلم ، حتى ولو أنفقت عليه كل ما تتكسبه بمغزلها .

على

وكان سفيان بفطرته النقية مقبلا على دراسة الحديث وحفظه . . كما كان مشغوفاً بتفسير القرآن وتفهم آياته . . وساعده على الحفظ والفهم والاستيعاب . . ذكاء لماح ينير ذهنه ، وبصيرة صافية تستوعب كل ما يلقى فيها من رصيد المعرفة . . ولهذا فإنه أصبح أهلا للفتيا فى ريعان الشباب . وكان الإمام أبو حنيفة إذا التقى به يسأله فى بعض أحكام الفقه . ثقة من الإمام الأعظم أن سفيان الثورى أعلم أهل زمانه، وأكثرهم معرفة بالشريعة وأسرارها.

وبالرغم من أن والدة سفيان الثورى طلبت إليه أن يتفرغ للعلم ، وستكفيه مشقة البحث عن الرزق ، فإنه كان يعلم أن الإسلام يطلب إلى

المسلم أن يأكل من عمل يده ، فراح يشتغل بالتجارة دون أن يجعلها كل همه ، وإنما حسبه منها ما يقوته ، ويقيه غائلة الجوع . . وكان يرى أن المال يعين المؤمن على العبادة . . ويحميه من أحداث الزمن . . وكان يشترى البضاعة من اليمن ويبيعها فى الكوفة . . وإيماناً منه بالكسب الحلال من التجارة كان يقرض فى حدود إمكاناته المادية من شاء أن يدخل مجال التجارة من المسلمين . . دون أن يقاسمهم فى الربح . .

ولما نبه ذكره وأصبحت مجالسه العلمية غاصة زاخرة يؤمها الناس من كل حدب وصوب .. طلب بعض أصدقائه إليه أن يتفرغ لدراسة العلم ويتقاضى أجراً على ذلك . . فرفض أن يتخذ من الدعوة والعلم وسيلة للكسب ، وذريعة للربح . لأن مهمة العالم أن يحمل رسالة النبى . . والنبى لا يأخذ أجراً على تأدية الرسالة.. وكانت له آراء عديدة فى العلم والعلماء. منها : أن الرجل أحوج إلى العلم منه إلى الخبز واللحم ، وأن العلم طريق لخشية الله . ومن تعلم العلم ليمارى به العلماء أو يجارى به السفهاء أو يتأكل به الناس ، فالنار أولى به .

وبالنسبة لمنزلته من نفوس العلماء والفقهاء والمحدثين فقد قال عنه ابن المبارك . . تعجبنى مجالسة سفيان الثورى . . كنت إذا شئت رأيته فى الورع .. وإذا شئت رأيته مصلياً . . وإذا شئت رأيته عالماً فى الفقه.

وقال أيوب بن سويد : « إنه عالم الأمة وعابدها وزاهدها » . . وقال سفيان بن عيينة : « أئمة الناس ثلاثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ابن عباس فى زمانه ، والشعبى فى زمانه ، وسفيان الثورى فى زمانه » . وكان هناك إجماع على أن سفيان الثورى أمير المؤمنين فى الحديث . .

أما زهد سفيان الثورى فقد تمثل فى قناعته بحياة التقشف وعزوفه عن المناصب التى عرضت عليه فى عهد أبى جعفر المنصور والمهدى ، حتى

إنه كاد يتعرض للعنت والاضطهاد بسبب رفضه المناصب . . وكان يقول : ما رأيت فى شيء أقل منه فى الرياسة . . ترى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال والثياب ، فإذا نوزع فى الرياسة حامى عليها وعادى . . وكان يقول عن الأمراء : لست أخاف ضربهم . . ولكنى أخاف أن يميلوا على بدنياهم . . ثم لا أرى سيئاتهم سيئة . . وإن الرجل ليستعير من السلاطين الدابة والسرج أو اللجام فيتغير قلبه لهم . .

كما كان زهده يتمثل فى الاكتفاء بالمال القليل الذى يربحه من التجارة ، وكان بوسعه أن يكون أغنى أغنياء الكوفة ، ولكن الدنيا لم تدخل قلبه قط . وقد رفض آلاف الدراهم التى منحه إياها أبو جعفر المنصور ، وكان يجد غناه فى رصيده من الطاعات التى تحتويها صحفه المطهرة . . حتى إنه عندما مات وذهبوا لحصر تركته لم يجدوا إلا مائتى دينار . . ولو شاء لكانت عنده خزائن مملوءة بالذهب والفضة . .

وكما كان حريصاً على أن يكون قلبه نظيفاً من حب الدنيا ، مرتفعاً على شهواتها وملذاتها ، كان حريصاً كذلك على أن تكون نفسه طاهرة من الكبرياء والزهو والاختيال والفخر والرياء . . وكان يقول : من كانت سريرته أفضل من علانيته ، فذلك الفضل ، ومن كانت سريرته شراً من علانيته ، فذلك الرياء . . وإن العبد ليعمل العمل سراً . . فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه ، فيكتب فى العلانية . . ثم لا يزال الشيطان به حتى يحب أن يحمد عليه . . فيثبت فى الرياء . . وإن أقبح الرغبة أن تطلب الدنيا بعمل الأخرى . .

بهذه الكلمات النيرة الخيرة . . وهذه المعانى الشفيفة اللطيفة . . كان سفيان الثورى يحمل مشعل الهداية للحائرين ، ويكشف ظلمات الغفلة عن الغافلين ، وكان يركز فى عظاته ونصائحه على أداء الفرائض ، لأنها أول

ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة . . يقول : إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة . . وإن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار .. وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل . . وإن العبد يحاسب يوم القيامة بالفرائض . . فإن جاء بها تامة قبلت فرائضه ونوافله . . وإن لم يؤدها وأضاعها لحقت النوافل بالفرائض . . فإن شاء غفر له . . وإن شاء عذبه . .

ومن المبادىء التى كان ينادى بها سفيان الثورى معاملة الناس بالصدق والأمانة.. كان يقول فى وصاياه: يا أخى عليك بتقوى الله، وكن ذا لسان صادق، ونية خالصة ، وأعمال صالحة ، ليس فيها غش ولا خدعة . . ولا تخدعن أحداً من المؤمنين فيكون نفاقاً فى قلبك . . ولا تحسدن ولا تغتابن ، فتذهب حسناتك . وقد كان بعض الفقهاء يتوضأ من الغيبة ، كما يتوضأ من الحدث . . ولا تأخذن دينك إلا ممن هو مشفق على دينه . كمثل طبيب به داء ، ولا يستطيع أن يعالج داء نفسه . فكيف يعالج داء الناس ! ! . . وأحب أهل الجنة تكن معهم يوم القيامة.. وأبغض أهل المعاصى يحبك الله ورسوله والمؤمنين..

وقد عاش سفيان الثورى أربعاً وستين سنة . . أمضاها فى العلم والورع والتقوى . . فقد ولد بالكوفة فى سنة سبع وتسعين من الهجرة بالكوفة ، وظل بها حتى سنة خمس وخمسين ومائة . . ثم انتقل إلى البصرة وعاش بها ست سنوات ، وهناك لقى الله ، وأرواح الصديقين تحف به ، وملائكة الرحمة تصعد بروحه الطاهرة إلى أعلى عليين . .

سري بن المغلس السقطي

رحلة مباركة الى الله منذ الشباب

نما

في شجرة الصالحين كالغصن الباسق . . تشرئب إليه الأعناق وتشخص الأبصار . . حبا في النظر إليه . . فهو تلميذ العالم العابد معروف الكرخي . . وخال الناسك الورع أبي القاسم الجنيد . . وكان من فرط خشيته لله ، يحاسب نفسه دقيقة بدقيقة حتى تظل صحائفه ناصعة بيضاء . فلا يجد الملكان مايكتبانه إلا الخير والبر والعمل الصالح . وقد بدأ رحلته المباركة إلى الله منذ فجر شبابه . . لم تدنسه الدنيا بخطأ أو خطيئة . . ولم ترن على قلبه شبهة أو شائبة . . حتى إنه كان مستجاب الدعاء مثل أستاذه معروف . . فما رفع يديه إلى السماء وطلب شيئاً إلا وأجابه الله ، رحمة منه وفضلا . .

بدأت أول خطوة في رحلته المباركة إلى الله يوم عيد . . كان معروف عائداً من المسجد بعد صلاة العيد فوجد طفلا يقف وحده حزيناً ، ولا يلعب مع الأطفال . . فسأله : لماذا لا تلعب معهم ؟ . فقال الطفل : إنني يتيم وليس معي ما أشتري به جوزاً ألعب به..فصحبه معروف ليشتري له جوزاً يفرح به . . ومر على حانوت سري السقطي ، فاستوقفه ، وسأله عن الطفل فقص عليه معروف قصته ، فقال له سري . . دعه معي أكسه ثياباً جديدة وأعطه نقوداً يشتري بها الجوز . . فقال معروف : خذه . . أغنى الله قلبك . فقال سري : فصغرت عندي الدنيا حتى لهي أقل شيء . .

وكانت حانوت سرى السقطى يقع فى قلب السوق . . وحدث أن شب حريق فى السوق فأتى على كثير من الحوانيت..ولما علم سرى بأمر الحريق ذهب إلى السوق فتلقاه رجل وقال له : أبشر فإن حانوتك لم تمسسه النار . . فقال : الحمد لله . . ثم تذكر أنه حمد الله على سلامة حانوته ولم يواس الناس فيما أصابهم . . فظل يستغفر الله ثلاثين سنة . .

أما عن أمانته كتاجر وعدم استغلاله الناس ، فهناك واقعة تشهد بأنه كان يتعامل مع الناس على أسس الإسلام ومبادئه لا يحتكر ولا يغلى السعر . وإنما كان عادلا سمحاً فى البيع والشراء . . فقد ذهب إليه رجل وطلب منه أن يشترى « كر » لوز . . والكر نوع من المكاييل . . وكان ثمن الكر تسعين ديناراً . . بيد أن سرى السقطى قال له : إن الكر بستين ديناراً وأربح فيه ثلاثة دنانير . . فقال له المشترى : إننى عقدت بينى وبين الله تعالى ألا أغش مسلماً . . فكيف أشترى صفقة من اللوز بستين ديناراً مع أن ثمنها تسعون ديناراً ..فأصر سرى على رأيه،ورفض المشترى أن يأخذ اللوز بأرخص من ثمنه . . فلا هذا باع .. ولا ذاك اشترى . .

وهكذا كان يتعامل المسلمون . . التاجر لا يرفع السعر ويكتفى بالقليل من الربح . . والمشترى يرفض استغلال التاجر إذا عرف أن السلعة زاد ثمنها . .

وكان سرى السقطى يرى أن أقصر طريق إلى الجنة هو ألا تأخذ من أحد شيئاً . . ولا تسأل أحداً شيئاً . . كما كان يرى أن الدنيا فضول ما عدا خمسة أشياء : خبزاً يشبعك . . وماء يرويك .. وثوباً يسترك . . وبيتاً يؤويك . وعلماً تستعمله . .

وكان يوصى الشباب بالعمل ويقول لتلاميذه : يامعشر الشباب . اعملوا فإن العمل فى الشبيبة . . فمن لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا

يعلم . . ومن هانت عليه المصائب أحرز ثوابها . .

أما عن وصفه للقلوب فكان يقول : إن قلوب المؤمنين معلقة بالسوابق .. وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم . . هؤلاء يقولون : بماذايختم لنا؟.وأولئك يقولون : ماذا سبق من الله لنا ؟ . وأنواع القلوب ثلاثة : قلب مثل الجبل لا يزيله شيء . . وقلب مثل النخلة أصلها ثابت والريح تميلها . . وقلب كالريشة تميل مع الريح يميناً وشمالا . .

ومن وصاياه لتلاميذه : اجعل فقرك إلى الله تستغن به عمن سواه . . فمن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله . . ولن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته . . ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه . . ومن أراد أن يسلم دينه ويستريح قلبه وبدنه ويقل غمه ، فليعتزل الناس ، لأن هذا زمان عزلة ووحدة . .

وخير الرزق ما سلم من خمسة من الآثام فى الاكتساب ، والمذلة فى الخضوع فى السؤال ، والغش فى الصناعة ، وإثبات آلة المعاصى ، ومعاملة الظلمة . . وأحسن الأشياء خمسة : البكاء على الذنوب . . وإصلاح العيوب . . وإطاعة علام الغيوب . . وجلاء الرين على القلوب . . وألا تكون لما تهوى ركوباً . . وخمسة أشياء لا يستكن فى القلب معها غيرها . . الخوف من الله وحده ، والرجاء فى الله وحده ، والحب فى الله وحده ، والحياء من الله وحده : والأنس بالله وحده . .

ويحكى الجنيد أنه دخل على خاله سرى السقطى ، وهو يجود بنفسه . فجلس عند رأسه وبكى حتى سقطت دموعه على خده ، ففتح سرى عينيه . فقال له الجنيد : أوصنى . فقال : لا تصحب الأشرار ، ولا تشتغل عن الله بمجالسة الأخيار . .

وقال ياجنيد . . رأيت كأنى قد وقفت بين يدى الله تعالى فقال لى : ياسرى . خلقت الخلق ، فكلهم ادعى محبتى . وخلقت الدنيا فهرب منى تسعة أعشارهم ، وبقى معى العشر ، وخلقت الجنة ، فهرب منى تسعة أعشار ، وبقى معى عشر العشر ، فسلطت عليهم ذرة من البلاء فهرب منى تسعة أعشار عشر العشر . . فقلت للباقين معى : لا الدنيا أردتم ، ولا الجنة أخذتم ، ولا من النار هربتم ! ! فماذا تريدون ؟ . . قالوا : إنك تعلم ما نريد . فقلت لهم : إنى مسلط عليكم من البلاء بعدد أنفاسكم . . ما لا تقوم به الجبال الرواسى .. أتصبرون ؟قالوا : إذا كنت أنت المبتلى لنا فافعل ما شئت. فهؤلاء عبادى حقاً . .

وقد توفى سرى السقطى فجر يوم الثلاثاء لست خلون من رمضان سنة ثلاثة وخمسين ومائتين ودفن بعد العصر بمقبرة الشونيزى . . وقبره هناك معروف ، وإلى جواره قبر الجنيد . .

ويروى رجل ممن حضر جنازة سرى السقطى أنه رآه فى المنام فسأله : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ولمن حضر جنازتى وصلى على .

عكرمة مولى ابن عباس

أعلم أهل زمانه بتفسير القرآن

تلقى

العلم إجبارياً على يدى ابن عباس . . فقد كان يقيد رجليه ، ويدرس له تفسير القرآن وعلوم الدين حتى صار أستاذ عصره ، ونابغة زمانه ، وعبقرى جيله . . ولم يكتف هذا الرجل الأسود الذى كان عبداً عند ابن عباس بعلم سيده وإنما ظل يطلب العلم أربعين سنة ، ثم أخذ يبثه فى كل مكان .. وكان أينما حل ، وحيثما ارتحل تهافت جماهير المسلمين على لقائه ، والاستماع إليه ، والأخذ عنه . . حتى إنه نال منزلة فى قلوب الناس لم ينلها كثير من العلماء والفقهاء والمحدثين . . وقد التقى فى حياته بمائتين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسمع منهم الأحاديث النبوية الشريفة ووعاها : حفظاً وفهماً ودراية . .

وبالرغم من أنه استوعب الكثير من علوم الدين فى سن مبكرة ، فإنه لم يجرؤ على ممارسة الفتيا ، خشية أن يزل فكره ، أو ينزلق ذهنه ، وإنما أقدم على الفتيا حين أمره بذلك أستاذه وسيده ابن عباس . فقد قال : له : يا عكرمة . انطلق فأفت الناس . فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته ، فإنك تطرح عنى ثلثى مئونة الناس .

كانت هذه العبارة إذناً لعكرمة بأن يشارك أستاذه ابن عباس فى الرد على أسئلة الناس . . ولم يلبث عكرمة إلا يسيراً من الوقت حتى كان له فى

كل مجلس حفاوة، وفى كل مكان شعبية منقطعة النظير ، ولا عجب أن يقول عنه عالم فقيه كالشعبى : ما بقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . . ويقول عنه قتادة : وهو من علماء عصره : أعلمهم بالتفسير عكرمة . . ولما سئل سعيد بن جبير : أتعلم أحداً أعلم منك ؟ قال : نعم . . عكرمة . .

كل هذا يدل على أن عكرمة رفعه العلم مكاناً علياً ، حتى بلغ من تقدير الناس له ، والتفافهم حوله ، وتعلقهم به ، أن المكان الذى كان يجلس فيه للفتيا يشتد به الزحام ، حتى إن بعض الناس كان يصعد على أسطح المنازل ليستمع إليه لضيق المكان الغاص بالمستمعين . . ومن ذلك ما يحكيه أيوب السختيانى : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة ، فأتيت سوق البصرة فوجدته يركب حماراً، والناس مجتمعون من حوله ، كل يسأله عن أمر من أمور الدين . . وأردت أن أسأله ، فندت المسائل عن ذهنى ، فاكتفيت بأن أحفظ ما يرد به على الناس . .

ومن نماذج تفسيره للقرآن أن شهادة أن لا إله إلا الله كانت مدلول كثير من الآيات عنده . فقد سئل عن تفسير قوله تعالى : « قد أفلح من تزكى » . . فقال : من قال : لا إله إلا الله . وقوله تعالى : « وهل لك إلى أن تزكى » . فقال: أن يقول : لا إله إلا الله . وقوله تعالى : « إن الذين قالوا : ربنا الله ثم استقاموا » . فقال : شهادة أن لا إله إلا الله ، . وقوله تعالى : « أليس منكم رجل رشيد » .فقال: أليس منكم رجل يقول : لا إله إلا الله . وقوله تعالى: « إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ».فقال الصواب : لا إله إلا الله.وقوله تعالى: « إنك لا تخلف الميعاد ».فقال: الميعاد لمن قال : لا إله إلا الله.. وقوله تعالى : « فلا عدوان إلا على الظالمين » .. فقال: على من لا يقول : لا إله إلا الله ..

وسئل عكرمة : هل يندم الشيطان ،ومتى يندم؟فقال : إن الشيطان ليزين للعبد الذنب حتى يكسبه . فإذا كسبه تبرأ منه . ولا يزال العبد يبكى منه ويتضرع إلى ربه ويستكين ، حتى يغفر الله له ذلك الذنب وما قبله ، فحينئذ يندم الشيطان ، لأنه غفر لعبده ذنبه والذنب الذى قبله .

وسئل عن معنى قوله تعالى : « والذين يمنعون الماعون » فقال : إن منع الرجل غربالا أو قدراً أو قصعة أو شيئاً من متاع البيت ، فله الويل ، وقال فى تفسير قوله تعالى : «ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأمانى ، حتى جاء وعد الله ، وغركم بالله الغرور » . قال : فتنتم أنفسكم بالشهوات ، وتربصتم بالتوبة ، وغرتكم الأمانى ، أى التسويف ، وغركم بالله الغرور ، أى الشيطان . .

وكان عكرمة موسوعة دينية يحفظ القرآن ويفسره ، ويحفظ الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية ويشرحها . . ومن الأحاديث القدسية التى قالها فى أحد مجالسه :

إن الله تعالى قال : ياسماء أنصتى ، ويا أرض استمعى . فإن الله عز وجل يريد أن يذكر شأن ناس من بنى إسرائيل . . إننى عمدت إلى عباد من عبادى ، ربيتهم فى نعمتى ، واصطفيتهم لنفسى ، فردوا إلى كرامتى ، وطلبوا غير طاعتى ، وأخلفوا وعدى . . تعرف البقر أوطانها ، والحمر أربابها وتنزع . فويل لهؤلاء الذين عظمت خطاياهم ، وقست قلوبهم ، وتركوا الأمر الذى كانوا عليه . نالوا كرامتى . وسموا أحبائى ، فتركوا قولى ، ونبذوا أحكامى ، وعملوا بمعصيتى . وهم يتلون كتابى . . ويتفقهون فى دينى لغير مرضاتى ، ويقربون إلى القربان ، وقد أبعدتهم عن نفسى . . يذبحون لى الذبائح التى غصبوا عليها خلقى . . يصلون فلا تصعد صلاتهم . . ويدعوننى فلا يعرج إلى دعاؤهم ، يخرجون إلى المساجد ، وفى ثيابهم الغلول ، ويسألون رحمتى ، وهم يقتلون من سأل بى . .

فلو أنهم أنصفوا المظلوم ، وحكموا للأيتام ، وتطهروا من الخطايا ، وتركوا المعاصى ، ثم سألونى لأعطيتهم ما سألوا ، وجعلت لهم جنتى نزلا ، ولكنهم اجترأوا على ، وظلموا عبادى ، فأكل ولى اليتيم ماله ، وأكل ولى الأمانة أمانته .

فقال نبى من أنبيائه : يارب من رحمتك أتكلم بين يديك . . وهل ينفعنى ذلك شيئاً . . إنك مهلكهم ، وهم ولد خليلك إبراهيم ، وأمة صفيك

موسى ، وقوم نبيك داود . فقال الله تعالى : إنى لم أستكثر بكثرتهم ، ولم أستوحش بهلاكهم . وإنما أكرمت إبراهيم وموسى ودواد بطاعتى ، ولو عصونى لأنزلتهم منزل العاصين . .

وقد أسند عكرمة عن طائفة من الصحابة ، منهم حبر الأمة مولاه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو هريرة ، وعائشة ، وغيرهم رضى الله تعالى عنهم . .

ومن الأحاديث التى رواها عن ابن عباس قال : دخل عمر على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو على حصير قد أثر فى جنبه ، فقال : يا رسول الله لو اتخذت فراشاً أوثر من هذا ؟ فقال : لا ! ما لى وللدنيا ؟ وما للدنيا ومالى؟والذى نفسى بيده . ما مثلى ومثل الدنيا إلا كراكب سار فى يوم صائف . فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها » .

وقد عاش عكرمة يعظ الناس ويفقههم فى شئون دينهم حتى لقى الله فى سنة سبع ومائة بعد الهجرة ، وكان ابن ثمانين سنة . . رضى الله عنه وألحقه بقافلة الأبرار والصديقين . . فقد حمل مشعل العلم ردحاً من الزمن ، ينشر النور فى كل بقعة من بقاع الإسلام .

ميمون بن مهران

كان يكره أن يعصى الله

تلاوة

القرآن والعمل بما فيه ، ومحاسبة العلماء وتلقى العلم عنهم ، ومحاسبة النفس ساعة بساعة ، ومراقبة الله سراً وعلانية ، والصبر على المكاره وأحداث الزمن ، ومجاهدة الشيطان فى وساوسه الخفية ، وتحرى المأكل الحلال والملبس الحلال . . كل هذا كان يتجمل به ميمون بن مهران الذى كان يعتبره عمر بن عبد العزيز من خلاصة الناس فى عصره .

فقدكان عمر يقول : إذا ذهب هذا وأضرابه لم يبق من الناس إلا مجاجة .. وقد استعمله عمر على قضاء المدينة وخراجها ، فكتب إليه ميمون يستعفيه ، وقال : كلفتنى ما لا أطيق . . أأقضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق . . فكتب إليه عمر : اجب من الخراج الطيب . . واقض ما استبان لك . فإذا التبس عليك أمر فارفعه إلى . . فإن الناس لو كبر عليهم أمر تركوه ، ما قام دين ولا دنيا . .

كان ميمون زاهدا فى الولاية خشية أن يضيع حق إنسان فى عهده ، أو يقع حيف على إنسان دون أن يدرى . . فالوالى مسئول أمام ربه عن كل ما يقع فى ولايته . . مسئول عن الجائع والعارى والمظلوم . . ولذلك فإن ميمون بن مهران كان يقول : وددت أن إحدى عينى ذهبت ، وبقيت الأخرى أتمتع بها ، وأنى لم آل عملا قط ، فسأله أحد جلسائه : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ . فقال : ولا لعمر بن عبد العزيز . .

وكما أنه كان يكره مناصب الدنيا . فإنه كان لا يحب أن يذهب إلى أرباب النفوذ . حتى لا يتفوه بكلمة ترضى السلطان وتغضب الله . . فهو يتحرى رضا الله فى الهمسة والنأمة ، ويتوخى القرب من الله فى الحركة والسكتة . . ويبتغى رضوان الله فى الخطرة والفكرة . . وكان يحذر من التزلف إلى السلطان أو زيارة النساء أو مجالسة أصحاب الهوى . . فمن كلماته : ثلاث لا تبلون نفسك بهن ، لا تدخل على السلطان وإن قلت : آمره بطاعة الله . ولا تدخل على امرأة وإن قلت : أعلمها كتاب الله ، ولا تصغين بسمعك لذى هوى ، فإنك لا تدرى ما يعلق بقلبك منه . .

أما عن تذوقه لكتاب الله عز وجل فإنه كان إذا سمع القرآن الكريم ارتعدت فرائصه ، ووجل قلبه ، وغشيته موجة عارمة من الخوف ، كأنه قادم على ربه فى التو واللحظة ليحاسبه ويجزيه بما فعل . . ومن ذلك ما حدث له مع الحسن الحلبى أحد شيوخ البصرة وفقهائها .. يصف هذه الواقعة عمرو مهران بن ميمون بقوله :

خرجت بأبى أقوده فى بعض سكك البصرة ، فمررت بجدول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ، فاضطجعت له فمر على ظهرى ، ثم قمت فأخذت بيده ، ثم دفعنا إلى منزل الحسن ، فطرقت الباب فخرجت إلينا جارية ، فقالت : من هذا ؟ قلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟فقلت لها : نعم ! .فقالت: يا شقى . . ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟!فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه ، فاعتنقا ، ثم دخلا . .

ولما استقر بهما المجلس قال ميمون : يا أبا سعيد : قد أنست من قلبى غلظة فاستلن لى منه . فقرأ الحسن : بسم الله الرحمن الرحيم . « أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . . » فسقط الشيخ وأخذ يفحص برجله ، كما تفحص الشاة المذبوحة . . وبعد أن أفاق جاءت الجارية وقالت : قد أتعبتم الشيخ فقوموا وتفرقوا . . فأخذت بيد أبى وخرجت به . . وقلت : يا أبتاه

هذا الحسن كنت أحسب أنه أكبر من هذا ! فوكزنى فى صدرى وكزة ، ثم قال : يا بنى . لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك ، لامتلأ بالجراح ! ..

وكان يرى أن الذى يحفظ القرآن الكريم ولا يتقرب بقراءته لله عز وجل . . فإن القرآن لا يبقى ساطعا فى صدره ، ولا مضيئا فى جوانحه . . وقد قسم القراء إلى أربع فئات : فئة تلتمس من قراءته الأجر وعرض الدنيا . . وفئة تريد أن تجادل به ، وفئة تتباهى بأنها من الحفاظ ، أما الفئة الرابعة فهى التى تتعلمه وتطيع به الله عز وجل ، وهى خير هذه الفئات . .

وكان يسوى بين المؤمن والكافر فى ثلاث خصال : الأمانة ، وبر الوالدين ، والوفاء بالعهد . فمن أقواله : ثلاث المؤمن والكافر فيهن سواء : الأمانة تؤديها إلى من ائتمنك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين . قال الله تعالى : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا » . . والوفاء بالعهد لمن عاهدت من مسلم أو كافر . .

ومن عظاته وحكمه ووصاياه أنه كان يقول : لا يكون الرجل من المتقين . . حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه . . حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين ملبسه ، ومن أين مشربه . . أمن حلال ذلك أم من حرام . . وكان يقول : إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت فى قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء . . فإن تاب محيت من قلبه ، فترى قلب المؤمن مجلوا مثل المرآة . . ما يأتيه الشيطان من ناحية إلاأبصره ، وأما الذى يتتابع فى الذنوب ، فإنه كلما أذنب ذنبا ينكت فى قلبه نكتة سوداء ، فلا يزال ينكت فى قلبه حتى يسود قلبه ، ولا يبصر الشيطان من أين يأتيه . .

وعن فتنة المال كان يقول : فى المال ثلاث خصال . إن نجا رجل من خصلة كان قمينا ألا ينجو من اثنتين . وإن نجا من اثنتين كان قمينا ألا ينجو من الثالثة . . ينبغى للمال أن يكون أصله من طيب ، فأيكم الذى يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيبا . فإن سلم من هذه فينبغى له أن يؤدى الحقوق التى

فى ماله ، فإن سلم من هذه . . فينبغى له أن يكون فى نفقته ليس بمسرف ولا مقتر . .

وإذا كان الصبر والذكر هما عدة المتقين . فإن ميمون بن مهران كان يقول عنهما : الصبر صبران ، والذكر ذكران . فالصبر عند المصيبة حسن ، وأفضل منه أن تصبر نفسك على ما تكره من طاعة الله عز وجل ، وإن ثقل عليك . . وذكر الله باللسان حسن ، وأفضل منه أن تذكر الله عز وجل عندما تشرف عليه من معاصيه . .

وقد أسند ميمون عن ابن عمرو بن عباس وغيرهما . ومن الأحاديث التى أسندها عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يبعث رجلا فى حاجة ، وأبو بكر عن يمينه ، وعمر عن يساره . فقال له على : ألا تبعث هذين؟فقال : كيف أبعثهما ، وهما من هذا الدين بمنزلة السمع والبصر من الرأس؟» . وعن ابن عمر أيضا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل ما يوجد فى آخر الزمان درهم من حلال ، أو أخ يوثق به » . . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اثنان من الناس إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس . . العلماء والأمراء » .

وقد عاش هذا الفقيه الزاهد العابد فى قمة الورع والنسك حتى لقى الله فى سنة سبع وعشر ومائة ، ودفن بالرقة مسقط رأسه ، وما زال قبره هناك يرمز إلى حياة مضيئة بالعلم والتقوى . .

سراقة بن مالك بن جشعم

شهد معجزتين من معجزات الرسول

عاش ثمان سنوات ومخيلته لا تفارقها صورة المعجزة التى حدثت له يوم هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبى بكر من المدينة . . وقد أقرت هذه المعجزة فى وجدانه أن محمد بن عبد الله نبى الله يرعاه ويظله بعنايته . . وأن الأقدار تواكبه وتحرسه . . وأن يد الله تصنع له المعجزات التى تشهد بنبوته . وتحميه من أعدائه . . وظل السنوات الثمان حتى يوم فتح مكة يحكى ما حدث له شعرا ونثرا . . فقد كان سراقة بن مالك بن جعشم شاعرا مبدعا . . له مكانته الأدبية بين شعراء القبائل . . وكان فارسا مغوارا من فوارس العرب . . مشهودا له بالكفاءة القتالية . . وخوض المعارك دون رهب أو وجل . . والحادثة التى وقعت له يوم الهجرة خلدته فى أبرز وقائع التاريخ . . وجعلت اسمه ينتقل بين أقلام المؤرخين . . بالرغم من أنه لم يكن مع النبى أو ضده قبل الهجرة . . وكان يعيش مع قبيلته فى مكانه اسمه قديد بالقرب من مكة . . يمارس حياته البدوية بمعزل عما يجرى داخل البلد الحرام . .

وذات يوم سمع أن قريشا رصدت مائة ناقة لمن يأتى بمحمد وصاحبه ميتين أو على قيد الحياة . . ووجد سراقة أمامه فرصة العمر للإثراء . . فقرر أن يغتنم هذه الفرصة . . ويخرج فى طلب النبى وصاحبه . . وهذا

لن يكلفه إلا بعض الجهد . . وبعدها يصبح من أغنياء العرب . . إلى جانب أنه سيلبس تاج الفخار أمام قريش ، لأنه حقق لهم ما عجزوا عن تحقيقه طوال ثلاثة عشر عاما . . سفه فيها محمد عقولهم . . وأنكر عبادتهم للأصنام .. دون أن يملكوا شيئاً يثنيه عن دعوته . . .

وظلت خواطر الغنى والثروة تراود ذهن سراقة بن مالك . . ومرأى المائة ناقة يدفعه إلى الدخول فى مغامرة مع النبى وصاحبه . . وأراد أن ينجز هذا العمل وحده . . ففوجىء بما لم يخطر له على بال . . إذ رأى معجزة من معجزات الرسول تبهته وتذهله وتشدهه . . فتعالوا نستمع إليه وهو يتحدث عن المعجزة كما وقعت له .

يقول : جاءنا رسل قريش يجعلون فى رسول الله صلى الله عليه وسلم دية كل منهما لمن قتله أو أسره مائة ناقة . . فبينما أنا جالس فى مجلس من مجالس قومى من بنى مدلج . . إذ أقبل رجل منهم ونحن جلوس . . فقال : يا سراقة . . إنى رأيت آنفا أسودة بالساحل أراها محمدا وصاحبه . . فقلت للرجل إنهما ليسا محمدا وصاحبه . . ولكنك رأيت فلانا وفلانا انطلقا بأعيننا . . ويكمل سراقة حديثه فيقول : ثم لبثت فى المجلس ساعة قمت بعدها فدخلت وأخذت رمحى وركبت فرسى بعيدا عن الأعين . . ودفعتها ففرت بى حتى دنوت من محمد وصاحبه . . فعثرت بى فرسى فسقطت عن ظهرها . . فقمت واستخرجت الأزلام من كنانتى واستقسمت بها أضرهما أم لا . . فخرج الذى أكره . . فركبت فرسى . . وعصيت الأزلام . . فجعلت فرسى تقرب بى . . حتى سمعت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ماشيا لا يلتفت . . أما أبو بكر فكان كثير الالتفات . . فإذا بفرسى تسوخ يداها فى الأرض الصلدة الصخرية حتى بلغتا الركبتين . . فسقطت عنها للمرة الثانية . . ثم زجرتها فنهضت . . فلم تكد تخرج يديها وتستوى قائمة حتى انطلق غبار ساطع فى السماء مثل الدخان . . فاستقسمت بالأزلام فخرج الذى أكره . . فناديتهما بالأمان فوقفا . . فركبت فرسى حتى جئتهما . . ووقع فى نفسى حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهما أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سيظهر . .

ويقول سراقة : بعد أن أعطانى الرسول الأمان ، دنوت منه وأخبرته أخبار قريش ، وعرضت عليه وعلى صاحبه المتاع والزاد فلم يردانى . . ولم يسألانى.. ولكنهما قالا : أخف عنا..فسألت النبى أن يكتب لى كتابا يكون فيه أمارة بينى وبينه . . فأمر عامر بن فهيرة أن يكتب لى هذا الكتاب . . فكتبه لى فى رقعة من أدم . . أى من جلد .

أما ما حدث بعد ذلك فإن سراقة بر بوعده للرسول . . وأخذ يرد كل من يقابله . . وينفى له أن الرسول سار من هذه الطريق . . ولما تبين أن الرسول وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهد من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كان من قصة جواده . . حتى ملأت هذه القصة كل الأرجاء . . فخشى رؤساء قريش أن يكون ذلك سبباً فى إسلام كثير من سكان البلد الحرام . . وبخاصة أن سراقة كان أمير بنى مدلج ورئيسهم . . وكان معروفا بالصدق . . فكتب أبو جهل رسالة إلى بنى مدلج يحرضهم فيها على سراقة . . ويتهمه بالسفاهة والغواية . . قال فى رسالته :

بنى مدلج إنى أخاف سفيهكم ... سراقة مستغو لنصر محمد
عليكم به ألا يفرق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عز وسؤدد

فرد سراقة على أبى جهل بهذه الأبيات :

أبا حكم . . والله لو كنت شاهدا ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
عجبت ولم تشكك بأن محمدا ... رسول ببرهان فمن ذا يقاومه
عليك بكف القوم عنه فإننى ... أخال لنا يوما ستبدو معالمه
بأمر يسود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرا يسالمه

لو أنعمنا الفكر قليلا فى هذه الأبيات لتبين أن سراقة دخل الإسلام قلبه . . ولكنه لم يعلن إسلامه إلا يوم الفتح . . فقد ذهب إلى الرسول فقال له : « هذا يوم وفاء وبر . ادن » . . فدنا سراقة من الرسول وسلمه الكتاب . . وأعلن إسلامه . .

ويحكى سراقة أنه جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يارسول الله . . أرأيت الضالة ترد إلى حوض إبلى . . ألى أجر إن سقيتها ؟.:

فقال : فى الكبد الحرى أجر . .

وكما حدثت المعجزة التى ساخ بسببها جواد سراقة فى الصخر . . فقد حدثت معجزة أخرى جعلت سراقة يزداد إيمانا ويقينا بالله ورسوله . . فبينما كان سراقة جالسا مع الرسول يوما . . إذا بالرسول يقول له : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟ . ويعجب سراقة ، وتسرح خواطره بعيداً إلى مملكة الفرس . ويسأل نفسه : هل يمكن لبدوى مثلى أن يلبس سوارى كسرى . . ثم يرد الخواطر عن نفسه . . لأن هذه نبوءة الرسول الذى يكشف الله له عما يخبئه المستقبل . .

وتمر الأيام . . وينتصر المسلمون على الفرس فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . ويرسل سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب كل ما استولى عليه فى إيوان كسرى . . وتصل هذه الأشياء إلى أمير المؤمنين . . وكان سراقة بن مالك جالسا عنده فيلقى عمر بسوارى كسرى إلى سراقة فيلبسهما فى يده . . فقال له عمر : قل : الله أكبر . . فقال سراقة : الله أكبر . . فقال له عمر : قل : الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز وألبسهما سراقة بن مالك . . أعرابى من بنى مدلج . . فقال سراقة : هذه العبارة كما نطقها عمر . .

ويسترجع سراقة ما قاله له الرسول يوما : كيف بك إذا لبست سوارى كسرى.. ويقول فى نفسه: صدقت يارسول الله..لقد كنت تنظر بنور الله.. هذه نبوءتك قد تحققت . . ولقد شاء الله أن أشهد معجزتين من معجزاتك . .

وعندما حلت السنة الرابعة بعد العشرين من الهجرة لقى سراقة بن مالك ربه . . وقلبه مضىء بحب الله ورسوله . . وصدره يتوهج باليقين والإيمان .

أسيد بن الحضير

من حسن تلاوته القرآن
كانت الملائكة تنزل لتستمع إليه

لقبه

العرب فى الجاهلية بالإنسان الكامل ؛ لأن المزايا التى اجتمعت له ، وورثها عن أبيه . لم تتوافر إلا للأفذاذ القلائل من العرب . . فقد كان يجيد القراءة والكتابة كما كان يجيد الرماية والسباحة وركوب الخيل . وقد أهلته هذه المزايا لأن يكون زعيم الأوس بعد أبيه . وهو منصب له شأنه وشأوه عند العرب ، وقد شاء الله لهذا الصحابى العظيم أن يتفتح قلبه للإسلام بعد سماعه آيات من القرآن الكريم . . كما تتفتح الأكمام بفعل أشعة الضحى عن زهرة مونقة ذات عطر عجيب . . فما كاد يسمع القرآن من مصعب بن عمير حتى لان قلبه ، وخشعت جوارحه ، وسكت عنه الغضب . . إذ كان قد ذهب إلى مصعب محنقا مغيظا يريد إقصاءه من المكان الذى يجلس فيه . . ولكن الرحلة التى قضاها — وهى مسيرة خطوات معدودة — بين ذهابه إلى مصعب.. وانصرافه عنه . . كانت ميلادا جديدا لقلبه وعقله ومشاعره . .

فقد كان مصعب يجلس ضيفا فى ظل بستان لأسعد بن زرارة أحد أشراف المدينة وساداتها والزعماء المبرزين فيها . . وكان سعد بن معاذ ، وهو من أشراف وسادات المدينة كذلك، يريد إقصاء مصعب من مكانه هذا . ى لا يلتف الناس حوله ، ويتركوا آلهتهم ، وينضووا تحت لواء الدين

الجديد ، ولكن صلة القربى بينه وبين أسعد إذ كان ابن خالته . . جعلته يتردد فى اقتحام مجلس مصعب وسعد حتى لا يؤذى شعور ابن خالته . . فطلب إلى صديقه الحميم أسيد بن الحضير أن يتولى هذه المهمة بدلا منه . وبخاصة أنهما متفقان فى الرأى . . بيد أن القدر كان يدخر مفاجأة عجيبة لهما معاً . .

فما كاد أسيد بن الحضير يبلغ مجلس مصعب شاهرا حربته ، موجهاً إليه كلمات جافة . حتى طلب إليه مصعب فى هدوء أن يجلس ويستمع إليه . . وكانت هذه اللحظة بداية تحول فى وجه أسيد بن حضير. فما إن سمع القرآن من مصعب حتى طلعت شمس الهداية فى قلبه وأنارت كيانه كله . . وأحس أنه إنسان جديد انخلع عن ماضيه ؛ واندمج فى النور الربانى ، وسأل عن كيفية الدخول فى هذا الدين الجديد ، فطلب إليه مصعب أن يتطهر ويقرأ الشهادتين ويصلى . . فلم يتردد فى تنفيذ ما طلب منه . . ويا لها من ساعة شعر خلالها بسعادة غامرة ، لأنه انتقل من الوثنية إلى الوحدانية ، ومن الظلمات إلى النور ،ومن الوهم إلى الحقيقة ، ومن الحياة بلا هدف وغاية.. إلى الحياة بهدف أسمى وغاية أنبل . .

ولم يشأ أسيد بن الحضير أن يحظى بهده النعمة وحده . . أو ينعم بهذه السعادة دون غيره من خلصائه وأحبائه . . فرجع إلى سعد بن معاذ وكان ينتظره . . فما إن رآه سعد حتى قال لجلسائه : « أقسم لقد جاء أسيد بغير الوجه الذى ذهب به ، وبالطبع صدقت فراسته . وتحققت زكانته . . فقد كان وجه أسيد يتلألأ كالبدر المسفر ، وينم عن أمر جديد ومدهش عاد به . . مما جعل سعد بن معاذ يتلهف على معرفة ما يخفيه أسيد بن الحضير بين جوانحه، ويكنه بين حناياه . . وحين جلس أسيد إلى سعد قال له بلهجة المنذر بخطر عظيم سيلحق بابن خالته أسعد بن زرارة . . لقد حدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وهم يعلمون أنه ابن خالتك » .

كان أسيد بن الحضير يستهدف إثارة سعد بن معاذ لكى يذهب إلى

ابن خالته للذود عنه . وعندئذ يلتقى بمصعب ويستمع إليه ، ويشرق قلبه بالإسلام ، ويضىء بالعقيدة . . وحدث ما توقعه أسيد . . فقد كانت هداية السماء على موعد مع سعد بن معاذ ، إذ أنه عندما سمع القرآن تبدلت نفسه وتغير قلبه وتبخر سديم الوثنية تحت وهج الإسلام من حياته . . فسأل عن الدين الجديد وكيف يدخله ، فطلب إليه مصعب أن يتطهر وينطق بالشهادتين ويصلى . . وسرعان ما فعل ، وكسب الإسلام زعيمين عظيمين من زعماء المدينة ، ضربا بعد ذلك أروع الأمثلة فى البطولة والتضحية والجهاد بالنفس والمال ، ووقفا مع الرسول صلى الله عليه وسلم مواقف أجل وأعظم من أن يصفها التاريخ . .

وإذا كان أسيد بن الحضير فاته شهود بيعة العقبة الأولى . فقد كان حريصا على لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبايعته . . ولذلك فإنه كان من السبعين أنصاريا الذين شهدوا بيعة العقبة الكبرى ، وتم اختياره ليلتها أحد النقباء الاثنى عشر . . وكان أسيد بن الحضير حريصا بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يحضر مجالسه ويصلى الصلوات الخمس خلفه فى المسجد . . بل إنه كان يذهب إلى الرسول فى بيته ليلا ليتعلم منه ويتتلمذ على يديه ويفهم الإسلام كما علمه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم . .

وحدث أن كان أسيد وعباد بن بشر يجلسان عند الرسول صلى الله عليه وسلم.. وكانت ليلة مظلمة شديدة الإظلام ، إذا أخرج المرء يده لايكاد يراها ولم يكن معهما مصباح يسيران على نوره . . بيد أنهما فوجئا بأمر لم يخطر لهما على بال..فما كادا يخطوان خطوة واحدة حتى أضاءت عصا أحدهما وأنارت الطريق . . وكأن العصا فيها نجمة ساطعة . . وكانا يتلوان القرآن بصوت هامس . . ولما انتهيا من الشارع الذى يقع فيه بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، واتجه كل منهما إلى الشارع الذى يوجد فيه بيته.. أضاءت عصا كل منهما فمشى فى ضوئها حتى بلغ منزله .

ومما كان يشتهر به أسيد بن الحضير : حسن تلاوة القرآن . . لم يكن

يتغنى بالقرآن ، ولكن كان يتلوه بصوت جميل يهز سامعيه ويفرض عليهم الإنصات له بشغف . . حتى إن الملائكة كانت تنزل ،أو كانت — وهى تطوف بالأرض — تتوقف فى سماء بيته لتستمع إليه . وقد روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن أسيد بن الحضير رضى الله عنه بينما هو فى ليلة يقرأ القرآن فى مربده ، وابنه يحيى نائم بالقرب منه ، إذ جالت فرسه فقرأ ، ثم جالت مرة أخرى فقرأ ، ثم جالت مرة ثالثة . . أى كانت الفرس تتحرك هنا وهناك فى خوف . . يقول أسيد : فخشيت أن تطأ ابنى يحيى ، فقمت إليها فإذا مثل الظلة فوق رأسى .. فيها أمثال السرج ، عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يا رسول الله . . بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى . إذ جالت فرسى ، فقال : الرسول صلى الله عليه وسلم اقرأ ابن الحضير قال : فقرأت . . ثم جالت أيضا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن الحضير . فقرأت . . ثم جالت أيضا . . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن الحضير . قال : فانصرفت . وكان ابنى يحيى قريباً منها فخشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها .. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تسمع لك . ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تتوارى عنهم .

هكذا كان حال أسيد بن الحضير صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلميذه . . مرة تضىء عصاه لتنير له الطريق ، ومرة تدنو الملائكة لتسمع صوته وهو يقرأ القرآن . . وقد كان يقول عن نفسه كما روت هذه الكلمات عنه السيدة عائشة رضى الله عنها : لو أنى أكون.. كما أكون على حال من أحوال ثلاثة ، لكنت من أهل الجنة ، وما شككت فى ذلك . . حين أقرأ القرآن ، وحين أسمعه يقرأ ، وإذا سمعت خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وإذا شهدت جنازة ، وما شهدت جنازة قط. فحدثت نفسى سوى ماهو مفعول بها ، وما هى صائرة إليه .

كان أسيد فى هذه الأحوال الثلاثة يحس روحانية عجيبة وشفافية أعجب : وكان حين يقرأ القرآن أو يسمعه من أحد يقرأه تنطلق مشاعره فى بحر من النور والطهر لا تعرف مداه ، وكان يشعر بجلال الربوبية يهز كل ذرة فى كيانه، ويخشع قلبه فى حضرة القرآن خشوع عبودية خالصة ، وكان إذا سمع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يخطب على المنبر يتفتح قلبه ونفسه وعقله للكلمات المضيئة التى تخرج مبرورة من شفتيه الطاهرتين ، فيرتفع بوجد انه فوق الدنيا ، ويرى أنها لا تساوى جناح بعوضة ،أو شروى نقير . ويظل صوت الرسول عذباً فى أذنيه له حلاوة وطلاوة . . ويود لو بقيت أصداؤه فى قلبه وكيانه أطول مدة ممكنة . . أما رؤيته جنازة ميت فقد كانت تكشف له عن مشاهد القيامة ابتداء من حساب الملكين فى القبر . ففى الوقت الذى يفكر فيه بعض الناس فيما تركه المتوفى من ميراث ، كان أسيد بن الحضير يفكر فى الحوار الذى سيدور بين المتوفى وبين الملكين ، وعلى ضوء هذا الحوار سيتحدد مصيره الأبدى ، ونهايته التى لا نهاية لها :

وقد بلغ من تقدير النبى صلى الله عليه وسلم لهذا الصحابى الجليل أنه كان يقول : نعم الرجل أسيد . . وكان الرسول يستشيره حتى فى أدق الأمور . . فقد استطلع النبى رأيه فى حديث الإفك قبل أن ينزل القرآن ببراءة السيدة عائشة رضى الله عنها . فقال للرسول : والله ما أعلم عن أهلك إلا خيراً . . وكان أسيد يفاكه الناس أحياناً فى مجلس الرسول ... وحدث أن كان الرسول يتكلم فأصابت يده خاصرة أسيد ، فقال له أسيد : لقد أوجعتنى يارسول الله ، فقال له الرسول : اقتص : أى خذ منى القصاص.ورفع ثوبه عن خاصرته . فأخذ أسيد يقبلها ، ويقول: هذا ما قصدت إليه يارسول الله أن أقبل جزءاً من جسدك الشريف . .

وكما كان الرسول يستشير أسيد بن الحضير ويثق به ويطمئن إلى رأيه ، فكذلك فعل أبو بكر.فحين حضرته الوفاة ، راح يأخذ رأى الصحابة فى استخلاف عمر بن الخطاب . وكان أسيد فى طليعة من أخذ رأيهم . . فأيد استخلاف عمر . . كما أيد استخلاف أبا بكر يوم السقيفة . .

وعندما توفى أسيد بن الحضير فى شعبان من السنة العشرين بعد الهجرة .. كان مديناً بأربعة آلاف درهم . فأراد أهله أن يبيعوا نخلة ليسددوا الدين.. وكان النخل يغل كل عام ألف درهم . . فبلغ ذلك عمر بن الخطاب ، فبعث إلى غرمائه وقال لهم : هل لكم أن تقبضوا كل عام ألفا فتستوفوه فى أربع سنين ؟ فقالوا : نعم يا أمير المؤمنين . فأخروا ذلك ، فكانوا يقبضون كل عام ألف درهم .

وفى جنازة تظلها الملائكة بأجنحتها النورانية حمل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب نعش أسيد بن الحضير على كتفه حتى البقيع ، ليوارى جثمانه الطاهر مع الذين أنعم الله عليهم من الصديقين والشهداء . . وحسن أولئك رفيقاً . .

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب

ولد فى مهد العقيدة ونشأ فى ظلالها

أغدقت عليه السماء بطهرها ونورها وعبقها ، وهو طفل ناعم الإهاب فى المهد ، لا يستطيع أن يتبين شيئاً مما حوله . . فقد ولد بأرض الحبشة.. حيث كان أبواه قد هاجرا إليها فرارا بدينهما من عنت قريش واضطهادها . . مؤثرين حياة الغربة وشظف العيش فى ظل الإسلام وعقيدته ومبادئه ، على الحياة فى ظل الوثنية بين الأهل والأقارب فى مكة . . وكان أبوه جعفر بن أبى طالب وأمه أسماء بنت عميس من طلائع الإسلام الأولى .. بكرا بالدخول فى الدين الحنيف، واحتملا فى سبيل العقيدة ما تخور أمامه أقوى العزائم ، وتتضاءل أعلى الهمم . . حتى ضحيا بما يمتلكان من مال وعقار،وما ينالان بين أهلهما قبل إسلامهما من حب وتقدير وإعزاز . .

وفى مهجرهما بأرض الحبشة أنجبا ثلاثة أولاد أوسطهم عبد الله . . ولم يتح لهذه الأسرة المسلمة المؤمنة أن تعود إلى موطنها الأصيل إلا بعد أن فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من فتح خيبر فى السنة السابعة من الهجرة . . وبعد أن استقر الأمر للمسلمين فى المدينة . . وقد فاض السرور برسول الله فى يوم عودة جعفر هو ومن كان من المسلمين المهاجرين ، حتى إنه قال وهو يعانق جعفر فى فرح غامر : (لا أدرى بأيهما أنا أسر . . بفتح خيبر أم بقدوم جعفر) . .

وفى المدينة حيث بدأت الدولة الجديدة تأخذ سمتها وهيئتها المهيبة ، وحيث أخذت الدعوة ينتشر نورها ويعم ضياؤها .. اتخذ جعفر له داراً.. وبدأ يمارس حياته فى التجارة ويسهم فى حمل تبعات الجهاد ومسئولية الدعوة . . وتمر الأيام وتدخل السنة الثامنة من الهجرة ، ويطلب النبى صلى الله عليه وسلم إلى جعفر أن يتهيأ لغزوة (مؤتة) . . فقد اختاره ضمن ثلاثة قواد لهذه المهمة الجليلة . . وكان زميلاه فى القيادة هما : (زيد بن حارثة ، وعبد الله ابن رواحة . .) .

ودع جعفر أسرته ، ولم تكن تعلم هذه الأسرة أن هذا آخر وداع لعائلها البطل . . إذ استشهد فى هذه المعركة على أروع ما تكون نهاية الشهداء فى الدنيا ، وعظمتهم فى قنة التاريخ . . فقد كان يحمل الراية بيمينه ، ولما تكاثر عليه الروم وضربوا يمينه بالسيوف ، رفض أن تسقط الراية . . وأمسكها بشماله ، ولكن أعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة أمامهم للتخلص من هذا القائد الشجاع الذى لا يبالى على أى جنب يكون فى الله مصرعه . . فضربوا شماله الممسكة بالراية . . إلا أن جعفر لم يستسلم ولم يترك الراية تسقط تحت سنابك الخيل ، وإنما أمسكها بعضديه . . غير مبال بطعنات السيوف ورميات النبال . . حتى وجدوا فى جسده بضعاً وتسعين طعنة ورمية بعد المعركة . .

وكشف الله لنبيه عما جرى فى المعركة ، فذهب إلى بيت جعفر ، وطلب إلى أسماء بنت عميس أن تأتى إليه بأولادها ، (محمد وعبد الله وعوف) فلما جاءت بهم إلى النبى قبلهم . . ثم دعا بالحلاق فحلق رؤوسهم . . ثم نظر إليهم وقال : (اللهم اخلف جعفر فى أهله ، وبارك لعبد الله فى صفقته) وبعد ذلك قال لأمهم : (أنا عوض لهم عن أبيهم) . .

كانت الأم تحس لذع النار فى قلبها بعد أن علمت بموت زوجها . . ولكنها تلقت النبأ بهدوء المؤمنات الصابرات ، ووجدت فى كفالة النبى لأولادها ما يغنيهم ويعوضهم عن فقد الأب . فراحت تنشئهم على المبادىء الإسلامية التى تعلمتها من الدين الحنيف . . ولما بلغ عبد الله السابعة من عمره

ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وبايعه : ولم يعلم أن أحداً بايع النبى فى هذه السن غيره إلا عبد الله بن الزبير . . وحبيب بن زيد الأنصارى الذى كان أول طفل يبايع الرسول . حيث بايعه ليلة العقبة مع أبيه وأمه نسيبة بنت كعب ، أول فدائية فى الإسلام :

كان عبد الله بن جعفر يعيش فى ذكريات عزيزة على نفسه ، وكانت هذه الذكريات لا تفارق مخيلته لحظة واحدة . . كان إذا ذهب إلى أى مكان من المدينة يسمع الناس يقولون عنه : (هذا ابن ذى الجناحين) . . لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن جعفر : (لقد رأيته فى الجنة له جناحان مضرجان بالدماء) . . وكان هذا الحديث أعظم وسام على صدر تاريخ هذا البطل الشهيد . .

كما كان عبد الله يحس بالغبطة والحبور يملآن جوانحه وهو يرى إعجاب الناس بما خلفه والده من قصص البطولات والتضحيات الفريدة النادرة . . وكان يتمنى أن يكون له حظ مقسوم من تضحيات الجهاد والاستشهاد . . بيد أن حظه كان مقسوماً فى البذل والعطاء ، والجود والسخاء . . فكان يعين ذوى الحاجة دون من أو أذى . . ويطعم أهل الخصاصة من كل ما يشتهون ، ومما ضنت به عليهم الحياة . . والحكايات التى تروى عنه فى هذا الصدد تشبه الأساطير أو تهاويل الخيال . . ولكنها حقائق واقعة لا يختلج عليها الشك والكذب . . لأن رواتها ممن يجرى الصدق على ألسنتهم . . ويتلألأ الحق فى كلماتهم . . فقد قالوا عنه : (إنه تصدق مرة بألف ألف .. أى بمليون درهم) . . وقالوا : إن رجلا وقع فى ضائقة فأعطاه أربعة آلاف دينار . . وذكروا له مرة أن أحد التجار اشترى صفقة من السكر ، ولكن السوق كانت كاسدة ، فلم يبع منها شيئاً . . فأرسل عبد الله القيم على أمواله وأمره بأن يشترى هذه الصفقة ويهديها إلى الناس . .

لقد بارك الله فى تجارته بسبب دعوة الرسول له ، وبسبب أمانته وصدقه فى تعامله مع الناس..إذ لم يكن يحتكر سلعة ليبيعها بأغلى من ثمنها . . ولم يكن يرفع سعر بضاعة قليلة فى السوق . . ولم يكن يعرض سلعة مغشوشة ، أو يكذب على المشترى . . ومن أجل هذا كان التراب يتحول فى يده إلى تبر . . والرزق القليل يصير وفيراً . . حتى إنه كان يربح بالآلاف

ويتصدق بالآلاف ،ويدخر المعروف عند الله والناس . . كما كان يقيم الموائد الشهية ويطعم الجياع . . وقصص إطعامه الطعام تنم عن نفس خيرة بارة . . فقد قيل..إن معاوية لما حج ونزل فى دار مروان..قال يوماً لحاجبه : انظر..هل ترى بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلاناً وفلاناً — وعد جماعة — فخرج الحاجب فلم ير أحداً ، وقيل له إنهم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون ، فرجع الحاجب إلى معاوية وأخبره . . فقال : ما أنا إلا كأحدهم . . ثم أخذ عصاه وتوكأ عليها . . وذهب إلى دار عبد الله بن جعفر ، وكانت بينه وبين عبد الله علاقة حميمة وثيقة . ولما بلغ الباب الباب استأذن على جعفر ودخل .. فأجلسه فى صدر المائدة . . فقال له معاوية :

— أين غداؤك يا ابن جعفر ؟

فقال له ابن جعفر :

— أى طعام تشتهيه نحضره لك . . . . ؟

فقال معاوية :

— أطعمنا مخاً . .

فقال ابن جعفر لغلامه :

— هات مخاً ياغلام . .

فدلف الغلام إلى داخل الدار وأحضر صحفة ممتلئة بالمخ . . ولما فرغت طلب إليه ابن جعفر أن يحضر صحفة أخرى فأحضرها . . وهكذا فعل ثلاث مرات . . عندئذ تعجب معاوية وقال : ياابن جعفر . . ما يشبعك إلا الكثير من العطاء . . وقيل أن يخرج أمر له بخمسين ألف دينار . .

وكان معاوية يعطى عبد الله مليون درهم كل سنة . . ويقضى له مائة حاجة . . لأنه كان يعلم أن ابن جعفر كثير العطاء ، ولا يقبض يده عن سائل . . بل إنه يسد عن المدين دينه مهما يكن الدين كثيراً . . ويساعد من عضه الدهر بنابه ، أو أناخ عليه بكلكله . . ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد بأن يعطى عبد الله بن جعفر هذا المبلغ ، ويقضى له ما شاء

من الحوائج . . فنفذ يزيد هذه الوصية ، بل زاد عليها بأن ضاعف المليون درهم إلى مليونين . .

وبالرغم من هذه المبالغ الطائلة التى كانت تدخل جيب عبد الله بن جعفر . . والأرباح الهائلة التى كانت تدرها عليه تجارته ، فإنه حين حضرته الوفاة فى سنة ثمانين من الهجرة لم يكن يملك من عرض الدنيا شيئاً ، وكان آخر من رأى النبى صلى الله عليه وسلم وفاة . .

وقد دفن فى المدينة مع الذين أنعم عليهم من الصديقين والشهداء والصالحين. وضم قبره الطاهر رفاتاً مضمخاً بعبير الجود والكرم . . تتملاه العصور فى خضوع وإجلال . .

زَيْدُ بْنُ أَرْقَمْ

الغلام الذى أنزل الله فيه قرآنا يصدقه

من حق التاريخ أن يحنى أقلامه إجلالا لهذا الغلام الذى أنزل الله فيه قرآنا يصدقه . . فقد حمل جبريل الوحى ونزل على الرسول . . ليؤيد صدق الكلمات التى قالها زيد بن أرقم – وهو غلام حدث – لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . ومن حق التاريخ أيضاً أن يسجل هذا المشهد الرائع ، حيث كان أبو بكر وعمر يتسابقان ليبلغا هذا الغلام أن الله أنزل فيه قرآنا ، وأن جبريل جاء بنص الكلمات التى قالها زيد للنبى صلى الله عليه وسلم . .

أى وسام إلهى وضعته السماء على صدر هذا الغلام ، وأى لوحة شرف كتبت فيها اسمه وعرضتها على الملائكة ، وصارت من بعد سمة بارزة من سمات حياته المضيئة بين الخالدين . . ! !

إن زيد بن أرقم كان غلاماً عند عبد الله بن رواحة ثالث ثلاثة قادوا معركة مؤتة ، واستشهدوا فى ميدانها . . وقد نشأه عبد الله على الأمانة والصدق وعفة اللسان وحب التضحية . . وصحبه معه إلى غزوة مؤتة ليرى بعينيه كيف يكون الجهاد والاستشهاد . . ويعى بوجدانه صور البذل والفداء والبطولة . . وكان ابن رواحة يحس بأن هذه آخر رحلة له فى الدنيا ، وأنه

سيبدأ بعدها رحلة الأبدية ، لينعم فى جوار الله مع الشهداء والأبرار . ؟
كان يتغنى بشعر يودع فيه الدنيا ، وكأن روحه قد اخترقت حجب الغيب ؟
وشاهدت المنية التى تنتظره على أرض مؤتة تحت راية الله ؟

سمع زيد بن أرقم هذا الشعر وتفهم مراميه ، فطلب إلى سيده أن يكف عن الإنشاد ، فخفقه عبد الله بن رواحة بعصاه ، وقال له : اسكت . . فماذا إذا عدت على الرحل وحدك ! .

وعندما قامت المعركة استشهد زيد بن حارثة أول القواد الثلاثة . . ثم جعفر بن أبى طالب . . ثم عبد الله بن رواحة . . وشهد زيد بن أرقم استشهاد سيده ، وعاد وحده على الرحل ، كما تنبأ بذلك ابن رواحة . .

وقد شهد زيد بن أرقم سبع عشرة غزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت أولاها غزوة بنى المصطلق ، فى السنة السادسة من الهجرة على أرجح الروايات . . فى هذه الغزوة كاد ينشب قتال بين المهاجرين والأنصار بسبب التزاحم على الماء . . إذ صاح رجل : ياللأنصار ! وصاح آخر : ياللمهاجرين . . ولكن رباط الأخوة بين المسلمين حسم الخلاف فى لحظات ، ولم تتأثر قلوبهم بهذه المشاجرة الطارئة . . بيد أن عبد الله بن أبى — وكان زعيم المنافقين فى المدينة — وجد الفرصة أمامه لتمزيق شمل المسلمين ، وإثارة الأنصار على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال كلمات محمومة يتفزع منها وجدان التاريخ : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . ثم وجه كلماته لمن حوله : هذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم . وقاسمتوهم أموالكم . أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

كان زيد بن أرقم جالساً عند عبد الله بن أبى . وسمع هذه الكلمات . فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما سمع . وكان عنده عمر ابن الخطاب . . فقال عمر للرسول : مر عباد بن بشر أن يقتله . فقال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فكيف إذا تحدث الناس ياعمر أن محمداً يقتل أصحابه ؟ . لا . ولكن أذن بالرحيل » .

كانت الساعة التى طلب فيها الرسول الرحيل عند اشتداد الحر وقت الظهيرة . . ولم يكن يرحل فى هذه الساعة أبدا . . ولذلك فإن أسيد بن الحضير سأل الرسول : لماذا ترحل فى هذه الساعة يارسول الله ؟ . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : أما بلغك ما قاله ابن أبى ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . . فقال له أسيد : أنت العزيز ، وهو الذليل يارسول الله . ثم سكت لحظة وقال : ارفق به يارسول الله . فوالله لقد جاء الله بك ، ونحن ننظم له الخرز لنتوجه . . فهو يرى أنك قد سلبته ملكاً .

لقد أثار الرحيل المفاجىء تساؤلات من الصحابة . . ولم يلبث كل منهم أن علم بما قاله زعيم المنافقين عبد الله بن أبى . . فأراد ابن أبى أن ينفى عن نفسه هذه القالة ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف بالله أنه ما قال هذه الكلمات . وأن الغلام قد ادعى عليه . . ثم توهم أن الأمر قد انتهى ، وبخاصة أنه كان يوجد عند الرسول بعض الصحابة.فقالوا له : يارسول الله.عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل . . قالوا ذلك عطفاً على عبد الله بن أبى ، لأنه كان يتلجلج وهو ينفى التهمة عن نفسه . .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكشف كذب المنافقين ، ويفضح نفاقهم ، فأرسل جبريل فى اليوم التالى بسورة المنافقين . . وفيها نص العبارات التى قالها عبد الله بن أبى وبلغها زيد بن أرقم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندئذ سارع أبو بكر وعمر ليبلغ كل منهما زيد بن أرقم بأن الله أنزل فيه قرآناً بصدقه . . وسر الغلام بهذا النبأ سروراً عظيماً . . وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتسم له الرسول وأمسك بأذنه . وقال لمن حوله : هذا الذى أوفى الله بأذنه . .

وتتوالى المشاهد الإيمانية بعد ذلك . . فيقف ابن عبد الله بن أبى فى

مدخل المدينة حتى يمر به والده فيقول له : قف . لن تدخل المدينة حتى تشهد بأن رسول الله هو الأعز ، وبأنك أنت الأذل . .

أما زيد بن أرقم فقد أصبح اسمه يتردد فى كل بيت بالمدينة . . كان المؤمنون والمنافقون على السواء يتحدثون عنه . . ولم يكن زيد يعنيه أن يتحدث أحد عنه . . وإنما يعنيه بالدرجة الأولى أن يكون تلميذاً ناجحاً فى مدرسة النبوة . . وهذا لا يتسنى له إلا إذا كان ملازماً لمعلم البشرية الأكبر . . سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولذلك فإنه ما من صلاة إلا وكان يؤديها زيد خلف الرسول فى المسجد . . وما من سفر قام به الرسول إلا وكان زيد فى ركابه . . وقد أتاحت له ملازمته وحبه للرسول أن يتعلم الدين من منابعه الأصلية ، وأن يحفظ الكثير من أدعية الرسول وأحاديثه . .

وقد افتقده الرسول ذات يوم . . ولما سأل عنه قيل إنه مريض ، ولا يمكنه الخروج من بيته ، فصحب الرسول أنس بن مالك وذهب إلى بيت زيد بن أرقم . . وهناك وجده يشتكى من رمد فى عينيه . . فقال له الرسول ، وقلبه يخترق حجب الغيب ، ويطل على الغد البعيد : ليس عليك من مرضك هذا بأس . ولكن كيف بك إذا عمرت بعدى فعميت ؟ ! فقال زيد فى لهجة مؤمنة ساجية : إذن أصبر وأحتسب . فقال له الرسول : إذن تدخل الجنة بغير حساب .

ويشاء قدر الله أن يصاب زيد بن أرقم بالعمى بعد وفاة الرسول بسنين طوال . . ويذهب أحد أصدقائه ليواسيه فى فقد إبصاره ، فيقول له زيد : وماذا أريد بعينى الآن؟! لقد كنت أريدهما لأنظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم . . أما بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى فإنهما أصبحتا لا تساويان شيئاً . .

وكما كان زيد يحب الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من حبه لنفسه ، فقد كان يلازم أبا بكر رضى الله عنه ، باعتباره أول تلميذ للرسول . وأول مجاهد فى سبيل الدعوة . . إلى جانب اعتبارات أخرى كثيراً كلها تعبق بالإيمان والصدق والوفاء والتضحية من أجل الله ورسوله.. وكان زيد يحكى

عن أبي بكر بعض الوقائع التي تجسد سلوكه الإيماني وخوفه الشديد لمقام الله . . من هذه الوقائع أن مملوكاً لأبي بكر جاءه ذات ليلة بطعام فأكل منه أبو بكر لقمة واحدة قبل أن يسأله عن مصدر الطعام . . ولما سأله وعرف أنه اكتسبه من قوم ما زالوا فى الجاهلية بواسطة رقية رقاها ، أدخل أبو بكر إصبعه فى فمه وحاول أن يتقيأ اللقمة ولكنه لم يستطع ، فأحضر طستاً من الماء وظل يدخل الماء فى فمه ويخرجه حتى تقيأ اللقمة . . فقال له المملوك : أتفعل هذا كله من أجل لقمة واحدة ؟ فرد عليه أبو بكر قائلا : والله لو لم تخرج هذه اللقمة إلا مع نفسى لأخرجتها . . لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل جسد نبت من حرام فالنار أولى به.. فخشيت أن ينبت فى جسدى شيء من هذه اللقمة . .

ونظراً لأن زيد بن أرقم صحب الرسول وروى عنه ، فقد كان الناس يلجأون إليه ويسألونه عما رآه من عبادة الرسول وما سمعه من أحاديثه . . وكان يحكى لهم ما وعته ذاكرته . . وقد امتد به العمر إلى سنة ثمان وستين بعد الهجرة ، حتى لقى الله ، وقلبه أشد ما يكون توهجاً بالإيمان ، وسطوعاً بالعقيدة . . وقد دفن بالكوفة ، إذ كان قد ابتنى له داراً فيها ، وكان حبه للإمام على هو سبب انتقاله إلى هناك . .

أبو أمامة الباهلي

جعل الله له آية أعانته على إسلام قومه

تاريخ الصحابة رضوان الله عليهم يقف العقل مبهوتا مشدوها . . يتملى الآيات الإلهية التى تجلى بها الله عليهم . . لتكون عونا لهم على نشر دين الله . ومحو الجاهلية من العقول الراسفة فى أغلالها . . فمن الصحابة من جعل الله آيته فى رؤية الملائكة وهى تضرب الكفار فى ميدان القتال مثل أبى طلحة . . ومنهم من جعل آيته فى رؤية الملائكة وهى كالظلة فوق بيته تستمع إليه فى أثناء تلاوته القرآن مثل أسيد ابن الحضير..ومنهم من جعل آيته فى نزول الغيث إذا رفع يديه إلى السماء ودعا الله أن ينزل المطر مثل العباس عم النبى .. ومنهم من جعل آيته فى تحويل عصاه إلى مصباح يضىء له الطريق فى الليلة الظلماء مثل الطفيل الدوسى..ومنهم من جعل آيته فى إرسال الطعام إليه ، وهو فى غرفة موصدة سجنه فيها الأعداء مثل خباب بن الأرت . . ومنهم من جعل آيته فى أن تغسله الملائكة بعد استشهاده مثل حنظلة بن أبى عامر .

مام

آيات كثيرة ومتعددة تسنمت ذروة التاريخ ، وجاءت مدعومة بالأسانيد التى لا تقرب منها ريبة ، ولا تتدنى إليها شبهة . . وقد جعل الله لهذا الصحابى العظيم آية وقف حيالها قومه حيارى يتأملونها فى دهشة . . ويجدون فيها شيئاً يخرق ناموس الحياة . . فسارعوا إلى اعتناق الدين الذى يدعو إليه . :

وتفتحت قلوبهم لتلقى نور السماء .. بعد أن كانت موصدة بمفاتيح الجاهلية على ما يستكن فيها من وهم وزيغ وضلال . .

أما كيف أسلم هؤلاء الوثنيون بعد مكابرة وعناد . . فإن صدى بن عجلان، وكنيته أبو أمامة، ذهب إليهم باعتبارهم قومه ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويعرض عليهم شرائع الإسلام . . ويحكى أبو أمامة ما حدث له مع باهلة قومه فيقول :

لقد أتيتهم وقد سقوا إبلهم وحلبوها وشربوا . فلما رأونى قالوا : مرحباً بالصدى بن عجلان . . بلغنا أنك صبوت إلى هذا الرجل . . فقلت لهم : لا . ولكنى آمنت بالله ورسوله ، وبعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم لأعرض عليكم الإسلام وشرائعه .

وبينما نحن كذلك إذ جاءوا بقصعتهم فوضعوها واجتمعوا حولها ، وكانت ممتلئة بالدم .. وقالوا : هلم ياصدى. فقلت لهم : ويحكم ! إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم إلا ما ذكيتم كما أنزل الله .. قالوا : وماذا قال ؟ قلت : نزلت هذه الآية الكريمة فى المحرمات : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم ، وما ذبح على النصب ، وأن تستقسموا بالأزلام .

ثم جعلت أدعوهم إلى الإسلام وهم يأبون . فقلت لهم : ويحكم ! إيتونى بشربة من ماء فإنى شديد العطش . . فقالوا : لا . ولكن ندعك تموت عطشاً . فضربت رأسى فى العمامة ، ونمت فى الرمضاء فى حر شديد . . وتركتهم يأكلون الدم . . فأتانى آت فى منامى بإناء من زجاج لم ير الناس أحسن منه . . وفيه شراب لم ير الناس أفضل منه . . فأخذته وشربته ، فشبعت ورويت . . ولما فرغت من شرابى استيقظت . . فلا والله ما عطشت بعد ذلك أبدا . .

وإذ أنا فى هذه الحالة من الشبع والرى . . قال لهم رجل منهم : أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تطعموه ! ! فأتونى بلبن ، فقلت لهم : لا حاجة لى به . . ثم أريتهم بطنى ، فأسلموا عن آخرهم . .

ولندع قوم باهلة الذين أراهم الله آية فى واحد منهم ، فتركوا وثنيتهم وأقبلوا على الإسلام بقلوب رفافة نحو النور والطهر . . ولنعش مع أبى أمامة فى سموه الروحى ، وطهارته الوجدانية ، وصفائه النفسى . . لقد كان واحداً من أولئك الذين اصطفاهم الإسلام لحمل مشاعله ، فراح يتعلم على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويطبق ما يتعلمه بكل أمانة والتزام . .

سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله جعل السلام تحية لأمتنا . وأماناً لأهل ذمتنا » . . فكان أبو أمامة يسلم على كل من لقيه ، فلا يمر على أحد،سواء كان مسلماً أو غير مسلم، صغيراً أو كبيراً إلاوقال: سلام عليكم . سلام عليكم.. ولم يسبقه أحد بالسلام إلا مرة واحدة،حيث اختبأ يهودى خلف شجرة . ثم خرج فجأة وسلم عليه ، فقال له أبو أمامة : ويحك يايهودى ! ما حملك على ما صنعت ؟ ! فقال له اليهودى : رأيتك رجلا تكثر السلام ، فعلمت أنه فضل ، فأردت أن آخذ به ، فقال له أبو أمامة: إن هذا من أدب الإسلام الذى تعلمناه من الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومما تعلمه أبو أمامة من الرسول أيضاً : البر بالوالدين . . وقد حدث أن كانت أم أبى أمامة مريضة ، والنبى يتجهز لغزوة بدر ، وعلم النبى بمرضها ، فطلب إلى أبى أمامة أن يبقى بجوار أمه المريضة يرعاها ، لأن رعاية الوالدين لا تقل أجراً عن الجهاد فى سبيل الله . . وبالفعل بقى أبو أمامة بالمدينة ، وماتت أمه فى أثناء المعركة ، ولما انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد إلى المدينة زار قبرها ، وترحم عليها . .

وقد كان أبو أمامة ممن بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان تحت الشجرة يوم صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة . . ولذلك فإنه عندما نزل قوله تعالى : « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة،فعلم ما فى قلوبهم،فأنزل السكينة عليهم،وأثابهم فتحاً قريباً » قال أبو أمامة يارسول الله . . أنا ممن بايعك تحت الشجرة . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : أنت منى وأنا منك .

وكان أبو أمامة منهوماً بالعلم ، مشغوفاً بالمعرفة ، ما إن يسمع كلمة من رسول الله إلا ويحفظها عن ظهر قلب . . ولما سئل عن سر تفضيله العلم على العبادة قال : ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان : أحدهما عابد ، والآخر عالم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم . إن الله وملائكته وأهل السموات حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير . . ثم تلا هذه الآية : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

ومن الخصال التى اشتهر بها أبو أمامة الباهلى : الصبر وكتمان المصيبة وعدم الشكوى للناس . . والشكر على النعمة وإن دقت . . كان صباراً شكوراً يتسع قلبه لهموم أثقل من الجبال . . ولكنه يحتملها بإيمان لأنها مقدرة عليه . . ولم تكن الدنيا تساوى عنده شيئاً ، ولذلك عاش معرضاً عنها ، غير راغب فيها . . ولم يحدث أن تزلف لسلطان ، أو داهن واليا .

وقد حفظ أبو أمامة كثيراً من خطب الرسول ، وكان يحرص على أن يرويها بنصها ، وعاش حتى بلغ من الكبر عتياً ، ووهنت قواه ، ونضبت عافيته . . ومع ذلك لم تفته صلاة الجماعة ، سواء فى البرد القارس ، أو الحر اللافح . . ولم يدنس لسانه بغيبة أو نميمة ، ولم يسمح لقلبه أن يدخل فيه غير الله . .

ويحكى أبو أمامة أنه سأل النبى يوماً أن يأمره بعمل ينفعه الله عز وجل به ، فقال له النبى : عليك بالصوم فإنه لا مثل له . فكان أبو أمامة بعد ذلك هو وأسرته وخادمه يصومون الدهر . . ويأكلون الخبز الجاف والملح ، ولا يوقدون النار إلا إذا زارهم ضيف . .

ولكن أبا أمامة لم يكتف بصيام الدهر ، وإنما ذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له : يارسول الله قد أمرتنى بأمر ، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد نفعنى به . . فمرنى بأمر آخر ينفعنى الله عز وجل به . فقال له الرسول : اعلم أنك لا تسجد لله عز وجل سجدة إلا رفع الله عز وجل لك بها درجة ، أو حط بها عنك خطيئة . .

وبالرغم من أن أبا أمامة كان رقيق الحال ، فإنه كان جواداً يعطى كل ما معه ، ولا يهمه إن وجد شيئاً يقتات به أو لم يجد . . حتى إنه كان يجود بالرغيف وبالبصلة إن لم يجد سواهما . . وتحكى مولاته أنه أصبح ذات يوم وليس فى بيته إلا ثلاثة دنانير . . فوقف به سائل فأعطاه ديناراً ، ثم وقف به سائل فأعطاه ديناراً ، ثم وقف به سائل فأعطاه الدينار الأخير . . فغضبت وقلت : لم يبق لنا شيء ! فاستلقى على فراشه ، وأغلقت عليه الباب حتى أذن المؤذن للظهر ، فجئته فأيقظته فراح إلى مسجده صائماً . . فأشفقت عليه واقترضت ما اشتريت عشاء به .. وحين هيأت السراج والعشاء ووضعت المائدة تناول الطعام ، وقال : هذا خير من غيره . . ولكنه ما كاد يفرغ من الطعام حتى دخل عليه أحد أصدقائه وقال له : هاك ثلثمائة دينار هى ربح قرض اقترضته منك منذ سنوات . . فنظر إلى السماء وقال هامساً : الدينار بمائة ! ! ما أعظم الجزاء عند من يملك الجزاء !

وفى سنة ست وثمانين رحل أبو أمامة الباهلى إلى الدار الآخرة لينعم فى جوار الله بجزاء المؤمنين العابدين الصابرين الشاكرين . .

حاطب بن أبي بلتعة

عفا عنه الرسول رغم إفشائه
سرا عسكريا لأنه شهد بدرا

لم يكن من الشخصيات المرموقة فى مكة . . لأنه ليس من أهل الحسب والنسب . . ولا من ذوى العراقة والسؤدد . . ولا من أصحاب المال والتجارة . . وإنما كان رصيده الضخم حب الله ورسوله . . وحسبه هذا عظمة وجلالا ورفعة . . وبلغ من إعزاز رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاطب ابن أبى بلتعة أن بعثه سفيرا إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر . . حاملا إليه رسالة من النبى يدعوه فيها إلى الإسلام . . ويقرأ المقوقس الرسالة بروية وإمعان وتدبر .. وينظر إلى حاطب ويسأله : أليس صاحبك نبيا؟فيرد عليه حاطب : بلى : هو رسول الله . فيقول له : لماذا لم يدع على قومه حين أخرجوه من بلده ؟ فيقول له حاطب: ألست تشهد أن عيسى رسول الله ؟ فيقول المقوقس : بلى : فيقول له حاطب : لماذا لم يدع على قومه حين أرادوا أن يصلبوه ، فرفعه الله إلى السماء ؟ فأشرق وجه المقوقس وقال لحاطب: أنت حكيم جاء من عند حكيم . . ثم أرسل معه هدايا لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . منها مارية أم إبراهيم . .

وحاطب بن أبى بلتعة هذا رجل من أهل اليمن ، وكان حليفاً للزبير ابن العوام . . وحين هاجر إلى المدينة ترك أبناءه وإخوته فى مكة . . كما أنه كان فارساً فى الجاهلية . . وشاعراً مجيداً يتناقل شعره الرواة . . ويتغنى

به الركبان . . وقد اعتنق الإسلام وهو فى غضارة الشباب . . ونضارة العمر . وأشرب تعاليم الدين الحنيف . . وتكاليف الإيمان فى سن مبكرة . . كما كان له شرف الاشتراك فى معركة بدر . . وفى الخروج مع الرسول إلى الحديبية وشهود بيعة الرضوان . .

هذا الصحابى الجليل الذى كان موضع ثقة الرسول وحبه وإجلاله . . تلبدت سماء عقله ذات يوم فى السنة الثامنة من الهجرة . . والنبى يجهز لفتح مكة التى وعده الله بدخولها هو وأصحابه محلقين ومقصرين . . فقد فكر حاطب فى أبنائه وأهله الذين لا يأمنون غدر قريش وليس لهم هناك وشيجة قربى . . تصونهم وتحميهم من عدوان أعداء الإسلام . . وأخذت الخواطر الشيطانية تنساح على صفحة ذهنه حتى أوصدت فيه منافذ النور . . فقرر أن يتزلف إلى قريش بإفشاء سر القوات المسلحة التى أعدها الرسول للفتح الأعظم . . ولم يطف بخلده أن هذه العمل خيانة لله ورسوله . . وأن الأسرار العسكرية أمانة فى عنق الجندى . . إذا خرج سر واحد منها استوجب الجندى غضب الله عليه وملائكته والناس أجمعين . . لأنه سيعرض سلامة الجيش للخطر ، ويعرض وطنه للدمـار . .

كانت اللحظة التى فكر فيها حاطب بن أبى بلتعة أن يخبر قريشاً بما أجمع عليه الرسول . . أبشع لحظة مرت عليه فى حياته . . فقد خبا نور الإيمان فى قلبه . . ولم يشعر بجلال العقيدة التى كانت تتلألأ بين جنبيه . . وراح بيد مرتعشة يكتب خطاباً لرؤساء قريش يكشف لهم فيه عن أسرار تحرك الرسول إلى البلد الحرام . . ولكى يموه على المسلمين فى المدينة . . أعطى هذا الخطاب لامرأة . . وطلب إليها أن تخفيه فى ضفائرها حتى لا يعثر عليه أحد إذا فتش رحلها . . ووعدها بمكافأة ثمينة لقاء توصيل الخطاب إلى قريش .

ما كادت هذه المرأة تغادر المدينة المنورة . . حتى نزل جبريل وأخبر الرسول بما فعله حاطب . . فاستدعى الرسول صلى الله عليه وسلم على ابن أبى طالب والزبير بن العوام وقال لهما : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب

ابن أبى بلتعة بكتاب إلى قريش يحذرهم مما قد أجمعنا له من أمرهم » . .
وسرعان ما خرج الرجلان فى طلب هذه المرأة . . وأدركاها فى مكان اسمه « روضة خاخ » يبعد عن المدينة بسبعة أميال . . وعندئذ طلب إليها الإمام على أن تخرج الكتاب . . فأنكرت أن معها كتاباً . . فقام بتفتيش رحلها فلم يجد فيه شيئاً . . فنظر إليها فى غضب وقال : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله. فإما أن تخرجى الكتاب . . وإما جردتك . .

ولما وجدت هذه المرأة أن الإمام علياً يأخذ الأمر مأخذ الجد . . قالت له : أعرض . . فأدار لها ظهره . . ففكت جدائل شعرها وأخرجت منه الكتاب وأعطته له . .

عاد الإمام على بالكتاب إلى الرسول . . فأحضر صلوات الله وسلامه عليه حاطب بن أبى بلتعة وقال له : « ما حملك على هذا ياحاطب؟» . . فأخذ حاطب يشرح موقفه للرسول . . والكلمات تتلجلج فى لسانه وتكاد تذوب من الخجل على شفتيه . . قال :

— يارسول الله لا تعجل على . . إنى كنت امرأ غريباً فى قريش ، ولم أكن من أنفسها . . وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم . . فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم . . أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى » . ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإيمان . .

نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الجالسين معه . . وبريق الرحمة يتلألأ فى وجهه وقال لهم : أما إنه قد صدقكم . .

ومرت هنيهة من الصمت قطعها عمر بقوله : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق . .

كان من رأى عمر أن إفشاء الأسرار العسكرية خيانة لله ورسوله . وجزاؤها القتل . . وأن من يجرى اتصالا مع الأعداء . . فعقابه الإعدام : »

بيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل توبة حاطب بعد أن اعترف بذنبه . . وتذكر ماضيه فى الجهاد . . وأنه خاض معركة بدر . . وكانت المنايا تتخطف نفوس المشركين الجاحدين من حوله . . كما أنه خضب سيفه بدماء الكفار ، وتعرض للمهالك وهو يقتحم صفوف الأعداء . . وتذكر الرسول أيضاً موقف حاطب فى يوم بيعة الرضوان تحت الشجرة المباركة ، والملائكة تشهد المؤمنين وهم يبسطون أيديهم لمبايعة الرسول ، فنظر صلى الله عليه وسلم إلى عمر بن الخطاب وقال له :

« وما يدريك ياعمر . . لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر . . فقال اعملوا ما شئتم ، فإنى قد غفرت لكم » . . وهنا فاضت عينا عمر بالدموع . . كما نزلت الدموع من عينى حاطب حتى اخضلت لحيته . . ثم أنزل الله هذه الآيات الكريمة :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السـبيل » .

ومما يؤكد قبول توبة حاطب أن أحد خدمه جاء يوماً إلى الرسول يشتكى له من معاملة حاطب . . وقال : يارسول الله . ليدخلن حاطب النار ، فقال له الرسول . لا : إنه شهد بدراً والحديبية . .

وقد عاش حاطب بن أبى بلتعة يذرف دموع الندم . . ويستغفر الله على زلته ليلا ونهاراً . . حتى وافاه الأجل المحتوم فى سنة ثلاثين من الهجرة . . فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان . . وكان عمره خمسة وثلاثين عاماً . . وقد واجه الموت بنفس راضية . . لأنه كان يعلم أن الرسول صفح عنه . . رغم ما بدر منه في حق الله ورسوله والمؤمنين . .

عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ سَلَّامٍ

قرأ أوصاف النبي فى التوراة فلم يتردد
فى اعتناق الاسلام عندما قابله

فى جلسة نورانية تفتـــح فيها العقل والقلب لنداء الحق ووحى السماء ..أعلن الحبر الإسرائيلى عبد الله بن سلام أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتناقه للدين الحنيف ، وإيمانه بالله ورسوله. وكان هذا الحبر اسمه فى الجاهلية الحصين..فسماه النبي عبد الله ، وكان قد قرأ فى التوراة أوصاف النبي المنتظر ووعاها ذهنه ووجدانه .. فلما هاجر الرسول إلى المدينة ، وأشع نور الله فى بيوت الأنصار والمهاجرين ، وسارع أهل المدينة إلى الدخول فى دين الله.. ذهب عبد الله بن سلام إلى الرسول ليتبين حقيقة أمره ، ويطابق بين أوصافه التى يراها فيه عن كثب . وبين أوصاف النبي المنتظر التى قرأها فى التوراة ، وما كاد يجلس إلى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حتى وجد فيه صورة كاملة لما تضمنه الكتاب المقدس الذى بين يديه . فلم يتردد فى النطق بالشهادتين . وكانت لحظة إسلامه بداية لكشف نوايا اليهود تجاه نبي الإسلام ودينه الجديد . .

أراد عبد الله بن سلام ، وهو أعلم بما ينطوى عليه اليهود من غدر ومكر وكذب وخداع ، أن يبين للرسول جانباً من أخلاق اليهود ، وأنهم قوم يروغون من الحق ، ويجادلون بالباطل ، ويقاومون دعوة الرسل ، وينثال الخداع من صدورهم كذباً وبهتاناً على ألسنتهم . . فقال للنبي : يارسول الله .

إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي يبهتونى عندك ، فأرسل إليهم فسلهم عني : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟

فأرسل النبي إلى اليهود . . فحضر بعض منهم . . وكان عبد الله بن سلام مختبئا فى حجرة أخرى . . فسألهم الرسول : أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وعالمنا وابن عالمنا ، وأفقهنا وابن أفقهنا . . فقال لهم الرسول : أرأيتم إن أسلم تسلمون ؟ فصاحوا : أعاذه الله من ذلك ! وساد الصمت لحظات . . ثم كانت المفاجأة أن خرج عليهم عبد الله بن سلام . وقال بصوت عال : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » . . فنظر اليهود بعضهم فى وجوه بعض . . وقالوا : إنه شرنا وابن شرنا ، وجاهلنا وابن جاهلنا . . فقال عبد الله بن سلام : هذا الذى كنت أتخوف منهم.

أصبح موقف اليهود حقيقة ماثلة أمام الرسول . . لقد قالوا رأيين مختلفين فى دقائق معدودة . . فما كان مطابقاً لهواهم أيدوه ، وما كان مخالفاً لهواهم فندوه . . ولكن على الرغم مما قالوه عن عبد الله بن سلام بعد أن نطق أمامهم بالشهادتين ، فإنه لم يزدد إلا إيماناً ويقيناً وثباتاً على الإسلام . . وكان يجلس إلى رسول الله ، ويستمع إليه ، ويحفظ القرآن أولا فأولا ، ويتفقه فى الإسلام حتى أصبح من علمائه الذين يثق بهم المسلمون ، ويطمئنون إلى ما يفتى به . وأصدق شهادة على ذلك قالها معاذ بن جبل فى مرض موته . . فقد ذهب أحد أصحابه يعوده . . فلما رآه مشفيا على الموت بكى . . فقال له معاذ : ما يبكيك ؟ قال : على العلم الذى كنت أصيبه منك . . فقال : إذا أنامت فاطلب العلم عند أربعة : عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى ، وأبى الدرداء . .

وكان عبد الله بن سلام من ولد يوسف بن يعقوب . . وقد رأى رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصها على النبى ، فقال له النبى : أنت على الإسلام حتى تموت . . ويحكى عبد الله بن سلام هذه الرؤيا فيقول : رأيتنى فى روضة ، ووسط الروضة عمود من حديد ، أسفله

فى الأرض ، وأعلاه فى السماء ، وفى أعلاه عروة ، فقيل لى : ارقه . فقلت : لا أستطيع ، فجاءنى رجل من خلفى ودفعنى فأخذت بالعروة . . فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : تلك الروضة : الإسلام . وذلك العمود : عمود الإسلام ، وتلك العروة العروة الوثقى، وأنت على الإسلام حتى تموت . .

أما فضائل عبد الله بن سلام فكثيرة ، وقد تحدث عنها عدد من أجلاء الصحابة . . يقول معاذ بن جبل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن عبد الله بن سلام : إنه عاشر عشرة فى الجنة . . ويقول سعد بن أبى وقاص ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام . . ويقول بعض المفسرين فى قول الله عز وجل فى سورة الأحقاف : « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » هو عبد الله بن سلام . . وفى الصحيحين من حديث قيس بن عبادة قال : كنت جالساً فى مسجد المدينة فى ناس فيهم بعض أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء رجل فى وجهه أثر خشوع ، وكان ذلك الرجل عبد الله بن سلام فقال بعض القوم : هذا رجل من أهل الجنة . . فصلى ركعتين تجوز فيهما ، ثم خرج فاتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت وراءه وأخبرته بما قيل عنه . . فقال : لا ينبغى لأحد أن يقول ما لا يعلم . .

وكما كان عبد الله بن سلام خاشعاً فى صلاته ، عالماً متفقهاً فى الدين ، يحفظ القرآن ويحفظ التوراة، ويغض صوته فى مجلس الرسول، فإنه كان متواضعاً شديد التواضع . . فقد شوهد فى السوق يحمل حزمة من حطب . . فلما قيل له : ما يحملك على هذا . . وقد أغناك الله عن هذا ؟ قال : أردت أن أدفع الكبر . . فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يدخل الجنة من فى قلبه خردلة من كبر » .

وهكذا تجسدت مبادىء الإسلام وقيمه فى هذا الصحابى الجليل . فكان سلوكه مطابقاً لكتاب الله وسنة رسوله، إذ لم يشاهده أحد فى موقف

ريبة ، أو موضع شبهة . . بل إنه كان بتساميه عن الريب ، ودرئه للشبهات . . يمثل قمة السلوك الإسلامى الرفيع . . وقد تجلى حرصه على وحدة المسلمين ، حين شبت الفتنة ، وحوصر بيت أمير المؤمنين عثمان بن عفان . . وكان الموقف يتطلب رجلا حكيماً يقوم بإخماد الفتنةقبل أن يستعر أوارها..وفى محاولة لتحقيق هذا الهدف ذهب عبد الله بن سلام إلى بيت الخليفة . . ولما رآه أمير المؤمنين سأله : ما جاء بلك ياعبد الله بن سلام ؟ قال : جئت لأثبت حتى أستشهد أو يفتح الله لك . . ولا أرى هؤلاء القوم إلا قاتليك . . فإن يقتلوك فذاك خير لك وشر لهم . .

فقال عثمان : أسألك بالذى لى عليك من الحق إلا خرجت إليهم . . لعل الله يدفع بك شراً . . فخرج عبد الله بن سلام ، فظن دعاة الفتنة أنه جاء بنبأ يسرهم ، فإذا به يقف فيهم خطيباً ، ويقول لهم بعد خطبة طويلة: لا تعجلوا على هذا الشيخ بالقتل..فوالله لايقتله رجل منكم إلا لقى الله يوم القيامة ويده مقطوعة مشلولة . . واعلموا أنه ليس لوالد على ولد حق ، إلا ولهذا الشيخ عليكم مثله . .

فصاح دعاة الفتنة . . كذبت اليهود . . كذبت اليهود . . فقال : كذبتم والله ، وأنتم آثمون ، ما أنا بيهودى،وإنى لأحد المسلمين..يعلم الله بذلك ورسوله والمؤمنون . وقد أنزل الله فى القرآن : « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

وتمضى السنون بعبد الله بن سلام ، ويدلف نحو الموت فى شيخوخة تعييه عن الحركة والنشاط . فيقول لسلمان الفارسى ، وكانا صديقين حميمين: من مات منا قبل الآخر فليقرأ عليه .. ويشاء الله أن ينتقل سلمان إلى الدار الآخرة ، ويراه عبد الله بن سلام فى المنام فيسأله: أى الأعمال أفضل عند الله ؟ فيقول سلمان : عليك بالتوكل . فقد وجدت فيه شيئاً عجيبا . .

وعندما حلت سنة ثلاث وأربعين هجرية ، وكان معاوية بيده مقاليد أمور المسلمين ، لقى عبد الله بن سلام ربه راضيا مرضيا ، بعد حياة مضمخة بعطر التقوى . . مشعشعة بنور الإيمان .

سعيد بن العاص

السخي الجواد . كاتب القرآن ومعلمه

منذ طفولته الغضة الباكرة ومخـايل النجابة تلوح عليه ساطعة وهاجة . . وأمارات العبقرية . . تومىء إلى ما ينتظره من غد مونق ومستقبل مشرق . . فقد كان ذكاؤه أسبق من عمره .. وطموحه أوسع من حياته . . وفكره أنضج من لداته . .

وكانت خطاه على طريق الإسلام قد بدأت بعد مفارقته المهد . . رغم أن والده مات كافرا يوم بدر . . قتله الإمام على بن أبي طالب رضى الله عنه . . ورباه عثمان بن عفان ذو النورين — فأدبه صغيرا بأدب الإسلام . وسقاه من تعاليم الدين الحنيف ما جعله ينمو ويزدهر على حب الله ورسوله . . وكانت فطرة سعيد بن العاص نقية صافية ، فترعرعت فيها مثل الإسلام وأينعت قيمه : سلوكا شريفا .. وشبابا عفيفا، ومثالية رفيعة ، وشمائل زكية ظاهرة . .

ومع أن حبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم انتقل إلى الرفيق الأعلى وسعيد ابن العاص عمره تسع سنين .. فإن سعيدا حظى برؤية الرسول ، وشرف بحضور مجلسه ، وسمع منه الحديث الشريف ، « خياركم فى الإسلام خياركم فى الجاهلية » . . وأكثر من هذا حظى سعيد بحب الرسول له ، وتقديره إياه ولا أدل على ذلك مما قاله ابن عمر رضى الله عنهما أن امرأة جاءت إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ببرد . فقالت : إنى نذرت أن أعطى هذا الثوب أكرم العرب . وكان سعيد بن العاص فى مجلس الرسول . . فقال لها النبى : أعطه هذا الغلام . وأشار إلى سعيد . ولذلك سميت الثياب السعيدية . وأنشد الفرزدق قوله فيه :

ترى الغر الجحاجح من قريش إذا ما الخطب فى الحدثان حالا
قياما ينظـــرون إلى سعيد كأنهمو يــرون به هــلالا

وقد ولد سعيد بن العاص فى أعرق بيت من بيوت قريش . . وكان جده يقال له ذو التاج . . لأنه كان إذا لبس العمامة لا يلبسها أحد يومئذ إعظاما له . كما كان سعيد أشبه الناس لحية برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اختاره عثمان ذو النورين رضى الله عنه ضمن الاثنى عشر رجلا الذين كانوا يكتبون القرآن ويعلمونه . ومنهم أبى بن كعب وزيد بن ثابت . أما عن جوده وعطائه وسخائه ونداه فأمر يجل عن الوصف . بل يعيا به البيان .. فقد كان كثيرا ما يجمع أصحابه كل يوم جمعة ، ويقيم لهم الولائم ، ويهدى إليهم الحلل ، كما كان يرسل إلى بيوتهم بالهدايا والتحف والبر الكثير . . وإذا نمى إلى علمه أن ناسا أصابتهم الفاقة أو أناخ عليهم الدهر بكلكله . . يقوم بوضع نقود داخل صرر ، ويوزعها عليهم فى أثناء وجودهم بالمسجد .. وبذلك يرفع عنهم عبء الفقر ، ويكفيهم مذلة الدين والسؤال . .

وبلغ به السخاء حدا أن دفع ثمن دار حتى لا يبيعها صاحبها ليسدد دينا عليه . . ولهذه الواقعة حكاية طريفة . . فقد كان سعيد بن العاص يسير يوما فى أحد شوارع المدينة ، فإذا به يشعر بالعطش . . فطلب ماء ليروى ظمأه ، فخرج له رجل وسقاه حتى ارتوى . . ومرت على ذلك فترة من الزمن . ثم علم سعيد أن هذا الرجل يعرض داره للبيع . . فسأل : لماذا يبيع داره؟فقالوا : لأنه مدين بأربعة آلاف دينار . . فبعث إلى صاحب الدين وقال له : المبلغ دين على..وأرسل إلى صاحب الدار وقال له : قضينا عنك الدين فاستمتع بدارك . . وكان ثمن شربة الماء التى شربها سعيد بن العاص أربعة آلاف دينار . .

ومع ما فى هذه الواقعة من مغالاة فى الجود ، ومبالغة فى الكرم ، فإن حياة سعيد بن العاص كانت كالمزنة الوطفاء، تخصب حيوات الآخرين، وتحيل الجو النفسى للمكروبين إلى جو مفعم بالنسائم الرقيقة والعبير الفواح .. بل إنه كان يقدم من الهبات والعطايا والمنح والجوائز مالا يتصوره إنسان مغرق فى الخيال . أو موغل فى التخيل . . تعالوا معا نستعرض هذه الواقعة . . ونضعها فى موازين الكرم . . لنتعرف على آى نفس هذه التى جاوزت كل المقاييس والمعايير والأوزان . .

كان رجل من القراء الذين يجالسون سعيد بن العاص قد أصابته فاقة شديدة ، فقالت له امرأته : إن أميرنا هذا يوصف بالكرم . فلو ذكرت له حالك فلعله يسمح لك بشىء . . فقال لها : ويحك : لا تخلقى وجهى . . فألحت عليه حتى ذهب إلى سعيد بن العاص وجلس إليه ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة . . ولما انصرف الناس مكث الرجل جالسا فى مكانه . فقال له سعيد : أظن جلوسك لحاجة ؟ فسكت الرجل . فقال سعيد لغلمانه . . انصرفوا . . ثم قال له : لم يبق غيرى وغيرك . . وانتظر من الرجل أن يتكلم ، ولكنه ظل صامتا . . فأطفأ سعيد المصباح ثم قال له : رحمك الله . لست ترى وجهى . . فانظر حاجتك . فقال الرجل : أصلح الله الأمير . أصابتنا فاقة وحاجة فأحببت ذكرها لك فاستحييت . فقال له سعيد : إذا أصبحت فالق وكيلى فلانا . .

انصرف الرجل شاكرا . وفى الصباح ذهب إلى وكيل سعيد . فابتدره الوكيل قائلا : إن الأمير قد أمر لك بشىء فأت بمن يحمله معك . . فقال الرجل : ما عندى من يحمله ، ثم رجع إلى امرأته ووجه لها لوما شديدا وقال لها : حملتنى على بذل وجهى للأمير . فقد أمر لى بشىء يحتاج إلى من يحمله . وما أراه أمر لى إلا بدقيق أو طعام ، ولو كان مالا لما احتاج إلى من يحمله . ولأعطانيه إياه ، فقالت له امرأته : مهما أعطاك فإنه شىء يقوتنا فخذه .

رجع الرجل مرة ثانية إلى الوكيل فوجد أمامه مفاجأة . . إذ قال له الوكيل : إنى أخبرت الأمير أنه ليس عندك من يحمل عطاءه لك، فأمر بأن

يذهب معك هؤلاء الغلمان الثلاثة ـ وقدم له ثلاثة غلمان من خدم الأمير ـ يحملون ما أمر به الأمير لك .. كان كل من الغلمان الثلاثة يحمل فوق رأسه عشرة آلاف درهم . ولما وصلوا إلى منزل الرجل . ووضعوا مامعهم . . طلب إليهم أن ينصرفوا . فقالوا : إن الأمير قد أهدانا لك . . فإنه ما بعث مع خدم هدية إلى أحد إلا كان الخادم الذى يحملها من جملتها .

وكما كان سعيد بن العاص جوادا معطاء ، فإنه كان يوصى أولاده بأن يسيروا على نهجه فى الجود والعطاء . كان يقول لكل منهم : أجر المعروف ابتداء من غير مسألة . . فإذا أتاك الرجل تكاد ترى دمه فى وجهه .. أو جاءك مخاطرا لا يدرى أتعطيه أم تمنعه . فوالله لو خرجت له عن جميع مالك ما كافأته..وكان يقول : لجليسى على ثلاثة حقوق:إذا دنا رحبت به . وإذا جلس أوسعت له . وإذا حدث أقبلت عليه . ومن وصاياه لأولاده أيضا : يا بنى لا تمازح الشريف فيحتد عليك . ولا الدنىء فيجترىء عليك . إنى لا أستحى من الرفق فى موطنين والتأنى عندهما : مخاطبتى جاهلا أو سفيها . وسؤالى حاجة لنفسى . . ومن رأيه فى المال أن الإنسان يجب أن يسعد به . . فهو لا يدرى ماذا تفعل به ورثته . . ولذلك كان يقول : من رزقه الله رزقا حسنا ، فليكن أسعد الناس به . . لأنه سوف يتركه لأحد رجلين : إما مصلح فيسعد بما جمعت له وتخيب أنت . . وإما مفسد فلا يبقى له شىء . .

وقد تولى سعيد بن العاص ولاية الكوفة سنة أربع وثلاثين . ولكن أهلها كتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولى أبا موسى الأشعرى . فولاه مكان سعيد ، وظل واليا عليها إلى أن استشهد عثمان رضى الله عنه . . وحينئذ لزم سعيد بيته . . فلم يشهد حروب الجمل وصفين . . ولما استقر الأمر لمعاوية ولاه المدينة ، ثم عزله وولاها مروان . ومن إنجازات سعيد بن العاص أنه افتتح طبرستان وجرجان ، ولما نقض العهد أهل أذربيجان غزاهم وفتحها .

وبهذه الشمائل الحميدة ، والأخلاق الفريدة ، عاش سعيد بن العاص ثمانيا وخمسين سنة ، وقد أنجب عشرة من الولد : ذكورا وإناثا . . كانوا

نماذج كريمة فى الشهامة والفروسية والمروءة والسخاء . . فقد صقلهم بتعاليم الإسلام وآدابه . . وكان دائما يزودهم بما يجعل منهم رجالا ذوى فضل وفضائل . . وكان ميراثه لهم رصيدا دينيا وإنسانيا يثرى نفوسهم ، ويجمل حياتهم بالسمو والنبل . . ولما حضرته الوفاة جمعهم ليلقى عليهم آخر وصاياه ، حتى يكونوا صلة كريمة له .. ومن بين ما قال لهم : لا يفقدن أصحابى غير وجهى . وصلوهم بما كنت أصلهم به . وأجروا عليهم ما كنت أجرى عليهم . واكفوهم مئونة الطلب . فإن الرجل إذا طلب الحاجة اضطربت أركانه ، وارتعدت فرائصه ، مخافة أن يرد . فوالله لرجل يتململ على فراشه . . يراكم موضعا لحاجته . . أعظم منه عليكم مما تعطونه . . ثم طلب إليهم أن يوفوا ما عليه من الدين والوعود ، وألا يزوجوا أخواتهم إلا من الأكفاء . . وأن يسودوا أكبرهم لكى يحترمهم الناس .

ولما مات دفنوه بالبقيع ، وجاء معاوية ، وكان خليفة المسلمين ، ليعزى أولاده ، فسألهم : هل ترك من دين عليه ؟ فقالوا : نعم. ثلثمائة ألف درهم. فقال : هى على . . فرفض أولاده ، وقالوا : إنه أوصانا ألا نقضى دينه إلا من ثمن أراضيه . . فاشترى منهم معاوية أراضى بمبلغ الدين . . ثم راح عمرو بن سعيد يسدد ما على أبيه . حتى أعطى لكل ذى حق حقه . .

عروة بن الزبير بن العوام

بتروا ساقه وهو قائم يصلي
فشغلته الصلاة عن آلام البتر

حينما تقف مواكب التاريخ تتأمل عظمـــة إنسان ، وتتملى سؤدده ومجادته. . فإنها تقف وتطيل الوقوف أمام هذا البطل العظيم .. لأن جوانب العظمة فيه تحتاج إلى تدبر وإمعان . . فهو أينما حدقت بفكرك فى آفاق حياته . . تجدها آفاقا تتجاوز تخوم الإنسانية . . حتى إن المتأمل الفاحص ليستظهر فيها من المعانى ما لاتدركه أجنحة الخيال المحلق.. وحسبه عراقة فى الأصل أن أباه هو الزبير بن العوام حوارى رسول الله وابن عمته . . وأن أمه هى أسماء بنت أبى بكر الصديق . . وأن خالته هى عائشة أم المؤمنين . . وحسبه سموا وجلالا فى الإسلام أنه ولد فى بيت يتلألأ بالدين الحنيف . وتعطره السماء بعبق تعاليمها السمحة ، وتتهادى فيه ملائكة الرحمة.. تصغى إلى ما يتلى فيه من قرآن ، وما يتردد فى جنباته من أدعية ، وما يتسم أديمه بمواقع سجود المصلين فيه ، وما تحظى غرفه بمجالس الرسول حين كان يزور عمته صفية . . ويجلس بعض الوقت . . يلقى إلى أهل البيت آخر ما نزل عليه من وحى السماء . .

فى هذا المناخ الطاهر الباهر نشأ عروة وإخوته الستة نشأة مباركة زكية . يترددون آنا على بيت جدهم أبى بكر ، وآنا على بيت خالتهم عائشة . . ويستمعون ويعون من علوم الدين ما تتسع له قلوبهم الشريفة،وصدورهم

النظيفة . . حتى صار كل منهم خزانة علم ومعرفة ، يؤمهم من يجد فى صدره حاجة لفهم ما أشكل فهمه،وأعضل تفسيره،واستغلق تأويله من أمور الدين..

وكان عروة فقيها ، عالما حافظا ، ثبتا حجة ، عالما بالسير ، كثير الحديث . كما كان من فقهاء المدينة المعدودين ، وهو أول من وصف المغازى ، ولم يدخل فى شىء من الفتن . . إذ كان متجها بكليته إلى العلم والعبادة.. يحيل القرآن والسنة إلى سلوك عملى وتطبيق واقعى . . فهو يقرأ كل يوم ربع القرآن فى المصحف ، ويقوم به فى الليل . . وعلى هذا يمكن أن نقول : إنه كان يقرأ القرآن مرتين كل أربعة أيام:مرة فى المصحف ، ومرة فى الصلاة. . وقد أنار القرآن بصيرته ، وأضاء سريرته، وصقل قلبه ، وجلا عقله ، وألهم ذهنه . فكان فى العلم كالكوكب الدرى . . يهدى سناه الحائرين . . ويرشد ضوؤه السائرين . . وكان إذا جلس بجوار الكعبة اجتمع إليه الناس وأحاطوه بأسئلتهم . . وهو يجيبهم فى رزانة وتثبت وأناة . . . مثله فى ذلك مثل الساقى الذى يطوف على الهيم الظماء بالماء العذب .. فيروى ظمأهم ، وينقع غلتهم ، ويقدم إليهم أغلى ما يطمحون إليه .

وهكذا كان عروة بن الزبير فى مجلس علمه يبسط مائدة المعرفة لمن يريد أن يتضلع . . ويقدم أطايب العلوم لمن يريد أن يتزود . . ويرتقى بعقل الإنسان إلى درج الوعى والفهم والإدراك السليم . . أما عن جوده وسخائه ومعروفه فقد كان معطاء يبذل كل ما فى يده ويستقل البذل ، ويعطى كل ما يملك ويستصغر العطاء ، وتفيض يمناه بالبر ، ويتهمها بالجدب ، وكان له بستان حافل بأشجار النخيل . إذا جاء موسم الرطب ، يفتح ثغرة فى سوره ليدخل منها الناس ويأخذوا ما شاءوا من الرطب الجنى ، ويحملوا لأولادهم أيضا . وكان السرور يتلألأ فى محياه . . وهو يرى الناس فى بستانه يأكلون وينعمون . . وكان كلما دخل بستانه يقرأ الآية الكريمة: «ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » ..

وكما يمتحن الله عباده يمحص الصابر من الجازع . . فقد امتحن عبده

عروة بن الزبير . . فى نفسه وولده . . وحصل ابن الزبير على أعلى الدرجات عند الله . وأخذ شهادة ما فتىء يمسكها التاريخ مزهوا فخورا . . لأنها تعبر عن إيمان راسخ وعقيدة ثابتة . . فتعالوا نستعرض معاً هذه الواقعة ..لندخل فى خشوع وإجلال إلى هذه النفس المطمئنة بربها . . وإلى هذا المؤمن الصابر الشاكر الذى استغرقه حب الله.. حتى إنه كان إذا دخل فى الصلاة يذوب وجدا فى الله وينسى كل شىء حوله . . بل لا يحس بأى ألم فى جسده . .

فقد خرج يوما فى طريقه من المدينة إلى دمشق لزيارة الوليد بن عبد الملك خليفة المسلمين . . وكان برفقته ابنه محمد ، وهو أحب أولاده إليه . . وفى الطريق أصيب بداء الآكلة فى رجله ، وهو داء إذا أصاب عضوا فى الجسد يظل يتآكل ، ولا علاج له إلا البتر . وقد استغرقت الرحلة بضعة أيام كان الداء خلالها تمكن من رجله واستشرى فيها وتفاقم بلاؤه ، واستولى على نصف ساقه . . ولما بلغ دار الخلافة فى دمشق ودخل على الوليد بن عبد الملك، جمع له الوليد الأطباء المتخصصين فى علاج هذا الداء ، فقاموا بفحص ساق عروة بن الزبير فحصا دقيقا عساهم أن يجدوا لها علاجا غير البتر والاستئصال . . ولكنهم أجمعوا على قطع الساق فورا ، وإلا تسلل الداء إلى فخذه ، ثم إلى باقى الجسد . .

وعلم عروة بن الزبير بما أجمع عليه الأطباء، فلم يبد الجزع على وجهه ، ولا الحزن على ملامحه . . وواجه المحنة بنفس راضية وقلب صبور . . وعندما أخذوه لبتر ساقه قالوا له : ألا نسقيك مرقدا.أى شرابا أشبه بالمخدر..حتى يغيب عقلك . . فلا تحس بالألم ونحن ننشر ساقك بالمنشار ، فابتسم عروة ابتسامة راضية تعبر عن صدق إيمانه وثباته أمام ضربات القدر . وقال لهم : لا . ما ظننت أن أحدا يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لا يعرف ربه عز وجل . . ولكن إن كنتم لابد فاعلين ، فافعلوا ذلك وأنا فى الصلاة ، فإنى لا أحس بذلك ، ولا أشعر به . .

وما إن قام إلى الصلاة واستغرق فيها كدأبه حتى نشر الأطباء ساقه فلم يتألم ولم يختلج شىء فى جسده.ولم يتحرك عضو من أعضائه..ثم أمسك بعد الصلاة بالساق

المبتورة وقلبها بين يديه . وقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أمش بها إلى سوء أو إلى معصية قط . .

وحدث فى تلك الليلة التى قطعت فيها ساقه أن دخل ابنه حظيرة الدواب ، فرفسته فرس رفسة قاتلة فمات فى الحال . .واجتمعت على عروة مصيبتان فى ليلة واحدة: بتر ساقه وموت أحب أولاده إليه.. فكيف استقبل المصيبتين ، وواجه المحنتين ، وبماذا خرج من امتحان الله له فى نفسه وولده ؟ .

كان فى إيمانه وصبره كالطود الشامخ العظيم . . لا تحركه الرياح ، ولا تهزه الأعاصير ، ولا تؤثر فيه الأنواء . . فقد جاءه الوليد بن عبد الملك يعزيه فى رجله وفى ابنه الذى قتل برفسة فرس . . فقال عروة : اللهم لك الحمد. كان لى أطراف أربعة فأخذت واحدا وأبقيت ثلاثة.. وكان لى بنون سبعة . . فأخذت واحدا وأبقيت ستة . . فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت . ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت . فلك الحمد يارب .

بهذه الكلمات الشاكرة المثنية على الله عز وجل كان عروة بن الزبير يستقبل معزيه ، حتى إنهم كانوا يعجبون من صبره ، ويرون فيه نموذجا بشريا لا يتكرر . . ويقال إنه لم يترك قيام الليل مرة واحدة فى حياته إلا فى تلك الليلة التى بترت فيها ساقه . . وكان ينشد هذه الأبيات لمن جاءه زائرا :

والأبيات لمعن بن أوس :

لعمرك ما أهويت كفى لريبة	ولا حملتنى نحو فاحشة رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها	ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى
ولا مؤثر نفسى على ذى قرابة	وأوثر ضيفى ما أقام على أهلى
وأعلم أنى لم تصبنى مصيبـــة	من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلى

وعلى أساس متين من مبادىء الإسلام وقيمه ربى عروة أولاده ، أنبتهم نباتا حسنا ، وكان ينمى فيهم نوازع الخير ، ويحضهم على .ستزادة من العلم ، ويقول لهم : يابنى تعلموا . فإنكم إن تكونوا صغار م عسى أن تكونوا كبارهم . واسوأتاه . ماذا أقبح من شيخ جاهل ! ! ..

كما كان يقول لهم : إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات . . وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات . . فإن الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها . .

ولقد عاش عروة بن الزبير إحدى وسبعين سنة حمل خلالها لواء العلم .. وجسد مبادىء الإسلام فى سلوكه النورانى . . فقد ولد فى السنة الثالثة والعشرين من الهجرة ، وتوفى فى السنة الرابعة والتسعين ، وأسند عن أبيه حوارى رسول الله وعن على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعيد ابن زيد وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأبى أيوب الأنصارى وأسامة ابن زيد وأبى هريرة وابن عباس والسيدة عائشة وخلق كثيرين يطول إحصاؤهم.

أبو غياث المكي

رفض أن ينفق من مال وجده فى الطريق
فأغناه الله بالمال الحلال بعد الفقر

علمه

الإسلام — كما علم جميع المسلمين — أن المـال الحرام يأكل البركة من العمر ، والصحة من البدن ، والطمأنينة من القلب . . فمن أكل حراما ، سواء كان ربا أو سرقة أو رشوة ، تعرض لغضب الله فى الدنيا بأن يصاب بعلل النفس ، وآفات الجسم ، وضنك العيش ، وتعرض لغضب الله فى الآخرة بأن تأكل النار لحمه الذى نبت من حرام . . وهكذا كان أبو غياث المكى يجسد هذا المبدأ الإسلامى فى سلوكه ، ويقيس كل تصرف له بمقاييس الشريعة . . وقد عاش فى فقر مدقع خمسين سنة يعول أسرة كبيرة لا تجد ما تنفقه . . بل إنها تقتات بكسيرات من الخبز الجاف . . وبعض التمر إن وجد . . ومع هذا فإنها لا تتبرم بالفقر ، ولا تتململ من الحرمان . بل تشكر الله وتحمده على كسيرات الخبز والتـمـر . .

ثم جاء يوم امتحن الله فيه أبا غياث امتحانا إيمانيا . . فماذا كان من هذا المؤمن الصابر الشاكر أمام امتحان الله عز وجل ؟ . . كان ذلك فى موسم الحج ، وأبو غياث يؤدى المناسك فى إخبات وتبتل وخشوع . وبينما هو سائر فى الطريق إذا به يعثر على هميان ممتلىء بالدنانير (الهميان بكسر الهاء وسكون الميم كيس توضع فيه النقود) فأخذه وعاد إلى بيته وحفر له حفرة وخبأه فيها . ولكنه لم يفتحه ولم يمد يده إليه ليأخذ منه شيئاً ، ورغم أنه بات

ليلتها هو وأسرته على الطوى . . وكان يستعرض فى ذهنه طوال الليل كل كل ما ورد فى الكتاب والسنة عن أكل المال الحرام وعقابه فى الدنيا والآخرة فيقشعر بدنه خوفا من الله ، ولكنه تذكر حديثا لرسول الله صلى الله عليه وسلم رواه عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر وعلى رضى الله عنهما : « إذا أتاكما الله بهدية بلا مسألة فاقبلاها ولا تردداها .. فتردداها على الله عز وجل .

تذكر أبو غياث المكي هذا الحديث ، فقال : إن هذه هدية من الله . والهدية لمن حضر . ولكنه تأنى فى فتح الهميان ، فربما يظهر له صاحب يطلبه.. وحينئذ لا يكون من حقه الاستيلاء على هذا المال الذي عثر عليه فى الطريق . لأنه خرج عن مفهوم الهدية ، ولما خرج من بيته فى اليوم التالى سمع رجلا خراسانيا ينادى : يامعاشر الحاج .من وجد هميانا فيه ألف دينار فرده على أضعف الله له الثواب . فاقترب أبو غياث المكى من الرجل الخراسانى وقال له : ياخراسانى . بلدنا فقير أهله شديد حاله . أيامه معدودة . ومواسمه منتظرة. لعله يقع بيد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله له حلالا يأخذه ويرده عليك ؟ فسأله الرجل الخراسانى : كم يريد ؟ فقال أبو غياث : العشر. أعنى مائة دينار. فرفض الرجل الخراسانى هذا العرض وقال : لا أفعل ولكنا نحيله على الله عز وجل . ثم افترقا .

كان محمد بن جرير الطبرى حاضرا هذه الواقعة . وكانت سنه فى ذلك الوقت خمس عشرة سنة . وكان شابا نابها لا تمر به الأحداث مرورا عابرا .. وإنما كان يتقصى الحدث حتى يتعرف إلى كل أخباره وأسراره . وهو صاحب المؤلفات العظيمة التى يعتز بها تراثنا . . ومنها تاريخ الرسل والملوك ، وجامع البيان عن تأويل آى القرآن ، وبسط القول فى أحكام شرائع الإسلام ، ومصنفات أخرى تحفل بها المكتبة الإسلامية .

أدرك الطبرى بصدق فراسته ـ رغم حداثة سنه ـ أن أبا غياث المكى هو الذى عثر على هميان الرجل الخراسانى . . فقال فى نفسه : سأتبع هذا الرجل حتى أتبين أهو الذى عثر عليه حقيقة أم لا . وبالفعل سار وراء

أبي غياث حتى وصل الرجل إلى داره فوجدها الطبرى تقع فى مكان منحدر ، وبناؤها قديم متداع ، وبابها ومدخلها ينفران من دخولها . . وإزاء إصرار الطبرى على استطلاع جلية الأمر وقف قريبا من الباب . فسمع أبا غياث ينادى زوجته :يالبابة . فقالت له : لبيك يا أبا غياث . فقال : وجدت صاحب الهميان ينادى عليه .. وحكى لها ما دار بينه وبين الرجل الخراسانى .. ثم قال لها : أى شيء نعمل ؟ ولابد لى من رده . .

وهنا ظهر الغضب على لبابة وقالت له : إننا نقاسى الفقر معك منذ خمسين سنة . . ولك أربع بنات وأختان وأنا وأمك وأنت تاسع القوم . . وكلنا نعيش بثوب واحد . نصلى فيه واحدة بعد الأخرى . . ولم نطعم فى حياتنا فاكهة أو لحما قط . ارجع إلى صاحب الهميان وكرر عليه أن يعطيك العشر . فإن لم يقبل فاطلب منه أن يعطيك عشر العشر. فإن أصر على عدم القبول فاطلب منه أن يعطيك عشر عشر العشر . . ودينار واحد خير من لا شيء .

كان الطبرى يقوم بدور المخبر الصحفى الذى انفرد بخبر مهم ويقوم بتغطية كاملة له . فبالرغم من أنه كان مشغولا بتأليف أحد كتبه فإنه تابع ما يجرى بين الرجل الخراسانى وأبى غياث المكى . وبخاصة أن هذا الموضوع اشتركت فيه أطراف أخرى هى:لبابة زوجة أبى غياث وباقى أسرته الفقيرة المعدمة . . ففى صبيحة اليوم التالى ذهب إلى المكان الذى ينادى فيه الرجل الخراسانى نفس النداء الذى يكرره كل يوم . . ويسمع الطبرى هذا الحوار الذى يدور بين الرجلين :

أبو غياث : لقد قلت لك أمس أعط لمن وجد هميانك العشر فرفضت . واليوم أقول لك : أعطه عشر العشر ، أى عشرة دنانير . .

الخراسانى : لن أعطيه شيئاً . وسأحيله على الله عز وجل .

أبو غياث : هل لك أن تعطيه دينارا . . أى عشر عشر العشر . . يشترى بنصفه قربة ماء يسقى بها المقيمين فى مكة بالأجر . ويشترى بنصفه شاة يحلبها . ويطعم من لبنها عياله .

الخراسانى : لن أفعل . وسأحيله على الله عز وجل . . .

أبو غياث .. وقد جذب الرجل الخراسانى من ثوبه : تعال معى لتأخذ هميانك . ودعنى أنم الليل . وأرحنى من محاسبتك . .

انطلق الرجلان وبجوارهما الطبرى ليشهد آخر خطوة فى هذا الخبر الذى شغل باله . حتى وصلوا – ثلاثتهم – إلى دار أبى غياث . ثم دخل أبو غياث إلى أهله ليعلمهم بقدوم صاحب الهميـــان . . حتى يستتروا فى ناحيـــة من الدار . . وما لبث أن خرج وأذن للرجل الخراسانى بالدخول . . فدخل الدار والطبرانى معه . . وراح أبو غياث ينبش تحت إحـــدى درجات السـلم حتى أخرج الهميـــان وسلمه للرجل الخراسانى وقال له : هـل هذا هميانك ؟ فأجابه : نعم..ثم فتحه وصب الدنانير فى حجره وعدها فوجدها ألف دينار ، فقال : إنها لم تنقص شيئاً . . ثم ردها إلى الهميان مرة ثانية . . وحمل الهميان على كتفه وهم بالخروج . ولما وصل إلى الباب رجع وقال لأبى غياث : أيها الشيخ . سأحكى لك قصة هذه الدنانير . . إن أبى رحمه الله ترك لى ثلاثة آلاف دينار . وأوصانى قبل أن يموت بأن أوزع ثلثها على أحق الناس . . على أن أبيع رحلى وأجعله نفقة لحجى ، ففعلت ذلك ، وأخرجت ثلثها ووضعته فى هذا الهميان . وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلى هاهنا رجلا أحق به منك . خذه بارك الله لك فيه . ثم سلم الهميان إلى أبى غياث وانصرف . .

ويقول محمد ابن جرير الطبرى . . إن هذه الواقعة حدثت فى سنة أربعين ومائتين . . وقد شهدتها وتابعتها خطوة خطوة . . فبعد أن خـــرج الخراسانى وأردت الخروج وراءه استوقفنى أبو غياث وقال لى : اجلس . فقد رأيتك تتبعنى من أول يوم ، وعرفت خبرنا بالأمس واليوم . . ثم نادى : يا لبابة . . وصاح ببناته وأختيه وأمه . . وقال لهن :اقعدن . فقعدن وقعدت معهم . . فصرنا عشرة . . فحل الهميان . وقال : ابسطوا حجوركم . . فبسطت حجرى . . ولكن لم تكن قمصانهن لها حجور .. فمددن أيديهن ، وأقبل يعد دينارا ديناراحتى إذا بلغ العاشر أعطاه لى.وظل يقسم الدنانير فنالنى

منها مائة دينار . . فداخلني من سرور غناهم أشد مما داخلني من سرور حصولى على المائة دينار .

ولما أردت الخروج قال لى أبو غياث : يا فتى . إنك لمبارك . وما رأيت هذا المال قط . ولا أملته . وإنى لأنصحك أنه حلال فاحتفظ به . واعلم أنى كنت أقوم فأصـــلى فى هذا القميص الخلق . ثم أنزعه فيصلين فيه واحـــدة واحدة . ثم أسعى إلى رزقى ما بين الظهر والعصر . وأعود آخر النهار بما فتح الله على به من تمر وكسيرات وبقول منبوذة .. ثم أنزع قميصى فيتداولنه فى الصلاة واحدة بعد الأخرى حتى يفرغن من صلاة المغرب وصلاة العشاء . فنفعهن الله بما أخذن . ونفعنى وإياك بما أخذنا . ورحم الله صاحب المال فى قبره . وأضعف ثواب الحامل للمال ، وشكرا له .

ويحكى الطبرى أنه انصرف بعد ذلك . وأنفق المائة دينار خلال سنتين فى شراء احتياجاته من الطعام والشراب والورق اللازم للكتابة . . ثم ذهب إلى زيارة هذه الأسرة فى سنة ست وخمسين . فعرف أن أبا غياث المكى قد توفى منذ أشهر ، وأن بناته قد تزوجن ملوكا . وأن أختيه وأمهن قد توفين كذلك .

وهكذا رفع الإسلام بمبادئه وقيمه من شأن أسرة مؤمنة . . كانت تعيش فى حضيض الفقر ، وبؤرة الفاقة . . لا تكاد تجد ما تمسك به رمقها . وتتداول قميصا واحدا فى الصلاة . فأصبحت تأخذ بزمام الدنيا إلى جانب ما أعده الله لها من نعيم مقيم فى الآخرة ، وحياة طيبة لا تزول ولا تحول .

زيد بن الخطاب

أسلم واستشهد قبل أخيه عمر
ومات والراية مرفوعة فى يده

اعتنق

الإسلام مع الفئة المؤمنة الأولى التى مسحت يد السماء على قلوبها بنورها وسناها .. مع بزوغ فجر الدين الحنيف.. ودخل دار أرقم بن الأرقم ليتلقى من الرسول التعاليم الإلهية أولا فأولا . . ولهذا فإنه من القلة المؤمنة التى بكرت بدخول الإسلام وكانت لا تزيد على عدد أصابع اليدين . . وأصبحت الآن مليار مسلم . . وكان زيد أسن من أخيه عمر بن الخطاب . . وإنصافاً للتاريخ فإن الانقلاب الذى حدث فى حياة عمر من الجاهلية إلى الإسلام لم يكن فجاءة كما يحسب الكثير من الناس، وإنما كان ثمة تمهيد إلهى لأن يعتنق الإسلام عن حب وثقة. فقد كان عمر يذهب إلى الكعبة وهو جاهلى ويدخل رأسه بين أستارها ليستمع إلى الرسول وهو يتلو القرآن . . وكان يحس بحلاوة القرآن تهز نفسه هزاً عنيفاً . . ولكنه كان يصارع نفسه .. إلى أن شاء الله أن يعز به الإسلام تلبيه لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ويبدأ حياة جديدة مع أسرته المسلمة . أسرة الخطاب التى كان لها فى المجتمع الإسلامى شأن وأى شأن . .

أما زيد أخوه فقد مس الاسلام شغاف قلبه وتألق فى وجدانه منذ أول لحظة دعاه فيها الرسول إلى الدين الحنيف .. أحسن زيد أن عبادة الأصنام عمل لايليق بعاقل أن يأتيه. . وأن ما يفعله العرب من خطايا وكبائر . .

كوأد البنات . . وسطو القبائل بعضها على بعض . . وخطف الصبية وبيعها فى سوق الرقيق . . ومعاقرة الخمر .. إلى آخـــر ما كان فى الجاهلية من أمور..تتنافىمع الخلق الفاضل وكرامة الإنسان . . فما كاد يسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم المبادىء الإلهية التى تتنزل عليه قرآنا حتى سارع بنبذ دين آبائه وأجداده ، وأقبل على الإسلام بقلب المحب الصادق المشوق ، وكان لا يفارق مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دار أرقم ابن الأرقم ، إلا ساعات قليلة لممارسة تجارته وقضاء حوائج أهله . .

وعلم عمر بإسلام زيد فهاج وماج . . ولكنه كان يكن لأخيه الأكبر كل إجلال واحترام . . فقد كان عمر فى شمائله العربية الأصيلة ممن ينطبق عليهم قول الرسول : « خيركم فى الجاهلية خيركم فى الإسلام » . . وكان يوقر أخاه زيدا ، فلا يعنف معه ، ولا يفكر فى أن يبطش به . . بل كان رقيقا فى معاملته رغم أنه كان يغلى من الغضب والحنق مثل المرجل الذى يفور . . وكان زيد يبادله شعور المحبة والاحترام رغم ما بينهما من خلاف عقدى . . ولكى يظل زيد على دينه وعقيدته . . ولكى يحتفظ بعلاقته الأسرية الطيبة مع أخيه عمر . . فقد هاجر إلى الحبشة مع الذين فروا بدينهم . . وكان بوسعه أن يعيش بمكة . . لأنه من أشراف قريش . . وأعرق بيوت المدينة التى كرمها الله بالكعبة المشرفة . .

ومرت الأيام وأسلم عمر ، وأصبحت أسرة الخطاب من الركائز المتينة القوية للدين الحنيف . . وما لبث زيد بن الخطاب أن عاد من مهجره ، ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة . . واجتمع شمل الأسرة الأسرة المسلمة — أسرة الخطاب . . وبدأ الإسلام ينتقل إلى مرحلة الدفاع المسلح عن الدعوة ، ودحض خصومها . . وجاءت معركة أحد . . وخرج المسلمون لملاقاة عدوهم ، وكان زيد بن الخطاب فى الصف الأول من المجاهدين . . كان يحمل سيفه وعيناه تتطلعان إلى السماء فى شوق ومحبة للشهادة . . ولم يكن يلبس درعا واقية . . كباقى المجاهدين . . ورآه أخوه عمر على هذه الحالة ، فخلع درعه ، وأعطاها إياه . . بيد أن زيدا

رفض أن يلبس الدرع وقال لأخيه فى ابتسامة راضية : إننى أريد الشهادة كما تريد . . فترك عمر وزيد الدرع ونزلا إلى المعركة . . يخوضان معمعانها ، ويشمان رائحة الجنة التى تملأ أنوف المقاتلين . . وقد أبلى زيد بن الخطاب فى يوم أحد بلاء حسنا ، وتلقى الجراح فى صبر المؤمنين . . كانت لذة الجهاد تنسيه الألم ، وتشغله عن رؤية الدم الذى ينزف منه . . ولما انقشع غبار المعركة ، وهدأ صليل السيوف ، عاد زيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة ، وهو يتأجج حماسة لدخول معركة أخرى ، وبالفعل ذهب فى اليوم التالى مع الرسول إلى غزوة حمراء الأسد . . ونفسه تتطلع إلى الشهادة ، وإلى اللحاق بالأبرار الذين استشهدوا فى اليوم السابق ، وفتحت لهم أبواب الجنان ، ليعيشوا فى دار الخلود أحياء عند ربهم يرزقون . .

وتمضى الأيام بالمسلمين جهادا واستشهادا وعملا لا ينى ولا يهدأ من أجل نشر الدعوة والدفاع عنها ، ويشهد زيد بن الخطاب جميع المشاهد مع الرسول . . ولم تتوقف حركته عن الجهاد يوما واحدا . . فقد شارك فى حروب الردة ، وذهب إلى اليمامة للقضاء على فتنة مسيلمة الكذاب . . وكان يومها يحمل راية المسلمين . . ونظرا لشراسة المعركة وضراوة القتال ، فقد استشهد كثير من القراء الذين كانوا يحفظون القرآن ، وانكشف المسلمون وتراجعوا أمام بنى حنيفة . . وهنا يصيح زيد بصوت يجلجل فى أجواز الفضاء : « أما الرجال فلا رجال . . وأما الفرار فلا فرار . اللهم إنى أعتذر إليك من فرار أصحابى ، وأبرأ إليك مما جاء به مسيلمة » وراح يقتحم صفوف بنى حنيفة ، والراية مرفوعة فى يده ، حتى غلب عليه الرجال ، فاستشهد على أكرم صورة يستشهد عليها المجاهدون . . ولما وقعت الراية أخذها سالم مولى بنى حذيفة . . فقال المسلمون: يا سالم . . إنا نخاف أن نؤتى من ناحيتك ! فقال : بئس حامل القرآن أنا إن أتيتم من ناحيتى .

وحين تلقى عمر بن الخطاب نبأ استشهاد أخيه زيد . . حزن حزنا شديدا . . وقال : رحم الله أخى . . لقد سبقنى إلى الحسنيين : أسلم قبلى .

واستشهد قبلى . . وكان يقول دائما : ما هبت الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد . . وبينما كان عمر يجلس يوما مع متمم بن نويرة يستمع منه إلى مرثية قالها فى أخيه . . إذا بعمر يقول له : لو كنت أحسن الشعر لقلت فى أخى زيد مثل ما قلت فى أخيك . . فرد عليه متمم قائلا : لو أن أخى ذهب على ما ذهب عليه أخوك ما حزنت عليه . . فقال عمر : ما عزانى أحد بأحسن مما عزيتنى به . .

رضى الله عن زيد بن الخطاب . . فقد أمضى حياته كلها مؤمنا تقيا ورعا مجاهدا . . هاجر الهجرتين ، وقاتل المشركين فى عهد رسول الله ، كما قاتل المرتدين بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى . . فكانت صحفه كلها مطهرة ، وأيامه ولياليه مفعمة بالتقوى والخير والبر . . وقد لقى الله وملائكة الرحمة تحف من حوله ، وعطر الجنان يهب عليه ، وراية الله مرفوعة بيمينه ، والسماء مفتحة الأبواب لاستقبال روحه الطاهرة . . والأبرار والصديقون ينتظرونه فى غرف الجنان . .

مالك بن دينار

اشتغل بكتابة المصاحف
وكان لا يأخـــذ أجراً عليها

اتخذ

من كتابة المصــاحف وبيعها بثمن الورق عملا لا يأخذ عليه أجراً من الناس . . وكان يكتب مصحفاً كل أربعة أشهر ويكتفى بأخذ رغيفين من البقال كل يوم ، ولم يحدث أن ذاق فاكهة قط ، أو جلس إلى مائدة فيها أطايب الطعام . .

وكان يرى النعيم كل النعيم فى قراءة القرآن ، وذكر الله تعالى ، ويصف أثر القرآن فى القلوب بأنه يحيها كما يحي الغيث الأرض . . إذ كان يقول « ياحملة القرآن . . ماذا زرع القرآن فى قلوبكم . فإن القرآن ربيع المؤمن .. كما أن الغيث ربيع الأرض ، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض فيصيب الحش ، فيكون فيه الحبة ، فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن . . فياحملة القرآن . . ماذا زرع القرآن فى قلوبكم؟ أين أصحاب سورة ؟. أين أصحاب سورتين؟ . ماذا عملتم فيهما ؟ .

وكان مالك بن دينار يرى أن البدن كالقلب . . فكما أن البدن إذا سقم لا ينعم بطعام أو شراب أو نوم أو راحة . . فكذلك القلب إذا علق حب الدنيا لم تفده المواعظ . . وكان يقول : بقدر ما تحزن للدنيا ، كذلك يخرج هم الآخرة من قلبك . وبقدر ما تحزن للآخرة كذلك يخرج هم

الدنيا من قلبك . . لأنه لا يجتمع فى قلب عبد قط . . حزن بالآخرة وفرح بالدنيا . . فأحدهما لابد أن يطرد صاحبه . .

كما كان يصف الدنيا بقوله : إن الله جعل الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر . . فخذوا لمقركم من مفركم ، وأخرجوا الدنيا من قلوبكم . قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم . . ففى الدنيا حييتم، ولغيرها خلقتم .. إنما مثل الدنيا كالسم .. أكله من لم يعرفه . واجتنبه من عرفه . . ومثل الدنيا مثل الحية ، مسها لين ، وفى جوفها السم القاتل .. يحذرها ذوو العقول ، ويهوى إليها الصبيان بأيديهم . .

وعن عقوبات الله للعصاة والمذنبين كان يقول : إن لله تعالى عقوبات فتعاهدوهن من أنفسكم فى القلوب والأبدان . . وضنك فى المعيشة . ووهن فى العبادة . . وسخط فى الرزق . . إن الله عز وجل إذا أحب عبدا انتقص من دنياه . . ويقول : لا تبرح من بين يدى . . فهو متفرغ لخدمة ربه عز وجل . . وإذا أبغض عبدا دفع فى نحره شيئاً من الدنيا ويقول : اعزب من بين يدى . . فلا أراك بين يدى . . فتراه معلق القلب بأرض كذا ، وبتجارة كذا . .

وكما كان مالك بن دينار عازفا عن المال وفتنته . كذلك كان عازفا عن النساء . . أحبته فتاة من فتيات البصرة لخلقه ودينه وسلوكه النقى . . ورفضت أن تتزوج أى رجل من الأغنياء الذين تقدموا لخطبتها . . ولما علم والدها برغبتها فى الزواج من مالك بن دينار بعث إليه من يقول له : إنك تعـلم أنى أكثر أهل هذه المدينة مالا ، ولى ابنة فائقة الجمال وهواها معك . . فشأنك وهى . فقال مالك للرجل : عجبا لك يا فلان ! ! أو ما تعلم أنى قد طلقت الدنيا ثلاثا ! ! .

ومن طرائف ما وقع له فى حياته أن اللصوص دخلوا بيته ، وكان بدون قفل أو مفتاح ، وأخذوا يبحثون عن شىء يحملونه معهم . فلما لم يجدوا شيئاً وأرادوا الخروج قال لهم : ما عليكم لو صليتم ركعتين ! ! .

وجاءه أحد التجار يوما . . وكان العشارون (جباة الضرائب) قد حبسوا عنه سفينته حتى يأخذوا عشر ما فيها . . وذكر لمالك ما فعل به العشارون فقام معه وذهب إليهم . . ولما رأوه قالوا : يا أبا يحيى . . ألا بعثت إلينا ما حاجتك؟فقال : حاجتى أن تخلوا سفينة هذا الرجل . . ولا تأخذوا منه شيئا إلا بعد أن يبيع بضاعته . . فقالوا له : سمعا وطاعة . . قد أخلينا سفينته . . ادع الله لنا . فقال: كيف أدعو لكم ، وألف بالخارج يدعون عليكم ! أترى يستجاب لواحد ولا يستجاب لألف ! .

ومن كراهيته للنفاق والمنافقين أنه كان يقول : لا يصطلح المؤمن والمنافق حتى يصطلح الذئب والحمل . . مكتوب فى الزبور : إنى لأنتقم من المنافق بالمنافق . . ثم أنتقم من المنافقين جميعا . . فالمؤمن مثل اللؤلؤة أينما كانت حسنها معها . . أما المنافق فهو كالمعدن الزائف . يبرق من الخارج . ولكنه لا يساوى شيئاً .

ودخل مالك بن دينار على والى البصرة . فقال له الوالى : ادع لى .. فقال : كم من مظلوم بالباب يدعو عليك . .

ومر به بلال بن أبى بردة . والناس يطوفون حوله يلتمسون نداه . فلم يتحرك مالك من مكانه ولم يعظمه . فدهش ابن أبى بردة وقال له : أما تعرفنى ؟ قال : بلى ! أعرفك جيدا . . أولك نطفة ، وأوسطك جيفة ، وأسفلك دودة ، فهم خدم ابن أبى بردة أن يضربوه ، فقال لهم : دعوه فهذا مالك بن دينار . .

لم يكن مالك يهاب أحدا إلا الله ملك الملوك والولاة والحكام . . وكان يقول : قرأت فى بعض الكتب أن الله عز وجل يقول : إنى أنا الله ، مالك الملوك . قلوب العباد بيدى ، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة . . لا تنشاغلوا بسبب الملوك ، ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم . .

ويقول أيضا . . إن الله عز وجل يقول : يا ابن آدم . . خيرى ينزل

عليك،وشرك يصعد إلى . . أتحبب إليك بالنعم ، وتتبغض إلى بالمعاصى ..
ولا يزال ملك كريم يعرج منك إلى بعمل قبيح . .

وبلغ من فرط إحساسه بعميق عبوديته لله تبارك وتعالى أنه حين حضرته الوفاة قال : لولا أنى أكره أن أصنع شيئاً لم يصنعه أحد كان قبلى لأوصيت أهلى إذا أنا مت أن يقيدونى وأن يجمعوا يدى إلى عنقى ، فينطلقوا بى على تلك الحال حتى أدفن . كما يصنع بالعبد الآبق .

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء فى الدنيا إلا لعبادتك . . اللهم لا تحرق شيبتى بالنار . .

وكما أطفأ الموت سراج الحياة فى الصالحين من قبله ، أطفأ سراج حياته ، ولكن بقيت سيرته مضيئة تطل علينا ببهائها وروائها من شرفة العصور . .

عبد الله العمري

امتلأ قلبه بهيبة الله

فهابه أصحاب الجاه والسلطان

شذى

إلى سيرة حياة هذا العابد المخبت ما تمثل فيه من شجاعة فى قول الحق. وجرأة فى مواجهة المسئولين بسلبياتهم وأخطائهم يعينه على هذا ويحفزه أن قلبه امتلأ بالخوف من الله . فلم يعد يخاف سواه . . وأنه عبد الله عبودية خالصة .. فلم يجد فى البشر إلا عبيداً مثله لله، لا يستحق أحد منهم مهما علا مركزه، أو سما منصبه ، أن يحنى أحد له الجبين ، أو يضعه فى مصاف الآلهة . . ولهذا كان عبد الله بن عبد العزيز العمرى مهيباً رغم أنه لا يملك شيئاً من حطام الدنيا . . يوقره الناس جميعاً مع أنه لا يرتدى إلا أسمالا بالية، ولا يحفه من مظاهر العظمة والأبهة ما يحيط الولاة والحكام . . وكان يأنس بالله وحده ، ويحس بالوحشة إذا جلس بين الناس ، ويتخذ بين القبور خلوته ، ليظل قلبه معلقاً بالحياة الأخرى . صادفاً عن الحياة الدنيا وزينتها . . وكان لا يرى إلا وفى يده كتاب يقرؤه . . ولما سئل عن سر سلوكه هذا قال : لم أر أوعظ من قبر ، ولا آنس من كتاب ، ولا أسلم من الوحدة . .

وكان عبد الله بن عبد العزيز العمرى ، وهو من الطبقة السابعة من أهل المدينة ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، يحث كل مسلم على أن يصبح داعية يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى الإطار الذى حدده ورسمه الإسلام ،

وهو الحكمة والقول اللين والموعظة الحسنة . . ومن لم يفعل ذلك نزعت منه هيبة الله تعالى ، واستخف الناس به ، حتى ولو كانوا ولده أو مواليه . . استمعوا إليه وهو يقول : « من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مخافةمن المخلوقين،نزعت منه هيبة الله تعالى . . فلو أمر بعض ولده أو بعض مواليه لاستخفوا به . . وإن من غفلتك عن نفسك إعراضك عن الله بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه ، ولا تأمر وتنهى خوفا ممن لايملك ضرا ولا نفعا . .

ولم يكن عبد الله العمرى يعظ الناس بما لم يفعله . أو ينصحهم دون أن يلتزم هو بالنصيحة . . وإنما كان سلوكه مطابقا لقوله ، وعمله موائما لعظاته ، وتصرفه مواكبا لنصائحه . . حدث أن حج الخليفة العباسى هارون الرشيد ، فقام الحرس بإخلاء المسعى له . حتى لايزاحمه أحد . وحتى يهرول بين الصفا والمروة وحده . . وقد أغضب هذا التصرف بعض الحجيج ، ولكن أحدا منهم لم ينبس ببنت شفة . . إلا أن واحدا من الحجاج — وكان يعلم جرأة عبد الله العمرى فى الحق — أسرع إليه وقال له : يا أبا عبد الرحمن: إن أمير المؤمنين يسعى ، وقد أخلى له المسعى . . فقال العمرى للرجل : كلفتنى أمرا كنت عنه غنيا . . ولكن الساكت عن الحق شيطان أخرس . . إن هارون حين يدخل المسجد ، فهو وعبده أمام الله سواء . . بل ربما يكون عبده أفضل عند الله منه ! . . من يدرى ؟ .

حمل عبد الله العمرى نعليه ، وانطلق إلى المسعى ، فوجد هارون الرشيد قد أقبل من المروة يريد الصفا ، والناس خارج المسعى ينتظرون فراغ الخليفة من السعى ، حتى يسعوا بدورهم . . وهنا صاح العمرى بأعلى صوته : ياهارون ! ولم يقل يا أمير المؤمنين.. فاشرأبت الأعناق نحوالرجل الذى ينادى الخليفة باسمه مجردا من أى لقب .. كما نظر الخليفة نحو مصدر الصوت فرأىعبد الله العمرىهو الذى يناديه.. فقال هارون : لبيك ياعم ..

كان الخليفة يعلم مدى التفاف المسلمين حول هذا العابد ، فرد عليه بكل احتشام ووقار ، فقال له العمرى : ارق الصفا . . فرقيه هارون على

الفور ، فقال له العمرى : ارم بطرفك إلى البيت ، فقال هارون : قد فعلت . . وكان قد صوب نظره نحو الكعبة . . فقال له العمرى : كم عددهم ؟ فرد الخليفة : من يستطيع أن يحصيهم ؟ فقال العمرى : كم فى الناس مثلهم ؟ فقال هارون : خلق لا يحصيهم إلا الله . . وهنا قال العمرى : اعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم سيسأل عن نفسه فقط . . أما أنت فسوف تسأل عنهم جميعاً . . فانظر كيف تكون ! والله إن الرجل ليسرف فى ماله فيستحق الحجر عليه . . فكيف بمن يسرف فى مال المسلمين ؟ ؟ .

نزلت كلمات العمرى على هارون الرشيد كوخز الأبر ، فانهمرت الدموع غزيرة هتانة من عينيه . . وجلس يبكى وحاشيته تقدم له منديلا بعد منديل حتى كادت الدموع تغيض من عينيه لفرط ما نزل منها على خديه ولحيته . .

وكان هارون الرشيد يتحاشى لقاء عبد الله العمرى ، لأن العمرى كان إذا لقى الخليفة أمسك بلجام دابته وقال له : ياهارون . . فعلت كذا وكذا . . والخليفة ينظر إليه بتوقير ويقول له : مقبول منك ياعم . . فيقول له العمرى : إن الناس أحوالهم كيت وكيت . وأنت مسئول عن كل جائع أن تطعمه ، وعن كل عار أن تكسوه ، وعن كل مريض أن تعالجه ، وعن كل حزين أن تدخل السرور على نفسه . . ياهارون : إن الله ولاك أمور المسلمين ، فحملت على كتفيك أعباء الأمة كلها . .

وقد بلغ الأمر بهارون الرشيد أنه كان يحج كل سنتين مرة ، ولما سئل لماذا لا تحج كل سنة يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما يمنعنى من الحج كل سنة إلا رجل من ولد عمر يسمعنى ما أكره . . وكان هارون يحاول المرة بعد المرة أن يشترى العمرى بالهبات والعطايا ليكف عن نقده وتجريح سلوكه ، ولكن العمرى كان يرفض المال لأنه زاهد فى الدينا ومتاعها وزينتها ، ويكفيه منها ما يقيم صلبه من لقيمات جافة . . وحدث أن بعث الخليفة رجلا من أهل خاصته إلى العمرى يقول له : إنك تشتم أمير المؤمنين وتدعو عليه ، فبماذا استبحت ذلك ؟ فقال له العمرى : أما شتمه فهو والله أكرم على من

نفسى ، لقرابته من رسول الله صلى الله عايه وسلم ، وأما الدعاء عليه ، فوالله ما قلت إلا : اللهم إن له فى الإسلام بالقياس إلى كل مؤمن حقاً، وله بنبيك قرابة ورحم فقربه من كل خير ، وباعده من كل سوء ، وأسعدنا به وأصلحه لنفسه ولنا .

وقد أسند عبد الله العمرى عن عدد من الصحابة، وأدرك من التابعين أباطوالة،وكان صديقاً حميماً له ، وأبو طوالة هو عبد الله بن عبد الرحمن ابن حزم بن زيد بن لوذان من بنى النجار ، وهو من الطبقة الرابعة من أهل المدينة .. وهو تابعى جليل حضر إلى مصر مع عمرو بن العاص .. وكان أحد قواد الفتح ..ومات ودفن بالقرية التى لا تزال مسماة باسمه إلى الآن، وهى من أعمال مركز منيا القمح . .

وقد حفظ أبو طوالة كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة بجمعها من أنس بن مالك خادم رسول الله . . ومن هذه الأحاديث التى رواها عبد الله العمري عن أبى طوالة رضى الله عنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من نظر فى الدنيا إلى من فوقه ، وفى الدين إلى من تحته لم يكتبه الله شاكراً ، ولا صابراً . . ومن نظر فى الدنيا إلى من تحته ، وفى الدين إلى من فوقه ، كتبه الله شاكراً صابراً » . كما روى عبد الله العمرى حديثاً آخر عن أبى طوالة . . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أذنب ذنباً ، فعلم أن الله إن شاء أن يعذبه عليه عذبه ، واذ شاء أن يغفر له غفر ، كان حقاً على الله أن يغفر له » .

وعلى طريق العلم والورع والنسك والزهد عاش عبد الله العمرى حتى بلغ ستة وستين عاماً . . ثم جاءه مرض الموت ، فقال لمن ذهب يعوده : بنعمة ربى أحدث . . إنى أصبحت لا أملك إلا سبعة دراهم كسبها من لحاء شجر فتلته بيدى . .

وفى لحظة نوارنية تهب فيها نسمات الجنة وتهمس الملائكة بالبشرى برضوان الله ، صعدت روحه الكريمة إلى بارئها ، وهى أشد ما تكون شوقاً إليه ، لتتبوأ مكانها بين أرواح الصالحين . .

محمد بن واسع

رفض مناصب الدنيا لكي
يعيش بعيداً عن المظالم

تعلم

من أمور الدين أن العبادة الخفية عن أعين الناس أجزل ثوابا ، وأعظم أجرا عند الله . . فكان يقوم الليل كله دون أن يعلم به أحد . . حتى إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر . يوقظ الناس وكأنه قائم لتوه من النوم . .

وكما كان يخفى عبادته لتكون خالصة من الرياء والشرك الخفى ، فقد كان يخفى أمراضه وآلامه حتى عن أقرب الناس إليه . . فلا يشكو من ألم ، ولا يتبرم بوجع ، ولا يجعل ما أصيب به حديث الناس . . وهكذا عاش محمد بن واسع ولا أحد يعلم شيئاً .. لا عن عبادته ، ولا عن أمراضه .

وإلى جانب صبره على شظف العيش وجفاف الحياة ، فقد زهد فى مناصب الدنيا خشية أن يظلم أحدا ، وهو لايدرى أنه ظلمه . فقد عرض عليه منصب القضاء أكثر من مرة لغزارة علمه وسعة فهمه وإحاطته بشريعة الله ، ولكنه كان يعتذر ، ويرفض الجلوس على منصة القضاء مخافة أن يميل ميزان العدالة فى يده . فيأتى يوم القيامة والمظلوم يطالبه بحقه ، وهو يوم لا يملك فيه أحد أن يرد الحقوق إلا إذا أخذ من حسناته إلى من ظلمه . . ويالها من خسارة لمن خفت موازين حسناته ، وثقلت موازين سيئاته . . وكان يقول : إن أول من يدعي إلى الحساب يوم القيامة القضاة . . ولذلك

فإنه حين دعاه مالك بن المنذر ، وكان أمير شرطة البصرة ، وطلب إليه أن يجلس للقضاء بين المتخاصمين ، وأن يحكم بين الناس بما أنزل الله ، رفض محمد بن واسع طلب أمير الشرطة ، فكرر عليه الطلب ، فأبى . . ولما عيل صبر مالك بن المنذر وضاق صدره برفض محمد بن واسع منصب القضاء ، هدده بالجلد ، وكان رجلا فظا غليظ القلب ، فقد قال له : إذا لم تقبل منصب القضاء فسوف أجلدك ثلثمائة جلدة . . ثم استدعى الجلاد.. فحضر وبيده السوط .

فماذا فعل محمد بن واسع ، والجلاد بجواره ينتظر الإذن من أمير الشرطة بجلده ؟ هل لان أمام التهديد وقبل المنصب أو أصر على موقفه وفضل الجلد بالسياط على عذاب الآخرة وحسابها ؟ . . إنه شأن كل مؤمن اختبر فى إيمانه، تحدث من منطلق الإيمان،فأعلن رفض منصب القضاء ، وقال كلمات كان وقعها أشد على أمير الشرطة من ضرب السياط . . قال له : إن تفعل فأنت مسلط . . وإن ذليل الدنيا خير من ذليل الآخرة . . فقال له أمير الشرطة : إنك لأحمق . . فقال محمد بن واسع : ما زلت يقال لى هذا منذ كنت صغيرا . . ولكن أمير الشرطة لم ييأس ، فلجأ إلى بعض أمراء البصرة ، وطلب منهم أن يحاولوا إقناع محمد بن واسع بهذا الأمر . . فلم يستطع أحد منهم إقناعه ، وكان يؤثر عدم الاشتراك فى المناصب العامة ، وعدم قبول أى مال أو جائزة من الحكام..ولما عاتبته امرأته على عدم قبوله تولى القضاء ، وقالت له : لك عيال ، وأنت تحتاج . . فقال لها : ما دمت ترينني أصبر على الخل والبقل . فلا تطمعى فى هذا منى . .

أما لماذا كان محمد بن واسع يرفض قبول هبات ومنح السلطان فيتمثل فى هذا الموقف الذى وقفه من مالك بن دينار..وكان مالك من فقهاء وزهاد عصره، ومن أولئك النفر الذين أعرضوا عن الدنيا وزينتها ، وباعوا أنفسهم لله ، ووقفوا حياتهم على العلم والعبادة وكتابة المصاحف . . لكنه ذهب إلى قصر الإمارة وأخذ جائزة من أمير البصرة ضمن من أخذوا فى إحدى المناسبات الدينية . . وعندما علم محمد بن واسع بذلك ذهب إلى مالك ، وقال له :

كيف تقبل جائزة السلطان ؟ فرد عليه مالك : سل جلسائى . . ماذا فعلت بالجائزة . . فقالوا له . . إنه اشترى بها رقابا وأعتقهم . . فقال محمد ابن واسع : أنشدك الله : أقلبك الساعة من ناحية السلطان مثل ما كان عليه قبل الجائزة ؟ فقال مالك : اللهم لا . فقال محمد بن واسع : هذا ما كنت أخشاه عليك . . .

لقد كان معنيا بألا يدخل القلب غير الله ، وألا تشوب المال شائبة من حرام ، لأن المال الحرام يحجب النور عن القلب ، فلا يتذوق حلاوة العبادة ، ولا يحس لذة الطاعة ، وكان رأيه أن المال لا يكون طيبا إلا من أربع خلال : تجارة من حلال ، أو ميرث بكتاب ، أو عطاء من أخ مسلم عن ظهر يد ، أو سهم مع المسلمين مع إمام عادل . ولذلك كان من أدعيته المشهورة :

اللهم إنا نعوذ بك من كل رزق يباعد منك . . فطهرنا من كل خبيث ، ولا تسلط علينا الظلمة . .

ومن آرائه فى الحفاظ على سلامة القلب من الآفات أنه كان يقول : أربع خصال تميت القلب . . الذنب على الذنب ، ومجالسة الموتى . قيل له : ومن الموتى ؟ قال : كل غنى مترف ، وسلطان جائر ، وكثرة مشاقة النساء وحديثهن (المشاقة : العداوة والخصام) ، وملاحاة الأحمق . كما كان يدعو إلى الإقلال من الطعام ، لأن البطنة تزيل الفطنة ، ولأن الشبع يؤدى إلى الكسل عن العبادة ، فهو القائل : من قل طعامه فهم وأفهم وصفا ورق .. وكان يجلس يوما مع مالك بن دينار ، ومالك يقول لأحد الحاضرين : لا تبيتن وأنت شبعان ، ودع الطعام وأنت تشتهيه . . فقال الرجل : هذا وصف أطباء أهل الدنيا . . فالتفت إليه محمد بن واسع وقال : نعم . ووصف أطباء طريق الآخرة . فقال مالك : بخ . . بخ . دواء للدين والدنيا . ثم سكت هنيهة وقال : إنى لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا ويقنع به . فقال محمد بن واسع : أغبط منه والله عندى من يصبح جائعا وهو عن الله راض . . ثم قال : ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث : صاحب إذا اعوججت قومنى ، وصلاة فى جماعة يحمل عنى سهوها وأفوز بفضلها ، وقوت من

الدنيا ليس لأحد فيه منة ، ولا لله على فيه تبعة . . ومن يريد أن يكون ملكا فى الدنيا والآخرة . فعليه أن يزهد فى الدنيا .

وإذا أردنا أن نرسم صورة صادقة لما كانت تتسم به حياة محمد بن واسع من مزايا وخصائص ، فإننا لن نجد أدق ولا أوفى من الصورة التى رسمها له مخالطوه من أهل التقوى والورع ،يقول مالك بن دينار : إن من القراء ذا الوجهين . إذا لقوا الملوك دخلوا معهم فيما هم فيه . وإذا لقوا أهل الآخرة دخلوا معهم فيما هم فيه ، فكونوا من قراء الرحمن : وإن محمد بن واسع من قراء الرحمن . ويقول ابن أبى مطيع : كان محمد بن واسع إذا صلى المغرب يلتزق بالقبلة يصلى . وكان يقول فى دعائه : أستغفرك يارب من كل مقام سوء ، ومدخل سوء ، ونية سوء .. أستغفرك من كل ذنب ، فاغفر لى ، وأتوب إليك من كل ذنب فتب على . .

ويقول موسى بن بشار : صحبت محمد بن واسع من مكة إلى البصرة ، فكان يصلى الليل أجمع .. يصلى فى المحمل جالسا ، يومىء برأسه إيماء ، وكان يأمر الحادى بأن يكون خلفه حتى لا يفطن إليه ، وربما كان ينزل ليستريح فيصلى . فإذا أصبح يوقظ أصحابه رجلا رجلا للصلاة . . وإذا سأله واحد منهم : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ يقول : ما ظنك برجل يرحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة ؟ وقد كان ينظر إلى محمد بن واسع على أنه أمة وحده. فقد حدث أن خرج مع الجيش الذى ذهب لمحاربة الشرك ، وكان الجيش بقيادة قتيبة بن مسلم . . وعلم قتيبة أن الترك تستعد للهجوم على جيشه ، فبعث إلى المسجد ينظر من فيه . فقيل له : ليس فيه إلا محمد بن واسع رافعا إصبعه . فقال قتيبة : إصبعه تلك أحب إلى من ثلاثين ألف عنان . . أى من ثلاثين ألف فارس على جيادهم . . هكذا كان تقدير قتيبة لمحمد بن واسع .

وقد كان يربى أولاده تربية إسلامية صحيحة . . يربيهم على الشمائل الطيبة والأخلاق الفاضلة والسلوك الحميد ، وحدث أن رأى أحدهم يوما — وكان شابا فى مقتبل الشباب — يمشى معجبا بنفسه مختالا فخورا . . فقال له : ويحك أتدرى من أنت ؟ إن أمك اشتريتها بمائتى درهم . وأبوك لا أكثر الله

فى المسلمين من أمثاله . لماذا تمشى هذه المشية ؟ ألم تقرأ قول الله تعالى : إن الله لا يحب كل مختال فخور .. هل تريد أن تكون من الذين يبغضهم الله ؟ . . وقد أثرت هذه العبارة فى نفس الشاب فلم ير إلا متواضعا فى مشيته بعد ذلك . .

وكان محمد بن واسع يسكن منزلا بجوار القبور .. وإذا سأله أحد : لماذا تسكن بجانب الموتى يقول له : إن جيرانى هؤلاء لا يؤذون . . وإنما يذكروننى دائما بالآخرة ، ولما مرض مرض الموت كان الناس يعودونه بكثرة . حتى إن غرفة نومه كانت تضيق بهم . . فبعضهم يظل واقفا والبعض يجلس ، وهو فى شغل شاغل بذكر الله عن عواده . . وكان يقول لامرأته وأولاده : ما يغنى هؤلاء عنى إذا أخذ بناصيتى وقدمى وألقيت غدا فى النار؟

وسأله بلال بن أبى بردة : ما تقول فى القضاء والقدر ؟ قال : أيها الأمير : إن الله عز وجل لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره . وإنما يسألهم عن أعمالهم . .

وقد أجمع معاصروه على أنه كان عالما واعيا ، ناقلا راويا . . وعى فارعوى ، ونوى فاستوى . قليل الكلام والرواية . طويل الصيام والسحابة .. روى عن أنس بن مالك . . كما روى عن جماعة من كبار التابعين مثل الحسن البصرى وابن سيرين وابن أبى بردة رضى الله تعالى عنهم . . وقد كانت وفاته فى سنة عشرين ومائة . ولقى الله بصحيفة نقية وقلب سليم . . يتضوع التاريخ عطرا من مناقبه . . وتدور سيرته المضيئة فى فلك الأيام ساطعة ناصعة كالكواكب الدرى فى كبد السماء .

عطاء بن أبي رباح

حج سبعين حجة

وأفتى للناس نصف قـرن

اتجـه في طفولته إلى تحصيل العلم . . وكان يعـاني صعوبة كبيرة في الذهاب إلى مجالس العلماء . . لأنه مصاب بشلل الأطفال . . كما أنه فقد إحدى عينيه في الصغر . . ومع ذلك لم يقعده الشلل ، ولا الإبصار بعين واحدة عن التعلم والدراسة . . وكان عبدا حبشياً أسود لا يؤبه له ، ولا يسترعى الأنظار ، ولكنه ما لبث أن بنى نفسه كعالم وفقيه وإمام ، يسعى إليه الخلفاء والولاة ، ويتهافتون على لقائه وشهود مجلسه . . وهكذا أنزله العلم منزلة كريمة في نفوس الناس حتى إن حلقة الفتيا التي كان يعقدها ابن عباس رضى الله عنهما في المسجد لم يخلفه فيها إلا عطاء بن أبي رباح . . وكان الناس إذا ذهبوا لابن عباس يستفتونه يقول لهم : أتستفتونني يا أهل مكة وفيكم ابن أبي رباح ؟ .

ولم يكن عطاء بن أبي رباح يتكسب بعلمه ، أو يأخذ أجرا على فتواه : : وإنما كان يبذل علمه ابتغاء وجه الله . . ولذلك لم يكن يذهب إلى قصور الخلفاء والأمراء والمسئولين ، لأنه يعيش على الملح وخبز الشعير . . وهما لا يكلفانه إلا دراهم قليلة . . وكانت حياته في المسجد ، يمضي وقته فيه ما بين قائم للصلاة أو جالس في حلقة علم يفقه الناس في شئون

دينهم . . وكان لا يستهويه شيء من متاع الدنيا . حتى إن ثوبه كان لا يساوى خمسة دراهم . . ومع ذلك فإن هذا العالم العابد الفقير كانت له مهابة أشد من مهابة الخلفاء ، حدث أن ذهب سليمان بن عبد الملك لأداء فريضة الحج .. وكان معه ابناه . وأراد أن يعرف المناسك ، فذهب إلى عطاء بن أبى رباح فى المسجد . وكان عطاء ساعتها يصلى . . فلما فرغ من صلاته ، انتقل إلى حيث يجلس أمير المؤمنين . . فما زال سليمان وابناه يسألون عطاء عن مناسك الحج .. وهو يجيبهم . وقد حول قفاه إليهم . . حتى انتهوا من أسئلتهم . . وهموا بالانصراف . . فقال سليمان لابنيه : يا ابنى لا تنيا فى طلب العلم . . فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود ؛ ؛

وقد اعتكف عطاء بن أبى رباح عشرين سنة فى المسجد . . أمضاها فى حفظ العلم تارة . . وفى الصلاة تارة أخرى . . ولم يكن رغم شلله يحس نصبا أو لغوبا . . لأن الصلاة كانت تسبغ الصحة والعافية والنشاط على جسده المعتل . . كما كان العلم يضفى نضارة وبهجة على وجهه الشاحب الذابل . . وكانت حفاوة الناس به تجعل منه ملكا عرشه القلوب ، وتاجه الحب ، وسلطانه الخشوع فى حضرته ، وغض الأصوات عنده . . وقد وهبه الله نعمة الصبر والشكر . . فلم يقل كلمة واحدة تغضب الله . أو تتململ منها الملائكة . . وإنما كان لسانه — وهو ترجمان قلبه — لا يتحرك إلا بكلمة حق ، ولا ينطق إلا بالعبارات الخيرة النيرة البارة المبرورة . . ومن ثم كانت صحفه تتضوع بالحسنات ، وتتلألأ بالباقيات الصالحات ، وكانت أيامه ولياليه قطعة مضيئة طاهرة من الزمن . تطلع عليه الشمس وتغرب . . وهو مع الله قلباً ونفساً وإحساسا ووجدانا . . وكان يوصى بحضور مجالس العلم ، لأن الملائكة تحف بها ، والرحمة تتغشاها ، والله يتجلى على الحاضرين فيها بالصفح والمغفرة . .

قال يوما فى حلقة العلم بالمسجد الحرام : من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشرة مجالس من مجالس الباطل . . فسأله أحد الحاضرين : ماذا تعنى بمجلس الذكر : فقال : المجلس الذى تعرف فيه الحلال من

الحرام : كيف تصلى . وكيف تصوم . وكيف تتزوج وتطلق . وكيف تبيع وتشترى . . فعطاء كان يرى أن تعلم العلم أفضل عبادة يتقرب بها العبد لربه . . لأن من يعبد الله على علم يسير فى طريق الأنبياء . . وينال أرفع الدرجات عند الله . . أما الجهل فإنه قد ينحرف بصاحبه عن الطريق القويم والصراط المستقيم . .

وكان عطاء بن أبى رباح يرى فى وحدة المسلمين عزتهم وسؤددهم وقوتهم . . فإن هم تفرقوا خلعوا ثوب الطاعة ، ولبسوا سربال المعصية ، وخالفوا ما جاء به نبيهم ، وما نادى به قرآنهم ، وما حثت عليه السنة النبوية المطهرة . . كما كان يرى أنه ليس من حق إنسان أن يكفر عاصيا ، أو يرميه بالمروق من الدين . . لأن العصيان ليس كفرا . . وصاحبه لا يعتبر كافرا أمام الله .. وقد يتوب الله على العاصى .. فيرجع إلى حظيرة الطاعة بقلب أواب منيب . . وينعم بحلاوة المغفرة ، ولذة الرحمة . . ومصداق ذلك أن أبا حنيفة النعمان رضى الله عنه لقى عطاء بن أبى رباح بمكة ، فوقف يسأله عن بعض أمور فى الفقه . . فقال له عطاء : من أين أنت ؟ فقال : أبو حنيفة من أهل الكوفة . فقال عطاء : من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا : فقال أبو حنيفة : نعم . فسأله عطاء : من أى الأصناف أنت : فقال أبو حنيفة : ممن لا يسب السلف ، ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحدا من أهل القبلة بذنب . . فقال عطاء : عرفت فالزم . . ورؤى عطاء يطوف بالبيت فقال لقائده : احفظوا عنى خمسا . . القدر خيره وشره . حلوه ومره من الله عز وجل . وليس للعباد فيه سبب ولا تفويض . وأهل قبلتنا مؤمنون . حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . وقتال الفئة الباغية . . والشهادة على الخوارج بالضلالة .

ومن الآداب الإسلامية التى كان يتحلى بها عطاء بن أبى رباح : حسن الاستماع إلى من يتحدث إليه . . إذ كان يلتزم الصمت أمام محدثه . وكأنه يسمع ما يقوله لأول مرة . : وفى ذلك يقول : إن الرجل ليحدثنى بالحديث فأنصت له كأنى لم أكن سمعته : : وقد سمعته قبل أن يولد ، فأريه أنى

لا أحسن منه شيئاً . . كما كان الصمت محببا إلى نفسه . . إلا إذا كان النطق قراءة قرآن ، أو أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر .. جلس إليه شاب صالح اسمه محمد بن سوقة . . وطلب إليه أن يعظه وينصحه . . فقال له عطاء : يا ابن أخى . إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ما عدا أن يقرأ كتاب الله ، أو يؤمر بمعروف ، أو ينهى عن منكر . . أو ينطق العبد بحاجته فى معيشته التى لابد منها . . أتنكرون : «إن عليكم لحافظين . كراما كاتبين » . و « عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » . أما يستحى أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التى أملاها صدر نهاره . فرأى أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ !

أما عن شغفه بقيام الليل والتهجد والاستغفار بالأسحار فقد كان يتمثل فى قوله : لأن أرى فى بيتى شيطانا خير من أن أرى وسادة .. لأنها تدعو للنوم .. وقد استمر على قيام الليل حتى بعد أن كبر وضعف ونالت منه الشيخوخة . فكان وهو فى سن متقدمة أربت على الثمانين يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتى آية من سورة البقرة .. وهو قائم ما يزول منه شىء ولا يتحرك .. وكان يقول : ما قال العبد : « يارب » ثلاث مرات إلا نظر الله له . . ومن نظر الله له لم يعذبه يوم القيامة . .

وكان عطاء حاضر البديهة لا يند جواب مسألة عن ذهنه أبدا . . قيل له : إن ها هنا قوما يقولون : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص . فقال على الفور : « والذين اهتدوا زادهم هدى » . . فما هذا الهدى الذى زادهم ؟ . . قالوا له : ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله . . فقال : يقول الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة » . فجعل ذلك دينا .. وسئل عن معنى قوله تعالى : « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » . فقال : لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التى افترضها عليهم أن يؤدوها فى أوقاتها وأوائلها . .

وقد أسند عطاء عن ابن عمر وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وابن

عباس وابن الزبير وزيد بن خالد الجهني وآخرين من الصحابة . . ومما روه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ثلاثة على كثبان المسك يوم القيامة . لا يهولهم الحزن . ولا يفزعون حين يفزع الناس : رجل تعلم القرآن فأم به قوما يطلب به وجه الله عز وجل وما عنده . ورجل نادى كل يوم وليلة خمس مرات للصلاة يطلب به وجه الله عز وجل وما عنده . وعبد مملوك لم يمنعه رق الدنيا عن طاعة ربه عز وجل » . ومما رواه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ومعه بلال يوم عيد ، فصلى ثم خطب . ثم أتى النساء فوعظهن وأمرهن بالصدقة . فجعلت كل امرأة تلقى بالقرط والخاتم ، وبلال يأخذ فى طرف ثوبه » .

ولقد عاش هذا التابعى الجليل ثمانية وثمانين عاما ملأ خلالها طباق الأرض علما ، وكان ينادى فى موسم الحج كل عام : من كانت له مسألة فليذهب إلى عطاء ابن رباح . . ثم وافته المنية فى السنة الرابعة عشرة بعد المائة من لهجرة : . فانطفأ الشهاب الذى ظل ساطعا أكثر من نصف قرن ، ولكن نوره ما زال منتشرا فى الآفاق . .

يونس بن عبيد

كان يترك الآلاف من أجل درهم فيه شبهة

بلغ

من حرصه على نقـــاء مالهمن الحرام أنه كان يترك بنفس راضية أرباحا تعد بآلاف الدراهم ، من أجل درهم واحد فيه شبهة . . لأنه يضع نصب عينيه دائما قول الرسول صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص : يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة . والذى نفس محمد بيده إن العبد ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوما . وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به . . ولذلك فإن يونس ابن عبيد وكان خزازا بالبصرة ، أى بائع حرير ، لم يدخل فى تجارته مالا حراماً قط . . وكان إذا سمع أن سعر الحرير هبط فى بلد يسارع بتخفيض السعر . . حتى يتقى الشبهات فى ماله . . وإذا عرض عليه أحد بضاعة بسعر أقل من ثمنها . لجهله بالسعر الحقيقى ، فإنه يرفض شراءها إلا بسعرها الذى تستحقه . . وهكذا جسد مبادىء الدين الحنيف فى معاملاته حتى كانت سيرته الطيبة على كل لسان ، وكان الناس يتبركون به ، ويرون فيه تطبيقا عمليا لشرع الله ، يتحرى الحلال ويسعى إليه ، ويتجافى عن الحرام وينأى عنه . . ويزن كل أمور بميزان الكتاب والسنة حتى لا ينحرف عن الصراط المستقيم ، ولا يزل عن الطريق الأقوم .

ومما يدل على أنه كان يرفض أى ربح فيه شبهة ما حكاه أحد معاصريه . . إذ قال : جاء رجل من أهل الشام إلى سوق الخزازين يريد شراء ثوب من الخز بأربعمائة درهم . فقال له يونس بن عبيد : عندنا بمائتين . فنادى مناد بالصلاة ، فترك يونس بن عبيد متجره وذهب إلى المسجد ليؤم الناس فى الصلاة ، فجاء الرجل الشامى واشترى الثوب من ابن أخى يونس بأربعمائة درهم. ولما عاديونس ووجد هذا المبلغ سأل ابن أخيه : من أين هذه الدراهم؟ فقال : إنها ثمن الثوب الذى بعته للرجل الشامى . . فنادى يونس : ياعبد الله . الثوب الذى عرضته عليك بمائتى درهم . فإن شئت فخذه وخذ مائتين . وإن شئت فدعه . فسأله الرجل الشامى : من أنت ؟ فقال يونس : رجل من المسلمين . فكرر عليه السؤال مرة ثانية وقال : بل أسألك بالله من أنت ، وما اسمك ؟ فقال : يونس بن عبيد . . هنا أقبل عليه الرجل وقال له : والله إنا لنكون فى نحر العدو. فإذا اشتد الأمر علينا قلنا : اللهم رب يونس فرج عنا . . فقال يونس : سبحان الله . . سبحان الله !

وهكذا كانت منزلته فى نفوس الناس . . كانوا يتبركون به ، ويرون فيه نموذجاً عالياً للمسلم الحق الذى يأتمر بأمر الله ، وينتهى بنواهيه ، ويتخلق بالقرآن الكريم ، ويتجمل بالسنة الشريفة ، ويرتقى فى درج الطاعات ساعة بعد ساعة . .

وأسلوبه فى البيع والشراء يعتبر دستوراً للتجارة الشريفة كما وضع قواعدها الإسلام . فمما يحكى عنه أن امرأة جاءت تعرض عليه ثوباً من الحرير بستين درهما، فألقاه إلى جارله وقال له : ألا تراه يساوى مائة وعشرين درهماً ؟ فقال : أرى ذلك ثمنه أو نحوا من ثمنه.. فقال يونس بن عبيد للمرأة : ارجعى إلى أهلك وشاوريهم فى بيعه بمائة وخمسة وعشرين درهماً . فقالت : إنهم أمرونى أن أبيعه بستين. فقال لها : ارجعى إليهم وشاوريهم ، لأن ثمنه أغلى من ذلك . .

وهناك حكايات أخرى كثيرة لا يحصيها العد عن أمانته فى البيع والشراء. فقد كان لا يستغل جهل البائع ، ولا جهل المشترى بالسعر الحقيقى، ولا يأخذ إلا

الربح المشروع الذى لا ريبة فيه ولا شبهة .. كما كان ابن الجانب فى البيع والشراء وفى المطالبة بحقه .. لا يغلظ فى القول لمن تأخر فى سداد الدين ، ولا يأخذه الغضب على من يساوم فى ثمن صفقة . ولا يقطب ما بين حاجبيه لمن يسىء معاملته ، وإنما كان يقابل الغلظة بالرفق ، والخشونة باللطف ، والقسوة بالكلم الطيب ، والبسمة الصافية . . كان دائماً يطبق الحديث الشريف : رحم الله عبداً سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا اقتضى . وكانت سماحته فى البيع والشراء والمطالبة بحقه درساً عملياً فى أدب الإسلام . . علم الكثير حسن المعاملة ومكارم الأخلاق ورقة الشمائل . .

وكان يونس بن عبيد يرى أن نعمة البصر والسمع والجوارح كلها لا تعدلها كنوز الدنيا .. فليس من حق إنسان أن يشكو من ضائقة ألمت به ، لأن المال لا يوازى نعمة واحدة مما أنعم الله به على عبده ، دون أن يحس العبد عظمة هذه النعم . . فقد جاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو إليه ضيقاً من حاله ومعاشه واغتمامه منه بذلك . . فقال له يونس : أيسرك ببصرك الذى تبصر به مائة ألف درهم ؟ فقال الرجل : لا . فقال يونس : سمعك الذى تسمع به . . أيسرك به مائة ألف ؟ فقال الرجل : لا . فقال يونس : فؤادك الذى تعقل به . . أيسرك به مائة ألف ؟ فقال الرجل : لا . فقال يونس : يداك يسرك بهما مائة ألف ؟ فقال الرجل : لا . فقال يونس : رجلاك يسرك بهما مائة ألف ؟ فقال الرجل : لا . . فقال له يونس : أرى أن الله أعطاك مئات الألوف من النعم . . وأنت تشكو الحاجة ؟ إنك لو أنفقت عمرك فى شكر هذه النعم لما وفيتها حقها . .

ومع أن يونس بن عبيد كان على هذه الدرجة من الورع والتقوى ، فإنه كان يتهم نفسه بالتقصير ، ويرى أنه مفرط فى جنب الله ، وأنه لا يستحق أن يوصف بالصلاح . قال أحد معاصريه : بلغنى عن يونس بن عبيد فضل وصلاح فكتبت إليه : يا أخى بلغنى عنك فضل وصلاح فأحببت أن أكتب إليك . . فاكتب لى بما أنت عليه . . فكتب إلى :

أتانى كتابك تسألنى أن أكتب إليك بما أنا عليه . وأخبرك أنى عرضت

على نفسي أن تحب للناس ما تحب لها، وأن تكره لهم ما تكره لها، فإذا هي من ذلك بعيد . . ثم عرضت عليها مرة أخرى ترك ذكرهم إلا من خير ، فوجدت الصوم في اليوم الشديد الحر بالبصرة أيسر عليها من ترك ذكرهم. هذا أمرى يا أخي والسلام .

إنه كان يريد أن ينأى بنفسه عن الفخر والعجب والهوى . . فالمدح أحياناً يصيب النفس بالغرور ، ويعميها عن الحق . ولكنها تجتهد في العبادة ما دام صاحبها يتهمها بالتفريط والتقصير . . ويبتعد بها عن مواطن الكبرياء والزهو والصلف .

ولو أننا ألقينا السمع قليلا إلى ما يقوله يونس بن عبيد لعرفنا إلى أى حد كان هذا الرجل يعيش في لب الشريعة وجوهر أحكامها وأعماق أسرارها. فقد قال : احفظوا عني ثلاثاً : لا يدخلن أحدكم على سلطان يعظه ، ولا يخل بامرأة شابة وإن أقرأها القرآن ، ولا يمكن سمعه من ذى هوى : . وكان يقول أيضاً : خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما من أمره : صلاته ولسانه . فلا صلاة لمن يشهد الزور ، ولا ورع لمن يحيد عن كلمة الحق . . وأعز شيئين هما . . درهم طيب ، ورجل يعمل على سنة . .

وقد أسند يونس بن عبيد عن أنس بن مالك والحسن وابن سيرين وعطاء وعكرمة ومحمد بن المنكدر وغيرهم . . ومما رواه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المؤمن من أمنه الناس ، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر السوأى..والذى نفس محمد بيده لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه» كما روى عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وقد عاش يونس بن عبيد يؤدى حقوق الله كما يجب أن تؤدى إلى أن أصيب بمرض الموت في سنة مائة وأربع وعشرين فنظر إلى قدميه وبكى .

فقيل له : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ قال : قدماى لم تغبرا فى سبيل الله عز وجل ! فقال له أيوب السختيانى : والله ما فى العيش بعدك من خير . .

ثم فارق الدنيا وليس فى جسده جارحة واحدة عصت الله أو قصرت فى طاعته ، فقد أمضى عمره يخاف مقام الله ، وينتظر يوم لقائه به . . وقد لاقاه وصحفه مطهرة ، وسيرته تعبق بالمسك .

شريح بن الحارث الكندى

مكث قاضيا سبعين سنة

وكان موضع ثقة الخلفاء الراشدين

على الرغم من أنه لم يصل إلى المدينة المنورة إلا بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى . . فإنه سرعان ما اجتذب الناس إلى علمه وحكمته . . كما تجتذب الرائحة الطيبة فى الروض كرائم الطير . . كانت إذا أعضلت مسألة من مسائل الدين على أحد استفتى فيها شريح بن الحارث . . واطمأن إلى فتواه وعمل بها . .

وكان شريح لا يأخذ أجراً على الفتوى . ويقول : إن أجرى إلا على الله . . إذا حاول أحد أن يقدم له بعض المال . وقد عرفه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بطريق المصادفة . . فعينه على الفور قاضياً للكوفة . . أما كيف عرفه عمر ، فقد كان ، وهو خليفة ، اشترى فرساً من رجل . . واشترط أن يدفع الثمن بعد تجربة الفرس . . بيد أنه ما كاد يسير بالفرس بضع خطوات حتى عطب الفرس ، فقال لصاحبه : خذ فرسك ، فقال الرجل : لا. فقال له عمر ، وهو حاكم المسلمين : اجعل بينى وبينك حكماً .. فقال الرجل : نعم . شريح : فسأله عمر : من شريح ؟ فقال الرجل : شريح اليمنى . . فانطلقا إليه وقصا عليه القصة ، وانتظرا بماذا يحكم .. كان المتقاضيان : حاكم المسلمين ورجلا من عامة الناس . . والإسلام دين العدل ، وليس فيه مجاملة أحد على حساب أحد ، حتى ولو كان الحكم ضد أمير المؤمنين . .

ولذلك فإن شريح بن الحارث نظر إلى عمر وقال له : ياأمير المؤمنين رد الفرس كما أخذته ، أو خذه بما ابتعته .

صدر الحكم لصالح الرجل .. فلم يغضب عمر ، وإنما وجد أمامه رجلا يطبق مبادىء الإسلام كما أرادها الله . . رجلا أميناً على الكتاب والسنة ، حريصاً على كلمة الحق ، شجاعاً لا يخشى إلا الله . . فقال عمر لشريح : وهل القضاء إلا هذا ؟ . . سر إلى الكوفة ، فقد وليتك قضاءها . .

كان هذا أول منصب رسمي يتولاه شريح بن الحارث ، بعد أن كان مفتياً شعبياً ، وكانت عظمة عمر بن الخطاب فى هذا الموقف لا تقل عن عظمة شريح . . فشريح طبق شرع الله على أمير المؤمنين . . وعمر يريد تطبيق العدالة فى كل مكان ، فأكبر فى شريح أمانته مع الله ورسوله ، وحكمه بالعدل والقسطاس مهما تكن مكانة المتقاضين ، لا فرق عنده بين أمير المؤمنين ورجل من عامة الناس . . فالكل أمام شرع الله سواء . . ومع أن الفاروق عمر رضوان الله عليه أنزل شريح بن الحارث من نفسه منزلة كريمة ، وأحله من قلبه محلا أثيراً . . فإنه كدأبه فى تزويد الولاة والقضاة بتعاليم السماء ، وقيم الدين ، وأسرار الشريعة ، وأصول الحكم . ومنهج الإسلام فى المعاملات قال لشريح : إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتنك عنه ما ليس فى كتاب الله ، وانظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها.. فإنجاءك ما ليس فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ، فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . وفى رواية : فانظر فيما قضى به الصالحون ، فإن لم يكن ، فإن شئت فتقدم ، وإن شئت فتأخر . . وما أرى التأخر إلا خيراً ، والسلام . .

ذهب شريح بن الحارث إلى الكوفة ليتولى القضاء فيها بين الناس . . وقد خصص له أمير المؤمنين خمسمائة درهم راتباً شهرياً . . وكانت الدار التى نزل فيها شريح متواضعة ولا تقع على شارع ،ولذلكفإنه خصص فيها مكاناً للقمامة ، حتى لا يؤذى برائحتها الناس ، وجعل ميازيب المياه فى

جوف الدار ، لئلا يؤذى بها المارة من المسلمين . . وكان يعقد مجلس القضاء فى المسجد ليتوافر فيه شرط العلانية وحضور الناس ، ولم يكن يعقد هذا المجلس فى بيته إلا فى اليوم المطير ، كما كان يستفتح مجلس القضاء بقراءة هذه الآية الكريمة : « يادواد إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » . وكان يقول : إن الظالم ينتظر العقاب . . والمظلوم ينتظر النصر . . وقبل دخوله إلى مجلس القضاء كان يتوضأ ويصلى ركعتين ، ويسأل الله أن يهديه إلى العدالة . . وكان يستحضر فى ذهنه دائماً حديث المعصوم صلوات الله وسلامه عليه : « يجاء بالقاضى يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود لو لم يكن قضى بين اثنين» .وقوله صلى الله عليه وسلم: « ليس من وال ولا قاض إلا ويؤتى به يوم القيامة حتى يوقف بين الله يدى تعالى على الصراط ، ثم تنشر الملائكة سيرته فتقرأ على رءوس الخلائق ، فإن كان عدلا نجاه الله بعمله ، وإن كان غير ذلك انتفض به الصراط انتفاضة حتى صار بين كل عضوين من أعضائه مسيرة مائة سنة . ثم إن الصراط ينخرق به فما يتلقى قعر جهنم إلا بوجهه وحر جبينه » .

كل الأحاديث التى قالها الرسول عن القضاء والقضاة كانت حاضرة دائماً فى ذهنه ، وكانت إلى جانب تقواه وروعه وعدالته ونزاهته . . تشكل سلوكه ، وتصوغ تصرفاته ، وتصبغ منطقه بصبغة الإسلام الخالص . . فرسالة الفاروق له كانت تعطيه مرونة التصرف فى الأمور والقضايا التى تعرض عليه . . فله أن يقضى بما فى القرآن من الأحكام التى لم تنسخ ، فإن لم يجد فى القرآن فبسنة النبى صلى الله عليه وسلم . . فإن لم يجد فى السنة ، فبما أجمع عليه الصحابة . فإن لم يجد فى الإجماع اجتهد رأيه . . كان اجتهاد الرأى هو المشكلة التى تؤرق شريح بن الحارث ، إذ كان رغم علمه بأن القاضى إذا أخطأ فله أجر ، وإذا أصاب فله أجران ، فإنه لخشيته من الله كان يخاف الخطأ وعدم الحكم بالصواب . .

ولما قضى الفاروق نحبه ، وتبوأ مكاناً عالياً في جنة الخلد ، إذ كان من العشرة المبشرين بالجنة وتولى عثمان بن عفان أمور المسلمين ، أقر شريح ابن الحارث على منصبه ، وظل الرجل جالساً على منصة القضاء في الكوفة ، يحكم بين الناس بالعدل ، ويطبق شريعة الله ، حتى استشهد عثمان في فتنة هوجاء ما زال يهتز من بشاعتها وجدان التاريخ . . واختير الإمام على خليفة للمسلمين ، فكان يجل شريحاً ما وسعه الإجلال ، ويثنى عليه بما يناسب علمه ، ويوائم فضله . . كان الإمام على يقول لشريح : « أنت أقضى العرب » . وهكذا كان شريح موضع ثقة الفاروق وعثمان والإمام على . . لا لشىء إلا لأنه كان متفقهاً فى الدين كأعمق ما يكون التفقه ، عالماً بأصول الإسلام كأدق ما يكون العلم ، لماحاً فى استنباط الأحكام كأروع ما تكون اللماحية . . وقد لبث يمارس القضاء والفتيا سبعين عاماً كان خلالها نموذجاً للفقيه العابد . . حتى إن رجلا كمعاوية . . وقد حاول فى عهده أن يقصر المناصب القيادية على بنى أمية . . لم يمسس شريح بن الحارث . . بل أبقى عليه فى منصبه رغم ما كان بين شريح والإمام على من مودة ومحبة متبادلتين . .

وقد أسند شريح عن عمر بن الخطاب ، وعن عبد الرحمن بن أبى بكر . فقد روى شريح عن عمر عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها : « ياعائشة .. إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً .. إنهم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة . إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع . أنا منهم برىء . وهم منى براء » .

ويقول شريح : « حدثنى البدريون ،ومنهم عمر بن الخطاب ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها ، ويستقبل بشبابه طاعة الله تعالى إلا أعطاه الله تعالى أجر اثنين وسبعين صديقاً ، ويقول الله تعالى : أيها الشاب التارك شهوته من أجلى ، الباذل شبابه لى ، أنت عندى كبعض ملائكتى » .

وقد كان شريح بن الحارث من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن . وقد توفى فى سنة سبع وثمانين هجرية ، وعمره مائة وثمان سنين . أمضاها كلها ما بين دارس يتلقى العلم على شيوخ عصره ، وما بين قاض أو مفت

يبصر الناس بشئون دينهم . . وحسبه نباهة شأن فى الدنيا ، وعلو درجة فى الآخرة ، أنه لم يطلب الدنيا ، ولم يسع إلى منصب فيها ، ولم يطرق أبواب الحكام ولم يرق ماء وجهه من أجل المال ، وإنما كان شامخاً بعقيدته ، صلباً بإيمانه ، قوياً بصدقه مع الله ، القوى عنده ضعيف إذا كان ظالماً ، والضعيف عنده قوى إذا كان مظلوماً . . والعدل أولا وأخيراً هو الغاية التى يتغياها. وإنصاف المظلوم هو الهدف الذى يستهدفه . وقول الحق هو الكلمة التى تجرى على لسانه ، وقد خلف سيرة كنفح الورد فى صحف التاريخ . . سيرة قاض مسلم . . جسد مبادىء الإسلام فى أقواله وأفعاله . . فنعم الرجل ونعم التاريخ . . ورحم الله شريح بن الحارث فى الخالدين .

صلة بن أشيم العدوى

استشهد هو وابنه فى ساعة واحدة
وطلبت امرأته أن يهنئوها فى الشهيدين

من حق هذا البيت المسلم على التاريخ أن يحفه بهالة من الجلال والإعظام ، وأن يجعل من سيرته المتلألئه الوضاءة عقدا فى جيد البطولات والتضحيات .

فهذا البيت وإن يكن من أصغر بيوت البصرة ، إلا أن السماء باركته وبسطت عليه ظل الهداية . . فصار أهله قدوة فى الكلم الطيب والعمل الصالح والجهاد المقدس . . كان صلة ابن أشيم العدوى من كبار التابعين من أهل البصرة فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد . . ويتحلى بأدب الإسلام فى القول والسلوك . . لا يشاتم أحدا . . ولا يماريه بالباطل . ولا يفتى إلا بما يعلم ، وإذا أراد أن يقدم نصيحة فإنه يكسوها ثوبا من اللين واللطف ورقة الأسلوب . . لكى تفعل فعلها فى القلب . وتترك بصماتها فى النفس ، وتؤدى هدفها النبيل ، دون عجاجة أو لجاجة . . وكان يطبق القرآن على نفسه ، سواء فى معاملته مع الله ، أو فى معاملته مع الناس . . لا ينحرف قيد شعرة عن الصراط المستقيم الذى رسمه الله لعباده المؤمنين . .

وكان صلة بن أشيم العدوى إذا دخل فى الصلاة ينسى نفسه وينسى ما حوله . . ولا يبقى فى قلبه ولا فى وجدانه إلا الله . . حتى إن طول الصلاة

كان ينهك جسده دون أن يدرى . . وكان لا يفرغ من الصلاة إلا بعد أن يجد نفسه عاجزاً تماماً عن الركوع والسجود . . وكثيراً ما كان يزحف إلى فراشه بعد الصلاة ، لأنه لا يستطيع أن يأتى الفراش إلا حبواً . . ولهذا أمضى معظم شبابه عازفاً عن الزواج ، لا يفكر فى النساء أبدا . . وكان ينصح الشباب بأسلوب مهذب وبعبارات تحمل فى طيها الإقناع . . فهو إذا رأى شباباً يفعلون ما لا يرضاه ، لا يدعهم وشأنهم ، وإنما يبسط لهم يد الموعظة رقيقة حتى يأخذهم إلى طريق الهداية برفق . .

حدث أن رأى شباباً يلهون ويلعبون فى شوارع البصرة . فقال لهم : أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً ، فحادوا فى النهار عن الطريق ، وناموا الليل . فتى يقطعون سفرهم ؟ ففهم شاب منهم مغزى كلامه ، وقال لإخوانه : والله ياقوم . إنه ما يعنى بهذا غيرنا . نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام . . وكانت هذه الكلمات بمثابة ضوء كشاف أنار الطريق أمام هذا الشاب ، فترك اللهو واللعب ، واتجه إلى العبادة والحياة الجادة ، وأصبح من صفوة شباب البصرة . . علماً وخلقاً وسلوكاً . .

وبهذا النهج الإسلامى فى تربية الشباب استطاع صلة بن أشيم العدوى أن يؤدب كثيراً من شباب البصرة بأدب الإسلام . . كان الشباب يرى فى سلوك هذا الشيخ وفى نصائحه تطابقاً تاماً وتلاحماً كاملا . . فهو يأمر بالصلاة ويؤدى المكتوبة فى وقتها . . أما النوافل فيصليها فى البيت . . وهو يأمر الشباب بصيام التطوع ، إعمالا لقول الرسول : يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء،أى وقاية . . وكان صلة بن أشيم يصوم الدهر ، ويفطر على بضع تمرات . اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهكذا فى باقى العبـــادات كان نموذجاً طيباً للشبـــاب . . يفعل ما يوصيهم به ، ويأخذ الأمور بسماحة نفس ، ودماثة طبع ،وليونة مقال .. حدث أن مر به شاب يجر ثوبه زهواً وصلفاً وخيلاء . . واستنكر أصحابه هذا المنظر ، وأرادوا أن يسلقوا هذا الشاب بألسنة حداد . . ويردعوه بالعنف حتى لا

يكون مثلا سيئاً لشباب البصرة . . إلا أن « صلة » قال لهم : دعونى أكفكم أمره . . ثم قال للشاب « ياابن أخى لى إليك حاجة » . فقال له الشاب : « وماحاجتك ؟ » . قال « صلة » : أن ترفع إزارك . . فقال الشاب : سمعاً وطاعة . . ورفع إزاره على الفور . . فنظر « صلة » إلى أصحابه وقال : هذا أمثل مما أردتم . . فلو شتمتموه لشتمكم . .

وكان صلة بن أشيم مستجاب الدعاء . . ما رفع يديه إلى السماء يوماً وسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . . وما وقع فى ضائقة وطلب إلى الله الفرج إلا وفرج الله ضائقته ، وبدل عسره يسراً . . ويحكى جعفر بن زيد ، وكان من أهل البصرة أيضاً ، واقعة رآها بعينيه تدل على مدى الروحانية التى كان يتمتع بها صلة بن أشيم ، وكانت تجعله مهيباً حتى فى أعين الوحوش . . يقول جعفر : خرجنا فى غزاة وفى الجيش صلة بن أشيم ، فنزل الناس عند العتمة ، فقلت لأرمقن عمله الليلة . . فدخل غيضة « غابة كثيفة الشجر ».. ودخلت فى إثره ، فقام يصلى ، وجاء أسد ودنا منه ، وصعدت أنا فى شجرة خوفاً من الأسد ، وقلت فى نفسى : إن الأسد سيفترسه الآن . . ولكننى رأيت « صلة » لا يأبه بالأسد ، وكأنه جرو أو هر . . وأخذ يصلى والأسد واقف فى مكانه لا يتحرك . . ولما فرغ من صلاته وسلم نظر إلى الأسد وقال : أيها السبع . . إن كنت أمرت بشىء فافعل . وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر . . فولى الأسد وله زئير تتصدع منه الجبال . . ولما طلع الفجر وأدينا الصلاة ، راح يشكر الله ويبكى . . اللهم إنى أسألك أن تجيرنى من النار . . أو مثلى يجترىء أن يسألك الجنة . . ثم رجع إلى الجيش وهو أشد ما يكون نشاطاً وأنا أكثر ما أكون فتوراً . .

ولعل ما فعله صلة بن أشيم فى ليلة زواجه من معاذة بنت عمه شىء يثير العجب . . ولكن يزول العجب إذا علمنا أن معاذة كانت مؤمنة تقية زاهدة ورعة لا تقل عن ابن عمها «صلة» إيماناً وتقوى . . ففى ليلة الزفاف جاء إلى « صلة » ابن أخيه وأدخله الحمام ليغتسل بالماء الساخن ، ثم صحبه إلى بيت العروس ، وقد رش بالطيب ، وفرش مدخله بالزرع الأخضر . . ولكن « صلة » لم يجلس مع العروس وإنما قام يصلى وقامت معاذة تصلى معه ،

وسهرا يصليان حتى برق الصبح . . وعلم ابن أخيه بما حدث فى ليلة الزفاف ، فجاءه وقال له : أى عم .. كيف قمت تصلى فى تلك الليلة وتترك زوجتك؟ فرد عليه « صلة » قائلا أنت المسئول عن ذلك ! إنك أدخلتنى بيتاً أول النهار أذكرتنى به النار ، وأدخلتنى بيتاً آخر النهار أذكرتنى به الجنة . فلم تزل فكرتى فيهما حتى أصبحت . . أما البيت الذى أذكر به النار فهو الحمام . وأما البيت الذى أذكر به الجنة فهو بيت العروس .

كان صلة بن أشيم يفكر فى الجنة والنار حتى فى ليلة زفافه . . إن خواطره كلها فى الله لم تبرح ذهنه حتى فى اللحظات الفريدة من العمر . . فالدنيا بما فيها من زوجة ومتاع لا تلهيه عن ذكر الله وعبادته ، ولا تصرفه عن أداء ما ألزم به نفسه من صلاة التطوع . . وقد أراد الله لهذا العابد العالم أن تختم حياته كما تختم حياة الشهداء فى الدنيا ، حتى يظل حيا عند ربه يرزق مع الأبرار والصديقين ، فقد خرج إلى الجهاد مرة ثانية ، وكان عهد عبد الملك بن مروان متسماً بالفتوح والمعارك . . وخرج ابن « صلة » معه ، وكان شاباً فى مقتبل العمر .. ولما استحر القتال وثار النقع ، وحمى وطيس المعركة ، قال « صلة » لابنه : أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك . . ! ! عبارة لا يقولها إلا مؤمن عميق الإيمان يؤثر ماعند الله على الولد والحياة الدنيا . وهنا يتقدم الشاب المؤمن ويقاتل حتى يقتل فى سبيل الله . . ويتقدم « صلة » إلى معمعان المعركة ، ويقاتل حتى يفوز بالشهادة هو الآخر . . وكان مشهداً إنسانيا عظيماً أن تصعد فى ساعة واحدة روح ابن وروح أبيه ، لتلتقيا عند الله فى جنات النعيم . .

ويزيد المشهد جلالا وروعة أن تقف معاذة العدوية لتقول لنساء البصرة اللائى جئن ليعزينها فى زوجها وابنها : إن كنتن جئتن لتهنئتى فمرحباً بكن . . وإن كنتن جئتن لتعزيتى فارجعن . . وتفيض عبرات النساء فى صمت . . وينظرن إلى وجه معاذة فيجدنه مسفراً كالبدر ، لا أثر فيه لشحوب الحزن . . وإنما يتلألأ بنور الصبر والإيمان .

عَبدُ ٱللَّهِ بنُ عَامِرٍ

أول من بنى الحياض بعرفة
ليشرب منها الحجاج كل موسم

لم يتح له أن يشارك فى معارك الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه ولد بمكة المكرمة بعد الهجرة النبوية بأربع سنوات . وكان عمره تسع عشرة سنة يوم انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، كما أنه لم ينعم برؤية الرسول صلى الله عليه وسلم إلا وهو ابن ثلاث سنوات حين ذهب الرسول لأداء عمرة القضاء فى السنة السابعة من الهجرة . . فعندما وضعه أهله بين يدى الرسول حمله وقبله . وقال : هذا ابن السليمية ؟ قالوا : نعم.. فقال صلى الله عليه وسلم :هذا ابننا . وهو أشبهكم بنا . وهو مسقى . . ولقد تحققت فيه نبوءة الرسول . فكان لاينزل بأرض إلا ظهر فيها الماء ، وكان الناس يتفاءلون به ،ويتوقعون خروج الماء من أى أرض وطئتها قدماه . .

وكان عبد الله بن عامر من صفوة شباب قريش . . تمثلت فيه الشمائل العربية الأصيلة ، فهو جواد شهم شجاع ، كما أنه عف الثوب واللسان . . وكأنما كانت الأقدار تهيئه للزعامة والصدارة والقيادة ، وتعده للمهام الكبرى . فما إن بلغ الخامسة والعشرين من عمره حتى سطع نجمه سطوعاً يخطف الأبصار . . فقد عينه أمير المؤمنين عثمان بن عفان والياً على البصرة . . مكان أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه . . وكتب عثمان كتاباً لأبى موسى يقول له فيه :

« إنى لم أعزلك عن عجز ، ولا عن خيانة ، وإنى لأحفظ قيد استعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إياك . . وإنى لأعرف فضلك ، وأنك من المهاجرين الأولين ، ولكنى أردت أن أصل قرابة عبد الله بن عامر ، وقد أمرته أن يعطيك ثلاثين ألف درهم » .

كان خطاب عثمان بن عفان إلى أبى موسى الأشعرى يعبق برائحة الصدق فى عمليّى العزل والتعيين .. فهو لم يعزل أبا موسى لأسباب ومبررات توجب العزل ، وإنما السبب المباشر لعزله هو تعيين أحد أقربائه ، إذ كان عبد الله ابن عامر ، ابن خال عثمان بن عفان . .

وكما كان كتاب العزل رقيقاً بالغ الرقة ، فإن عبد الله بن عامر كان فى لقائه وسلوكه مع أبى موسى الأشعرى أكثر رقة ولطفاً وليناً ودماثة . . فقد قال له حين لقيه : يا أبا موسى . ما أحد من بنى أخيك أعرف بفضلك منى . أنت أمير البلد إن أقمت ،والموصول إن رحلت .

ثم قدم عبد الله بن عامر مبلغ الثلاثين ألف درهم إلى أبى موسى الأشعرى فأبى أن يأخذها . . وقال له : جزاك الله يا ابن أخى خيراً . . ثم ارتحل إلى الكوفة ولم يكن معه يوم عزله شىء من المال .. ومع ذلك أبى شممه أن يتناول المبلغ الذى خصصه له أمير المؤمنين ، كمكافأة لنهاية الخدمة ، كما نقول فى هذه الأيام، وسافر إلى الكوفة خاوى الوفاض .. ويتحدث أبو موسى عن هذا الموقف فيقول :

« والله لقد عزلنى عثمان عن البصرة ، وما عندى دينار ولا درهم ، حتى قدمت على أعطية عيالى من المدينة » .

وهكذا كان سلوك الذين يتولون المناصب القيادية فى صدر الإسلام ، قد يمسون وليس فى بيوتهم دينار ولا درهم . . مع أن الخراج والفىء تحت أيديهم . إلا أنهم كانوا يحاسبون أنفسهم أولا فأولا ، ويحرصون على المال العام ، حرصهم على العبادة وطاعة الله عز وجل . . فلم تكن المناصب عندهم وسيلة للترف والفخفخة والثراء والانتهال من متاع الدنيا وإنما كانت وسيلة

لإقرار العدل ، والقضاء على المظالم ، وتطبيق أحكام الله . .

وقد أبرز عبد الله بن عامر كفاءة إدارية جعلت أهل البصرة يتعلقون به ، ولا يعقدون المقارنات بين سلوكه وسلوك أبي موسى الأشعرى ، باعتبار أن ابن عامر شاب لم ينصهر فى بوتقة الجهاد كما انصهر أبو موسى ، ولم تكن له سابقة فى الإسلام مثل الأشعرى .. وكانت هذه أول خطوة خطاها ابن عامر على طريق النجاح..ولعل الخلال الكريمة التى تربى عليها كانت ذات أثر فى التفاف الناس حوله ، وانضوائهم تحت قيادته ، وتحقيق أخطر الإنجازات العسكرية فى عهده . .

فقد استطاع ابن عامر أن يقضى على جيوب فارس التى كانت تناوئ المسلمين بعد هزيمة الفرس فى القادسية وسقوط المدائن فى أيدى المسلمين . . وقد حقق فى ميادين الجهاد ما كشف عن عبقرية عسكرية فيه تضارع عبقرية القواد العظام الذين أداروا المعارك بفن واقتدار . . ففتح خراسان كلها وسجستان وكرمان وبلاد غزنة . . ثم توجت هذه الفتوح بقتل كسرى آخر ملوك الفرس ، وكان اسمه يزدجرد . . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تنبأ بأنه إذا هلك كسرى فلا كسرى بعـــــده . .

أما كيف قتل كسرى ، وكان ذلك فى سنة واحد وثلاثين هجرية ، فإنه بعد أن انهزم عنه أصحابه ، عقر جواده ، وذهب ماشياً ، حتى دخل رحى على شط نهر يقال له المرعاب. فمكث فيه ليلتين ، والترك فى طلبه لا يدرون أين هو..ثم جاء الطحان صاحب الرحى فرأى كسرى عليه تاجه ومنطقته وسيفه ، فقال له متعجباً : من أنت؟ إنسى أم جنى؟ فقال كسرى : إنسى . هل عندك طعام ؟ إننى ما أكلت منذ يومين . . فقال صاحب الرحى : نعم . . وأتاه بطعام . . ولكن كسرى قال له : إنى مزمزم . فأتنى بما أزمزم به . . والزمزمة هى كلام يقوله المجوس عند أكلهم بصوت خفى . . فرجع الرجل إلى أحد الأساورة ، وطلب منه ما يزمزم به . . أى طلب طعاماً يمكن تناوله مع

تحرك اللسان بالكلام..فسأله الأسوار . وما تصنع به ؟ قال : عندى رجل لم أر مثله قط . . وقد طلب منى هذا . . فقال : يجب أن نخبر بأمره ملك البلاد ، أى ملك مرو .. وعندما أخبراه خبر هذا الرجل قال: لرجاله إنه يزدجرد. اذهبوا فجيئونى برأسه. . فذهبوا مع الطحان . . ولما وصلوا إلى دار الرحى هابوا أن يقتلوه ، وتدافعوا ، وقالوا للطحان: دخل أنت فاقتله ، فدخل فوجد كسرى نائماً ، فأخذ حجراً وشدخ به رأسه ، ثم فصله عن جسده ودفعه إليهم ، وألقى جسده فى النهر .

ولما علم عبد الله بن عامر بمصرع كسرى ، أحرم من البصرة ، وسافر إلى مكة ، ليعتمر ، شكراً لله . . ثم ذهب إلى المدينة ، ليوزع على أهلها الأموال ، ابتهاجاً بالقضاء على آخر ملوك الفرس . .

ولما جلس إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال له : صل قومك من قريش . . . فأرسل إلى على بن أبى طالب بثلاثة آلاف درهم وكسوة . . فلما وصل إلى على هذا المبلغ الضئيل الذى لا يتناسب ومنزلته فى الإسلام قال: الحمد لله أنا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . . وحين بلغ عثمان ما قاله على ابن أبى طالب ، قال لابن عامر : قبح الله رأيك . . أترسل إلى على بثلاثة آلاف درهم ! فقال ابن عامر : كرهت أن أغدق . ولم أدر ما رأيك . فقال له عثمان : أغدق ، وأرسل إلى الأنصار بالكسوة والمال . .

عندئذ أرسل عبد الله بن عامر بثلاثين ألف درهم إلى على بن أبى طالب واعتذر إليه . كما أرسل إلى كل بيت من بيوت الأنصار الكساء والعطاء ، مما جعلهم يتحدثون بسخائه حتى بعد أن رحل عن المدينة ،وعاد إلى عمله بالبصرة.

وكانت سياسة عبد الله بن عامر فى البصرة قائمة على تلبية احتياجات الناس ، وتوفير الراحة لهم ،وقضاء حوائجهم بأيسر الوسائل ، وقد وجد أن التجار متفرقون فى أنحاء مختلفة من المدينة ، وأن الإنسان إذا أراد شراء أكثر من سلعة فإنه يضطر إلى الذهاب هنا وهناك حتى يحصل على مايريد،فقام

ابن عامر بشراء عدد من الدور وهدمها ، وأقام مكانها سوقاً يضم أنواع التجـــارة . . .

كما أنه قام ببناء حياض فى عرفة، وأجرى إليها الماء ليشرب منها الحجاج . وبذلك وفر السقاية لهم حتى اليوم . .

وعلى الرغم من أنه كان قائداً عسكرياً داهية ،ومن أنه كان متزوجاً بنت معاوية ، فقد تجنب المعارك التى قامت بين الإمام على ومعاوية وآثر البعد عن هذه الفتنة ، وظل فى الشام فترة من الزمن . . ثم طلب إلى معاوية أن يوليه على البصرة حتى يتمكن من استرداد الودائع التى له عند بعض أهلها ، فولاه عليها ثلاث سنين . . ثم مات ابن عامر قبل معاوية بسنة ، أى فى سنة ثمان وخمسين هجرية ، فقال معاوية : يرحم الله أبا عبد الرحمن. بمن نفاخر بعده ؟ وبمن نباهى ؟

عمران بن الحصين

امتحنه الله بالمرض ثلاثين عاماً

فــكان مثال المؤمن الصابر

بلغ من شفافيته، وطهــارة صحفه،ونقاء ضميره،وعفة لسانه . أن الملائكة كانت تسلم عليه وتصافحه كأنه واحد منها . . وكان يراها بأجسامها النورانية ، وأجنحتها الأثيرية ، لأنه ارتفع ببشريته ، وسما بآدميته ، فوق صفاتها الترابية التى تجعلها لصيقة بالأرض ، واستطاع أن يحول القوة الكامنة فى غرائزه إلى طاقة روحية تدفعه إلى القيام بحق الله تعالى ، ليلا ونهارا .. إذ امتلأ قلبه حتى فاض بحب الله ورسوله . فلم تجد الدنيا مكانا لها فى قلبه ، ولا موضعا لها فى شعوره وأحاسيسه .. فثوبه القديم البالى أروع فى نظره من طيلسان الملوك . . ولقمة الخبز الجاف فى فمه أشهى من أطايب الطعام والموائد الفاخرة فى قصور الأكاسرة والقياصرة . . لماذا ؟ لأن لذة العبادة ملكت عليه أقطار نفسه ، وتمكنت من جوارحه ، فلم يجد معها لذة أخرى من ملذات الدنيا . . فلا عجب إذا تحولت بشريته إلى قبس سماوى ، وأصبح مخلوقا أثيريا ، كالعطر الذى خرج من أوراق الزهرة وأصبحت صلته بالزهرة ، صلة اللؤلؤة بالصدفة ، أو صلة اللباب بالقشور . .

فمن هو عمران ابن الحصين الذى بلغ هذه المنزله الرفيعة ، وارتقى إلى هذه الدرجة العالية ، واتخذ له مكاناً مميزاً فى ساحة التاريخ ؟ . . إنه لم يكن من الطلائع الأولى فى الإسلام ، ولم يكن بدرياً ، أى شهد غزوة بدر ، وإنما تأخر إسلامه إلى السنة السابعة من الهجرة . . ففى شهر المحرم من هذه السنة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد فرغ من القضاء على يهود خيبر ، إذ كانوا يتربصون بالمسلمين ، ويحاولون غزو المدينة ، ولكن النبى فاجأهم فى حصونهم ، واستأصل شأفتهم ، وجعل المدينةفى مأمن من هذا الخطر المتوقع..

فى هذا الشهر ذهب عمران بن الحصين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ليبايعه — وهنا وقف التاريخ يطأطىء رأسه ليشهد ميلاد فارس جديد من فوارس الإسلام . . فقد كان عمران بن الحصين شخصية متوازنة . . يتروى فى الأمور ، ويعالجها بحكمة وأناة . وقد قرر منذ اللحظة الأولى لاعتناقه الإسلام أن يجعل حياته كلها خالصة لله تعالى ، ولذلك نهج منهجاً ربانياً فى سلوكه . . كان يقيس أعماله كلها بمقياس الإسلام . فلا يلقى سمعه إلا لما يعرف أن فيه رضوان الله عز وجل . . ولا يرسل بصره إلا لما يقربه منه سبحانه وتعالى . ولا يمده يده إلى شىء يغضب الله . . حتى خطرات قلبه جعلها فكراً وتأملا وعبادة . . ومن ثم حدث تحول رائع فى حياته . . كانت كالأرض الصالحة للزراعة . . فبدلا من أن يتركها تنبت فيها الحشائش الضارة وتمتلىء بالأفاعى السامة ، غرس فيها الشجر المثمر ، والزهر الفواح بالعطر والعبق . . وأخرج من نفسه رواسب الجاهلية ، وأحل محلها قيم الدين وتعاليم السماء وتوجيهات الوحى .

وكان عمران بن الحصين بالغ الحرص على حضور مجلس الرسول..فقد كان يجلس بالقرب من النبى . . وكل جوارحه آذان مصغية تلتقط كل لفظ يخرج من بين شفتى الرسول صلى الله عليه وسلم . . وقد ساعدته ذاكرته الخصبة الثرية على حفظ كثير من أحاديث الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مما جعله أحد الرواة المعتد بهم ، والمشهود لهم بالصدق والثقة كما كان يحفظ القرآن الكريم ، ويقوم به الليل تالياً ومرتلا . . حتى إن الحفظة الكاتبين لم يكتبوا فى

صحفه إلا عملا صالحاً وعبادة مبرورة وجهاداً مقدساً فى الله ، فكان مثلهم يسبح الله ويوحده ويتلو كتابه ويريد وجهه آناء الليل وأطراف النهار . . ولذلك شفت بصيرته وصفت روحه واستنار قلبه ورق كيانه كله حتى أصبح مثل الحفظة : صفاء ونقاء وشفافية وطهارة وسموا ، فكانت الملائكة تتراءى له ، وتهبط إليه ، وتصافحه ، وتشهد عبادته . .

ثم إن الله سبحانه وتعالى ابتلاه كما يبتلى عباده المقربين إليه ، ليظهر للناس مدى صدق إيمان هؤلاء العباد ، لأنهم أهل الله وخاصته ، فقد أصيب عمران ابن الحصين بمرض الاستسقاء ، ولم يكن عند العرب من علاج لهذا المرض إلا الكى ، ولكنه رفض أن يكوى بالنار ، واحتمل آلام هذا المرض ثلاثين عاماً ، كان خلالها مثال المؤمن الصابر الشاكر لله..كما كان مثال العابد المجتهد..لم تفته صلاة الجماعة مرة واحدة..ولم تشغله الآلام عن عبادة الله ، ولم تند عن شفتيه كلمة واحدة فيها تململ أو تبرم بما يكابده من أوجاع ، أو يعانيه من أسقام..وكان إذا سأله أحد عن مرضه ، أو واساه بكلمة رقيقة لا يزيد على قوله : الحمد لله . . إننى أحب ما يحبه الله . . .

ومضت الأيام بهذا العابد الصابر الشاكر المستسلم لقضاء الله وقدره ، وهو فى سياج متين من إيمانه وعقيدته . . ونظراً لما كان يتمتع به من علم غزير وثقافة واسعة ومعارف جمة تلقاها على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد اختاره عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ليفقه أهل البصرة فى شئون دينهم. وكان عمر دقيقاً فى اختيار الرجال للمهام التى يكلفهم بها ، فذهب عمران ابن الحصين إلى البصرة ، وكان نعم الداعية قولا وسلوكاً . . وقد ظل يمارس نشر الدعوة هناك فترة من الزمن . . حتى تم اختياره قاضياً فكان منصب القضاء عبئاً ثقيلا على نفسه ، لأنه كان يخشى أن يختل ميزان العدالة فى يده عن خطأ فيظلم بريئاً ، ويبرىء ظالماً . . ولكن لم تطل فترة بقائه فى منصب القضاء . . فقد ذهب إليه رجل وقال له : لقد قضيت على بجور . . فقال له عمران : وكيف ذلك ؟ فقال الرجل : لقد شهدوا على زورا . . فسأله عمران : بماذا حكمت عليك ؟ فقال الرجل : حكمت على بدفع

كذا من المال . . فقام عمران وأحضر المبلغ الذى قال به الرجل وأعطاه إياه . .
وقال له : خذ هذا المبلغ من مالى .. ووالله لن أجلس مجلس القضاء مرة ثانية.

ومرت فترة من الزمن ، أراد بعدها زياد أن يعين عمران بن الحصين والياً على خراسان . . فأبى . ولما سأله أصحابه عن سبب الرفض قال لهم : إنى والله ما يسرنى أن أصلى بحرها ، ويصلون ببردها . . ماذا أفعل إذا طلب منى زياد أمراً فيه معصية لله عز وجل . . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . فإذا أنا امتثلت لأمر زياد عصيت الله ، وهذا ما أتحاشاه طول عمرى ، وإذا أنا رفضت طلبه ضرب عنقى . . .

وهكذا وضع عمران بن الحصين النقط فوق الحروف بالنسبة لرفضه الولاية على خراسان . . وإزاء هذا الرفض قام زياد بتكليف الحكم بن عمرو الغفارى بهذه المهمة . ولما علم عمران بذلك بعث إلى الحكم فجاءه على الفور ، وقال له عمران : إنى أريد أن أذكرك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . .

وكان عمران يحفظ الكثير من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لا يحدث بها كلها . . ولما سأله أحد أصدقائه عن السبب ، قال : والله إن شئت لحدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يومين متتابعين لا أعيد حديثاً . . ولكن يمنعنى من ذلك أن رجالا شهدت كما شهدوا ، وسمعت كما سمعوا يحدثون أحاديث يخالفونى فيها . . وأنا أخاف أن أزيدها حرفا كما قال عمر . . ومع ذلك فقد روى عمران أحاديث كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم . منها حديث فى الجهاد يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم . ومن غزا بنفسه فى سبيل الله ، وأنفق فى وجهه ذلك ، فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم . ثم تلا قوله تعالى : والله يضاعف لمن يشاء . .

ومع أن عمران بن الحصين كان على هذه الدرجة من العلم والورع والتقوى

فإنه كان شديد الخوف من الله ، وكان يعرب عن خوفه من الله بقوله : « وددت لو أنى كنت رماداً تذرونى الريح فى يوم عاصف » . وقد ظل مرض الاستسقاء يصهر جسده المعتل فى بوتقة الألم حتى رضى بالكى بالنار ، وذلك قبل وفاته بسنتين . . ولكن الكى لم يفده شيئاً ، وظلت الآلام تستشرى فى بطنه وتتفاقم حتى أحس بدنو أجله وقرب رحيله من الدنيا فراح يقدم لأهله وصيته ويقول لهم : إذا مت وخرجتم بى فأسرعوا المشى ، ولا تهودوا بى ، كما تهود اليهود والنصارى ، وأيما امرأة صرخت على فلا وصية لها ، واجعلوا قبرى مربعاً ، وارفعوه أربع أصابع عن الأرض . . وإذا رجعتم فانحروا وأطعموا . .

ثم تلألأ وجهه وأسفر كالبدر ، وامتلأت حجرته بعبق الجنة وعبيرها . . وكأنما كشف الله له عن منزلته فى الجنة فقرت عيناه ، وطابت نفسه . وبدأ رحلة الآخرة ، وهو أسعد ما يكون بهذه الرحلة الخالدة .

عتبة بن غزوان

بدأ حياته مع الإسلام غريبا
ومات غريبا من أجل الإسلام

احتمل

فى سبيل الدعــوة مالو أصاب جبلا لتصدع وأصبح كثيبا مهيلا . . ولم يجد وحشة فى مطارح الغربة لأنه كان يحس الأنس بالله ويشعر بأن الدنيا تحت قدميه . . رغم أنه لم يمتلك من متاعها شيئاً . . فقد بكر بدخول الإسلام ، والمسلمون يومئذ أقل من عدد أصابع اليدين . . وكان يعلم ما سوف ينتظره من تعذيب وتنكيل واضطهاد . . ولكنه اختار طريق الحق ، مهما يكن فيه من أشواك وصخور . . ولذلك فإن عنت قريش معه لم يكن مفاجأة له ، وإنما كان أمرا محسوبا ومقدرا . . وقد استقبله بنفس راضية وقلب صبور . . وهاجر مع الرعيل الأول إلى الحبشة ، ووجد أنه أشد ما يكون سطوعا بالإسلام . . وهناك عاش عتبة بن غزوان ينتظر بشوق منهوم اليوم الذى يعود فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينعم بالجلوس معه والاستماع إليه ، وتلقى تعاليم الإسلام على يديه .

وما كاد يأتيه نبأ الهجرة حتى سارع بالذهاب إلى المدينة ليكون بجوار النبي والبررة الأطهار الذين نالوا شرف صحبته ، وأشربت قلوبهم حبه ، وباعوا أنفسهم لله ، وكانوا نواة دولة عظيمة حملت منهج الله إلى الإنسانية ..

كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة يقيم فى الطابق الأول من دار أبى أيوب الأنصارى . . وكان يجتمع بأصحابه فى هذه الدار حينا ، وفى المسجد فى معظم الأحيان، ليعلمهم مبادىء الإسلام، ويربيهم على قيم الحنيفة السمحة . ويصقل قلوبهم وعقولهم بنور الوحى . وقد تعلم عتبة بن غزوان فى الفترة التى عاشها بين عودته إلى المدينة وبين غزوة بدر كل مافاته خلال إقامته فى الحبشة . . وكان جلدا ، قوى البنية ، فارع الطول ، وضىء الملامح . يتأجج حماسة من أجل الإسلام . . ويفتديه بنفسه وماله . . وتمثل هذا كله يوم أن أذن مؤذن الجهاد لغزوة بدر . .

جرد عتبة بن غزوان سيفه ، وخرج فى طليعة المجاهدين ، يخوض أول معركة تحت راية الإسلام . . ولم يكن يجيد الطعن بالسيف فحسب . . وإنما كان راميا من أمهر الرماة . . وقد ظهرت براعته القتالية فى هذه الغزوة على أتم وأكمل وأروع ما تكون براعة مقاتل ، تدفعه العقيدة . . وتحثه الإيمان . . وشاء الله أن تدور الدائرة على المشركين فى هذه الغزوة ، ويحقق المسلمون انتصارا عظيما سارت بذكره الركبان . .

وتمضى الأيام بالأمة الإسلامية ، فتزداد قوة وانتشاراً ، ويقبل عليها الناس من كل حدب وصوب . . ولم تتوقف مسيرة الدعوة يوماً واحداً رغم المؤامرات التى دبرت لها ، سواء من المنافقين فى الداخل ، أو من القوى الأجنبية فى الخارج ، مثل الفرس والروم . . وتخيل أعداء الإسلام أن شوكة المسلمين ستضعف بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، ولكن خاب تصورهم . . فقد كانت جيوش الفتح تملأ الدنيا من الشرق إلى الغرب . .

وما يعنينا هنا هو ما أسهم به عتبة بن غزوان فى الفتح الإسلامى . . فقد شارك فى جميع المعارك الإسلامية ، وكان دوره فى معركة القادسية بارزاً وملحوظاً ، مما جعل عمر بن الخطاب يختاره أميراً للبصرة ، فذهب إليها وكانت تسمى يومئذ أرض الهند ، فاختطها وضرب قيروانه فيها ، وأقام معه جماعة من المسلمين كانوا قد شاركوا فى حرب الفرس .

وفى أول خطبة خطبها فى البصرة تحدث عن سابقته فى الإسلام . . فقال فيما قال: لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سبعة ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر . . وشوك القتاد . . حتى تقرحت أشداقنا . . ولقد التقطت يومئذ بردة فشققتها بينى وبين سعد بن أبى وقاص . .

ثم قال : ولقد رأيتنا بعد ذلك ، وما منا أيها الرهط السبعة إلا أمير على مصر من الأمصار . . وإنه لم تكن نبوة إلا تناسخها ملك . . فأعوذ بالله أن يدركنا ذلك الزمان ، الذى يكون فيه السلطان ملكاً . وأعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيماً ، وفى أنفس الناس صغيراً ، وستجربون الأمراء بعدنا فتعرفون وتذكرون . .

بهذه الخطبة وضع عتبة بن غزوان أمام جنده صورة صادقة عن ماضيه وحاضره . . وعما يتوجس منه . . فقد احتمل الجوع وعانى من الحرمان حتى إنه كان والسبعة الذين أسلموا عند بزوغ فجر الدين يأكلون ورق الشجر والشوك . . لأنهم لا يجدون سواهما . . ومع هذا الفقر وهذا الحرمان لم يتزعزع إيمانهم لحظة واحدة ، ولم يستطع الشيطان أن يزلهم أو يضلهم . . لماذا ؟ لأنهم كانوا قد ارتفعوا فوق شهواتهم وغرائزهم ، وسموا فوق زخارف الدنيا ، وبهجة الحياة . . وإذا كان الله يمتحن المؤمنين ، ويبتلى المتقين ، فلأنه يدخر لهم أرفع الدرجات وأعلى المناصب .. هبة منه ومنحة من لدنه . .

وهكذا تحولت حياة عتبة بن غزوان من جوع وفقر وحرمان وغربة إلى حياة سيادة وقيادة وصدارة وزعامة . . ولكن الحياة الأولى أو الفترة الأولى من الحياة . . كانت غرساً للفترة الثانية . . فأثمر هذا الغرس المبارك .. وكانت ثمرته أن أصبح هذا الفقير المعدم أميراً على البصرة .. وقائداً مرموقاً من صفوة قواد المسلمين . . اختاره عمر بن الخطاب ليواجه الفرس فى هذه المنطقة ويردهم على أعقابهم مدحورين إذا سولت لهم أنفسهم أن يهاجموا المسلمين ، أو يشقوا عصا الطاعة عليهم . .

وقد نجح عتبة بن غزوان كقائد عسكرى فى أول تجربة خاضها ضد الفرس وهو قائد . . فقد أجلاهم أولا من الأبلة ، وأقام البصرة مكانها . . ثم افتتح ميسان ودستميسان ، وكانتا قاعدة للفرس ينطلقون منها لمحاربة المسلمين ، وبهذا حقق الأمان لقواته ، وقضى على كل أمل للفرس فى استرداد أى قطعة من الأرض استولى عليها المسلمون . .

وتدل المعارك التى دارت تحت قيادة عتبة بن غزوان على مدى كفاءته العسكرية . . فقد كانت قواته أقل عدداً وعتاداً من قوات الفرس . . ولكنه استطاع بالعدد الضئيل من الجند أن يصنع ما يشبه الإعجاز . . ولم يكن يغامر بقواته ليحقق نصراً سريعاً على حساب القتلى والجرحى . . وإنما كان يضع خطته على أساس ما يتجمع لديه من معلومات عن الفرس ، وطبيعة الأرض التى ستدور عليها المعركة . . ومدى احتمال وصبر الفرس على القتال . .

ولقد كانت مدة ولايته على البصرة ستة أشهر فقط ، ولكنه أنجز خلالها الكثير من العمليات العسكرية الناجحة . . ولم يكن يضيق بشيء خلال هذه الفترة إلا بالرسائل والطلبات التى كان يبعث بها إليه سعد بن أبى وقاص ، وكان أميراً على الكوفة . . وإمارة عتبة تابعة له . . ولما اشتد ضيقه بطلبات سعد ورسائله ، استأذن عمر بن الخطاب أن يقدم عليه . . فأذن له . . واستخلف على البصرة المغيرة بن شعبة . .

كان عتبة يريد أن يقف أمير المؤمنين على أمرين :

– إما أن يستمر أميراً على البصرة دون أن يشاركه فى المسئولية أحد .

– وإما أن يتخلى عن الإمارة ، ويتخفف من مسئوليتها ، ما دامت مسئولية مشتركة ، فعندما التقى بأمير المؤمنين دار بينهما الحوار التالى :

– إنى أشكو إليك تسلط سعد بن أبى وقاص . .

فقال عمر :

– مالك ياعتبة أن تقر بالإمارة لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف ؟

فقال عتبة :

– ألست من قريش يا أمير المؤمنين . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حليف القوم منهم . ولى صحبة مع رسول الله قديمة لا تنكر ولا تدفـــع .

فقال عمر :

– لا ينكر ذلك من فضلك .

فقال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع إليها أبداً . . عندئذ أبى عمر إلا أن يرده إليها . .

وإزاء أمر أمير المؤمنين لم يملك عتبة بن غزوان إلا أن يجهز راحلته ليعود إلى البصرة . . ولكنه كان ضيق الصدر بالعودة ، فمات فى الطريق ، ورجع غلامه بمتاعه إلى عمر بن الخطاب . . كانت وفاته فى سنة سبع عشرة هجرية ، وعمره سبع وخمسون سنة ، تجرد خلالها لله ورسوله والدين الحنيف . . وكان نعم العبد المؤمن الصابر الشاكر المتعبد الورع المجاهد . . وكما بدأ حياته غريباً من أجل هذا الدين ، فقد مات غريباً بين المدينة والبصرة . . إلا أنه ذهب إلى الدار الآخرة فى موكب من الرحمة تحف به الملائكة ، ويغبطه الأبرار والشهداء .

العلاء بن الحضرمي

أول قائد مسلم خاض المعارك البحرية

تفرد

بمرونة سياسية ولباقة اجتماعية وعبقرية عسكرية جعلته موضع ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومكان الإعزاز والإجلال عند أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . . . وكان الرسول ينتدب العلاء بن الحضرمى الذى أسلم قديما للمهام الجسام التى تتطلب رجلا على أعلى قدر من الكفاءة والمسئولية ، وتحمل التبعات ، وحسن التصرف فى الأمور .. كما اختاره الرسول – لصدقه وأمانته – ضمن الصفوة الذين اختارهم لكتابة الوحى وتدوين القرآن الكريم . . ولذلك فإن العلاء بن الحضرمى يعد طليعة النوابغ فى مدرسة النبوة . . كما يعد من الأبطال المبرزين فى شتى ميادين الحياة الإسلامية جميعا . . فهو فى ميدان السياسة يتبوأ قمة الدبلوماسية الرفيعة حيث يضع الرأى مكان السلاح ، والحكمة مكان القوة ، ويحقق بالكلمة الصافية المبرورة مالا يحققه السلاح بالطعنة النجلاء . .

كما كان العلاء بن الحضرمى فى عبقريته العسكرية ونبوغه القتالى يود لو أنجز فى ميادين الحرب ما يجعل التاريخ مزهواً فخوراً بما يكتب . . ولذلك فإنه كان أول قائد مسلم خاض المعارك البحرية ، ولم يكن هذا اللون من

المعارك معروفاً عند العرب . . بل كان الكر والفر على الرمال المنبسطة هو أسلوب المقاتلين فى كل مكان . . ولكن العلاء كانت طموحاته لا تقف عند حد ، كما أنه كان بدهائه يباغت أعداءه بما لم يخطر لهم ببال . ويقوم بالمغامرة تلو المغامرة غير هياب من المنية، ولا وجل من المخاطر والأهوال ..

وإذا تتبعنا شريط حياته لألفيناه من أولئك الدعاة الفاتحين الذين أخذوا دورهم الطليعى فى الحياة الإسلامية ، وأسهموا إسهاماً فعالاً فى نشر الدعوة والذود عنها..ولعل أول دور بارز له كداعية إلى الله أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه سفيراً إلى ملك البحرين المنذر بن ساوى العبدى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ، وأعطاه كتاباً فيه فرض الزكاة وأنصبتها فى الماشية والثمار ، وطلب إليه أن يجمع الزكاة من الأغنياء ويعطيها الفقراء . . هذا إذا اعتنق أهل البحرين الإسلام . .

وقد حقق العلاء فى هذه السفارة نجاحاً باهراً . . فحين عرض الإسلام على المنذر بن ساوى وأهل البحرين أسلم معظمهم ، وامتنع القليل عن دخول الإسلام ، وصالحوا العلاء على دفع الجزية . . وبهذا اكتسب الإسلام أرضاً جديدة بدون قتال أو إراقة دماء . . وكانت مكافأة الرسول للعلاء على هذا الفتح السلمى أن جعله أميراً على البحرين . . وظل يتولى منصب الإمارة فيها حتى انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى فأقره عليها أبو بكر رضى الله عنه . .

ولكن لم يكد أبو بكر يتولى منصب الخلافة حتى نشبت فتنة المرتدين عن الإسلام . . وكان المنذر بن ساوى قد مات بعد الرسول بفترة قصيرة ، وارتد أهل البحرين . . وجعلوا المنذر بن النعمان ملكاً عليهم ، ولم يسلم من هذه الفتنة فى البحرين إلا الجارود بن المعلى العبدى وقومه من بنى عبد القيس . . وعندئذ انتدب أبو بكر أحد عشر قائداً لقمع هذه الفتنة ، وكان العلاء أحد هؤلاء القواد . . وقد أناط به أبو بكر محاربة المرتدين فى البحرين . . وأرسل معه كتابين : الأول يطلب إليه فيه ألا يقاتل أحداً إلا بعد أن يدعوه إلى الإسلام . . فإذا رفض فقد وجب قتاله . والثانى :

موجه لأهل البحرين بأن يعودوا إلى الدين القيم ، وأن يلتزموا بالإسلام : عقيدة ومبادىء .

انطلق العلاء بن الحضرمى بجيشه إلى البحرين ، وقرر أن يختصر الطريق حتى يخمد الفتنة قبل أن يستشرى خطرها ، فسار فى بادية الدهناء ، ولكنه فوجىء ذات ليلة بحادث هز أفراد قواته هزا عنيفاً . . إذ أنهم عندما نزلوا عن مطاياهم ليأخذوا قسطاً من الراحة . . فرت المطايا بما تحمل من ماء وزاد . . ووقفوا ينظرون إليها وهم مبهوتون ، ولا يملكون من أمرهم شيئاً . .

عندئذ دعاهم العلاء وقال لهم : ما الذى غلب عليكم من الغم ؟ قالوا : كيف نلام ، ونحن إن بلغنا غدا . . لم تحم الشمس حتى نهلك . . فقال فى لهجة المطمئن الواثق بربه : لن تراعوا أيها المسلمون . . وفى سبيل الله . . وأنصار الله . . فأبشروا فوالله لن تخذلوا . .

وعندما أذن المؤذن لصلاة الفجر ونهض العلاء والمسلمون وأدوا الصلاة ودعوا الله أن يرد عليهم إبلهم . . أقبلت الإبل من كل وجه ، وانفرجت الأزمة التى زلزل المسلمون بسببها زلزالا شديدا . . وتعليقا على هذا الحادث يقول المؤرخون : إن العلاء بن الحضرمى كان مجاب الدعوة . .

بعد ذلك استأنف العلاء سيره بالجيش حتى وصل إلى البحرين ، وكان الموقف بالغ الخطورة . . إذ لم يكن هناك من يشد أزره إلا الجارود ابن المعلى العبدى وقومه ، وهم قلة إذا قورنوا بالمرتدين المتربصين بالإسلام وأهله . . وكان هؤلاء المرتدون بقيادة الحطم بن ضبيعة ، وهو من عتاة الناقمين على الإسلام . .

كانت خطة العلاء بن الحضرمى تقوم على تحقيق النصر بأقل الخسائر . . ولذلك لم يقم بمغامرة غير محسوبة . . ولم يدفع بقوة لاقتحام موقع ، وهو يعلم أن هذا الموقع محفوف بالمخاطر . . لم يكن يريد نصرا على حساب الدماء والأشلاء . . ومن أجل هذا عسكر بجيشه قبل أن يطلق أول شرارة للمعركة . .

وكان على اتصال بالجارود للتنسيق بينهما ، وضرب المرتدين من الأمام والخلف فى لحظة واحدة . .

وظل طوال هذه الفترة التى يتأهب خلالها للهجوم على العدو يبعث بمن يقوم بدور المخابرات حتى يكون على علم بأحوال العدو . . ثم جاءت ليلة فتح الله فيها طريق النصر للمسلمين . . فقد سمع العلاء ضوضاء فى معسكر الأعداء . . فأرسل من يستطلع الخبر ، ويأتى له بأنباء العدو . . وكان الرجل الذى أرسله من أهل البحرين ، وله أقارب فى معسكر المرتدين . . فتسلل إلى داخل المعسكر ، وتحدث إلى أقاربه ، ثم خرج دون أن يعترض سبيله أحد . . وقد عرف أن القوم سكروا سكرا شديدا حتى إنهم يصيحون ويهرفون بما لا يعرفون ، وأن الوقت ملائم تماما لقتلهم ، وهم فى هذه الحالة من غياب العقل . .

عندئذ أصدر العلاء بن الحضرمى أمره بالهجوم . . فاقتحم المسلمون معسكر المرتدين ووضعوا فيهم السيف ، فقتلوا من قتلوا ، وهرب من هرب ، ووقع كثير منهم فى الخندق الذى كانوا يحتمون به فدقت أعناقهم . . وكان الحطم بن ضبيعة قائد المرتدين نائما ، فصحا على الضجة وركب جواده قبل أن يصلح ركابه . . ثم صاح : من يصلح لى ركابى . . فتقدم إليه رجل من المسلمين وقال له : أنا أصلحها لك . ارفع رجلك . فلما رفعها ضربه بالسيف فبترها . . فطلب إليه أن يقتله لفرط ما يعانى من الألم ، فرفض وتركه يتعذب . . حتى قتله رجل آخر وهو لا يعلم أنه الحطم ابن ضبيعة . .

وعلى الرغم من الهزيمة الساحقة الماحقة التى لحقت بالمرتدين ومزقتهم شر ممزق ، فإن العلاء راح يطارد فلولهم الذين ركبوا السفن واتجهوا إلى دارين ، وهى جزيرة بالخليج الفارسى ،وكان أروع مشهد تملاه التاريخ . . إذ اقتحم المسلمون مياه الخليج بخيولهم وإبلهم وحميرهم ، وبعضهم كانوا راجلين ، ودارت معركة بحرية بين المسلمين والمرتدين ، اختلطت فيها

دماء المرتدين بالمياه وتبعثرت أشلاؤهم تحت سنابك الخيل،وأخفاف الإبل وحوافر الحمير . . وكانت أول معركة بحرية يقودها قائد مسلم دون أن يملك أسطولا أو ربابنة . . ولكنه انتصر على أصحاب الأساطيل ، وجعلهم عبرة التاريخ . . وعبرة الدهر . .

ولعل الخطأ الذى وقع فيه هذا القائد العظيم أنه لم يأخذ إذنا من عمر ابن الخطاب القائد الأعلى للقوات المسلحة بعبور هذا الخليج . . مما جعل عمر يغضب غضبا شديدا ويعزله . . ولكنه ما لبث أن عينه أميرا على الكوفة بعد وفاة عتبة بن غزوان . . تقديرا لما فعله من أجل الإسلام . إلا أن المنية فاجأته فى الطريق ، فمات وهو مزدان بأكاليل المجد والعزة والسؤدد . كبطل قدم من التضحيات ما جعله فى قمة الأبطال والمجاهدين ، وكانت حياته درسا عاليا فى مجال الدعوة ومجال الحرب على السواء .

ذر بن حبيش الأسدى

أمضى حياته من الطفولة

إلى الشيخوخة منهوما بالعلم

هاجر من الكوفة إلى المدينة ليتلقى العلم على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتفقه فى الدين على يد الذين تتلمذوا على الرسول ، وتعلموا فى مدرسة النبوة مبادىء الإسلام ومثله العليا وقيمه الرفيعة . . وقد التقى أول ما التقى باثنين من كبار الصحابة هما : أبى بن كعب أحد كتاب الوحى ، وعبد الرحمن ابن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة . . وما كاد يتعرف إلى أبى حتى راح يسأله عن أمور كثيرة فى الفقه والتفسير ، حتى ظن ابن كعب أنه سيسأله عن تفسير القرآن الكريم كله .. لأن زر بن حبيش كان منهوما بالمعرفة ، ظامئاً إلى العلم . مشغوفا به . . وكان كلما أحس من أبى بن كعب ضيقا أو مللا لكثرة ما يلقى عليه من أسئلة . . يقول له : رحمك الله أبا المنذر . . اخفض لى جناحك . . فلا يملك أبى بن كعب إلا أن يكون رقيق الحاشية معه . لأنه كان قد سمع من الرسول أن من كتم علما يعلمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار . .

وكان هناك سؤال يلح على ذهن زر بن حبيش ، ويريد أن يعرف له جوابا شافيا . . وهو عن ليلة القدر . . فقال لأبى : يا أبا المنذر أخبرنى عن ليلة القدر . . فإن ابن مسعود يقول : من يقم الحول يصبها . فقال أبى ابن

كعب : والله لقد علم أنها فى رمضان . ولكنه عمى على الناس لئلا يتكلوا . والله الذى أنزل الكتاب على محمد إنها لفى رمضان ، وإنها ليلة سبع وعشرين . فقال زر بن حبيش : وكيف علمت ذلك يا أبا المنذر ؟ فقال : بالآية التى أخبرنا بها محمد صلى الله عليه وسلم وهى أن الشمس تطلع حين تطلع ليس لها شعاع حتى تبيض وترتفع .

بعد ذلك كان زر بن حبيش يقول : لولا مخافة سلطانكم لوضعت يدى فى أذنى ، ثم ناديت : ألا إن ليلة القدر فى رمضان فى العشر الأوخر فى السبع الأواخر .

وقد أدرك زر بن حبيش الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، وسمع من عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، واقتبس من علماء الصحابة . . كان إذا خطرت بذهنه مسألة من مسائل الفقه ، قام من فوره وذهب إلى دار أحد الصحابة ممن يتصدون للفتيا ، واستوضحه رأى الدين فيها . . ويحكى أحد مواقفه فى هذا الشأن فيقول : حاك فى صدرى المسح على الخفين ، فغدوت على صفوان بن غسال المرادى فى أهله . فقال : ما غدا بك إلى يا زر ؟ طلب العلم ؟ قلت : نعم . قال : أما أنه ليس من رجل يطلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يفعل . . هكذا علمنا الرسول . كما علمنا أن من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة . . ثم راح صفوان يشرح له مسألة المسح على الخفين ، كما تعلمها من النبى . . وهنا سأله زر : هل لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال صفوان : نعم، وغزوت معهاثنتى عشرة غزوة.

وقد أمضى زر بن حبيش حياته فى المدينة متنقلا بين مجالس الصحابة يأخذ عنهم أحاديث الرسول ، ويتعلم منهم علوم الدين كما فهموها من النبى وطبقوها تطبيقا سليما وفق منهج الله . . جلس إلى الإمام على بن أبى طالب وسمعه يقول : « عهد إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه لا يحبك إلا مؤمن . ولا يبغضك إلا منافق » . كما سمعه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قد عفى لكم عن صدقة الخيل والرقيق ، فأدوا صدقة ما سوى ذلك من من أموالكم » . وهناك أحاديث أخرى سمعها من الإمام على كرم الله وجهه لا يتسع المقام لذكرها . .

وكما جلس إلى الإمام على وسمع منه ، فإنه جلس كذلك إلى عمر ابن الخطاب وسمعه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان ، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة . فإن الشيطان مع الواحد ، وهو من الاثنين أبعد . ومن ساءته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن » .

وكانت علاقة زر بن حبيش بابن مسعود عميقة حميمة ، لأنه كان يعلم أن ابن مسعود خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنوات رأى خلالها النبي كيف كان يتوضأ ، وكيف كان يصلى ، وكيف كان يعامل أهله وخدمه ، وكيف كان يتلقى الوحى من ربه . . أى أنه خلال هذه السنوات العشر استطاع أن يعرف الكثير عن الرسول . . وأن يحفظ الكثير من أحاديثه الشريفة . . لهذا كان زر بن حبيش يتردد على ابن مسعود ويجلس إليه وينصت له بكل جوارحه . . وكان ابن مسعود يتحدث إلى زر بكل ما وعته ذاكرته عن الفترة المضيئة الطاهرة المبرورة التى عاشها فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن بين ما قاله ابن مسعود لزر : « أخر رسول الله صلى الله عليه وسلم العشاء ذات ليلة ، ثم خرج إلى المسجد . وإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : أما أنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله فى هذه الساعة غيركم . قال : ونزلت هذه الآية : « ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » . كما قال له أيضا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من غشنا فليس منا ، والمكر والخداع فى النار » . وقول الرسول كذلك : « من حفظ على أمتى أربعين حديثا ينفعهم الله عز وجل بها ، قيل له : ادخل من أى أبواب الجنة شئت » .

وقول المصطفى أيضاً : « يبعث مناد عند حضرة كل صلاة . فيقول : يا بنى آدم . قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم ، فيقومون فينظرون فتسقط خطاياهم من أعينهم ، ويصلون فيغفر لهم ما بينهما . فإذا حضرت العصر فمثل ذلك ، فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك ، فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك ، فينامون وقد غفر لهم . . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمدلج فى خير ، ومدلج فى شر » .

وهكذا كان زر بن حبيش يذهب إلى أى صحابى يعلم أن لديه ما يحكيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ما ينفعه فى أمر الدين .. فقد سمع أن حذيفة بن اليمانى كان من أحباء الرسول وخلصانه ، وأنه كان يسأل الرسول عن الشر مخافة أن يقع فيه ، وأن الرسول علمه كيف يتوقى الشر ، كما كان يدله على مواطن الخير..ومعنى هذا أن حذيفة كان من التلاميذ النوابغ فى مدرسة النبوة ، وأنه يستطيع أن يقدم بعض صور من سيرة حياة الرسول وأفعاله . . علم زر بن حبيش كل هذا فذهب إلى حذيفة يسأله عن بعض مواقفه مع الرسول . . فقال له حذيفة :

ــ قالت لى أمى يوما : متى عهدك بالنبى صلى الله عليه وسلم ؟ فقلت لها : مالى به عهد منذ كذا وكذا . فقالت :لستمنى..وأنحت على باللائمة. فقلت لها : دعينى فإنى ذاهب إليه فأصلى معه وأسأله أن يستغفر لى ولك . .

ويقول حذيفة : ذهبت إلى المسجد وصليت المغرب خلف الرسول . . ثم انتظرت حتى صليت العشاء خلفه . . ولما خرج من المسجد عرض له عارض فى الطريق ، فتأخرت عنه ثم دنوت منه ، فسمع النبى صلى الله عليه وسلم صوتى من خلفه ، فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة . فقال : ما جاء بك يا حذيفة ؟ فأخبرته ، فقال : غفر الله لك ولأمك يا حذيفة . ثم قال : أما رأيت العارض الذى عرض ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : ذاك ملك لم يهبط إلى الأرض قبل الساعة . فاستأذن الله فى السلام على ،

وبشرنى بأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » .

وكدأب التلميذ المجتهد فى تحصيل العلم واستيعاب فروعه كان زر ابن حبيش يمضى ليله ونهاره فى حفظ أحاديث الرسول ودراسة الفقه والتفسير على يد علماء الصحابة . وكان نابغة فى اللغة العربية : نحوا وصرفا وبلاغة . . حتى إن عبد الله بن مسعود كان يسأله فى بعض وجوه الإعراب . . كما كان زر بن حبيش جريئا فى قول الحق ، لا يخشى إلا الله ، ومصداق ذلك أنه كتب إلى عبد الملك بن مروان كتابا يعظه فيه ، فكان فى آخر كتابه : ولا يطمئنك يا أمير المؤمنين فى طول الحياة ما يظهر من صحة بدنك ، فأنت أعلم بنفسك . واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجال ولدت أولادها
وكبرت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتـادها
فذاك زروع قد دنا حصادها

فلما قرأ عبد الملك الكتاب بكى حتى بل طرف ثوبه . ثم قال : صدق زر . ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق . .

هذا وقد شاء الله أن يمتد الأجل بزر بن حبيش حتى يبلغ من العمر مائة وعشرين عاما أمضاها فى تحصيل العلم من منابعه الأصيلة ، وفى العبادة الخالصة لوجه الله ، وقد عاش مهاجرا إلى الله . . بعقل مضىء بالمعرفة ، وقلب مفعم بالإيمان .

محمد بن مسلم بن شهاب الزهري

أحفظ أهل زمانه
للقرآن والفرائض والسنن

وهبه

الله قدرة خارقة على الحفظ والفهم والاستيعاب . . حتى إنه لم ينس شيئاً سمعه قط ! ! . . وأغرب مافى أمره أنه حفظ القرآن الكريم فى ثمانية وثمانين يوما . كما حفظ الفرائض والسنن قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره ! ! . . هذا هو محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى الذى تلقى العلم على سعيد ابن المسيب وشيوخ ذلك العصر الذى كان من أزهى عصور الإسلام . . وقد وثق الناس بابن شهاب لغزارة علمه وسعة فهمه ، فكانوا يستفتونه فى أمور الدين على الرغم من أن بين ظهرانيهم بقية من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . . أولئك الذين تلقوا الدين على يد المصطفى ، وأخذوا عنه الإسلام كما أنزله الله . .

وقد شهد لابن شهاب علماء عصره وأئمته . . وقالوا فيه كلاما عجبا .. وسنسوق هنا شهادتين تنبئان عما كان عليه ابن شهاب من درجة فى العلم لا تضاهيها درجة، ومكانة فى الصدق لا تماثلها مكانة . الأولى (للإمام مالك ابن أيسر) . . والثانية (للإمام الليث بن سعد) . وكلاهما حجة ثبت يزن الكلمة بميزان المنطق والموضوعية . .

قال الإمام مالك : إن الحديث النبوى دين . . فانظروا عمن تأخذون دينكم . . والله لقد أدركت هاهنا — وأشار إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم —أناسا كلهم يقول . قال فلان.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فلم آخذ عن أحد منهم حرفا . . لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن . . ولقد قدم علينا محمد بن شهاب الزهرى ، وهو شاب ،فازدحمنا على بابه ، لأنه كان من أهل الشأن . كما أنه أول من دون العلم . .

هذه هى شهادة الإمام مالك . . وهى — كما ترون — ناصعة الحجة تعطى ابن شهاب جانبا من حقه فى التقدير والتقويم . . لأنها تختص بجانب واحد من علوم ابن شهاب . . هو علم الحديث . .

أما الإمام الليث بن سعد : فقد وضع شهادته فى ابن شهاب أمانة فى عنق التاريخ . . فقد تحدث عن ابن شهاب كعبقرى جمع بين شتى فروع المعرفة ، حتى أصبحت داره مهوى الأفئدة للتضلع من مائدة علمه . والتزود من كل ما يشع به عقله من أسرار الدين . . يقول الإمام الليث : ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ، ولا أكثر علما منه . . فلو سمعت ابن شهاب يحدث فى الترغيب ، لقلت : لا يحسن إلا هذا . وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت:لا يحسن إلا هذا . . وإن حدث عن الأعراب والأنساب . . لقلت : لا يحسن إلا هذا . . وإن حدث عن القرآن الكريم والسنة كان حديثه جامعا . . !!

وهناك وقائع كثيرة تشهد لابن شهاب بأنه كان لا ينسى شيئاً سمعه قط ، مما جعل الناس يرجعون إليه ويثقون فى رأيه وفتواه . . من ذلك مثلا ما حدث بينه وبين عبد الملك بن مروان . . فقد ذهب ابن شهاب إلى دمشق فى سنة أصاب الناس فيها قحط بالمدينة ، ولم يجد أحد منهم ما يقيه غائلة الجوع . . وكان هدف ابن شهاب أن يلتمس عند الخليفة شيئاً من بيت مال المسلمين يواجه به نفقات أسرته . . ولما وصل إلى دمشق

ذهب إلى المسجد ليؤدى الصلاة فوجد حلقة علم كبيرة . فجلس فيها بعد أن صلى . . فإذا برجل عليه سيما الوقار والجلال يدخل المسجد ، فيوسع الناس له ، فيجلس فى الحلقة ويقول : إن أمير المؤمنين جاءه اليوم كتاب من هشام بن اسماعيل عامله على المدينة ما جاءه كتاب مثله منذ استخلفه الله . . فقالوا له : ما هو قال : إن الكتاب يذكر أن ابنا لمصعب ابن عمير من إحدى إمائه مات .. وأرادت أمه أن تأخذ ميراثا منه فمنعها عروة بن الزبير ، وزعم أنه لا ميراث لها . . فتوهم أمير المؤمنين حديثا فى ذلك سمعه من سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب . ولكنه نسيه ولم يحفظه الآن . .

وهنا أشار ابن شهاب بإصبعه وقال : أنا أحفظ ما قاله عمر بن الخطاب بشأن أمهات الأولاد اللاتى يمتن عن أولادهن . . فقال له أحد الجالسين : هل تذهب معى إلى الخليفة وتخبره بما تحفظ؟ قال : نعم . . وخرجا من المجلس حتى مثلا بين يدى الخليفة فى قصره . . فسأل الخليفة ابن شهاب من يكون . . وما مسألته . فأجاب : بأنه يحفظ ما قاله أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب فى مصير أمهات الأولاد من الإماء وأبنائهن . . ثم قال سمعت سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بأن تقوم أمهات الأولاد فى أموال أبنائهن بقيمة عدل . . ثم يعتقن . . وقد توفى رجل من قريش وكان له ابن من إحدى إمائه . . وكان عمر معجبا بهذا الغلام لذكائه واستقامته . . وذات يوم مر الغلام على عمر فى المسجد بعد وفاة أبيه بليال . . فسأله عمر : ما فعلت يا ابن أخى بأمك . . فقال الغلام : فعلت خيرا يا أمير المؤمنين . . خيرونى بين الميراث وبين حرية أمى . . فاخترت حريتها ، وتركت الميراث .. فغضب عمر . . ثم صعد المنبر وخطب الناس قائلا :

إنى كنت قد أمرت فى أمهات الأولاد بأمر كلكم تعلمونه . . ثم حدث غير ذلك . . فأيما امرىء كانت عنده أم ولد فهى ملكه ما عاش .. فإذا مات فهى حرة لا سبيل له عليها . . وهنا أحس الخليفة براحة نفسية . .

وأمر بفرض نصيب من بيت المال لابن شهاب وجميع من تلزمه نفقتهم حتى خادمه . . وكما زال الهم عن نفس الخليفة بعد أن وجد رأى الإسلام فى هذه المسألة . . فكذلك زال الهم وانقشع عن نفس ابن شهاب بعد أن أعطاه الخليفة ما يفرج كربته . . ويبدد أزمته . ويقوت أهله . . وظل ابن شهاب بعد ذلك موضع حفاوة وتكريم الخلفاء من بنى أمية . . حتى إن هشام بن عبد الملك سدد جميع ديونه وكانت قد بلغت ثمانين ألف درهم . . واتخذه معلما لأولاده . وكان يرجع إليه فى كل أمر من أمور الدين . . وكان هشام شديد الإعجاب بفطنة ابن شهاب ولماحيته وصفاء ذهنه ونقاء بصيرته . . وأراد أن يمتحنه فيما يحفظ . . فطلب إليه أن يملى على بنيه أربعمائة حديث فى مختلف العبادات والمعاملات . . فأملاها الزهرى على أولاد هشام حتى بلغت كتابا كاملا . . وبعد فترة من الزمن قال هشام للزهرى : إن الكتاب قد ضاع . . وإن أولاده بحاجة إلى هذه الأحاديث . . وللمرة الثانية أملى الزهرى هذه الأحاديث . . وقام هشام بمراجعتها على الكتاب الأول فلم يجد فيها حرفا ناقصا . . بل أصبح ما أملاه نسخة كاملة من الكتاب الأول .

أما ديون ابن شهاب فقد كانت بسبب الإسراف فى الكرم . . كان يطعم الناس الثريد ويسقيهم العسل . . أما الثريد فلأنه أفضل أصناف الطعام ، حيث قال فيه الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : فضل عائشة على سائر النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . . وأما العسل فلأن فيه شفاء للناس بنص الآية الكريمة . (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) . . وكان يشرب العسل . . ويقول : إنه إلى جانب شفائه للناس يصقل العقول ويزيد الفهم ويوسع المدارك ويزيل الكسل . . وكان إعداد الطعام وشراء العسل يكلفه الكثير حتى إنه لم يبت ليلة واحدة خاليا من الديون .

ومع أن ابن شهاب كان سريع الحفظ فإنه كان يخشى أن ينسى شيئاً . . أو تضحمل ذاكرته . . ولذلك فإنه كان يجلس منفردا فى منزله ويردد ما سمعه . . كما كان يخرج إلى الأعراب ويجلس معهم فى خيامهم ويعلمهم

أمور دينهم . . وكان يقول : إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة . . وكان يوصى الشباب بأن يأخذوا العلم أخذا رفيقا حتى يستقر فى القلب ويرسب فى الوجدان . . فإن العلم الذى يؤخذ خطفا لا يلبث أن يذهب خطفا . . أما العلم الذى يأتى بالتأنى فإنه يلتصق بالذاكرة وينبت فيها . . كما ينبت الزرع الطيب فى الأرض الطيبة . . كما كان يوصى الشباب بحفظ كرامة العلم . . وذلك بأن يكونوا صادقين فى تلقيه وصادقين فى نشره . . فإن الكذب آفة العلم . . ومن جرب الناس عليه كذبة واحدة لا يثقون فى شىء مما يقوله بعد ذلك أبدا . . وكان يقول لهم أيضاً : إياكم وغلول الكتب . . قالوا له : وما غلولها . . قال : حبسها عن أهلها . . لأن الحديث النبوى الشريف يقول : (من حبس علما يعلمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار) . .

ولما بلغ الثانية والسبعين من عمره فى سنة أربع وعشرين ومائة . . دهمه مرض الموت . . فأوصى بأن يدفن بشعب زيدا من فلسطين على قارعة الطريق ، لكى يترحم عليه كل من يمر بقبره . . وكانت وفاته فى يوم السابع عشر من رمضان . . ودفن فى المكان الذى أوصى بأن يدفن فيه . . ومر الأوزاعى يوماً على قبر ابن شهاب فوقف وقال :

يا قبر كم فيك من علم ومن حكم
وكم جمعت روايات وأحكاما

ولعل ما قاله الأوزاعى يضيف لمحة جديدة من الثناء على هذا العالم العامل الذى تربع على عرش المعرفة فى عصره . . وأصبح أحدوثة الدهر ، وأنشودة الزمن ، وآية العبقرية الفريدة بين الخالدين . .

حكيم بن حزام الأسدى

عوض عن تأخيره فى الإسلام
بالعمل الصالح والعطاء الجزيل

شاء الله لحكمة أزلية لا يعلمها سواه ، أن يولد هذا الصحابى الجليل فى جوف الكعبة المشرفة . . فقد كانت أمه تزور مع نسوة من قريش بيت الله المحرم ، فأجاءها المخاض بحركاته السريعة المتلاحقة ، مما جعل النسوة يحضرن لها نطعا ، أى قطعة من الجلد لتضع مولودها عليها . .

وأطلق حزام بن خويلد اسم « حكيم » على ابنه ، متفائلا ، وقد ولد بالكعبة ، أن يكون من أهل الحكمة حين يكبر ويبلغ مبلغ الرجال . .
ونما حكيم حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره ، وشهد حادثا اهتزت له الجزيرة العربية كلها . وعلق الزمان أنفاسه ليرى ما سوف يتمخض عنه هذا الحادث الجلل . . فقد فوجئت مكة بأبرهة وجنوده يزحفون عليها ليهدموا الكعبة ، ويمنعوا الناس من زيارتها والطواف بها . . وفوجىء أبرهة وجنوده بغارة جوية تقوم بها طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل حتى جعلتهم أشبه بفتات الموائد . . وحمى الله بيته ، ليظل مثابة للناس وأمنا . .
كما شهد حكيم بن حزام واقعة الذبيح عبد الله بن عبد المطلب . إذ كان والده يريد أن يذبحه قربانا لله وفاء لنذر نذره . . ولكنه افتداه بمائة من الإبل بعد استطلاع رأى الكهان . . ثم شهد حكيم مصرع والده حزام فى حرب الفجار ، وهى حرب قامت بين قريش وقيس ، وسميت

بالفجار ، لأن العرب اعتقدوا أنهم فجروا بدخولهم حربا فى الأشهر الحرم ، وهى الأشهر التى حرم فيها القتال . .

وكانت علاقة حكيم بالرسول قبل البعث علاقة مودة ومحبة . . إذ كان الرسول زوج السيدة خديجة بنت خويلد عمة حكيم . . وكان حكيم يتردد على بيت عمته ويقضى لها حوائجها . . ومن بين الخدمات التى قدمها لها أن اشترى زيد بن حارثة ليقوم على خدمتها . . فصار فيما بعد أحد أبطال الإسلام المعدودين . . وأنجب أسامة أصغر قائد فى الإسلام ، واستشهد فى غزوة مؤتة ، وكان الرسول يناديه بالحب ، أى الحبيب ، وينادى أسامة ابنه بالحب بن الحب . . أى الحبيب بن الحبيب . . وكان حكيم شديد المحبة لرسول الله ولعمته خديجة رغم أنه لم يعتنق الإسلام . . فقد كان فى سنوات مقاطعة قريش لبنى هاشم وبنى المطلب وحظر التعامل معهم . . يشترى الأطعمة والأكسية من الشام ، ويحملها على ظهور الإبل ويبعث بها سرا للنبي وأهله . . كما أنه اشترى حلة ذى يزن من اليمن وقدمها للنبى ، فرفض أن يأخذها إلا بالثمن . وكانت أحسن حلة لبسها الرسول . .

وبالرغم من علاقة المودة والمحبة التى تربط حكيم بن حزام بالرسول والسيدة خديجة بنت خويلد ، فإن حكيما ظل على جاهلية قريش . . بل إنه خاض معركتى بدر وأحد ضد المسلمين . . ووقع له يوم بدر حادث ظل يتذكره إلى آخر عمره . . فقد تقدم ليشرب من الحوض ، فانقض عليه حمزة بن عبد المطلب وكاد يفتك به لولا أن أنقذه المشركون ، وهو فى أشد حالات الرعب والفزع . . وكان إذا أراد أن يقسم قسما عظيما يقول : « لا والذى نجانى يوم بدر » .

وكان منصب الرفادة — وهو أحد مناصب الكعبة — بيد حكيم ابن حزام . . فكان فى موسم الحج يتولى إطعام الحجيج حتى يعودوا إلى ديارهم .. كما كان يمتلك دار الندوة ،وهى الدار التى كانت تعقد فيها مجالس الشورى ومجالس القضاء . ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين . . ولكن سمح لحكيم

فقط بأن يدخلها وهو شاب فى الخامسة عشرة من عمره ، لما كان يلوح عليه من مخايل النجابة فى سن مبكرة . .

ولما جاء يوم الفتح صحب حكيم أبناءه الأربعة : عبد الله وخالداً ويحي وهشاماً وذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلنوا إسلامهم أمامه ، ونطقوا بالشهادتين . . ويومها كرم الرسول حكيماً وقال : « من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن » . . وكانت أول معركة يخوضها حكيم فى صفوف المسلمين هى معركة حنين . . وقد أبلى فيها بلاء حسناً ، ونفله الرسول مائة من الإبل . . فلم يكتف حكيم بها . . وسأل الرسول فأعطاه .. ثم سأله فأعطاه .. ولكن قال له : ياحكيم .. إن هذا المال حلوة خضرة . . فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى . . قال حكيم : « والذى بعثك بالحق لا أرزأ بعدك أحداً حتى أفارق الدنيا » .

وبالفعل وفى حكيم بالعهد الذى قطعه على نفسه أمام الرسول . . ورفض أن يأخذ نصيبه من الفىء فى عهد أبى بكر وعهد عمر .. كما جعل عمر يقف ويقول : يامعاشر المسلمين . . أشهدكم على حكيم أنى أعرض عليه حقه فى الفىء فيأبى أن يأخذه . .

وقد قرر حكيم أن يعوض ما فاته فى الفترة التى سبقت إسلامه . . فباع دار الندوة بمائة ألف درهم ، وتصدق بهذا المبلغ على الفقراء والمساكين . . ولما لامه عبد الله بن الزبير على بيعها وقال له : بعت مكرمة قريش » رد عليه حكيم قائلا : « يا ابن أخى ذهبت المكارم إلا مكرمة التقوى . . لقد اشتريتها بزق خمر فى الجاهلية ، واليوم أشترى بها داراً فى الجنة . أشهدك أنى قد جعلتها فى سبيل الله » .

وكان الرسول يثق فى حكيم ويعهد إليه أن يشترى له ما يحتاج إليه من السوق ، وطلب منه يوماً أن يشترى له أضحية بدينار ، فذهب حكيم إلى

السوق واشترى شاة بدينار ، ثم باعها بدينارين ، واشترى شاة أخرى بدينار ، وعاد إلى الرسول ومعه الشاة والدينار الذى ربحه ، فقال له النبى : تصدق به . . ودعا له بالبركة . . فكانت يده تفيض باليمن . .

ومما كان يتصف به حكيم وهو فى الجاهلية أنه جواد ذو مروءة . . يطعم الجائع ، ويكسو العارى ، ويقرض المحتاج ، ويغيث الملهوف ، ويعين على نوائب الدهر ، ويصل الرحم ، ويسارع إلى الخيرات ، ويعتق الرقاب ، حتى بلغ عدد ما أعتقه مائة رقبة . . وقد أحب أن يعرف ثمرة عمله هذا فقال للنبى : يارسول الله . . رأيت أشياء كنت أتحنث بها فى الجاهلية من صدقة وعتاقة وصلة رحم . . فهل لى فيها أجر . فقال له النبى : أسلمت على ما أسلفت من خير ، فقال حكيم : والله لا أدع شيئاً صنعته فى الجاهلية إلا فعلت مثله فى الإسلام . . وذهب حكيم فى أحد الأعوام يؤدى فريضة الحج ، ومعه مائة بدنة (البدنة هى البعير ، ذكرا كان أو أنثى) مجللة بالحبرات (الحبرات نوع من برود اليمن) وألف شاة ، ومائة وصيف فى أعناقهم أطواق من الفضة منقوش على رؤوسها « عتقاء الله عز وجل عن حكيم بن حزام » .. وقد أعتق المائة وصيف . . وأهدى البدن والشاء للفقراء والمساكين . .

وحين تطوف ذكريات الجاهلية بخلد حكيم بن حزام تنهل الدموع غزاراً من عينيه . . ويندم على السنوات التى أمضاها فى ظلمات الشرك والوثنية . . ويدخل عليه أحد أبنائه فيجده منهمكاً فى البكاء . . فيسأله : ما يبكيك يا أبى ؟ فيقول له بكلمات متهدجة حزينة : خصال كلها أبكتنى : أما أولاها فبطء إسلامى حتى سبقت فى مواطن كلها صالحة . ونجوت يوم بدر وأحد ، فقلت : لا أخرج أبداً من مكة . . ولا أوضع مع قريش ما بقيت . . فأقمت بمكة . ويأبى الله عز وجل أن يشرح صدرى للإسلام : وذلك أنى أنظر إلى بقايا من قريش لهم أسنان ، متمسكين بما هم عليه من أمر الجاهلية ، فأقتدى بهم . ويا ليتنى لم أقتد بهم ، فما أهلكنا إلا الاقتداء بآبائنا وكبرائنا . .

وهكذا ذاق حكيم حلاوة الإيمان ، فندم على ماضيه ، ولكنه عاش ستين سنة في الإسلام ، فعل خلالها كل ما كان يتمناه من خير وتقوى ، وكان قد أسلم وعمره ستون عاماً . . وأراد أن يدفن فى الأرض التى تضم أجل وأعظم جثمان فى البشرية . . جثمان سيدنا رسول الله ، فقدم المدينة ونزلها ، وبنى بها داراً ، ومات سنة أربع وخمسين ، وهو ابن مائة وعشرين سنة .. وكما ولد فى أشرف بقاع الأرض ، فقد دفن فى أطهر بقاعها وأكثرها عبقاً وريحاناً وعبيراً من الجنة . .

عبد الله بن المبارك

وهب نفسه وماله لله ورسوله

إن التاريخ وقف فى حياء وخجل يدون سيرة حياة هذا العظيم .. لأن مداد قلمه تحول إلى قطرات من النور والعطر، وكلماته تجملت بالشفافية والطهر ، ومنظاره الصادق الدقيق عجز عن رؤية آياته البكر،وظل يلهث وراءها حتى عاد وحقيبته الأبدية تنم عن عظمة دونها عظمة الملوك ، ومهما قيل فى المكانة الرفيعة التى تبوأها عبد الله بن المبارك ، المكانة التى لم تقم على الكبرياء الكاذبة والشمم الزائف والجاه الزائل والثراء والغرور ، وإنما قامت على الجود بالنفس والمال فى فى سبيل الله وعلى الجهاد والتضحية تحت راية الإسلام وفى المنشط والمكره ، وتنفيذ ما تنزل من وحى السماء فى السراء والضراء . .

وحسبك أن تعلم أن عبد الله بن المبارك كان أهل زمانه ينظرون إليه نظرتهم إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقولون إننا نظرنا فى أمر الصحابة وأمر ابن المبارك ، فما رأينا لهم عليه فضلا إلا بصحبتهم النبى صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه . .

أما شريط حياته فيبدأ من مدينة مرو . . كان أبواه تركيين ، وكانت

داره في مرو فسيحة الأرجاء حتى إن صحنها كان طوله خمسين ذراعاً وعرضه كذلك . . وكانت هذه الدار على سعتها تزدحم كل يوم بالعلماء والعباد والزاهدين وذوى الفضل فى المدينة ، حيث كانت تجرى بينهم المطارحات العلمية ، ولا يدعون جزئية من جزئيات الإسلام إلا تدارسوها مع ابن المبارك . . ومن ثم كانت داره فى مرو أشبه بمعهد دينى يتلى فيه القرآن ، وتدرس فيه علوم الدين ، ويذكر فيه اسم الله . .

وكان يتحاشى أكل الحرام ، أو ما فيه شبهة حرام . . فقد امتنع عن تناول الحمام الذى كان يقتنيه فى داره . . ولما سئل عن ذلك قال : إن هذا الحمام طيار ، وقد اختلط به حمام آخر ، لا ندرى من أين جاء . . وحدث تزاوج بين حمام الدار والحمام الغريب فأصبح لا يحل لنا أن نأكل منه .

وكان يقول : : لأن أرد درهماً من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف . .

وقد بسط الله له فى الرزق . . فلم يكنز ماله : : ولم يقبض يده عن أحد . . وإنما كان يقضى الدين عن المدين . . ويقدم للفقراء كل سنة مائة ألف درهم . . بل إنه كان يصحب معه لأداء فريضة الحج كل من ينوى أداء الفريضة ، ولا يكلفه درهما واحداً .

تعالوا نقرأ معاً ما قاله محمد بن شقيق فى هذا الشأن . . قال : كان ابن المبارك إذا جاء وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو فيقولون : نصحبك يا أبا عبد الرحمن ، فيقول لهم : هاتوا نفقاتكم . . فيأخذ نفقاتهم ويضعها فى صندوق ويقفل عليها . . ثم يشترى ما يحتاجون إليه من طعام وثياب ويخرجهم من مرو إلى بغداد . . فلا يزال ينفق عليهم ، ويطعمهم أطيب الطعام ، وأطيب الحلوى . . ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زى حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وهناك يقول لكل منهم : ما أمرك عيالك أن تشترى لهم من طرف المدينة ؟ (أى الأشياء الطريفة فيها) ؟ فيقول : طلبوا كذا وكذا . . فيشترى لكل منهم ما طلب . . وإذا وصلوا إلى مكة قال لكل منهم :

ماذا طلب عيالك أن تشترى لهم من متاع مكة ؟ فيقول : كذا وكذا .. فيشترى له ما يطلب . .

وبعد أن يؤدوا الفريضة ويعودوا إلى مرو يأمر بطلاء واجهات دورهم .. ثم يقيم لهم وليمة بعد ثلاثة أيام يأكلون فيها أطايب الطعام .. ويقدم لهم الكساء . . فإذا أكلوا وشربوا دعا بالصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته بعد أن كتب عليها اسمه . .

ولذلك فإن عبد الله بن المبارك كانت منزلته فى نفوس الناس أكبر وأعظم من منزلة الخليفة هارون الرشيد . . ومصداق ذلك أن هارون الرشيد قدم مدينة الرقة . . فى الوقت الذى دخلها فيه عبد الله بن المبارك .. فتزاحم الناس حول ابن المبارك . . حتى تقطعت نعالهم ، وامتلأ الجو بالغبار ، وخرج أهل الرقة جميعاً للقاء هذا الرجل الذى لا يملك منصباً ولا سلطاناً ، وتركوا الخليفة فى قصره ليس حوله إلا حاشيته . . وسمعت زوجة الخليفة ضجة فى الخارج فأطلت من إحدى شرفات القصر ، فرأت الناس بعضهم يموج فى بعض..فقالت:.ما هذا ؟ فقالوا: عالم من خراسان قدم الرقة يقال له : عبد الله بن المبارك . . فقالت :

— هذا والله هو الملك الحقيق . . لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان . .

ومما يروى عن مروءة ابن المبارك أنه افتقد يوماً شاباً كان يختلف إليه .. ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث..ولما سأل عنه قيل له إنه محبوس فى دين جاء موعد سداده ولم يسدده .. وأن هذا الدين مقداره عشرة آلاف درهم.. فذهب ابن المبارك إلى صاحب المال وأعطاه المبلغ . وطلب إليه ألا يخبر الشاب بمن قضى عنه الدين . .

وكان وكيل ابن المبارك يشفق عليه من كثرة سداد الديون للناس

ويقول له : أخشى أن تبيع ضيعتك .. فيرد عليه ابن المبارك بأن الضيعة ليست ملكه وإنما هى ملك الله . .

أما عن شجاعته فقد خاض جميع المعارك التى دخلها المسلمون ضد الروم ، وقام بأعمال بطولية كانت مثار عجب ودهشة المسلمين والروم معاً .

وقد انتقل ابن المبارك من مرو إلى الكوفة ، ولكنه سكن فى بيت صغير بها . . بعد أن كان يسكن بمرو فى بيت واسع الأرجاء . . وكان يصوم الدهر ويقوم الليل . . حتى قيل إنه لم ير نائماً قط . . وإذا أدى الصلاة فى المسجد يرجع إلى منزله ولا يجالس الناس . . فسأله أحد أصحابه : لماذا لم تجلس معنا : فقال أذهب لأجلس مع الصحابة والتابعين . . فقال له الرجل : ومن أين الصحابة والتابعون ؟ قال : أنظر فى علمى فأدرك آثارهم وأعمالهم .

وبينما كان عائداً من إحدى المعارك أدركته المنية ، وكان ذلك فى الثالث عشر من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة ، وكان عمره يومها ثلاثاً وستين سنة . . وقد دفن فى « هيت » — لواء الديلم بالعراق — وهو المكان الذى مات فيه . .

وذات ليلة رآه محمد بن الفضيل بن عياض فى المنام فقال له : أى الأعمال وجدتها أفضل؟فقال : الأمر الذى كنت فيه.فقال له: الرباط والجهاد؟ فقال له: نعم.فقال: فأى شيء صنع بك ربك ؟ قال : غفر لى مغفرة ما بعدها مغفرة ، وكلمتنى امرأة من الحور العين . .

سارية بن زنيم

أظهر الله فيه إحدى آياته . . فسمع
نداء عمر من آلاف الأميال

أمام

هذه الآية المضيئة الباهرة الأخاذة لا نملك إلا أن نصيح من أعماقنا : ما أعظم قدرتك يارب ! ! إنك تستطيع أن تجعل هذا الجسد الترابى فى شفافية الملائكة .. يرى مالا تراه الأعين . . ويسمع ما تعجز عن سماعه الآذان . . ويصبح جهاز إرسال واستقبال . تطوى له المسافات . وتصغر له الدنيا .. حتى كأنها مساحة ضيقة من الأرض .. وإلا فماذا نفسر ما حدث بين عمر بن الخطاب وسارية بن زنيم . . وكيف نعلل ما جرى بين أمير المؤمنين وأحد قواد جيوشه فى حرب الفرس . . عمر ينادى من فوق المنبر فى المدينة: يا سارية الجبل ! ! أى الزم الجبل . . وسارية على بعد مئات الآلاف من الأميال فى أرض فارس يسمع النداء ، وكأن عمر بجواره . . مكاشفة تامة بين الرجلين ، وسمو فوق بشرية الإنسان . وإلهام يملأ الجوارح نورا . . ويجعل البصر يخترق حجب الزمان والمكان ويرى أسرار الملكوت . . كما يجعل الأذن ترف على أجنحة الأثير ، فتسمع الهمسة النائية ، والنجوى القاصية . . .

فمن هو سارية بن زنيم الذى احتل قمة سامقة فى سماء التاريخ ، هناك من

يقول : إنه من الصحابة . . أى شرف بصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ..
وثمة من يقول : إنه من التابعين . . ولكننا لو فحصنا روايات التاريخ ،
وصفيناها فى راووق الدراسة المتأنية لعرفنا أن له صحبة . . ولكنه كان فى
جاهليته لصاً كثير الغارة . . إذا طارده أحد يسبق الفرس عدواً على رجليه . .
وكان من أسرة يتميز أفرادها بأنهم يقرضون الشعر . ولم يكن أحد من هذه
الأسرة قد دخل الإسلام حتّى غزوة بدر . . بدليل أن أسيد بن إياس بن زنيم
وهو ابن أخى سارية رثى قتلى بدر . . وهجا الرسول ، فأهدر الرسول دمه . .
ولكن سارية بعد أن أسلم وحسن إسلامه ذهب إلى ابن أخيه فى الطائف
وطلب إليه أن يذهب للرسول ويعتذر إليه . . وسوف يصفح عنه . . وفعلا
ذهب أسيد للرسول وأنشد بين يديه قصيدة قال فيها :

فما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمـــد

وما كان يفرغ من إنشاد قصيدته حتّى عفا عنه الرسول . . وأسلم أسيد
ابن إياس ، وانضم إلى قافلة المجاهدين . .

أما سارية فلم تظهر كفاءته القتالية إلا فى حرب الفرس . . فقد أبلى
فيها بلاء حسناً ، مما جعل عمر بن الخطاب يؤمره على جيش بعث به لفتح
فسا ودارا بجرد . . وهى إحدى المناطق التى كانت لا تزال تحت سيطرة
وإدارة الفرس . . بعد أن انهزم كسرى شر هزيمة ، واستعان بملك الصين
فأبى أن يعينه ، وقال لمبعوث كسرى : إن الوصف الذى وصفت به
المسلمين يجعلنى أعتقد أن هؤلاء القوم لو حاولوا هد الجبال لهدوها .
فسالمهم ، وارض منهم بالمسالمة . .

زحف سارية بجيشه حتّى شارف معسكر العدو ، فوجد الفرس والأكراد
قد تجمعوا وتأهبوا لخوض معركة ضارية ضد المسلمين . . ولم يكن ثمة مفر
من القتال ، ولكن المسلمين كانوا يتوجسون من عاقبة هذه المعركة ،
وبخاصة أنهم رأوا بأعينهم أمارات الغضب تغطى وجوه الأعداء . . وكأنهم

يريدون أن يثأروا من سارية وجيشه ، ليردوا اعتبار مملكتهم التى سقط معظمها فى يد المسلمين . . وأصبحت تتناقص أطرافها يوماً بعد يوم . كما أصبح من المؤكد أنها مؤذنة بزوال ، وأن المسلمين سيسيطرون على كل شبر فيها . .

قرر الفرس والأكراد أن يقاتلوا ببسالة واستماتة، وأن يطوقوا المسلمين من مختلف الجهات حتى لا يدعوا لهم فرصة للهرب والنجاة . . وإذا كان هذا تفكير الفرس والأكراد ، فقد كان تفكير المسلمين هو التصميم على القتال حتى آخر رجل ، وآخر قطرة دم ، وآخر ومضة روح ..

فى تلك الليلة التى بيت فيها كل من الجيشين إشعال نار الحرب فى الصباح ، رأى عمر بن الخطاب فيما يرى النائم أن جيش الأعداء سيحاصر سارية وجيشه ، وأنه لا مفر للمسلمين من اللجوء إلى الجبل ، حتى يحموا ظهورهم ، ويستطيعوا مواجهة أعدائهم ، وهم آمنون من الخلف . . فصحا من النوم وصورة المعسكرين المتأهبين للقتال ماثلة فى مخيلته لا تبرحها . . وكانت الرؤيا التى رآها صادقة تماماً . . حتى إنه كان يعلم عدد قوات العدو . . ونوع أسلحتها . . وخطتها المبيتة للهجوم . .

فقد كشف الله عن بصيرة عمر ، فانطوت له المسافات ، ورأى ما تعجز عن رؤيته أحدث المناظير العلمية الآن . ولذلك فإنه ذهب إلى المسجد ونادى : الصلاة جامعة . . فهرع الناس إلى المسجد ، وهم لا يعلمون ماذا يريد أمير المؤمنين . . ولكنهم توقعوا أن ثمة حدثاً جللا . . إلا أنهم فوجئوا بالفاروق يخطب خطبته المعتادة . . وفى وسط الخطبة صاح بأعلى صوته : ياسارية بن زنيم : الجبل . . الجبل . . من استرعى الذئب ندم . .

تلفت الناس بعضهم إلى بعض . . وتهامسوا : ماذا قال أمير المؤمنين . فقال على بن أبى طالب لمن حوله : سوف تعلمون ماذا يريد . . وبينما كان عمر ينادى : ياسارية الجبل . . كان صوته يجلجل فى سماء المعركة . . حتى سمعه سارية وجميع المسلمين ، فانحازوا إلى الجبل ، وكان الفرس

والأكراد يحاولون أن يقوموا بعملية تطويق للمسلمين . . إلا أنهم فوجئوا بأن المسلمين غيروا خطتهم وفوتوا عليهم فرصة طعنهم من الخلف . .

أحدث نداء عمر تعديلا شاملا فى سير المعركة . . فبدلا من أن يصبح المسلمون فى الموقف الأضعف ، أصبحوا وهم الأعلون هجوماً واقتحاماً . . حتى إنهم هزموا الفرس والأكراد ، وجعلوهم فاولا هاربة فى الصحراء ، وغنموا منهم غنائم كثيرة . ومن بينها سفط من الجوهر . .

ويمر شهر على هذه الموقعة ، ويصل إلى المدينة رسول من قبل سارية يحمل كتاب الفتح إلى أمير المؤمنين .. فوجد عمر قائماً فى يده عصاً يطعم الناس . . فلما رآه عمر قال له : اجلس . . ولم يكن يعرفه . . فجلس الرجل وتناول الطعام مع الناس.. ولما فرغوا انطلق عمر إلى بيته والرجل يتبعه . . ثم استأذن فى الدخول فأذن له . . فجىء لعمر بغدائه وكان مكوناً من الخبز والزيت والملح . . فقال للرجل : ادن فكل . فجلس الرجل ، ونادى عمر امرأته أن تخرج لتتناول معهما الطعام فرفضت . وقالت : لو أردت أن أبرز للرجال لاشتريت لى غير هذه الكسوة . . فقال لها عمر ، أو ماترضين بأن يقال : أم كلثوم بنت على وامرأة عمر ؟ قالت: ما أقل غناء ذلك عنى .

ثم أكل عمر والرجل . . ولما فرغا من تناول الطعام . . قال الرجل : أنا رسول سارية بن زنيم يا أمير المؤمنين . . فقال عمر : مرحبا وأهلا . . ثم ثم أدناه حتى لمست ركبته ركبة عمر . . وأخذ يسأله عن سارية وعن المسلمين فحكى له الرجل خبر الفتح . . ثم قدم إليه السفط فرفض عمر أن يأخذ وأمر برده إلى الجند . . ولما علم أهل المدينة بأن هذا الرجل رسول سارية راحوا يسألونه: هل سمعوا صوتاً يوم الواقعة . فقال : نعم سمعنا صوتاً يقول : ياسارية الجبل.. وقد كدنا نهلك ، فأسندنا ظهورنا للجبل،ففتح الله علينا وهزمنا العدو بعد ساعة من هذا النداء . .

حدثت هذه الواقعة فى السنة الثالثة والعشرين من الهجرة . . السنة التى مات فيها عمر بن الخطاب ، وكانت جيوش الفتح منتظرة فى كل مكان . . وكان المسلمون سادة الدنيا ، وقادة العالم . .

محتويات الكتاب


Bibliotheca Alexandrina
0123444